المعجزة

إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم

الجزء الثاني
لغة الإعجاز في الفاتحة وقصار السور

أحمد بسام ساعي



المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المعــجــزة

إعادة قراءة الإعجاز اللغويّ في القرآن الكريم

المعجزة

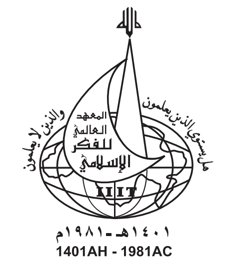
إعادة قراءة الإعجاز اللغويّ في القرآن الكريم

الجزء الثاني

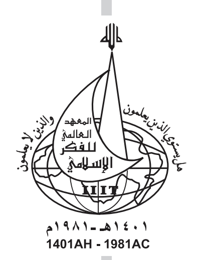
اللغة الإعجازيّة الجديدة في قِصار السُّوَر

(الفاتحة والسور العشرون الأخيرة مع تمهيد تطبيقي على سورة فاطر)

أحمد بسام ساعي



المعهد العالمي للفكر الإسلامي



الطبعة الأولى 1436هـ / 2015م

المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم الجزء الثاني

المؤلف: أحمد بسام ساعي

موضوع الكتاب: ١- الإعجاز اللغوي في القرآن ٢- التجديد اللغوي
٣- البلاغة القرآنية ٤- لغة القرآن الكريم
٥- دراسة قرآنية ٦- الإعجاز القرآني

ردمك **(ISBN): 978-1-56564-620-9**

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2015/8/3825)

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
The International Institute of Islamic Thought
P.O.Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA
Tel: (1-703) 471 1133, Fax: (1-703) 471 3922
www.iiit.org / iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمان
ص.ب 9489 الرمز البريدي 11191
هاتف: 4611421 6 962+ فاكس: 4611420 6 962+
www.iiitjordan.org

مكتب التوزيع في العالم العربي
مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث والنشر والتوزيع
عمان - الأردن
هاتف: 907000797 962+ - فاكس: 4639007 6 962+
Email: majed_fawzi@hotmail.com



المحتويات

مدخل إلى الجزء الثاني

درسنا في الجزء الأول من هذا البحث، وبشيءٍ من الإسهاب، عدداً من الظواهر القرآنيّة اللغويّة والبلاغيّة والفكريّة التي فاجأ القرآن بها العرب، متجاوزاً بخطابه الجديد أبعاد اللغة والفكر والخيال التي عرفوها من قبل، ووقفنا مليّاً عند كلّ ظاهرةٍ منها، محلّلين لطبيعتها، ومستكشفين لدقائقها وحقائق جِدّتها، مع محاولة استقصاء أهمّ شواهدها حيثما وردت في سور القرآن الكريم.

ونخصّص هذا الجزء الثاني، كما وعدنا، لدراسة تلك الظواهر مجتمعةً في كلّ سورة، بدءاً بفاتحة الكتاب، ثم السوَر العشرين الأخيرة من القرآن، بادئين بسورة (الناس) وعائدين بالدراسة، حسب الترتيب العكسيّ للسوَر، حتّى نختم بسورة (التين).

ومن المفيد، للدخول إلى هذا القسم التحليليّ المفصّل، أن نذكّر بأطراف تلك الظواهر المدروسة في القسم الأوّل، فنتوقّف وقفةً سريعةً خاطفةً عند أهمّها، لتكون مدخلاً تمهيديّاً لنا إلى دراسة تلك السوَر.

ولأنّ الشواهد على معظم هذه الظواهر أكثر من أن تحصَى، فضلاً عن أن تستوعبها إلمامةٌ سريعةٌ كهذه، وحتّى نُبعد بحثنا عن منزلق الانتقائيّة الذي يتعرّض له كثيرٌ من البحوث، ولأنّ دراستنا التطبيقيّة هذه ستقتصر على قصار السوَر، وقد يكون لهذه السوَر من المواصفات غير ما يكون للسور الطويلة، ولأنّ دراستنا لأيٍّ من السوَر الطويلة، أو حتّى المتوسّطة، يمكن أن تستغرق منّا، مهما اختصرنا، مجلّداتٍ عدّةً كهذا المجلّد، آثرنا أن نأخذ شريحةً قرآنيّةً متوسّطة الحجم، لنستند إليها في هذا المدخل التمهيديّ ونستمدّ منها شواهدنا، وذلك سيمنح القارئ فكرةً

عن مدى بروز هذه الظواهر في القرآن بشكلٍ عامّ، ودرجة كثافتها في كلّ سورة، مدنيّةً كانت أو مكّية، قصيرةً أو طويلة.

وقد اخترنا لهذه الغاية، وبشكلٍ محضٍ عشوائيّ، سورةً مكّيةً معتدلة الحجم من أواسط سوَر القرآن الكريم، وهي سورة (فاطر).

وسنرى أنّ معظم الظواهر المدروسة، أو أهمّها، متوافرةٌ في هذه السورة بوضوح، رغم أن استخراجنا لشواهدنا منها لن يكون استقصائيّاً، كما سنفعل فيما بعد مع السور القصيرة المدروسة، ولن نقف عند جميع الشواهد بالتوضيح والتفصيل، كما سنفعل مع تلك السوَر أيضاً، وإلاّ لاحتاج الأمر منّا إلى مجلّدٍ آخر خاصٍّ بهذه السورة كما قدّمنا.

ولا بدّ من التذكير بأنّ الإعجاز التجديديّ الذي نحاول اكتشافه في لغة القرآن الكريم يقتضي منّا ملاحقة "اللُّحمة والسَّدى" في هذه اللغة بكل تفاصيلها، من السبيكة، إلى الجملة، إلى العبارة، إلى اللفظة، إلى علاقة كلٍّ من هذه الجزئيّات بما قبلها، ثمّ بما بعدها. وقد يكون، بل غالباً ما يكون، في العبارة أو اللفظة أكثر من جانبٍ تجديديٍّ واحد، فلا يعجب القارئ إذا توقّفت معه، في دراسة (الفاتحة) مثلاً، عند آية ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾، ثم عدت به إليها من جديدٍ لأدرس فيها جانباً تجديديّاً آخر، ثمّ انتقلت به إلى ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ثمّ إلى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ وحدها، ثمّ إلى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ مرَّة أخرى، ثمّ إلى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾، ثمّ إلى ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وهكذا.. وبقدر ما تزداد هذه الملاحقات والتكرار، أو شبه التكرار، للشاهد الواحد؛ يمكن أن نتبيّن مقدار تزاحم الجوانب التجديديّة وتداخلها وشمولها وتغطيتها لأدقّ تفاصيل لغة القرآن الكريم.

وأخيراً، من المهمّ جدّاً لأيّ قارئ لهذا الجزء أن يعود أوّلاً إلى المقدّمة الطويلة التي قدّمنا بها للجزء الأوّل، فهي المفتاح الحقيقيّ للدخول إلى عالم الإعجاز التجديديّ في لغة القرآن الكريم، والذي فقَدْنا، بل فقد معظم من فاتته معايشة تلك الحقبة الفريدة لتنزّل الوحي، القدرة على تمييزه واكتشافه، وكان ذلك

بسبب أُلفتنا الطويلة له، وولادتنا على تلاوته، ومعايشتنا اليوميّة لكلماته وآياته، فلم نعد نميّز فيه، شأننا مع كلّ معجزات الطبيعة الهائلة والمستمرّة والمتكرّرة من حولنا، تلك الومضة الخاطفة الأولى التي سحرت ألباب من سمعوه لأوّل مرّة.

ولا يعدو عملنا في هذا البحث أن يكون إماطةً لحاجز الأُلفة عن عيوننا وذواكرنا، ومحاولةً للعودة بقوّةِ التصوّر الذهنيّ إلى الحقبة النبويّة الأولى، والقبض على تلك اللحظة الاستثنائيّة البكر، لنكتشف من خلالها تلك الهزّة التي أحسّها العربيّ الأوّل وهو يعايش يوماً بيوم، وعلى مدى ثلاثٍ وعشرين سنة، التجربة الفريدة التي لم ولن تتكرّر بعد ذلك، مستمعاً إلى وحي السماء يُلقى عليه بكرةً وعشيّا، فيتلمّس فيه، بأذنيه ووعيه وحسّه، تلك الأبعاد اللغويّة والبيانيّة والفكريّة الجديدة التي جاءت تخالف كلّ ما عرفه منها حتّى تلك اللحظة، والتي تكفّلت الألفة والتكرار والمعايشة اليوميّة والزمن أن تقتل في نفوسنا الإحساس بها، واستحضار الهزّة الأولى التي ابتعثتها في نفوس أوائل من سمعها من المسلمين في عصر النبوّة.

أحمد بسام ساعي

أوكسفورد في ٠٦/ ٠٤/ ٢٠١٣م

نموذجٌ تطبيقيّ

سورة فاطر

سنتوقّف في هذه السورة عند الظواهر التي تتضمّنها كلٌّ من الأبعاد الأساسيّة الثلاثة التي يتحرّك خلالها هذا البحث: اللغويّ والبلاغيّ والفكريّ. وستكون هذه الإلمامة السريعة بالسورة بمثابة نموذج بين يدي كلّ من يريد أن يطبّق مثل هذا النوع من الدراسة تطبيقاً أوّليّاً موجزاً وغير متعمّقٍ، ولكنّه مفيدٌ وكافٍ إلى حدٍّ كبير، على أيٍّ من السوَر القرآنيّة.

أمّا من أراد النموذج المتعمّق لهذه الدراسة فأمامه، بعد هذه السورة، سورةُ (الفاتحة) والسوَر العشرون التي خُصّص لها في الأصل هذا الجزء من البحث.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ

يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ
شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ
أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ
عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ
فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ
حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ
١٢ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ
كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ
مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ
سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ
١٤ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأۡ
يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ١٧ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ
أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ
ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ
وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ
٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ٢١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ
وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا
وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ
ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ
سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى
ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ
ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ
لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ
شَكُورٞ ٣٠ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ

إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ
فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ
هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن
ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ
إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا
نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ
فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ
يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم
مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ
﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾
هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ
عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ
ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ
ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا
﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ
أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ
لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ
ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ
ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾
وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ
وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ
بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾

أولاً: البعد اللغويّ الجديد في سورة (فاطر)

١- الألفاظ والأدوات والمصطلحات:

أهمّ الظواهر التي تأتي تحت مظلّة هذا البعد هي ظاهرة الألفاظ الجديدة التي أدخلها القرآن إلى قاموسنا اللغويّ، سواءٌ تلك التي صيغت صياغةً جديدةً من جذرٍ سبق أن عرفت العربيّة منه صيغاً أخرى مختلفة، أو تلك التي أوجدها القرآن من جذرٍ جديدٍ لأوّل مرّة.

وهناك نوعٌ آخر من الألفاظ القرآنيّة الجديدة هو تلك المادّة اللفظيّة القديمة التي منحها القرآن، من خلال سياقاتها الجديدة واستعمالاتها المتنوّعة داخل الآيات، معنىً، وربّما معاني جديدةً عدّة.

ولكنّ النوع الأهمّ والأكثر من الألفاظ التي أدخلها القرآن في قاموسنا اللغويّ هو تلك المجموعة الهائلة من الكلمات التي انتقلت من معناها الأصليّ الذي تعارف عليه العرب قبل الإسلام إلى معناها القرآنيّ الاصطلاحيّ الجديد. ونجد هذا النوع من الألفاظ مبثوثاً في كلّ مكان، إذ لم يبق محصوراً بين دفّتي القرآن الكريم، كما هو واقع كثيرٍ من الظواهر اللغويّة القرآنيّة الأخرى، بل تسرّب إلى الحديث الشريف، ثمّ امتدّ إلى لغتنا الأدبيّة والعلميّة، بل إلى لغتنا اليوميّة المحكيّة أيضاً.

ونستطيع أن نجد في سورة (فاطر) ما لا يقلّ عن مائةٍ وستّين من الألفاظ والمصطلحات والأدوات ذات الاستعمالات الجديدة، ولا يدخل في هذا الرقم ما يتكرّر منها في السورة أكثر من مرّة.

فإذا تذكّرنا هنا ما أسلفناه في الجزء الأوّل من البحث عن الهزّة التي أحدثتها في نفوسنا عبارةٌ مبتكَرةٌ واحدةٌ افتتح بها الرافعيّ إحدى رسائله الورديّة في كتاب (أوراق الورد) فبدأ الرسالة بقوله (أمّا قبل)، وإذا تذكّرنا ما أوردناه في مقدّمة ذلك الجزء من أنّ عدداً من الشعراء العرب اكتسبوا أسماءهم، أو ألقابهم التي عُرفوا بها

فيما بعد، من لفظٍ واحدٍ جديدٍ انفردوا باستخدامه في شعرهم فنُسِبوا بعد ذلك إلى هذا اللفظ، ومنهم النابغة الذبيانيّ والمتلمِّس والمرقَّش الأكبر والمسيَّب، إذا تذكّرنا كلّ هذا عرفنا قيمة أن يكون هناك مثل هذا العدد الكبير من الألفاظ والمصطلحات الجديدة في سورةٍ من ستّ صفحات –حسب معظم الطبعات المتداولة لكتاب الله تعالى–، وقيمة أن تجتمع هذه الألفاظ، ضمن السورة، مع مئاتٍ جديدةٍ أخرى من التراكيب والتعبيرات والسبائك والصور والفنون البلاغية الجديدة، وكذلك عناصر اللغة المنفتحة التي أحدثها القرآن في لغتنا، والجوامع من الكَلِم التي أدخلها في قاموس لغتنا المكتوبة والمحكيّة، وكلّها ممّا لم تعرفه العربيّة أو العرب قبل القرآن الكريم، بل استحال عليهم استخدام كثيرٍ منه بعد نزول القرآن، وإلى هذه الساعة.

أ– الألفاظ الجديدة في السورة:

ونستطيع بسهولةٍ أن نعثر في سورة (فاطر) على عشرات الألفاظ الجديدة كلّياً، وهي التي لم يُسبق القرآن إليها، سواءٌ أكانت مشتقّةً من جذرٍ عرفه العرب قبل ذلك، أم جاءت من جذرٍ جديدٍ غير معروفٍ أوجده القرآن الكريم. ومن أبرز هذه الألفاظ:

الملائكة – معشار – قِطمير – التناوش – النشور – يصطرخون – لُغوب – أُجاج – الفُلْك – مَواخر – الحميد – يُذهبْكم – وازِرة – تَزَكّى – المصير – الظُلُمات (بالجمع) – غرابيب (بالجمع) – العلماء (بالجمع) – يَتْلُون – الشيطان – حِزبَه – عَدْن – أساور – المُقامة – جهنّم – آتيناهم – بيِّنة.

ب– الألفاظ القديمة ذات المعنى الجديد:

ومن السهل أن نجد فيها أيضاً ما لا يقلّ عن عشرين لفظاً سبق للعرب أن عرفوها قبل الإسلام، ولكنّ القرآن الكريم منحها، من خلال السياقات الجديدة التي وردت فيها، معنىً، وربّما أكثر من معنىً جديدٍ خاصٍّ بالقرآن الكريم وحده. ومن هذه الألفاظ القديمة ذات الاستعمالات الجديدة في السورة:

فاطر – مُمسِك – مُرسِلٍ – تُؤفَكون – (وَعْدُ اللهِ) حقٌّ – الغَرور – زُيِّن – تُثير (سَحاباً) – يمكُرون – (كلٌّ) يجري– شِرْك (بمعنى شركة أو شراكة) – مُثقَلَة – تَزُولا – كسبوا– تَزكّى – نَكِير – تَبُور – خَلائف – تُرجَع (الأمور) – يَنظُرون (بمعنى: ينتظرون).

ت– الألفاظ الاصطلاحيّة الجديدة:

وأكثر الألفاظ القرآنيّة الجديدة اتّخذ فيما بعد معنىً اصطلاحيّاً استقرّ عليه، وأصبح جزءاً من القاموس اللغويّ لكلّ ما يتعلّق بالدراسات الشرعيّة أو الفقه الإسلاميّ، فهو يُنبي عن أصله القرآنيّ حال سماعه، حتّى إن استُخدم في ثنايا أدبيّاتنا الأخرى.

ويشكّل هذا النوع من المصطلحات الخزّان الأكبر بين الجديد من الألفاظ القرآنيّة. وفي سورة (فاطر) أكثر من مائةٍ من هذه المصطلحات هذا بعضها:

الخَلق – قدير – رحمة – العزيز – الحكيم – نِعمة – يرزُق – رُسُل – وَعْدُ (الله) – السعير – كفروا – آمنوا – الصالحات – أجْر – يُضِلّ – يَهدي – عليم – يَرفعُه – السيّئات – عذاب – يَبور – البحران – فضْله – تشكرون – سَخّر – المُلك – تَدعون – يَكفُرون – خَبير – الفقراء (إلى الله) – تُنذِر – الغَيب – أقاموا (الصلاة) – النور – نذير – (أرسلْناك) بالحقّ – بشيراً – نذيراً – يكذّبوك – كَذَّب – رُسُلُهم – البيّنات – الزُبُر – الكتاب – أخَذْتُ – ثَمَرات – عزيز – غَفور – شَكور – أنفقوا – رزقناهم – يَرْجُون – تجارة – يُوَفّيهم – أجورهم – أوحينا – مُصَدِّقاً – بصير – أورَثْنا – اصطفينا – عبادنا – مُقتصِد – الخيْرات – الفَضل – الحَزَن – يَمَسُّنا – يُقْضَى – نَجزي – كَفور – أَخْرِجْنا – صالحاً – يتذكّر – النذير – ذوقوا – كَفَر – كُفْرٌ – خَساراً – أرأيتُم – شُرَكاء – غُروراً – تَزولا – زالَتا – استكباراً – يَحيق – سُنّة – عاقبة – دابّة – أَجَل..

ث– الأدوات التي تحمل معاني جديدة:

عرفنا في الجزء الأوّل من البحث أن القرآن كثيراً ما يمنح الأدوات، بمختلف أبوابها النحويّة، معاني جديدةً اختلفت عن كلّ ما عرفه العرب لها من استعمالات أو معانٍ قبل ذلك، وربّما بعد ذلك أيضاً، وعن استعمالات الحديث الشريف أيضاً.

وسبق أن درسنا من هذه الأدوات ذات الاستعمال الجديد في القرآن الكريم عشرات الأدوات كان أهمّها:

- الأداة (كان) التي انفرد القرآن حتى يومنا هذا باستخدامها بمعنى (إنّ)، شأنه مع كثيرٍ من استعمالاته الجديدة للأدوات الأخرى:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]

- الأداة (ما زال) التي تأتي في القرآن مختصّةً بالزمن الماضي، فتبدأ وتنتهي فيه، خلافاً لاستخداماتنا التقليديّة التي تبدأ من الماضي وتستمرّ إلى الحاضر (كقولنا: ما زال المطر ينهمر):

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٥]

- الأداة (لا يزال) التي تستغرق في لغتنا الزمن الماضي والحاضر ثمّ تتوقّف عند الحاضر فلا تتجاوزه، ولكنّها تستغرق في القرآن الكريم الزمن الماضي والحاضر والمستقبل معاً:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]

- الأداة (لمّا) التي تأتي في القرآن بمعنى (ثمّ) حيناً، فتتخلّى عن جوابها أو ما تتعلّق به:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ [يوسف: ٦٨]

وبمعنى (إلاّ) حيناً آخر:

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس: ٣٢]

- الأداة (قد) التقديريّة التي تسبق المضارع عادةً، وقد استخدمها القرآن بمعنى أختها التحقيقيّة التي تسبق الماضي:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٨]

– أداة الاستفهام (هل) التي كثيراً ما يتحوّل معناها في القرآن إلى (قد):

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان:١]

– الأداة (لو) الشرطيّة، وقد جاءت في القرآن بمعنى أختها التي للتمنّي فلم تحصل على جواب للشرط، رغم ورودها في سياق الشرط:

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١]

– أداة النفي (لا) التي كثيراً ما تأتي بمعنى الإثبات (نعم) أو بمعنى (حقّاً):

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٥]

– الأداة (إمّا) التي قد تأتي بمعنى (إنْ):

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزُّخرُف: ٤١]

– الأداة المركّبة (كما) التي يتحوّل معناها أحياناً إلى (لقد):

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [البقرة: ١٥١]

– أداة العطف (ثمّ) تتحوّل عن معانيها الأساسيّة، على اختلافها، لتفيد التأكيد:

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الانفطار: ١٧–١٨]

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [التكاثر: ٣–٤]

– (حاشا) الاستثنائيّة –بالألف– تصبح في القرآن (حاشَ) التنزيهيّة –ومن غير ألِف– مع إسنادها للفظ الجلالة:

﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ [يوسف: ٣١]

– ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ [يوسف: ٥١]

- الأداة المركّبة (لِّئَلَّا) تنقلب في القرآن لتصبح بمعنى (لكي):

﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ [الحديد: ٢٩]

- (إذَنْ) -أو (إذاً)- الناصبة للمضارع تتوقّف في القرآن عن النصب حيثما وردت:

﴿ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٦]

﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٦]

- همزة الاستفهام (أ) تقترن في القرآن بـ(إذا) الشرطيّة، ليتكوّن منهما معاً أداةٌ جديدةٌ للإنكار، ولإنكار البعث دون غيره:

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٩]

- الأداة (إلاّ) تتحوّل عن استثنائيّتها، لتصبح اسماً بمعنى (سوى) أو (غير) فتُعرب صفةً مع عدم إعمالها فيما بعدها:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]

- (لا) النافية تكتسب قوّة (لا) الناهية فتَدخل نون التوكيد على المضارع المنفيّ بها، ومن شأن هذه ألاّ تدخل عادةً إلاّ على المضارع المنهيّ عنه:

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]

- (حتّى) تتخلّى عن عطفيّتها فلا يقع بعدها إلاّ فعلٌ أو ظرفٌ أو اسمٌ للزمان:

﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ [يونس: ٩٣]

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ [الكهف: ٧١]

- الأفعال الناقصة (ما برِح) و (ما فَتِئ) و (صار) و (أمسى) و (بات) لا تقع في القرآن إلاّ تامّة:

﴿ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾ [الكهف: ٦٠]

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٨٥]

﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٣]

﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ ﴾ [الروم: ١٧]

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤ ﴾ [الفرقان: ٦٤]

- الأداة (إنْ) تتخلّى عن شرطيّتها، لتصبح حرفاً زائداً للتوكيد:

﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ ﴾ [الأحقاف: ٢٦]

- الأداة المشبّهة بالفعل (إنّ) تتجاوز حرفيّتها، وتفقد خبرها، لتصبح بمعنى الفعل (أَنذِر) أو (سأعاقب):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ ﴾ [فُصِّلَت: ٤١]

جـ- الاستعمالات الجديدة للأدوات في سورة فاطر:

وفي هذه السورة من الاستعمالات القرآنيّة الجديدة للأدوات ما لا يقلّ عن أربع عشرة حالةً تأتي تحت أربع أدوات:

- استخدام (اللام) ٤ مرّات بمعنىً لا تعرفه لغتنا البشريّة وهو قريبٌ من (جزاء) أو (عقاب):

﴿ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ ﴾ (أي جزاؤهم أو ينالهم) [٧ + ١٠]

﴿ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾ **(أي جزاؤهم)** [٧]

﴿ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ (أي عقابهم) [٣٦]

- زيادة أداة النفي (لا) ٣ مرّات بين المتعاطفين، رغم وجود فعل الاستواء قبلهما ممّا يستدعي حذفها تبعاً لأعرافنا اللغويّة:

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [١٩ - ٢٢]

- استخدام (إنْ) بمعنى (ما) النافية، وقد أثبتنا في تحليلنا لسورة (المدّثّر)، في الجزء الأوّل من البحث، أنّ هذا الاستعمال اقتصر على القرآن الكريم دون الشعر العربيّ، ودون الحديث الشريف أيضاً. ويتكرّر هذا الاستخدام في السورة أربع مرّات:

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [٢٣]

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [٢٤]

﴿ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [٤٠]

﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ [٤١]

- استغراق (كان) للزمن الماضي والحاضر والمستقبل بدلاً من انحصارها في الزمن الماضي. ويتكرّر هذا الاستعمال الجديد والخاصّ بالقرآن وحده ثلاث مرّاتٍ في السورة:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ ﴾ [٤٤]

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [٤٤]

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [٤٥]

٢- التراكيب والتعبيرات:

عرفنا أن لغة القرآن الكريم مشحونةٌ بما لم يعرفه العرب قبل الإسلام من تراكيب لغويّةٍ جديدةٍ (ونقصد بها تلك الصيغ اللغويّة القصيرة التي يقوم بناؤها بشكلٍ أساسيّ على الأدوات أكثر منه على الأسماء أو الأفعال). وهي مشحونةٌ كذلك بالتعبيرات الجديدة (ونقصد بها الصيغ القصيرة التي تقوم على الأسماء أو الأفعال خاصّةً، وربّما اكتمل تركيبها فشكّلت جملةً كاملة).

ويصعب إحصاء العدد الهائل من التركيبات والتعبيرات الجديدة التي يحفل بها القرآن الكريم.

أ- التراكيب الجديدة:

وهذه بعض التراكيب الجديدة في سورة (فاطر) والتي لم يعرفها العرب قبل القرآن الكريم، وعجزوا عن استخدام معظمها بعد القرآن:

فلا مُمسِكَ لها - فلا مُرسِلَ له - مِن بَعدِه - إلاّ بعِلمِه - إلاّ في كتاب - له المُلْك - مِن دونِه - وما ذلك على الله - إنّما تُنذرُ - إنْ أنتَ إلاّ - وإنْ مِن أمّةٍ إلاّ - فكيف كان (نكير) - ألَمْ تَرَ أنّ - لِما بينَ يديه - يُحَلَّونَ فيها مِن (أساور) - كذلكَ نَجزي - بل إنْ يَعِدُ (الظالمون) - فهل يَنظُرون إلاّ - أوَلم يسيروا - وما كان اللهُ لِيُعجِزَه.

ب- التعبيرات الجديدة:

ومن التعبيرات الجديدة في السورة، والتي ظلّ استعمال معظمها مقتصراً على القرآن الكريم حتّى الآن:

مَثْنى وثُلاثَ ورُباعَ - هل مِن خالقٍ غيرُ (الله) - فأنّى تُؤفَكون - أصحاب السعير - عملوا الصالحات - بلدٍ ميّتٍ - فللهِ العزّةُ جميعاً - الكَلِمُ الطيّب -

يَمكُرون السيِّئاتِ – عذبٌ فُراتٌ – مِلْحٌ أُجاج – لأجَلٍ مسمّىً – ذلكُمُ اللهُ ربُّكم – غرابيبُ سودٌ – سرّاً وعلانيةً – سابقٌ بالخيرات – جنّاتُ عَدْنٍ – دار المُقامة – السموات والأرض – ذات الصدور – خَلائفَ في الأرض – جَهْدَ أَيمانِهم – استكباراً في الأرض – مَكْرَ السَيِّءِ – سُنَّة الأوّلين – جاء أجَلُهم.

٣– العلاقات اللغوية الجديدة:

تُحقّق الألفاظ والعبارات والجمل القرآنيّة في تجاورها بعضها مع بعضٍ علاقاتٍ جديدةً متميّزةً تختلف في كثيرٍ منها عن العلاقات اللغويّة التقليديّة التي عرفها العرب قبل ذلك، بل يختلف كثيرٌ منها عن العلاقات التي يعرفها قاموسنا التعبيريّ نحن العرب المتأخّرين، وقد عبرنا لتوّنا حدود القرن الحادي والعشرين.

أ– بين الألفاظ:

فقد تتجاور في القرآن ألفاظٌ لم نعتد تجاوُرها، فتحرّك في نفوسنا بهذا التجاور أبعاداً خياليّةً وفكريّةً جديدة، وتصل إلى زوايا عميقةٍ لا تحرّكها أو تصل إليها العلاقات التقليديّة المستهلَكة في تراثنا اللغويّ.

وبإمكانكم أن تتوقّفوا عند كلّ متجاورين، أو أكثر، من الألفاظ التالية، وتتمعّنوا في العلاقة التي تربط اللفظ في هذه الأزواج بما قبله أو بما بعده، وتقارنوها بالعلاقات التي اعتدتموها بين الألفاظ في لغتنا العاديّة، لتتبيّنوا طبيعة هذه "العلاقات الجديدة" التي نتحدّث عنها والتي أحدثت في نفس العربيّ الأوّل تلك "الصدمة اللغويّة" الفائقة.

ليحاولْ أحدنا أوّلاً أن يقف بين اللفظة وتاليتها في كلٍّ من الأزواج التعبيريّة البشريّة التالية، ثمّ ليسألْ نفسه: لو حدث أنّني عشت في العصر الجاهليّ فهل كنت سأجد توالي مثل هاتين الكلمتين أمراً عاديّاً حقّاً؟ لنقرأ:

– صانعُ السماء (أو السموات) – تصميم (أشكال) الملائكة
– فتحُ الرحمة – رزقُ السيّد

- إعادة الأحكام
- الحياة فوق/ تحت
- إذهابُ النفس
- بناء الغيوم
- تَعادلُ البحرين
- انزلاق الليل/ النهار
- ترويض الشمس
- الإنكار للشركة/ الشراكة
- إذهاب الناس
- يُثقَل ثاقلٌ
- المبشّر المنذر (معاً)
- أخْذُ البَشَر
- شديدُ السوادِ أسودُ
- يغفر ويشكر (معاً)
- توريث عهدٍ
- مخبوءات السماء/ الأرض
- صاحبة العقول
- شرِكةٌ سماويّة
- حَمْلُ السماء/ حَمْلُ الأرض
- خديعة السيّئة..

إنّنا، في هذه الأمثلة، لم نتجاوز أن وضعنا عدداً من العبارات القرآنيّة في سورة (فاطر)، ومن غير أن نغيّر طبيعة العلاقات بين ألفاظها، في صورةٍ لفظيّةٍ بشريّةٍ شارحةٍ تجعلها أقرب إلى أفهامنا، وتساعدنا على فهم طبيعة تلك العلاقات الجديدة التي نجدها بين ألفاظ السورة. وهذه هي أصول العبارات القرآنيّة الأربع والعشرين:

- فاطرِ السموات
- جاعِلِ الملائكةِ
- ما يَفتحِ اللهُ (للناسِ) مِن رحمةٍ
- نعمةَ الله
- تُرجَعُ الأمور
- الحياةُ الدنيا
- فلا تَذهَبْ نفْسُكَ
- فتُثيرُ سَحاباً
- وما يستوي البحران
- يولِجُ الليلَ/ النهارَ في
- سَخَّر الشمسَ
- يَكفُرون بشِركِكم

- يُذهبْكم
- تَزِرُ وازرةٌ
- بشيراً ونذيراً
- أخذتُ الذين كفروا
- غرابيبُ سُود (والغربيب: شديد السواد)
- غَفورٌ شَكورٌ
- أَورَثْنا الكتابَ
- غيبِ السمواتِ والأرضِ
- ذاتِ الصدور
- شِرْكٌ في السموات
- يُمسِكُ السمواتِ والأرضَ
- مَكْرَ السيِّء

ب- بين الجمل:

ولم تقتصر جدّة العلاقات اللغويّة على الألفاظ وحدها، بل تجاوزتها إلى العلاقات بين الجمل أيضاً، كما عرفنا؛ إذ حلّت الآية محلّ الجملة، لتصبح هي الوحدة اللغوية الخاصّة بالقرآن:

- فالآية الواحدة قد تستغرق عدّة جملٍ منفصلة، وقد لا يكون بين بعض هذه الجمل أيّ رابطٍ نحويٍّ أو معنويٍّ ظاهرٍ من روابطنا التقليديّة المعروفة. إنّ الجمل الكاملة الأربع التالية، التي قد تتضمّن في داخلها أيضاً جُملاً فرعيّةً أخرى أصغر منها، تكوّن جميعاً آيةً واحدة:

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [٨]

- وعلى العكس، قد تستغرق الجملة الواحدة عدّة آياتٍ منفصلة، فليست الآيات المتوالية الثلاث التالية إلاّ جملةً واحدةً مؤلّفةً من فعلٍ وفاعل، ومن خمسة أسماءٍ معطوفةٍ على هذا الفاعل:

﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾ [١٩ – ٢١].

– وإمعاناً في الخروج عن الوحدة اللغويّة التقليديّة؛ كثيراً ما تختفي الروابطُ المعتادة بين الجمل (كالواو والفاء) فلا نجدها في مواضعها المعهودة ضمن الآية الواحدة، كما حدث في الآية التالية التي تألّفت من أربع وربّما خمس جملٍ كاملة، ولكن لم يربط بين الثلاث أو الأربع الأُوَل منها فاءٌ أو واوٌ ولا غيرهما:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [٣].

٤- الخروج عن الأعراف النحويّة واللغويّة:

لا بدّ أن نؤكّد دائماً أنّ هناك فرقاً بين الخروج عن القواعد والخروج عن الأعراف.

فالقرآن الكريم أسّس للقواعد اللغويّة والنحويّة وكرّسها، فحوّلها من مجرّد أعرافٍ وتقاليد متداولةٍ بين العرب، وقابلةٍ للتغيّر والتعديل في كثيرٍ منها، إلى قوانين وأحكامٍ ثابتةٍ يُستند إليها في الحكم على سلامة أيّ نصٍ أدبيّ أتى بعد القرآن، أو قبله، هذا حتّى إن لم يلتزم اللغويّون والنحويّون والبلاغيّون حرفيّاً بعد ذلك، وهم يجدون أنفسهم أمام لغةٍ استحالت على التقليد أو الاختراق، بجميع التقاليد الجديدة التي سنّها القرآن لعلومهم، والتي أصبحت بفضله علوماً حقيقيّةً لأوّل مرّة.

لم يكن هناك إذن قبل الوحي ما يمكن تسميته بقاعدة، فلا علوم لغةٍ أو نحوٍ أو بلاغةٍ كانت قد وُضعت بعد. لقد جاء القرآن ليطوّر اللغة العربيّة ويغْنيها ويفتح أمامها آفاقاً هائلةً للتجدّد والاتّساع، وذلك من خلال الخروج عن أعرافها وتقاليدها بكثافةٍ غير عاديّةٍ وخلال فترةٍ قياسيّة.

وإذا كان النحويّون واللغويّون والبلاغيّون القدماء أبَوا إلاّ أن يُخضعوا لغة القرآن الكريم لقواعدهم الجديدة، رغم أنّ القرآن هو الذي دفعهم، أوّلاً وأخيراً، إلى وضع تلك القواعد، فإنّ عدداً من متنوّريهم، ولا سيّما المحدَثون منهم، قد

اعترفوا بعدم خضوع لغة القرآن الكريم دائماً لقواعدنا البشريّة المحدودة، وهي التي عجز واضعوها عن استيعاب سعة الآفاق اللغويّة القرآنيّة، وعن إخضاعها لمقاييسهم، وحشرها في أنابيب قواعدهم الإنسانيّة الضيّقة. ولنا فيما كتبه مصطفى صادق الرافعيّ، وعبد الخالق عضيمة، وأحمد مكّي الأنصاريّ، وغيرهم من أهل عصرنا، خير شاهدٍ على هذه الحقيقة كما أثبتنا في الجزء الأوّل من هذا البحث.

ومن الواضح أنّ العرب قد عجزوا حتّى اليوم عن الإفادة من معظم الآفاق النحويّة واللغويّة والبلاغيّة القرآنيّة الجديدة، بل، ومن الإنصاف لهم أن نقولها، إنّه قد استحال عليهم ذلك حتّى إن أراده بعضهم أو حاولوه.

وقد سبق أن مثّلنا في الجزء الأول بمائة حالةٍ نحويّةٍ تجاوز بها القرآن الكريم أعراف العرب وتقاليدهم. ونستطيع أن نعثر في سورة (فاطر) على سبع حالاتٍ نحويّةٍ جديدةٍ على الأقلّ ليست كلّها بالضرورة من تلك المائة التي سبق أن استشهدنا بها، وهي:

- الاكتفاء بالمبتدأ دون الخبر، وذلك في غير الحالات التي سمح فيها النحويّون بحذف الخبر:

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ ﴾ [٨].

- الاكتفاء بالفعل والفاعل دون المفعول به، في غير المواضع التقليديّة التي يُحذف فيها المفعول عادةً:

﴿ فَذُوقُواْ [العذاب] فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [٣٧].

- الاكتفاء بالمَقول دون أن يُذكر قبله فعل القول التقليديّ:

﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا [قائلين] رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ ﴾ [٣٧].

- حذف ياء المتكلّم كتابةً ولفظاً، خلافاً للأعراف اللغويّة التي لا تسمح بحذفها، لا لفظاً ولا كتابةً:

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (أي نكيري عليهم) [٢٦].

– الابتداء بالمفعول ورفعه على أنّه مبتدأ أو خبر، رغم وجود المفعول بعد ذلك في شكل ضميرٍ للغائب:

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ [٣٣].

– تعريف المفعول لأجله (أو ما يُعطف عليه)، وذلك بإضافته إلى معرفة، ومن شروطه عند النحويّين أن يكون نكرة:

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾ (أي ومَكراً للسيِّء) [٤٣].

– إعمال الفعل عمل فعلٍ آخر:

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ [أي يرتكبون] ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [١٠].

٥– السبائك القرآنيّة:

لقد عرضنا في الجزء الأوّل من البحث عيّناتٍ عديدةً من القوالب أو "السبائك" اللغويّة التي حكمت الأدب العربيّ، شعره ونثره، فالتزم بها الشعراء والخطباء، وتناقلوها في إبداعاتهم المختلفة. فكم من بيتٍ في تراثنا العربيّ يبدأ بمثل هذه السبائك التي تتكرّر في أشعارنا القديمة، وأحياناً الحديثة، مرّةً إثر مرّة:

ومَن يَكُ ذا..

ألا ليتَ شِعري هل..

ألا انعِم صباحاً أيُّها الربع..

ولا عيبَ فيهم غير..

خليليَّ مُرّا بي..

أمِنْ آلِ أسماءَ الطُلولُ الدوارسُ..

يا صاحبيَّ تَلَوَّما..

ودِّعْ أُمامَةَ..

أَهاجَكَ مِن أسماءَ رَسْمُ المَنازل..

أَمِنْ ذِكْرِ سلمى..

لِمَنْ طَلَلٌ بينَ الجَديّةِ..

ألا أيّهذا اللائمي..

وإذا ورَدَت سبيكةٌ لغويّةٌ عند شاعر جاهليٍّ كالمرقَّش الأكبر (ت ٧٢ ق.هـ) مثل (أم أنتَ غالبُ) هكذا بحرف العطف (أَم) يتلوه الضمير المنفصل (أنت) ثم اسم فاعلٍ على وزن (فاعل) وذلك في قوله:

أَغالِبُكَ القلبُ اللجوجُ صبابةً   وشوقاً إلى أسماءَ، أم أنتَ غالِبُهْ

فسوف تجد السبيكة نفسها تُتناقل بعده من شاعرٍ إلى شاعر، وبشكلٍ حرفيٍّ عجيب، حتّى لَتحافظُ السبيكة على وزن اسم الفاعل كما هو عند المرقَّش فلا يأتي فيها إلاّ على وزن (فاعل)، كقول الشعراء الآخرين بعده، من جاهليّين وإسلاميّين:

أَتُنكِرُ رسْمَ الدارِ أَمْ أنتَ عارِفُ   ألا لا، بلِ العِرفانُ، فالدمعُ ذارِفُ

هُدبة بن الخَشرَم (ت ٥٠ ق.هـ)

أتُبْكِرُ أم أنتَ العشِيَّةَ رائِحُ   وفي الصدرِ مِن إضمارِكَ الحُزنَ قادحُ

ورَقة بن نوفل (ت ١١ ق.هـ)

هَلَ انْتَ مُحَيّي الربعِ أم أنتَ سائلُهْ   بحيثُ أحالَتْ في الرِّكاءِ سوائلُهْ

تميم بن أُبيّ بن مقبل (ت ٣٧هـ)

وجاء القرآن ليقلب كلّ هذه السبائك التقليديّة رأساً على عقب، وليوجِد سبائكه الخاصّة ذات البناء المتميّز الذي أثبتنا أنّه يكاد يشمل كلّ آيةٍ من آيات القرآن الكريم، مع استحالة تقليد سبائكه رغم ذلك.

ومن السهل على كلٍّ منا أن يتأكّد من هذه الاستحالة لو حاول أن يختار آيةً ما، بشكلٍ عشوائيّ، ثمّ حاول استبدال كلماتها بكلماتٍ من عنده، ليكتشف في النهاية أنّه سيحصل عل جملةٍ لا تثير أكثر من السخرية، أو على الأقلّ، يكتشف من يسمعها أنّ قائل هذه الجملة ما فعل أكثر من أن ألبس كلماتِه البشريّةَ سبيكةً قرآنيّةً غير بشريّة، فظهر في جملته التمزّق والتنافر والشذوذ، وهذا يشبه ما يمكن أن يثيره في نفسك منظر قطّةٍ ألبسوها بنطالاً وسترةً ونظّاراتٍ وربطة عنق؟ فلا عيب في القطّة، ولا عيب في الألبسة، وإنّما العيب هنا في اجتماعهما.

ولن نستشهد هنا طبعاً بكلّ السبائك اللغويّة الجديدة في سورة (فاطر) فكلّ سبائكها جديدة، شأن سائر سوَر القرآن الكريم. وحسبنا الاستشهاد بسبائك الآيات الثلاث الأولى منها، وسنجد في هذه الآيات ما لا يقلّ عن ستٍّ من السبائك الجديدة التي لا توازيها أيّةُ سبيكةٍ من سبائك لغتنا، الرسميّة المكتوبة أو اليوميّة المحكيّة، ويعجز أيٌّ منّا اليوم عن صياغة جملةٍ بشريّةٍ توازيها في بنائها اللغويّ والنحويّ من غير أن يثير السخرية، حتّى إن اكتفى باستبدال كلماتها بكلماتٍ جديدةٍ من عنده، من غير أن يمسّ بناءها النحويّ أو تشكيلها اللغويّ.

ولنجرّب مع السبيكة الأولى في هذه الآيات الثلاث:

- ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [1].

هل تتوقع أن تصوغ جملةً توازي هذه الآية الأولى، من غير أن تثير سخرية الناس منك، كأن تقول مثلاً: التعظيمُ للفنّانِ راسمِ الخرائطِ واللوحةِ مانحِ الأشياءِ شخصيّاتٍ أُولي أنواعٍ لونين وثلاثةً وأربعة!

هذا مع اضطرارنا إلى إحلال الألفاظ التقليديّة المعروفة (لونين وثلاثةً وأربعة) محلّ الألفاظ القرآنيّة الجديدة والمتفرّدة ﴿ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ ﴾ التي لم تكن معروفةً لدى الإنسان العربيّ الجاهليّ.

ولكم الآن أن تجرّبوا مهاراتكم البشريّة مع السبائك الخمس التي تليها في الآيات الثلاث، بل مع أيٍّ من السبائك القرآنيّة المتميّزة في هذه السورة، كما في باقي سوَر القرآن الكريم:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [١]
- ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَا ﴾ [٢]
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ [٣]
- ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [٣]
- ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [٣]

وقد تبدو السبيكة الأولى التي تصدّرت هذه السبائك الخمس جملةً عاديّةً لا تختلف عن سبائكنا اللغويّة المتداوَلة، وقد يجرّب أحدكم فيضع من عنده جملةً بشريّةً موازيةً لها فيقول، معارضاً لنا فيما ندّعيه:

إنّ الحكومة على كلّ شيءٍ قديرةٌ

ولكن سيتبيّن له، ولأيّ قارئٍ عاديّ، أنّ جملته ليست من تعبيراتنا البشريّة التي اعتدنا أن نعبّر بها عن مثل هذا المعنى. إنّ من يسمعها لا يشكّ في أنّ القائل قد خرج عن النسق البشريّ لسبائكنا اللغويّة المعروفة، فأتى بكلماتٍ بشريّةٍ معتادة، ولكن في صياغةٍ أو بناءٍ لغويٍّ قرآنيٍّ غير معتاد، وباستخدام لفظٍ غير معتادٍ أيضاً في مثل هذا السياق وهو اللفظ ﴿قَدِيرٞ﴾، وإلاّ كان عليه أن يقول:

إنّ الحكومة قادرةٌ على كلّ شيءٍ

مستخدما اللفظ (قادرةٌ) بدلاً من (قديرة) ومقدِّماً له على شبه الجملة (على كلّ شيء) المتعلّق بهذا اللفظ.

ثانياً: البعد البلاغيّ

١- أبعادٌ جديدةٌ للصورة:

لم يعد التمثيل البيانيّ في القرآن مقيّداً بتلك الصور المحدودة والمتكرّرة عند الشعراء العرب، وقد قدّمنا في الجزء الأوّل نماذج من تلك الصور التي تناقلتها ألسنة الشعراء والأدباء، بحيث قلّ أن خرج عنها أحدٌ بعد ذلك. فنحن لا نكاد نرى عند المتأخّرين إلاّ صياغةً جديدةً لصور المتقدّمين، أو إضفاءَ ألوانٍ مختلفة، أو نسجَ أثوابٍ جديدة، ولكن على صورٍ قديمةٍ استهلكها النسخُ والتقليد.

ويأتي القرآن ليحمل إلى العرب، مرّةً واحدة، خزّاناً كبيراً منوّعاً من الصور التي لم يسمعوا بها أبداً من قبل، ومهملاً في الوقت نفسه كلّ الصور التي عرفوها قبل القرآن.

إنّ في سورة (فاطر) وحدها أكثر من ستّين صورةً جديدةً، كما سوف نرى، والأعجب من ذلك أنّنا، مع هذا الكمّ الكبير من الصورة الأساسيّة الجديدة، فضلاً عن الفرعيّة، التي اجتمعت في سورةٍ من ستّ صفحات، لا نكاد نرى، بل أجرؤ على القول إنّنا لا نرى أبداً، صورةً أساسيّةً قديمةً واحدةً من تلك التي عرفها العرب قبل نزول القرآن الكريم، والتي ازدحمت بها قصائدهم وأعمالهم الأدبيّة المختلفة. وينطبق هذا الحكم على سائر سوَر القرآن الكريم.

وليس هذا فحسب، بل أوجد القرآن الكريم أبعاداً غير مسبوقةٍ بين أطراف الصورة كثيراً ما عجزت أقلام البلاغيّن، وهم ينهدون فيما بعد لوضع قواعد علم البيان، عن الغوص فيها وتحليلها، ثمّ إخضاعها لقواعدهم البيانيّة البشريّة المحدودة.

وسيواجه من درسوا علوم البلاغة العربيّة صعوبةً كبيرة، إذا لم أقل استحالة، في تحليل كثيرٍ من الصور البيانيّة التي وقفنا عليها في سورة (فاطر) إذا اكتفوا بالاعتماد على قواعد تلك العلوم، كما يتّضح من الصور التالية، وسنشير بخطٍّ تحت كلّ صورة، مع ملاحظة اجتماع أكثر من صورةٍ واحدةٍ في العبارة أو الآية أحياناً:

- ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [١]
- ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [٥]
- ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [٦]
- ﴿ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ [٩]
- ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [١٠]
- ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [١٠]
- ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ [١٣]
- ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ [١٨]
- ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ [١٩ – ٢٢]
- ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ ﴾ [٣٦]
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ ﴾ [٤١]

٢- صورٌ جديدة:

أمّا الصور القرآنيّة التي نستطيع دراستها تبعاً لقواعدنا البلاغيّة فإنّنا سنكتشف بهذه الدراسة أنّنا، على أقلّ تقدير، أمام صورٍ جديدةٍ لم يعهدها قاموس البلاغة العربيّة قبل ذلك، ثمّ لن يعرف كثيراً منها بعد ذلك، كما يتبيّن لنا في الصور التالية:

- ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ [٢]

- ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ ﴾ [٢]

- ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ ﴾ [٢]

- ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [٤]

- ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ ﴾ [٥]

- ﴿ زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ [٨]

- ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ [٨]

- ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ ﴾ [٨]

- ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ ﴾ [١٢]

- ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ ﴾ [٨]

- ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [٩]

- ﴿ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [١٠]

- ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ﴾ [١٨]

- ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ ﴾ [١٨]

- ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ ﴾ [١٨]

- ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ ﴾ [١٨]

- ﴿ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ [٢٥]

- ﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [٢٩]

- ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ ﴾ [٣١]

- ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ [٣٥]

- ﴿ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [٣٥]
- ﴿ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ [٣٦]
- ﴿ يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [٣٧]
- ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [٣٨]
- ﴿ جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [٣٩]
- ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ [٣٩]
- ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ [٤٢]
- ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [٤٢]
- ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ ﴾ [٤٣]
- ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ ﴾ [٤٣]
- ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ [٤٥]
- ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [٤٥]

٣- فنّ الالتفات:

عرفنا في الجزء الأوّل من البحث أنّ هذا الفنّ البلاغيّ الجديد فنٌّ محض قرآنيٍّ، وأنّ ما أورده علماء البلاغة في كتاباتهم من نماذج شعريّةٍ عليه لا تمتّ إلى هذا الفنّ بصلة، وإنّما هي نوعٌ من الإسقاط يتحدّث فيه الشاعر عن نفسه، حيناً بصيغة المتكلّم وحيناً بصيغة الغائب، شأن أيٍّ منّا حين يتحدّث إلى نفسه وكأنّه شخصيّتان تحاور إحداهما الأخرى. هذا ما كان يفعله، مثلاً، امرؤ القيس (ت٨٠ ق.هـ) حين قال:

طحابكَ قلبٌ في الحِسانِ طَروبُ بُعَيدَ الشبابِ عصرَ حانَ مَشيبُ
يكلّفني ليلى وقد شطَّ وَلْيُها وعادتْ عَوادٍ بيننا وخُطوبُ

فانتقل من صيغة المخاطَب (بكَ) إلى صيغة المتكلّم (يكلّفني) رغم أنّه عَنى نفسه في كلتا الحالين، إنّه يجرّد من نفسه شخصيّةً أخرى يتحدّث إليها وتتحدّث إليه، ومن المهمّ جدّاً التفريق، وبشكلٍ علميٍّ وحازم، بين التجريد والالتفات.

وقد عرفنا كذلك أنّ لهذا الفنّ في القرآن أنواعاً عديدةً، كلّها جديد، وكلّها يقتصر على القرآن وحده، فلا وجود للالتفات في أدبنا، شعره أونثره، حتّى يومنا هذا، بل لا وجود له حتّى في الحديث الشريف، وأذهب إلى أبعد من هذا بقولي إنّني لا أعرف، ولا أتوقّع أن أجد هذا الفنّ، في أيّة لغةٍ أخرى.

وفي سورة (فاطر) من أنواع الالتفات التي درسناها في الجزء الأوّل أربعةٌ على الأقلّ:

أ- التفات الزمن:

في هذا النوع من الالتفات ينتقل الحديث بصورةٍ فجائيّةٍ وغير مألوفةٍ بين الماضي والمضارع، أو العكس، وكذلك بينهما وبين الزمن الحاضر. ونجد هذا النوع من الالتفات سبع مرّاتٍ في الآيات الخمس التالية من السورة، وقد أشرنا إلى مواقعه فيها بخطوطٍ تحتها:

- ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ [٩] (انتقل من الماضي إلى المضارع، ثم من المضارع إلى الماضي).
- ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ [١٣] (انتقل من المضارع إلى الماضي).
- ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ [١٨] (انتقل من المضارع إلى الماضي).

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [٢٩] (انتقل من المضارع إلى الماضي).
- ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ [٣٣ - ٣٤] (انتقل من المضارع "يدخلونها" إلى الحاضر "يُحَلَّون" ثمّ إلى الماضي "قالوا").

ب- التفات الخطاب:

وفي التفات الخطاب يتنقّل الحديث بين صيغ المتكلّم/ المتكلّمين، والمخاطَب/ المخاطَبين، والغائب/ الغائبين، رغم أنّ المتحدِّث أو المتحدَّث عنه هو نفسه لم يتغيّر، أو ربّما انتقل الحديث فجأةً، ودون تمهيدٍ، بين متكلّم وآخر، أو بين المبنيّ للمجهول والمبنيّ للمعلوم، أو غير ذلك ممّا يدخل في هذا الباب أو هو قريبٌ منه. وفي سورة (فاطر) ما لا يقلّ عن خمس حالاتٍ من هذا النوع، نجدها في الآيات التالية:

- ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ ﴾ [٩] (انتقل من المفرد الغائب "أرسل" هو، إلى جمع المتكلمين "سُقناه" نحن)
- ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ ﴾ [٢٧] (انتقل من المفرد الغائب "أنزل" هو، إلى جمع المتكلّمين "أخرجنا" نحن)
- ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ ﴾ [٣٣] (انتقل من المبنيّ للمعلوم "يدخلونها" إلى المبنيّ للمجهول "يُحَلَّون")
- ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [٣٧] (انتقل الحديث، وبدون تمهيد، من لسان أهل النار "ربَّنا أخرجنا" إلى الله تعالى "أوَلم نُعمّركم")
- ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا ﴾ [٤٠] (انتقل من صيغة الأمر الصادر من المفرد المتكلّم

"أروني" أنا، ويمكن أن يعود على الرسول ﷺ أو على الله تعالى، إلى صيغة الإخبار الصادر عن جمع المتكلّمين "آتيناهم" نحن، والعائد عليه تعالى).

إنّ هذه الأنواع من الالتفات لا يمكن أن نعثر عليها في لغتنا البشريّة. هل يتوقّع أحدنا مثلاً أن يقرأ لكاتبٍ أو يسمع لمتحدِّث، من غير أن يقطّب حاجبيه مستغرباً ومستنكراً، عبارةً كالعبارة التالية، والتي صغتُها على نمط الآية الأولى من الشواهد القرآنيّة أعلاه:

والحكومةُ التي أصدرتِ القراراتِ فتُنشّطُ التجارةَ فطبّقناها على بلدٍ فقير؟

ت- التفات الجنس:

أتينا في الجزء الأوّل بشواهد قرآنيّةٍ عدّةٍ على هذا النوع من الالتفات الذي يتبادل فيه المذكّر والمؤنّث مواقعهما، خلافاً لكلّ تقاليدنا أو أعرافنا اللغويّة والنحويّة. ولم يقصّر النحويّون طبعاً في إيجاد الحلول أو التقديرات لمثل هذه "الإرباكات" اللغويّة أو النحويّة التي وضعهم القرآن أمامها، من غير أن يدرك أكثرهم، أو أن يعترفوا للأسف، بأنّهم أمام نوعٍ جديدٍ من البلاغة التي تشدّ القارئ إليها باستمرار من خلال التغيّر المفاجئ لإشارة المرور اللغويّة، أو عبر القفزة الخاطفة وغير المتوقَّعة في تيّار المجرى التعبيريّ.

ونجد من هذا النوع من الالتفات في سورة (فاطر) أربع حالاتٍ اجتمعت كلّها في آيتين متتاليتين، وهي قوله تعالى:

- ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا [مختلفةً] أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ [مختلفةٌ] أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ [مختلفةٌ] أَلْوَٰنُهُۥ [ألوانها] كَذَٰلِكَ ﴾ [٢٧ - ٢٨].

ث- التفات النصب:

وهو كثيرٌ جدّاً في القرآن، كما أثبتنا في الجزء الأوّل، وهو أيضاً ممّا أجهد النحويّون أنفسَهم في البحث عن تأويلاتٍ وتقديراتٍ لآياته، غير ملتفتين إلى الجانب التجديديّ الهامّ والخصب الذي يقدّمه لأعرافنا النحويّة، وإلى عنصر التحوّل الإيقاعيّ في مجرى اللغة، والذي من شأنه أن يشدّ إليه قارئ القرآن الكريم، فضلاً عن الإضافة المعنويّة المتميّزة والخاصّة التي يبتعثها في السياق. ونجد هذا العنصر الالتفاتيّ في الآية التالية من السورة:

- ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [٣٦].[(١)]

ولا شكّ أنّ مثل هذه الأعراف، وربّما القواعد فيما بعد، التي سنّها القرآن لأوّل مرّة، والتي ظلّت في معظمها بعيدةً عن متناول النحويّين حين وضعوا قواعدهم، لا تلغي القواعد التي كانت قائمةً قبلها، والتي لم تكن كما أسلفنا قد اكتسبت هذا الاسمَ بعدُ حين نزل الوحي، بل تضيف إليها وتغْنيها وتمنح لغتنا المزيد من القدرة على الاستمرار والتطوّر، وإن كان للغة السماء خصوصيّتها التي "أعجزت" النحويّين عن إيجاد قواعد نهائيّةٍ لها، والإمساك بكلّ دقائقها وأسرارها، فانصرفوا عنها إلى لغة الشعر الجاهليّ، العاديّة والبشريّة، ليستمدّوا قواعدهم النهائيّة منه.

٤- اللغة المنفتحة:

سبق أن أثبتنا أنّ هذا الأسلوب التعبيريّ لم يعرفه العرب قبل القرآن الكريم. فهذا النوع من اللغة وراء كثيرٍ من عناصر المرونة في الشريعة الإسلاميّة، واستمرار مواكبتها للحياة وتطوّرها، وخروج الفقهاء بأكثر من رأيٍ أو اجتهادٍ في القضايا اليوميّة المستجدّة على مدى العصور. وإلى هذا النوع من اللغة أيضاً يرجع الفضل

---

(١) قارن بين نصب الفعل هنا ورفعه في آياتٍ أخرى مماثلةٍ لهذه الآية، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسَلات: ٣٦].

في استمرار بذور الإعجاز العلميّ للقرآن خبيئةً حيّةً في لغته على مرّ القرون، بانتظار العصر الذي سيزيل عنها ستار الغموض، وهكذا فهمها كلّ عصرٍ على قدر ما أوصلته إليه معارفه، حتّى انتهينا اليوم إلى هذا الانفجار العلميّ الهائل، وقد خرج علينا فيه العلماء باكتشافاتهم المذهلة، لتُظهر المعاني الحقيقيّة لكثيرٍ من الآيات التي عجز القدماء عن فكّ ألغازها وحلّ رموزها.

إنّ كلّ الألفاظ التي يمكن أن تحمل أكثر من معنى، وكل التعبيرات أو الجمل أو الآيات التي اختلف الفقهاء أو المفسرون عليها، وذهبوا مذاهب شتّى في تأويلها، تدخل تحت باب اللغة المنفتحة. إنّها ليست منغلقةً على معنىً واحدٍ أو تفسيرٍ نهائيٍّ لا يقبل الجدل، وهنا مكمن قوّتها وتميّزها، كما أنّ اجتماعها وتنوّعها وكثرتها في كلّ سورةٍ تُبرز خصيصتها الإعجازيّة المتفرّدة.

ونستطيع أن نجد في سورة (فاطر) العديد من الألفاظ والعبارات والجمل المنفتحة التي يمكن أن تُفهم بأكثر من طريقةٍ واحدة، وسنشير فيما يلي إلى أبرزها:

أ- الألفاظ المنفتحة:

وهي كلّ ما احتمل أكثر من معنىً من الألفاظ، وكلّما كثرت معانيها المقترَحة، أو زادت أطيافها الموحية، أو تعدّدت طرائق إعرابها، ازدادت استحقاقاً لصفتها الانفتاحيّة. ونجد منها في السورة:

فاطِر – تُؤفَكون – الغَرور – حِزبه – تُثير (سَحاباً) – النُشور – يَبور – (في) كتابٍ – قِطمير – بالغَيب – تَزَكّى – نَكيرِ – جُدَدٌ – العلماء – مقتصِدٌ – عَدْن – المُقامة – لُغوب – يَصطرخون – (وجاءكمُ) النذيرُ – خَلائف – مَقْتاً – يَنظرون (إلاّ)

هذه الألفاظ قابلةٌ للتأويل بأكثر من معنًى، وهذا سرّ جدّتها وتفسير الصدمة التي أحدثتها طبيعتها الجديدة في نفوس من سمعوها لأوّل مرّة. ولو أخذتَ أيّ لفظٍ منها وبحثت عن آراء المفسّرين فيه، وتأويلاتهم له، لوجدتهم ذهبوا في ذلك مذاهب شتّى.

لقد قالوا في اللفظ (نذير) مثلاً:

إنّه الرسول ﷺ

وقالوا إنّه (الشيب) الذي ينذر باقتراب الأجل.

وقالوا بل هو القرآن

وقالوا بل هو موت الأهل والأحباب

أو هو كمال العقل

أو هو البلوغ

أو هو (الحُمّى) لأنّها رسول الموت..

وهكذا تعدّدت التفسيرات لهذا اللفظ مثلما تعدّدت لبقيّة الألفاظ، كما يمكن للقارئ أن يتبيّن في مراجعةٍ سريعةٍ لأيّ تفسيرٍ موسّعٍ من التفاسير القرآنيّة العديدة.

ب- التعبيرات المنفتحة:

قد يتجاوز عنصرُ الانفتاح اللفظةَ الواحدة، ليشمل عباراتٍ كاملةً ارتبطت ألفاظها فيما بينها بعلاقاتٍ غير تقليديّةٍ وغير محدّدةِ العُرى النحويّة أو اللغويّة. وهذا الارتباط غير التقليديّ من شأنه أن يفتح معانيها لاحتمالاتٍ متعدّدةٍ في أفهامنا. ونختار هنا أهمّ العبارات التي وردت في السورة ممّا لا يمكننا أن نحصره في معنىً واحدٍ ونهائيّ:

تُرجَعُ الأمورُ - فلا تَذهبْ نفْسُكَ - كذلكَ النشور - الكَلِمُ الطيّبُ - يَمكُرون السيّئاتِ - يَكفُرون بشِركِكم - أَورثْنا الكتابَ - سابقٌ بالخيرات - غَيب السمواتِ والأرضِ - شِركٌ في السمواتِ - إحدى الأمم - مَكْرَ السيِّء.

ت- الجمل والآيات المنفتحة:

وستجد المفسّرين يدورون حول هذه الجمل والآيات محاولين الإمساك بمعنىً محدّدٍ لها، ولكن من غير الادّعاء بالوصول إلى اقتراحٍ نهائيٍّ وقاطع،

وسوف تظلّ مفتوحةً للزمن أمام احتمالاتٍ وتأويلاتٍ قادمة، متجدّدةً مع تجدّد الآراء وتنوّع العقول وتقلّب العلوم والثقافات:

- ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ [1]
- ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [8]
- ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [10]
- ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [10]
- ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ [13]
- ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [32]
- ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [32]
- ﴿ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [37]
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [39]
- ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [45]
- ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾ [45]

وحسبنا أن نأخذ فكرةً عمّا ذهب إليه العلماء والمفسّرون من تأويلاتٍ لهذه العبارات المفتوحة؛ بالوقوف عند نموذجٍ واحدٍ منها فقط، وليكن العبارة الرابعة، فننظر في الآراء والتأويلات التي يقدّمها لنا الشوكانيّ في تفسيره القيّم "فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير"(1). يقول الشوكانيّ:

- ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾؛ أي إلى الله يصعَد لا إلى غيره.

(1) الشوكاني، محمد بن علي، طبعة بيروت: دار الفكر، (د. ت.)، ج:٤. ص: ٣٤١.

ومعنى صعوده إليه قبولُه له، أو صعودُ الكَتَبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف. وخصّ الكلِمَ الطيّب بالذكر لبيان الثواب عليه، وهو يتناول كلّ كلامٍ يتّصف بكونه طيّباً: من ذِكرٍ لله، وأمرٍ بمعروف، ونهيٍ عن منكَر، وتلاوة، وغير ذلك، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد، أو بالتحميد والتمجيد،

وقيل: المراد بصعوده: صعودُه إلى سماء الدنيا،

وقيل: المراد بصعوده: علمُ الله به،

ومعنى ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾: أنّ العمل الصالح يرفع الكلِمَ الطيّب.. ووجهُه أنّه لا يُقبل الكلِمُ الطيّب إلاّ مع العمل الصالح،

وقيل: إنّ فاعل (يرفعُ) هو (الكلِم الطيّب)، ومفعوله (العمل الصالح)، ووجهه أنّ العمل الصالح لا يُقبل إلاّ مع التوحيد والإيمان،

وقيل إن فاعل (يرفعُه) ضميرٌ يعود إلى الله عزّ وجلّ، والمعنى: أنّ الله يرفع العمل الصالح على الكلِم الطيّب؛ لأنّ العمل يحقّق الكلام،

وقيل: والعمل الصالح يرفع صاحبَه، وهو الذي أراد العزّة،

وقال قتادة: المعنى أنّ الله يرفع العملَ الصالح لصاحبه، أي يقبله، فيكون قولُه: (والعمل الصالح) على هذا مبتدأً خبره (يرفعه).

٥- جوامع الكلم:

في سورة (فاطر)، كأيّة سورةٍ أخرى من سوَر القرآن الكريم، عشرات العبارات التي يمكن أن تَختصر لنا في كلماتٍ قليلةٍ مواقفَ متنوّعةً ومتشابكةً في حياتنا اليوميّة. ومن شأن مثل هذه العبارات أن تضيف إلى معجم لغتنا، الرسميّة والمحكيّة، ثروةً تعبيريّةً هائلةً تُغيّر، وقد غيّرت حقّاً، وجهَ الخطاب العربيّ.

إنّ بعض هذه العبارات، أو ما استعرنا له من الحديث الشريف مصطلحَ (جوامع الكَلِم)، ما زالت تبحث عمّن يكشف عنها ويربطها في كتاباته وإبداعاته بحياتنا وتجاربنا ومواقفنا، ولكنّ كثيراً منها قد شقّ طريقه بسهولةٍ إلى ألسنتنا وأقلامنا، كهذه العبارات الجامعة التي اكتفينا باختيارها، مع وجود كثيرٍ غيرها في السورة، ممّا هو مرشّحٌ لأن تَثرَى به لغتنا، لأنّ هذه العبارات باتت جزءاً من لغتنا اليوميّة، الرسميّة والمحكيّة، وهي تلخّص في كلماتٍ، كما يمكن أن ندرك بسهولة، مواقف حياتيّةً أكبر بكثيرٍ من حجم كلماتها:

- ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [١ + ٣٤]
- ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [٣]
- ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [٨]
- ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [١٤]
- ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [١٨]
- ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ [١٩]
- ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [٢٢]
- ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [٢٨]
- ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [٣٢]
- ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ [٣٩]
- ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [٤٣]
- ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [٤٥]

ثالثاً: البعد الفكريّ

١- أبعادٌ جديدةٌ للزمان والمكان:

يصعب وأنت تتحدّث عن الإعجاز اللغويّ؛ أي عن الوعاء اللغوي للأفكار، أن تفصل نفسك عن تلك الأفكار، إنّك لا تستطيع أن تهمل الحديث عن الشراب وأنت تتحدّث عن الكأس التي تحويه. وعندما نتحدّث عن "أبعادٍ جديدةٍ" في الصورة القرآنيّة، وكذلك في "الفكرة" القرآنيّة، فإنّنا نفعل ذلك وفي مخيّلتنا تصوّرٌ عن بساطة البعد الزمانيّ ومحدوديّة البعد المكانيّ في ذلك الوقت، ليس عند العربيّ الذي عاش تلك الحقبة في جزيرته المنعزلة فحسب، بل عند الإنسان الذي عاش الحقبة نفسها في سائر أصقاع الأرض.

فالحديث في السورة عن (سماواتٍ عدّة) بدلاً من سماءٍ واحدة، وعن (فاطرٍ) أي (بادئٍ) أو (مؤسِّس) لهذه السموات، والحديث عن تجويفٍ في النهار (يَلجُ) فيه الليل، وتجويفٍ للّيل (يَلج) فيه النهار، وعن (تسخيرٍ) أو (توظيفٍ) أو (إخضاع) للشمس وللقمر لخدمة الإنسان، وعن وجود نهايةٍ زمنيّة لحركتهما ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ يتوقّفان بعدها عن أداء هذه الوظيفة، والحديث عن إمكان نشوء عنصرٍ إنسانيٍّ آخر، أو غير إنسانيّ، في هذه الأرض يستبدله الله بنا ويُحلّه محلّنا، والحديث عن رابطٍ يربط بين الكتاب الجديد (القرآن) وكتبٍ أخرى سبقته وجاء هو مكمّلاً لها ومتابعاً رسالتها، والحديث عن أرضٍ غير معروفٍ مكانها حيث لا يموتُ الإنسان ولا يحيا، رغم أنّه يحترق بنارها الملتهبة باستمرار، والحديث عن (عالَمٍ غيبيٍّ غير منظورٍ) في السماء، بل في سمواتٍ عدّةٍ (السموات) ومثله على الأرض أيضاً، وعن إلهٍ فائق القدرة بحيث يعلم كلّ هذه الدرجات والأنواع المتعدّدة من (الغيوب)، بل يعلم أيضاً (ما في الصدور) من أسرارٍ وأحلامٍ ونوايا، وأنّه هو الذي (يمسك) تلك السموات، ويحفظ هذه الأرض من السقوط أو (الزوال) عن مكانها، وأنّ أقواماً آخرين كانوا يَعمُرون هذه الأرض التي يسكنها الناس الآن، وكانوا (أشدّ منهم

قوّةً) وبأساً، ولكنّ الله عاقبهم على كفرهم وجحودهم فدمّرهم ومحا حضارتهم من الوجود، فلم يُبق منها إلاّ آثاراً هنا وهناك شاهدةً عليهم، ومُخبرةً مَن بَعدهم بما فعلوه وما فُعِل بهم؛ هذه الجرعة المكثّفة من "المفاجآت" الفكريّة "الثقيلة" في السورة؛ لم يكن من الميسور على العربيّ الأوّل أن يتلقّاها ويبتلعها وتهضمها معدة خياله من دون إحداث صدمةٍ تهتزّ لها أعماقه.

٢- أفكار تتجاوز الحدود الثقافيّة للجزيرة العربية:

أمّا لو نظرنا إلى الواقع الثقافيّ للإنسان العربيّ آنذاك، وأدركنا محدوديّته، وهو الذي لم يسمع بكتابٍ، بَلْهَ أن يراه أو يقرأه، إلاّ كتاب "أهل الكتاب" ومن أجل ذلك عُرفوا بهذا الاسم، لَتبيّنا مدى ما يثيره في نفس ذلك العربيّ حديثٌ عن وجود (ملائكةٍ) و(رُسُلٍ بأجنحةٍ)، و(أنبياء مرسَلين) آخَرين سبقوا الرسول ﷺ وقابلهم قومهم، كما حدث معه، بالتكذيب والتعذيب أيضاً، وعن وجود (شياطين) وجيوشٍ من هؤلاء الشياطين متحفّزةٍ للهجوم والعدوان، و(سعيرٍ) من النيران المتّقدة تقع في مكانٍ ما من هذا الكون في انتظار دخول (أصحابها) إليها، وعن وجود علاقةٍ بين (الرياح) و(السحُب) التي تولَد و(تستثار) بفعل تلك الرياح لتسقي الأرض الموات، وعن (الصعود) الغريب للكَلِم الطيّب و(الرفعِ) الأغرب للعمل الصالح بطرائق وأقنيةٍ محيّرةٍ وغير واضحةٍ تَصل بين الأرضِ والسماء، وعن وجود (كتابٍ) في مكانٍ ما من هذا الكون يُكتب فيه عمر الإنسان فلا يزيد عنه ولا ينقص، وعن يومٍ عجيبٍ يدعى (يوم القيامة) يكذِّب فيه المعبودون مَن عبدوهم، وعن وجود عالمٍ آخر بعيدٍ في هذا الكون حافلٍ (بجنّاتٍ) خالدةٍ ينعم فيها المقيم بالذهب واللؤلؤ والحرير.

هذا العرض السريع لجوانب الإعجاز التجديديّ في سورةٍ طويلةٍ أو متوسّطة الحجم كسورة (فاطر) سيكون مدخلنا إلى العرض الأكثر تفصيلاً لتلك الجوانب نفسها، ولكن في سورٍ قرآنيّةٍ قصيرةٍ هي الأكثر تردداً على لسان المسلم، وتشكّل جزءاً حميماً من تفاصيل عباداته اليوميّة.

ونؤكّد من جديد أنّ عملنا في هذه السوَر لن يكون تفسيراً للقرآن الكريم، ولا تحليلاً للغته، ولا تدليلاً على تفوّقه البلاغيّ أو التعبيريّ، فقد استوفى القدماء القول والبحث في هذه الجوانب جميعاً، وإنّما سنقتصر على إبراز "الجديد" والجديد وحده لا أكثر، في لغة القرآن ونحوِه وصوره وبلاغته وأفكاره، واستقصاء هذا الجديد ما أمكننا، وتمييزه عن التقليديّ أو المتعارف عليه عند العرب قبل الإسلام، لنتبيّن حجم الكثافة الاختراقيّة التي حقّقها القرآن على مساحة جدار الفكر والخيال واللغة العربيّة، في وقتٍ كانت الجزيرة العربيّة فيه تنام كسلَى على فراشٍ من رمال الصحراء لم يتغيّر شكله ولا منحنياته على مدى قرونٍ عديدة، ولم يكن يرجَى له أن يتغيّر أبداً على مدى قرونٍ قادمةٍ؛ لولا نزول القرآن الكريم والبزوغ المفاجئ لرسالة السماء.

السورة الأولى

الفاتحة

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾

تحتلّ سورة (الفاتحة) مكانةً خاصّةً في هذه القراءة الجديدة للإعجاز اللغوي في القرآن الكريم. فهي وحدها التي يلتزم المسلم بتلاوتها في كلّ ركعةٍ من صلواته الخمس، وكذلك في سُننه ونوافله، ومع ذلك، وربّما بسبب ذلك، لا يتنبّه، وبتأثير أُلفته الشديدة لها، إلى ما في لغتها من إعجازٍ تجديديٍّ لم يعرفه العرب من قبل، وإلى ما تختصّ به من تفرّدٍ عجيبٍ يجعلها من الناحية اللغويّة سورةً فذّةً بين سُوَر القرآن.

وسنرى أنها تستقلّ بعدّة مواقع لغويّةٍ لم تعرفها بقيّةُ السوَر، فضلاً عن المواقع الجديدة الأخرى التي تشارك بها السور الأخرى، وأنّ في كلماتها التسع والعشرين ما لا يقلّ عن ٥٨ خصيصةً إعجازيّةً أدخلها القرآن إلى قاموس التعبير والتفكير العربيّ لأوّل مرة.

* * *

هل فكّرنا مرّةً في الحكمة من الجمع بين الصفتين في العنوان الوحيد الذي يتصدّر سور القرآن الكريم ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقد اشتُقّتا معاً من اسم واحدٍ هو الرحمة؟ وهل يحمل اللفظان حقاً المعنى نفسه، أو حتى تلك المعانيَ المتقاربة التي اقترحها المفسّرون؟

لنعترفْ أولاً بأنهم لم يستطيعوا الإمساك بأيّ دليلٍ نبويٍّ أو لغويٍّ للتفريق بين معنييهما تفريقاً علميّاً حاسماً ومقنعاً. وإذا كانت العناوين تتطلّب عادةً تركيزاً واختصاراً، فكيف يتوالى لفظان مشتقّان من جذرٍ لغويٍّ واحدٍ في عنوانٍ مركَّبٍ من أربع كلماتٍ لا أكثر، ثم يتكرّر هذا العنوان مائةً وثلاث عشرة مرةً في كتابٍ واحد؟!

ويتوضّح لنا الفارق الحقيقيّ بين اللفظين حين نسلّط أضواءنا على الخصائص اللغويّة للفاتحة، محاولين اكتشاف طبيعة الانعطافة اللغويّة الشديدة التي أحدثها الوحي الإلهيّ في قاموس الإنسان العربيّ الأوّل، وذلك باستحضارنا لأذنه وذاكرته الجاهليّة، واستبعاد آذاننا المعاصرة وذواكرنا القرآنيّة التي رضعت من المهد آياتِ الكتاب الكريم. حينذاك قد نستطيع تسجيل مقياس الهزّة التي أحدثت في أعماق العرب الأوائل ما أحدثت، وجعلت أكثرهم يعتنقون هذا الدين لمجرّد سماعهم لغةَ كتابه لا أكثر.

سننظر أوّلاً، كما سنفعل مع كلّ سورة، في ألفاظ الفاتحة ومصطلحاتها الجديدة، لننتقل بعد ذلك إلى تفحّص طبيعة الصيغ والعلاقات اللغويّة فيها، النحويّة والبيانيّة والفكريّة، تلك التي فاجأت العربيّ الأول، ثم نتلمّس فيها السبائك اللغويّة المبتكرة ممّا لم يعرفه العرب قبل القرآن، ثمّ الألفاظ والعبارات المنفتحة ذات الأبعاد والمفهومات المتعدّدة التي تتجدّد مع تغيّر البيئات الزمانيّة والمكانيّة، وهي نوعٌ جديدٌ من التعبير غدا من أهمّ الظواهر الأسلوبيّة للقرآن الكريم، ثمّ نتوقّف أخيراً عند (جوامع الكَلِم) وهي العبارات القرآنيّة المميّزة التي أصبحت سائرةً على ألسن العرب بعد الإسلام، أو هي ما تزال مرشّحةً لأن تكون كذلك في المستقبل.

ومن المهمّ التذكير، وسوف ندأب على هذا التذكير، بأنّ الوقوف عند نقطةٍ واحدةٍ من النقاط العديدة التي نكتشفها في كل سورة، منعزلةً عن بقيّة النقاط، قد يجعل من أمرها شيئاً يسيراً في أعيننا لا شأن له في الإعجاز. إنّ الإعجاز الحقيقيّ ليس في تجاوز القرآن للأعراف اللغويّة المعهودة مرّةً أو مرّتين في السورة، أو حتى في الآية، فهذه "التجاوزات" لا تكتسب صفتها الإعجازية إلاّ من كثافتها

وتلاحقها وتداخلها بعضها في بعض، بحيث لا تجد سورةً في القرآن إلاّ ويتجاوز فيها عدد هذه النقاط عدد كلمات السورة، كما سبق أن أكّدنا.

وككلّ سورةٍ من سور القرآن الكريم؛ تستقلّ (الفاتحة) بخصائص لغويّةٍ تنفرد بها دون غيرها من السوَر. وسنتبيّن أنّها تستقلّ بأربعة مواقع لغويّةٍ لا تشاركها فيها أيّة سورةٍ أخرى، وهي الاستعمال الخاصّ لكلٍّ من اللفظين (غير، ولا)، وكذلك تعدية الفعل (نستعين) بنفسه من غير وجود الباء، ثمّ العلاقة المعنويّة الفريدة بين اللّفظين (مالك) و (يوم)، هذا إلى جانب تفرُّد السّورة، دون غيرها من السوَر، بما لا يقلّ عن ثلاث سبائك من مجموع سبائكها اللغويّة الستّ كما سوف نرى.

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- الرحمن:

كم مرّةً نردّد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ كلّ يوم؟ في صلاتنا، في طعامنا، في شرابنا، في أعمالنا ومناسباتنا، ولكنّنا، مع ذلك، نرددها وكأنها ثلاث كلماتٍ لا أربع، فلا نكاد نميّز بين (الرحمن) و(الرحيم). إنهما من جذرٍ واحد، هو الرحمة، فلماذا إذن نجهد أنفسنا ونفكّر بالتميز بين معنييهما؟!

طبعاً، لم ينَم العلماء عن هذا الأمر فيسلّموا به، كما ذكرنا، وهكذا بحثَ الشوكانيّ -رحمه الله- وهو العالم اليمنيّ المتأخّر (ت١٢٥٠هـ) عن الفروق بين اللفظين عند من سبقه من المفسّرين، فماذا وجد؟ يقول الشوكانيّ عن اللفظين، ملخِّصاً أقوال المفسّرين، إنّهما:

أ- اسمان مشتقّان من الرحمة على طريق المبالغة، ورحمن أشدّ مبالغةً من الرحيم، وقد تقرّر أنّ زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى

ب- قال أبو علي الفارسيّ: الرحمن اسمٌ عامٌّ في جميع أنواع الرحمة يختصّ به اللهُ تعالى، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين[1].

(١) الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير**، مرجع سابق، ج١، ص٨١.

والحقّ أنّ الشوكاني قد اختصر بهذه الأسطر القليلة آراء مَن قبلَه من المفسّرين، فكلّهم يدور حول هذا المعنى، وكلّهم مجتهد، ولم يجدوا بين أيديهم نصّاً قرآنياً ولا نبويّاً يؤيّد آراءهم، أو ينفيها، وفكرة أنّ "زيادة البناء –أي زيادة عدد حروف الكلمة– تدلّ على زيادة المعنى" تبدو لنا غير مقنعة، هنا على الأقلّ، أنا شخصيّاً لا أعرف كلمةً أقلّ غضباً من (غضبان) –ذات الحروف الخمسة– ولا أكاد أفرّق بينها وبين (غاضب) أو (مُغضَب) الرباعيّتين، بل إنّ صيغة (غَضِبٌ) تقلّ عنها بحرفين ومع ذلك فهي إحدى صيغ مبالغات اسم الفاعل، وهي صيغٌ، باعتراف النحويّين أيضاً، أكثر مبالغةً من الصيغ الثلاث التي ذكرتُها. بل تجاوز بعضهم ذلك إلى ما ينقض تماماً نظريّة "زيادة البناء" فيقول السيوطي:

"ذهب ابن الأنباري إلى أنّ (الرحيم) أبلغ من (الرحمن)، ورجّحه –أيضاً– ابن عساكر بتقديم –أي بسبب تقديم– (الرحمن) عليه، وبأنّه –أي (الرحيم)– جاء على صيغة الجمع (كعبيد) وهي أبلغ من صيغة التثنية –التي جاء عليها لفظ (الرحمن)–"[1]

فهل نستطيع أن نتناول اللفظين تناولاً علميّاً صَرفيّاً يمكّننا من الخروج بحكم موضوعيٍّ إلى حدٍّ ما لتمييز الفرق بين معنييهما؟ (نذكّر هنا من جديد بأنه لايجرؤ إنسانٌ، ولا ينبغي له، أن يدّعي أنّه خرج بأحكامٍ أو تفسيراتٍ نهائيةٍ فيما يتعلّق بلغة القرآن الكريم، إننا لا نملك أولاً وأخيراً، فيٍ مثل هذه المواقع، إلاّ تقديراتنا البشريّة القاصرة).

إنّ صيغة (فَعِيل) في العربية تدلّ عادةً على صفةٍ مستمرّةٍ أو مستقرّةٍ على الأقلّ، فالبخيل بخيلٌ دائماً، أو لفترةٍ مستقرّة، وكذلك الكريم والسفيه والحليم والطويل والقصير والكبير والصغير والجميل والقبيح والعريض والرفيع. أمّا صيغة (فَعْلان) مثل: جوعان وعطشان وغضبان، فتدلّ على الصفة الطارئة أو الحاليّة: (الآن)، وهي تزول عادةً خلال وقتٍ قصير. فالجوعان لم يولد وهو جوعان، والغضبان لن يستمرّ غضبه طويلاً، وكذلك العطشان والحيران والسهران والنعسان

(١) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد سالم هاشم، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، ج٢، ص٤٨١.

والسكران والبردان، وهي صفاتٌ تتّصف بالحركة والفاعليّة؛ لأنّها تحدث الآن وفي هذه اللحظة التي نردّدها فيها.

فهل في هذه الحقيقة ما يشير إلى ما في لفظ (الرحمن) من حيويّةٍ تتفاعل مع الحاضر، ومن إشعاعٍ مثيرٍ ومحرِّكٍ يوحي بتنزّل الرحمة علينا "الآن"؟

إنّه، إذن، (الرحمن) الذي يمارس عليك رحمته الآن، و(الرحيم) دائماً منذ الأزل وإلى الأبد. معنيان متميّزان تماماً. الأول (الرحمن)، فألِفُ المدّ في وسطه، ونحن نلفظها طبعاً بفمٍ مفتوحٍ عموديّاً على مداه، تذكّرنا ببُعده العموديّ: وهو تنزُّل الرحمة الآنيّ (الآن) عموديّاً، من السماء إلى الأرض، فهي كلمةٌ طازَجةٌ فاعلةٌ حيّةٌ نشعر معها أنّ الرحمة في حالة نشاطٍ وفاعليّةٍ، وأنّها تتحرّك في هذه اللحظة باتّجاهنا وتتنزّل علينا. والآخر (رحيم) فالياء الممتدّة في وسطه، ونحن نفتح فمنا أفقيّاً على مداه حين لفظنا لها، تذكّرنا ببُعده الأفقيّ: امتداد رحمة الله واستمرارها منذ الأزل وإلى الأبد.

لقد عثرت مؤخّراً على رأيٍ للمفسّر الهنديّ الكبير حميد الدين فَراهي (١٨٦٣-١٩٣٠م)، في تفسيره الموسوم (تدبّر القرآن) الذي جمعه ونشره بالأورديّة تلميذُه العلاّمة أمين أحسن إصلاحي (١٩٠٤-١٩٩٧م)، تنبّه فيه إلى وجود "فروقٍ حقيقيّةٍ" بين معنيَي اللفظين، وإن لم يمسك في النهاية بمعنى لفظ (الرحمن) خاصّةً، كما تبيّن لي من الترجمة الإنكليزيّة لتفسير سورة (الفاتحة) التي نشرها محمّد سليم كياني مؤخّراً في لندن؛ إذ لم يتجاوز كثيراً أقوالَ المفسّرين القدماء حين قال: "إنّ دراسة علم الصرف في العربيّة تُرينا أنّ وزن (فعلان) الذي صيغت عليه الصفة (رحمن) يشير إلى معنى الرغبة الشديدة والحماسة المتوقّدة، على حين يشير وزن (فعيل) الذي بنيت عليه الصفة (رحيم) إلى الدوام والاستمراريّة والثبات."[1]

(1) Islahi, Amin Ahsan. Pondering over the Qur'an, Translated by M. S. Kayani, London, Alkitab Publications: 2003, P.34.

وهو تفسيرٌ من ثمانية مجلّدات جديرٌ حقّاً بأن يَنهد له من العلماء من يترجمه إلى العربيّة، وقد حقّق فيه الفراهي رحمه الله إنجازاتٍ فذّةً لإيجاد سلكٍ أو رابطٍ موضوعيٍّ محكم ينتظم سور القرآن الكريم وآياته كما هي في ترتيبها الحالي.

ولا يبتعد تفسير عناية الله سبحاني كثيراً عن دائرة الفراهي حين يقول: "إنّ صيغة (فعلان) تدلّ على معنى الفيضان والغليان في الوصف دون معاني العمق والرسوخ والدوام والاستمرار، بخلاف صيغة (فعيل) فإنّ الأمر فيها على العكس"(١).

ويزيدني اطمئناناً إلى هذه الاستقلاليّة والتميّز الواضح للصفتين، إحداهما عن الأخرى، ما رُوي عن مدّ الرسول عليه السلام لهما في القراءة، وهو مدٌّ لا يمتّ في الحقيقة بصلةٍ إلى قواعد التجويد المعروفة، وإنّما يستند إلى الشخصيّة المعنويّة المستقلّة لكلٍّ من اللفظين، كما تنصّ إحدى روايات البخاريّ:

عن أنسٍ ﵁ أنّه "سُئل كيف كانت قراءةُ رسولِ الله ﷺ، فقال: "كانت مدّاً، ثم قرأ: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم، يَمدُّ ببسمِ الله، ويَمدُّ بالرحمن، ويَمدُّ بالرحيم"(٢)

بل يسوق السيوطيّ روايةً أخرجها ابن أشْتة عن عمر بن عبد العزيز ﵁ أنّه أمر بمدّ (الرحمن) حتّى في الكتابة، فيروي أنّه "كتب إلى عمّاله: إذا كتبَ أحدُكم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فليَمُدَّ (الرحمن)"(٣)

ورغم الجدل الذي يقوم في نفسي حول نظريّة جِدّة لفظ (الرحمن) أو عدم جِدّته؛ فإنّ القرائن على الاتجاه الأوّل، الجِدّة، تبدو أقوى. وفي حديث الحديبية:

---

(١) سبحاني، محمد عناية الله أسد. **البرهان في نظام القرآن**، إسلام آباد: مكتبة الجامعة، ١٩٩٤م، ص٧٣.

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير واليمامة، ط. ٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ج٤، ص ١٩٢٥، حديث رقم ٤٧٥٩.

(٣) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٩. والغريب أن هذا النوع من المدّ لا يوافق قواعد المدّ المعروفة في علم التجويد، مثله مثل مدّ الدال في (إيّاك نعبدُ) على قراءةٍ لعليّ بن أبي طالب ﵁ كما سيمرّ بنا قريباً، والأغرب من ذلك أنّني لم أعثر، بين مجموعات الحديث النبويّ الكثيرة التي قرأتها، على أيّة روايةٍ تنقل أنّه قد حدث للرسول ﷺ أو الصحابة الكرام، سواءٌ في الحقبة النبويّة أو في حقبة الخلافة الراشدة، أن نبّهوا أو صحّحوا لأيّ قارئٍ خطأً أو خروجاً عن قواعد التجويد التي بين أيدينا اليوم.

".. أنّ النبيّ ﷺ دعا الكاتبَ فقال: اكتب ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقال سهيلُ بن عمرو -ممثّل المشركين-: أمّا (الرحمن) فوالله ما أدري ما هو؟"[1]

وأكّد القرآن الكريم هذه الواقعة خلال سياقٍ آخر في الآية ٦٠ من سورة (الفرقان): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

وهذا يلقي بمزيدٍ من ظلال الشكّ على صحّة تلك الأبيات الجاهليّة القليلة التي ورد فيها هذا اللفظ:

كُلوا الآن مِن رِزقِ الإلهِ وأيسِروا ... فإنّ على الرحمنِ رزقَكمُ غدا

حاتم الطائي (ت٤٦ ق.ه)

عجِلتمْ علينا حِجّتين عليكـــمُ ... وما يشأِ الرحمنُ يَعقِدْ ويُطلِقِ

سلامة بن جندل (ت٢٣ ق.ه)

ولكنْ أعبدُ الرحمـــنَ ربّـــي ... ليغفـرَ ذنبيَ الربُّ الغفورُ

زيد بن عمرو بن نفيل (ت١٧ ق.ه)

شكوتُ إلى الرحمنِ بُعدَ مَزارِها ... وما حمَّلتْني وانقطاعَ رجائيا

قيس بن الحِدادية (ت١٠ ق.ه)

وغنيٌّ عن التعليق وضوحُ الروح الإسلاميّة في الأبيات جميعاً، ألفاظاً وأسلوباً ومعنىً، وهذا يزيدنا شكّاً في صحّة نسبتها جميعاً إلى هؤلاء الشعراء.

ولكنّ الغريب في المسألة أنّ العرب يشتقّون الصفة (فَعْلان) عادةً من الأفعال اللازمة (أي التي لا تحتاج إلى مفعولٍ به) فالوصف (ظمآن) من (ظمِئ الرجل) و (سهران) من (سهِر) و (غضبان) من (غضِب) و (تعبان) من (تعِب) و (فرحان) من (فرِح) وهكذا، وكلّها أفعالٌ لازمةٌ لا تحتاج إلى مفعولٍ به.

---

(١) البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي. **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، (د. ط.)، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، ج٩، ص٢١٨، حديث رقم ١٨٥٨٧.

ويشارك (فَعْلان) في تلك الخاصّية صيغةُ (فَعِيل) أيضاً -و (فَعيل) من "الصفات المشبّهة باسم الفاعل" لأنّها بمعنى اسم الفاعل وتعمل عمله أحياناً- فهذه الصيغة لا تأتي إلاّ من الفعل اللازم أيضاً، كما يمكن أن نتبيّن في الأمثلة المذكورة آنفاً (بخيل: من بَخُل، وكريم: من كَرُم، وكبير: من كَبُر.. وهكذا).

أمّا (رحمن) فيأتي، خلافاً لهذه القاعدة، من فِعلٍ متعدٍّ (أي يحتاج إلى مفعولٍ به)، فنقول (رحم اللهُ الناسَ). إنه إذن اشتقاقٌ فريدٌ وغيرُ مألوف، وله استقلاليّته حتى عن نظائره من الصفات التي جاءت على صيغة (فعلان) بغضّ النظر عن ذهاب بعضهم إلى وجود هذا اللفظ في بعض اللغات الساميّة الأخرى ومنها العبريّة.

٢- العالَمِين:

كان مفهوم العرب في الجاهلية عن الوجود، شأنهم شأن الأمم الأخرى، لا يتجاوز هذا العالم، بل يقف قاصراً حتى عن إدراك محيط الأرض وأطرافها، ولهذا لم يعرفوا للفظ (العالَم) جمعاً. ونحن لا نعثر على كلمة (العالمين) فيما بين أيدينا من الشعر الجاهلي، وهو مصدرنا الأكثر توثيقاً عن اللغة العربية قبل الإسلام كما سبق أن بيّنّا.

وأقدم لفظٍ يصادفنا في الطريق ونحن نلاحق مسيرة هذه الكلمة عبر خطّ الشعر العربيّ يرِد في بيتين لشاعرين مخضرمين:[1]

سلكتَ سبيلَ العالمينَ فما لَهم ... وراءَ الذي لاقيتَ مَعدىً ولا قصرُ

كعب بن سعد الغنويّ (ت٥ ق.هـ)

إلـــهُ العالمِيـــنَ وكـــلِّ أرضٍ ... وربُّ الراسـياتِ من الجبـــالِ

أميّة بن أبي الصلت (ت ٥ ق.هـ)

ويزيدنا اقتناعاً بذلك أن اللفظ، وهو الذي اختفى تماماً من النصوص الجاهليّة التي بين أيدينا، يتكرّر في الشعر العربي بعد ذلك حتى نهاية العصر الأمويّ (في

---

(١) المخضرمون هم الذين عاصروا فترتيْ الجاهليّة والإسلام.

سنة ١٣٢هـ)؛ أي في فترةٍ لا تتجاوز بكثيرٍ الفترة التي نملك نصوصها من الشعر الجاهليّ، ما لا يقلّ عن ٣١ مرّة، وهو يتردّد كثيراً في الحديث الشريف أيضاً، ولكن خلال سياقٍ قرآنيٍّ على الأغلب، كما في العبارات النبويّة الآتية، وقد أشرنا بجانب كلٍّ منها إلى مصدرها القرآنيّ:

- "على إبراهيمَ في العالمين" [من الآية ٧٩: الصافّات]
- "ما لم يُعطِ أحداً من العالمين" [من الآية ٢٠: المائدة]
- "لا يُعذِّبهُ أحداً من العالمين" [من الآية ١١٥: المائدة]

فإذا خرج عن السياق القرآنيّ لجأ الحديث إلى اللفظ المفرد (عالَم) كقوله ﷺ:

- أربعُ نِسوةٍ سادتْ نساءَ عالمِهنّ: مريمُ بنتُ عمرانَ، وآسيةُ بنتُ مزاحمٍ، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمّدٍ، وأفضلُهنّ عالَماً فاطمةُ[1]

ومن المهمّ أن نلاحظ أن صيغة الجمع هذه لم يعرفها التوراة ولا الإنجيل. ورغم أنّ اللفظ في إحدى النسخ العربيّة للإنجيل[2] جاء في صيغة الجمع مرّتين[3] فإنّها انفردت بهذه الترجمة دون بقيّة النسخ العربيّة التي بين أيدينا، ولو عدنا إلى معظم النسخ الإنكليزيّة فسنجده بصيغة المفرد في كلا الموقعين المذكورين *world* أو يحلّ محله لفظ (الكون) *universe* في بعض النسخ، أو لفظ (الأشياء) *things* في نسخٍ أخرى، ولم أجده مجموعاً إلاّ في نسخةٍ واحدة من النسخ التي بين يديّ. أمّا في الترجمات الفرنسيّة فيرد مفرداً أيضاً *le monde* وكذلك في الترجمات الألمانيّة *Welten die*. كلّ هذا يجعلنا نرجّح أنّ النسخة العربيّة التي انفردت بصيغة الجمع قد تأثّرت في هذا باللغة القرآنيّة. ومن المهمّ الإشارة هنا

(١) الطبري، أحمد بن عبد الله. **ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى**، القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥٦هـ، ص٤٤.

(٢) الكتاب المقدس، (د. م)، نسخة دار الكتاب المقدّس في العالم العربيّ، ١٩٨١م.

(٣) الرسالة إلى العبرانييّن: ١: ٢ و ١١: ٣

إلى أنّ التأثير القرآنيّ في ترجمات الكتاب المقدّس إلى العربيّة ظاهرةٌ لها دلالاتها الكثيرة، وهي جديرةٌ بالدراسة المعمّقة والمتخصّصة.

٣- الدِّين:

هذا الاستعمال القرآنيّ الفريد للفظ (الدِّين) فتحٌ آخر من فتوح الثورة التجديديّة في لغة الوحي. فالدّين عند العرب لم يكن يتجاوز ما يؤمن به الإنسان، ولم يأخذ اللفظ في لغتهم قطُّ هذا المفهوم المتطوّر والواسع، ليشمل نظاماً كاملاً في التفكير والاعتقاد يغطّي الدنيا والآخرة.

ولكنّ القرآن، من جانبٍ آخر، يفاجئهم هنا بمعنىً لا علاقة له البتّة بالمعنى التقليديّ عندهم، لقد أصبح اللفظ يحمل معنى حدثٍ كبيرٍ هو أعظم الأحداث وأكثرُها هولاً: يوم الحساب، فيتركنا اللفظ، بطبيعة اشتقاقه وبوحي سياقه الجديد، موزَّعين بين إيحاءَات ألفاظٍ عديدةٍ مشتقّةٍ من الجذر نفسه: (الدَّين) الذي نُحاسَب عليه ونقوم بتسديده في النهاية، و (الإدانة) أو (الدينونة) التي تنتظر الإنسان، له أو عليه، في ذلك اليوم العصيب، و (الديّان) الذي يحاكمنا ونخضع لمشيئته وأحكامه التي لا تُردّ.

٤- نعبد:

هل الفعل (نعبد) من العبادة أم من العبودية؟ وبعبارةٍ أوضح: هل نعبد الله حباً وخضوعاً وتسليماً ورهبةً ورغبةً معاً، أم اضطراراً وكراهيّةً وترصّداً لليوم الذي نتخلّص فيه من قيد عبوديّته؟

تبعاً للمفهوم الإسلاميّ الجديد هناك فرقٌ كبيرٌ بين طبيعة العلاقة، كما نعرفها، بين العبد وسيّده، من ناحية، وطبيعة العلاقة كما هي بين الله وعبده، من ناحيةٍ أخرى.

فالعلاقة الأولى ذات جانبٍ واحد، وهي مبنيّةٌ على الخوف والحذر والذلّ والشعور بالمهانة من جانب أحدِ الطرفين، مع كراهية هذه العلاقة وترقّبِ التمرّد عليها والخلاص منها والانعتاق من قيودها بأيّ ثمن.

أمّا الثانية فيمتزج فيها الخوف مع الحبّ، والرهبة مع الرغبة، والذلّ مع النشوة، والخضوع مع تمنّي المزيد منه، وفيها يُقبِل السيّدُ على عبده محبّاً راحماً غفوراً ودوداً، ويُقْبل العبدُ على سيّده مستسلماً راغباً في الاستسلام، ومطمئنّاً إلى أنه لا ملجأ من سيّده إلاّ إليه، وأنّ رحمته وعدله ونعمته ومكافأته لا حدود لها يمكن أن يتصوّرها بشر.

لقد أخطأوا إذ ترجموا كلمة (عبد) –وكذلك ترجمة جمعِها (عِباد)– القرآنيّتين إلى اللغات الغربيّة بالمفهوم الغربيّ أو العالميّ المعروف للعبوديّة، فتُرجمت (عبد الله) إلى الإنكليزيّة هكذا *the slave of God*، وهذا اللفظ يقابل معنى (العبوديّة) أو (الرقّ) في العربيّة وليس (العبادة)، ممّا يجرّده أمام قرّاء الإنكليزيّة، وكذلك أمام أبناء اللغات الأخرى، من معناه الإسلاميّ الذي يقوم على الرّهبة والرغبة، والخوف والرّجاء، والثواب والعقاب، والرضى والاستمتاع، وجهنّم والجنّة، وكذلك الحبّ المتبادل بين الطرفين في هذا النوع الفريد من العبوديّة.

ويميّز القرآن الكريم بوضوح بين العبادة *worship* والعبودية *slavery*؛ إذ يَرِد اللفظ (عباد) فيه – وليس (عبيد) – (٩٥) مرةً جمعاً للّفظ (عبد) بمعنى (عابد) وليس بمعنى (الرقيق). ولكنّنا نعثر على آيةٍ واحدةٍ استخدمت اللفظ نفسه (عباد) بمعنى (عبيد):

– ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾ [النور: ٣٢]

أي (عبيدكم) أو (عباد الله الذين في حوزتكم)، وهذا الاستعمال في الآية؛ ربّما يشير إلى اجتماع معنيي العبوديّة والعبادة وتكاملهما معاً في المصطلح الإسلاميّ (عبد الله)، وكذلك في الفعل (نعبد) ومشتقّاتِه، وإذن لا بدّ من البحث عن لفظٍ إنكليزيٍّ آخر، بل ربّما عن لفظين أو أكثر في هذه اللغة، لأداء المعنى القرآنيّ بشكلٍ كاملٍ وسليم. ومن شأن هذا، ولا شكّ، تصحيح الصورة المشوّهة لدى الغرب عن إلهنا الرحيم، وعن موقف المسلم من ربّه وعلاقته به.

٥- اهدِنا:

لم يعد لفظ الهداية، في سياقه القرآنيّ الجديد، يحمل المعنى الجاهليّ التقليديّ، وهو هداية الطريق والإرشاد إليه، بل أصبح مصطلحاً إسلاميّاً خاصّاً للتعبير عن الإيمان بالله ورسوله واتّباع دينه، ويقابله لفظ الضلال أو الضلالة.

٦- الصراط:

رغم اختلاف اللغويّين في مصدر لفظ (الصراط) أفارسيٌّ هو أو يونانيٌّ أو غير ذلك؛ فإنهم يُجمعون على أنّه لفظٌ قرآنيٌّ جديدٌ على العرب، وهي من الحالات القليلة التي سلّم فيها اللغويّون بالحقيقة ورضوا بالاعتراف، غير المعتاد منهم، بالتجديد اللغويّ في القرآن الكريم.

ويخلو الشعر الجاهليّ تماماً من هذا اللفظ، ولكنّه يتكرّر في القرآن، مع ذلك، ٤٥ مرّة، ويتكرّر في الحديث الشريف عشرات المرّات.

ولكن ما هو أغرب من جِدّته أنّ معناه في القرآن الكريم، في جميع استعمالاته، يختلف تماماً عن معناه في الحديث الشريف.

إنّ معناه القرآنيّ هو الطريق القويم أو الهداية أو الإسلام، أو الطريق عامّةً، كما يتبيّن لنا في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٦١]
- ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦]
- ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود: ٥٦]
- ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٧٤]
- ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [يس: ٦٦]

أمّا في الحديث الشريف فيختصّ معناه بالطريق الأخرويّ الشاقّ الذي سيجعل الله تعالى كلّ البشر يمرّون مِن فوقه يوم الحساب؛ ليتقرّر مصيرهم هناك: في الجنّة أو في النار..

ويندر أن نجد اللفظ في الحديث الشريف بالمعنى القرآني، ويقع هذا غالباً، إن وقع مطلقاً، في سياق الكلام عن آيةٍ ذُكر فيها اللفظ، أو في ثنايا دعاءٍ يتوجّه مضمونه نحو الهداية إلى الصراط المستقيم الذي نصّت عليه سورة (الفاتحة).

وفي الأحاديث التالية ما يوضّح معنى اللفظ واستخدامَه في اللغة النبويّة:

- "إنّ هذا الصراط مُحتَضَرٌ تَحضُره الشياطينُ، ينادُون: يا عبدَ الله هذا الطريق، فاعتصِموا بحبل الله فإنّ حبلَ الله هو القرآن"[1]

- "عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله عزّ وجلّ ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ فأين يكونُ الناسُ يومَئذٍ يا رسولَ الله؟ فقال: على الصراط"[2]

- ".. فيأتيهمُ اللهُ فيقول: أنا ربُّكم، فيقولون: أنتَ ربُّنا، فيدعوهم، فيُضرَبُ الصراطُ بين ظَهرانَيْ جهنّم، فأكونُ أوَّل مَن يَجُوزُ مِن الرُسُلِ بأمّتِه.."[3]

إنه إذن، ليس مجرّد لفظٍ جديدٍ يضاف إلى قاموسنا اللغويّ، وإنما هو أيضاً مصطلحٌ جديدٌ سيضاف إلى قاموسنا الدينيّ عن الاستقامة والهداية والإيمان، وصورةٌ جديدةٌ تغني خيالنا الأدبيّ عن جزئيّةٍ فريدةٍ من حياةٍ أخرى تنتظرنا بعد الموت لا نعرف عن مفرداتها وتفاصيل أوصافها إلاّ القليلَ ممّا جاء عنها في القرآن أو الحديث.

---

(١) الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن. **سنن الدارمي**، تحقيق: فواز زمرلي وخالد العلمي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط. ١، ١٤٠٧هـ، ج٢، ص٥٢٤، حديث رقم ٣٣١٧.

(٢) القشيري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ط.)، (د. ت.)، ج٤، ص٢١٥٠، حديث رقم ٢٧٩١.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص ٢٧٧، حديث رقم ٧٧٣.

٧- الذين أنعمت عليهم:

هذا التعبير أضحى، منذ تنزّله، مصطلحاً يعني: المؤمنين، بمختلف أشكالهم، مقابل التعبيرين التاليين له، ويشيران إلى غير المؤمنين بمختلف فصائلهم.

٨- غيرِ:

لعلّ استعمال هذا اللفظ، ثم اللفظ (ولا) من بعده، أغرب ما في هذه السورة، والأشدّ إثارةً والأكثر خروجاً عن المألوف.

عندما تسأل إنساناً عن أمرٍ فيحدّثك عن غيره تقول له:

سألتك عن ذلك الأمر لا عن هذا الأمر، أو:

وليس عن هذا الأمر.

ولكنك لن تقول أبداً:

سألتك عن ذلك الأمر غيرِ هذا الأمر.

أي إننا اعتدنا أن ننفي، بعد الإثبات، بأداة النفي (لا) أو أداة النفي الأخرى المشفوعة بالواو (وليس)، ولكنّ الآية، خلافاً لكلّ الأعراف اللغوية المتَّبعة في لغتنا، ماضياً وحاضراً، والمتَّبعةِ كذلك في لغة الحديث النبويّ، بل المتّبعة في القرآن الكريم نفسه –خارج هذه السورة– تَستخدم (غير) بدلاً من أداتَي النفي المعتادتين (لا، وليس). إنّها لغةٌ خاصّة انفردت بها الفاتحة وحدها دون سائر سوَر القرآن الكريم.

٩- ١٠- المغضوبِ عليهم، الضالّين:

وهما التعبيران الثاني والثالث في السورة بين التعبيرات التي تشمل أصحاب الديانات السماويّة الثلاث، وهم يتوزّعون في ثلاثة أصناف: من وقفوا مع أنبيائهم وآمنوا برسالاتهم جميعاً، أو الّذين حاربوهم وقتلوهم فغضب الله عليهم، أو الّذين اتّبعوهم، ولكن ضلّوا عن طريقهم.

١١- ولا:

مرّةً أخرى نحن نتعامل مع الأعراف اللغويّة. إنّ هذه الأعراف تقضي بعطف (لا) على (لا)، وعطف (غير) على (غير) حين نؤكّد النفي، ولا يقع أيّ تبادلٍ بين هاتين الأداتين مطلقاً، إلاّ في القرآن، وفي هذه السورة وحدها دون بقيّة السور.[١] نحن نقول:

لا نريد هذا ولا هذا، أو:

نريد غير هذا وغير هذا

ولا نقول:

نريد غير هذا ولا هذا

لقد عُطفت (لا) في الآية على (غير)، خلافاً لما اعتدناه في تعاملنا مع هذه الأداة، بل خلافاً لاستعمالاتها في أيّ موقعٍ آخر من القرآن الكريم، ومن الحديث الشريف أيضاً، حيث تعطف (لا) باستمرارٍ على (لا) أخرى تسبقها، كما في قوله تعالى:

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٢]

- ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ [القيامة: ٣١]

- ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ [الغاشية: ٧]

ومن المهمّ هنا التفريق بين (غير) التي تنفي بعد إثباتٍ -وهي ما يَعنينا هنا- و (غير) المنصوبة على الحاليّة، والتي لا تنفي أمراً بعد إثباتِ غيره، وإنما تأتي حالاً منفيّةً يتبعها نفيٌ آخر، بـ (لا) أو بغيرها، كقوله تعالى:

---

(١) نستأنس هنا بقراءة أحد كبار القرّاء وهو أُبيّ بن كعب للآية هكذا: (وغير الضالّين)، وكأنّي به يفسّر الآية فيقرأها بلغتنا العاديّة، انظر:

- شاهين، عبد الصبور. **تاريخ القرآن**، القاهرة: دار القلم، ١٩٦٦م، ص١٥٣.

- ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ ﴾ [البقرة: ١٧٣]

- ﴿ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ ﴾ [النساء: ٢٥]

فعُطفت (لا) هنا على (غير) وهذا لا يخالف العرف اللغويّ لأنّ (غير) أتت حاليّةً، ولم تنفِ أمراً بعد إثبات غيره. ومِثلُ (غيرَ) الحاليّةِ هذه كثيرٌ في القرآن الكريم.

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- بسم الله:

لم يُلغِ الإسلام التسمية الجاهليّة المعروفة (باسمك اللهمّ) فقد كرّسها الحديث الشَريف في بعض الأدعية النبويّة، وكلّنا يردّد قبيل نومه الدعاء النبويّ المأثور: "باسمك اللهمّ أموت وأحيا". ولكنّ الصيغة الجديدة (**بسم الله**) تتخلّى عن أسلوب النداء الموجود في التسمية الجاهليّة، فتقلبها من صيغة المخاطَب التي يقتضيها النداء (باسمكَ "أنتَ" اللهمّ) إلى صيغة الحياد/الغائب (باسمـ"ـهِ هو" الله).

وهكذا يرتبط شبهُ الجملة (بسم) لأوّل مرّةٍ بلفظ الجلالة مباشرةً، وليس بالضمير العائد عليه (باسمك)، وهذا ما لم يعرفه التراث الجاهليّ، شعره أو نثره، من قبل.

٢- **الحمد لله** (الابتداء بالحمد وتعدّيه إلى لفظ الجلالة باللام):

لم يستعمل العرب، فيما وصل إلينا من تراثهم قبل الإسلام، لفظ (الحمد) هكذا معرّفاً بـ (الـ) مع الابتداء به، ومع مجيء خبره شبهَ جملةٍ مجروراً باللام (لله)، كما حدث في هذه السورة، إلاّ في بيتٍ واحدٍ من بحر الرَجَز يُنسب إلى قُسّ بن ساعدة الإياديّ، خطيب الجاهليّة الذي حُمِلَ عليه من المنحول ما لم يُحمل على كثيرٍ من الجاهليّين غيره، ولا نملك إلاّ أن نشكّك بصحّة نسبة البيت إليه لوضوح الطابع القرآنيّ فيه، كما يمكن أن يتبيّن لأيّ قارئٍ عاديّ:

الحـمـــــدُ لله الـــــذي   لـم يَخلُـقِ الخَلْـقَ عبَـثْ

وكلّ ما يرِدُنا، خلافَ ذلك، من حالات هذا اللفظ فاسمٌ مجرّدٌ مستقلٌّ بنفسه، غيرُ مرتبطٍ بشخصيّةٍ، عاقلةٍ أو غير عاقلة. ولْنلاحظ كيف تَجَرّد اللفظ (الحمد) في الأمثلة الجاهليّة التالية من الاستناد أو الإضافة إلى أيّ لفظٍ يمكن أن يعود الحمدُ إليه:

والمعطيان ابتغاءَ الحمدِ مالَهما … والحمدُ لا يُشترَى إلاّ بأثمانِ

ابن المضلَّل (ت ؟ ق.هـ)

لكنّما عِوَلي إن كنتُ ذا عِوَلٍ … على بصيرٍ بكسبِ الحمدِ سبّاقِ

تأبّط شرًّا (ت ٨٥ ق.هـ)

تَلُومانِ لمّا غَوّرَ النجمُ ضِلّةً … فتىً لا يرى الإتلافَ في الحمدِ مَغرَماً

حاتم الطائيّ (ت ٤٦ ق.هـ)

وبالعدل فانطِقْ إنْ نطقتَ ولا تَجُرْ … وذا الذمّ فاذمُمهُ وذا الحمدِ فاحمَدِ

عديّ بن زيد (ت ٣٦ ق.هـ)

وتتأكّد لنا قرآنيّة اللفظ لو علمنا أنه ورد في القرآن الكريم ٤٣ مرةً؛ ارتبط في ٣٨ منها هكذا (بال) ومستنداً إلى لفظ الجلالة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، وتجرّد في خمسٍ منها فقط من (ال) ولكنّه أضيف مع ذلك، في الحالات الخمس، إلى ضميرٍ عائدٍ على ذاته تعالى (بحمدك - بحمده).

وقد يساعدنا على تفهّم قيمة هذه الجِدّة اللغويّة وتصوّر المفاجأة والتساؤل اللذَين أثارهما هذا التركيب لدى العرب الأوائل ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه قال:

- "قال عمر رضي الله عنه: قد علمنا (سبحان الله) و (لا إله إلاّ الله) فما (الحمد لله)؟ فقال عليّ رضي الله عنه: كلمةٌ رضيَها لنفسه."[1]

(١) الرازي، عبد الرحمن بن محمد. **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكة المكرمة: مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، ط. ١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، ج١، ص٢٧، فقرة رقم ١٣.

٣- الحمدُ لله (طلبٌ من غير فعلِ طلب):

يقول ابن جرير: "الحمد: ثناءٌ أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أَمَرَ عباده أن يُثنوا عليه، فكأنّه قال: قولوا الحمدُ لله."[(١)]

من الواضح أنّ الله تعالى أراد أن يضع عبارة الحمدِ هذه على ألسنتنا ولكن من غير أن يرِد قبلها صراحةً، تبعاً لتوقّعاتنا البشريّة، فعلُ الطلب أو الأمر، وهو فعلٌ نستطيع أن نقدّره بأنفسنا كما ذهب ابن جرير. هذا النوع من الحذف، أو من الطلب، أسلوبٌ قرآنيٌّ فريدٌ لم يعرفه العرب قبل القرآن، ولا نعرفه في أيّ أسلوبٍ بشريٍّ آخر حتّى الآن.

٤- الحمدُ لله (تعبيرٌ جديد):

بغضّ النظر عن خصيصة (الطلب) التي تحدّثنا عنها أعلاه في هذا الأسلوب، فإنّه تعبيرٌ جديدٌ أضافه القرآن الكريم إلى معجمنا اللغويّ، ولم يكن معروفاً عند العرب قبل القرآن، ولكنّه يتكرّر فيه مع ذلك ٢٣ مرّة.

٥- ربّ العالمين:

يرِد هذا التعبير ٤٢ مرّةً في القرآن الكريم، وهو إضافةٌ جديدةٌ إلى معجم التعبيرات العربيّة لم يعرفها العرب قبل القرآن.

٦ - ٧ -٨ - الرحمن/ مالك/ الصراط:

كانت (الجملة) في النثر، و(البيت) في الشعر، هما الوحدة اللغويّة الصغرى التي يتعامل بها العرب في تعبيرهم، شأنها شأن (الغْرام) الوحدة الصغرى التي نتعامل بها اليوم في أوزاننا.

---

(١) القرطبي، محمد بن أحمد. **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط. ٢، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م، ج١، ص١٣٦.

وجاء القرآن الكريم ليتجاوز هذه الحدود ويَخرج عن الشكل التقليديّ للوحدة اللغويّة، فيجعل من "الآية" وحدةً جديدةً مختلفة البناء تحلّ محلّ الوحدة التقليديّة القديمة.

هل تتذكّرون أيّة جملةٍ أو عبارةٍ أو وحدةٍ لغويّةٍ عربيّةٍ تبدأ بصفةٍ أو بدل؟

إنّ عجائب الحاسوب والموسوعات الضوئيّة المتوفّرة حتى الآن لن تساعدنا للأسف في الإجابة عن هذا السؤال، ولكن ما نحن متأكّدون منه أنّ ذلك لا يتكرّر في لغتنا، بحيث يشكّل ظاهرةً، إلاّ في القرآن الكريم.

ولا يُستثنى من ذلك الحديثُ الشريف الذي يخلو أيضاً من وجود هذه الظاهرة اللغويّة الفريدة.

وتتكرّر هذه الظاهرة في الفاتحة وحدها ثلاث مرّات، فتبدأ بصفةٍ أو ببدلٍ كلٌّ من الآيات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ و ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ و ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، فالألفاظ (الرحمن - مالك - صراط) صفةٌ أو بدلٌ لألفاظٍ سبقتها. ولو حدث أن اتّصلت هذه الآيات الثلاث كلٌّ بما قبلها لتتوحّد في جملةٍ واحدة، بحيث لا تنفرد كلٌّ منها لتكون وحدةً لغويّةً مستقلّة، أي (آية)، لسقطت قضيّتنا هنا، فلا يكون لنا منها أيّ شاهدٍ يدخل في موضوعنا الإعجازيّ.

لنلاحظْ مثلاً أنّنا لم نتوقّف قبل قوله تعالى ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ رغم أنها عبارةٌ تبدأ، كالآيات الثلاث، بصفةٍ أو بدلٍ أيضاً، فاللفظ (غيرِ) هنا صفةٌ مجرورةٌ أو بدلٌ من الاسم الموصول (الذين) قبله، وإذن كان يمكن للعبارة التي سبقتها ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أن تستقلّ وحدها في آيةٍ لتبدأ بعدها الآية التالية ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، ولكنّ القرآن جمع بينهما هنا في آيةٍ واحدةٍ على عكس ما حدث في الآيات الأخرى.

إنّنا في القرآن أمام مفهومٍ جديدٍ كلّياً لـ (الوحدة اللغويّة) التي كانت تقتصر في اللغة العربيّة، عشيّة نزول القرآن الكريم، على (الجملة) في النثر و(البيت) في الشعر.

٩- الرحمن الرحيم:

تعبيرٌ جديدٌ لم يعرفه العرب قبل القرآن الكريم، ويتكرّر في الفاتحة مرّتين وفي بقيّة السور ٤ مرّات (لا بدّ من التأكيد هنا على أنّ البسملة هي إحدى آيات الفاتحة السبع، خلافاً لوضعها مع السوَر الأخرى).

١٠- مالكِ يوم:

غرابة هذا التركيب لا تقتصر على اللغة العربيّة، فهو غريبٌ في كلّ لغة، ولا سيّما حين نعرف أنّه ينتمي لحقبة تعود إلى ما قبل أربعة عشر قرناً، حين لم يكن هناك رمزيّةٌ ولا سرياليّةٌ في الأدب أو الشعر.

لقد اعتدنا، كما اعتادت كلّ لغة، أن يضاف الامتلاك إلى أمرٍ محسوسٍ، فهناك:

مالكُ المال،

ومالك الأرض،

ومالك المخزن،

ومالك البناء،

ومالك المصنع،

وكلّ هذه الممتلكات أمورٌ محسوسةٌ تُمسَك باليد، ولكنّنا لم نسمع من يقول: مالك الدقيقة أو الساعة أو اليوم أو الشهر، وهل يُملك الزمن أو يُمسَك؟! وهل سمعتَ عن شخصٍ جاء إلى المصرف ليوْدع في حسابه شهراً أو عشرين يوماً؟!

ولا شكّ أن العربيّ الأوّل قد هزّته هذه العلاقة الغريبة الجديدة بين المُلك والزمن، فكيف بك إذا جاءت هذه العلاقة في سياق علاقاتٍ جديدةٍ أخرى تُجاورها ولا تقلّ عنها غرابةً وسحراً، كهذه العلاقة التالية:

١١- يوم الدِّين:

حالاً، بعد أن تتجاوز أذنُ العربيّ الأوّل هذه "الأزمة الفكريّة" التي واجهتها في مطلع الآية حيث أُسنِد المُلْكُ إلى الزّمن، تجد نفسها قبالة أزمةٍ أخرى: كيف يضاف (اليوم) -وهو زمنٌ- إلى غير الحدث (الدِّين)؟!

لقد اعتادت اللغات البشريّة جميعاً ألاّ يأتي الزمن فيها إلاّ مرتبطاً بحدثٍ يَحدث فيه ويضاف إليه، فنقول:

يوم المعركة، يوم السفر، يوم الامتحان، يوم السباق، يوم الافتتاح؛ فالمعركة والسفر والامتحان والسباق وحفل الافتتاح كلّها أحداثٌ يستوعبها زمنٌ تقع فيه، أمّا ﴿ٱلدِّينِ﴾ فهو عند العربيّ، حتّى ذلك الوقت، اسمٌ مجرّدٌ من أيّ معنىً للحدث!

وسيسأل العربيّ نفسه ألف مرةٍ عن هذا الربط اللغويّ الغريب بين الزمن والمعنى المجرّد من أيّ حدث؛ قبل أن تستقرّ الآية في شعوره الداخليّ وتعتادَها ملَكته اللغويّة.

طبعاً، سيكتشف العربيّ فيما بعد أنّ هذا التعبير، بالاصطلاح الجديد الذي شَحن به القرآن لفظ (الدّين)، سيحمل من الآن فصاعداً معنى حدثٍ كبيرٍ جداً، وهو يوم الحساب.

١٢- مالكِ يومِ الدين:

وهذه آيةٌ أخرى تستقلّ كاملةً بصفةٍ واحدةٍ -وليس صفتين هذه المرّة- هي اللفظ (مالك) ومعه توابعُه التي تُعدّ جزءاً منه ولا يكتمل إلاّ بها، وهي المضافان (يوم) و(الدين).

إنّ ظاهرة استقلال الصفة بآيةٍ، أو بوحدةٍ لغويّةٍ كاملة، أمرٌ لم يعهده النحو العربيّ من قبل، ولن يعرفه مِن بَعد.

١٣- مالك يومِ الدين:

تعبيرٌ جديدٌ خاصٌّ بالقرآن الكريم، بل هو خاصٌّ بسورة (الفاتحة) فلا يتكرّر في القرآن أبداً.

١٤- مالكِ يومِ الدين. إيَّاك نعبدُ:

تحدّث البلاغيّون، كما فصّلنا في الجزء الأوّل، عن ظاهرة (الالتفات)، فلم يفرّقوا بين الآيات والأشعار الجاهليّة حين أتوا بشواهدهم عن هذا الفنّ البلاغيّ الذي أدخله القرآن إلى قاموسنا الأدبيّ، وإن ظلّ في الحقيقة، حتّى اليوم، بعيداً عن متناول أدبائنا وشعرائنا، بل عن متناول أيّة لغةٍ أخرى أعرفها، ومقتصراً، بشكله الفنيّ المتطوّر، على لغة الكتاب الكريم وحده.

ويتجسّد لنا هذا الأسلوب واضحاً في الفاتحة حين التفتت الآيات فجأةً إلى صيغة المخاطَب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متحوَّلة عن الخطاب الحياديّ/ الغائب، والخالي تماماً من الضمائر ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾.

إنّها صيغةٌ فريدةٌ وساحرة، رغم أنّ روح ضمير جماعة المتكلّمين (نحن) الموجّه إلى المفرد الغائب (أي إلى الله تعالى) يظلّ مهيمناً عليها، حتى إن لم يظهر هذا الضمير بجسده في الآيات الأربع الأولى من السورة، إذ لا أثر في هذه الآيات لأيٍّ من ضمير المتكلّمين (نحن نحمدك) أو ضمير المخاطب (أنتَ الرحمن)، إلى أن تأتي الآية الخامسة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حيث يتوالى فيها فجأةً الضميران معاً (الضمير الظاهر: إيَّاك، والضمير المستتر: نحن).

إنّها صلاةٌ مجرّدةٌ من الضمائر يلقيها الله تعالى على ألسنة المؤمنين ليتوجّهوا بها إليه. وهذه الصيغة الحياديّة، التي تسمو في حياديّتها، إلى حدّ

التجرّد من الضمائر تماماً، رغم مؤدّاها الخطابيّ (نحن نخاطبك أو نتوجّه إليك)، أسلوبٌ لغويٌّ صعبٌ ونادر، وأكاد لا أعرفه إلاّ في نصوص التسبيح والتمجيد والتبتّل إلى الله.

١٥- ١٦- إيّاك نعبد / اهدنا الصراط:

من الواضح أنّ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ كلّه، في قياساتنا البشريّة، جملةٌ واحدة -رغم توزّعِه على ثلاث آياتٍ- لأنه، من الناحية الإعرابيّة، جملةٌ مؤلّفةٌ من مبتدأ (الحمد) وخبره المقدَّر (كائنٌ لله)، وما تبقّى فألفاظٌ ملحقاتٌ بهذا الخبر، بين صفةٍ أو بدلٍ أو مضاف، إلى أن تبدأ الآية التالية لهذه الجملة الطويلة، والتي تخلو من أيّ رابطٍ لغويٍّ يربطها بما قبلها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ثمّ تلي هذه آيةٌ أخرى هي أيضاً جملةٌ جديدةٌ لا يربطها بما قبلها رابطٌ لغويّ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

ولو تبصّرنا هذه الحقائق اللغويّة، ثم حاولنا أن نعبّر عن المعاني نفسها بلغتنا البشرية العاديّة، فماذا يمكن أن نقول؟ ستكون عباراتنا شيئاً من هذا القبيل:

نشكرك يا من تمنّ بالرحمة على عبادك، (و) نعبدك وحدك، (و)لا نطلب العون من غيرك، (فـ)سدّد خطانا على طريقك، أو:

نحن ممتنّون لك أيها الإله الرحيم، (و) لن نعبد غيرك، (و) لن نعتمد على أحدٍ سواك، (فـ)اهدنا إلى الطريق القويم، أو:

لك الشكر يا أرحم الراحمين، (فـ)أنت وحدك من نتخذه معبوداً،(و) نفوّض أمرنا إليه، (فـ)امنحنا الهداية والرشد

هل لاحظنا هنا أننا لم نتخلّ في عباراتنا الثلاث عن أحد حرفي العطف (الواو) أو (الفاء) للربط بين الجمل الأربع: جملة الشكر، وجملة التوحيد والتفرّد بالعبادة، وجملة الاستعانة والتوكّل والتفويض، ثمّ جملة الدعاء بالهداية إلى طريق الإيمان والصلاح؟ إنّ هذا شأن كلّ متكلّمٍ بالعربية الأرضيّة (بمقابل السماويّة).

قد يحدث أن يُهمِل أحدنا حرف العطف هنا أو هناك، ولكن ذلك لن يشكّل عنده ظاهرةً اسمها (التخلّي عن الروابط التقليدية) كما اتسمت به اللغة القرآنيّة في عديدٍ من السوَر والمواقع، فظلّت الآيتان الخامسة والسادسة في هذه السورة من غير رابطٍ لغويٍّ يربط كلاًّ منهما بالآية التي سبقت.

وربّما وجدنا آثاراً نادرةً لهذه الظاهرة القرآنية، في بعض أسجاع الكهّان التي يتناقلها مؤرّخو الأدب العربيّ، إن صحّت، كما في القول الذي يُنسب إلى قُسّ بن ساعدة الإياديّ وورد في بعض الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة في رواياتٍ مختلفة:

- أيها الناس، اجتمعوا واستمعوا وعُوا: من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ما هو آتٍ آت، إنّ في السماء لخبراً، وإنّ في الأرض لعِبَرًا، مهادٌ موضوع، وسقفٌ مرفوع، ونجومٌ تمور، وبحارٌ لا تغور، أقسمَ قُسٌّ قسَماً حقًّا: لئن كان في الأمر رضىً، ليكوننّ سخط، إنّ لله تعالى لديناً هو أحبّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرَضُوا فأقاموا، أم تُركوا فناموا..[1]

ولكنّ الأمر في القرآن الكريم لا يتوقّف عند جملةٍ هنا أو جملةٍ هناك، وإنّما يتحوّل إلى ظاهرةٍ تكاد لا تخلو منها سورةٌ، بل إنّ هذه الظاهرة، على عكس ما نجده في سجع الكهنة، كثيراً ما تجزّئ الآية الواحدة إلى عدّة جملٍ لا يربط بينها رابطٌ لغويّ، كما في الآيات التالية:

- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ / كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ / تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ / قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١١٨]

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. **الموضوعات**، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، بيروت: دار الفكر، ط. ١، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م، ج١، ص٢١٣.

لاحظ كيف توقّف الكلام ثمّ استُؤنف من جديدٍ ثلاث مرّاتٍ في الآية (كذلك قال/ تشابهت قلوبُهم/ قد بيّنّا) من غير وجود رابطٍ لغويٍّ يربط الجمل الأربع فيما بينها.

١٧ – إيّاك نعبد:

تعبيرٌ قرآنيٌّ جديدٌ، بل هو خاصٌ بسورة (الفاتحة) فلا يتكرّر في غيرها من السوَر.

١٨ – نستعين:

يتعدّى هذا الفعل إلى مفعوله عادةً بالباء، فنقول (سأستعين بك) و (الاستعانة بالله تعالى). وقد اختصّت السورة بهذه الصيغة للفعل، كما اختصّت بعدم تعديته بالباء، فرغم أنّ صيغةً مختلفةً له تَرِد في ثلاثة مواقع أخرى من القرآن؛ فإنّنا نجده يتعدّى فيها جميعاً بالباء:

- ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [البقرة: ٤٥]
- ﴿ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [البقرة: ١٥٣]
- ﴿ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]

ولا نجد الفعل في الشعر الجاهليّ إلاّ متعدّياً بالباء، كما في هذه الأبيات:

جمعتَ رُدَينيّاً كأنّ سِنانَهُ سَنا لهبٍ لم يَستعِنْ بدخانِ

عُميرة بن جُعل التغلبيّ (ت ٥٦ ق.هـ)

غير أنّي قد أستعينُ على الهـ ـمِّ إذا خفَّ بالثويّ النجاءِ

الحارث بن حِلِّزَة (ت ٤٥ ق.هـ)

كأنْ لم يكنْ مِنّا ولم نستعِنْ بهِ على نائباتِ الدهرِ إلاّ تذَكُّرا

هُدبة بن الخشرم (ت ٥٠ ق.هـ)

إنّها إذن، خصوصيّةٌ أخرى من خصوصيّات القرآن عامّةً، وخصوصيّةٌ أخرى تنفرد بها هذه السورة خاصّةً.

١٩- إياك نعبد وإيّاك نستعين:

على عكس الآيات الأولى من السورة، وقد توزّعت الجملةُ الواحدة فيها على ثلاث آيات، نجد هذه الآية وقد استوعبت جملتين كاملتين مكوّنتين من أربع كلمات. وليس هذا وجهَ الجِدّة فيها، وإنّما هو الاستقلالية التي يتمتّع بها كلٌّ من الجملتين وهما تحت مظلّةِ الآية الواحدة.

إننا نشعر، مع هذه الاستقلاليّة العجيبة لكلٍّ من الجملتين، وكأنّ علينا أن نتوقّف في تلاوتنا عند النصف الأول من الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قبل أن نتابع إلى النصف الثاني ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لما لكلٍّ من هذين الجزأين من تميُّزٍ في الشخصيّة يجعل منه محوراً قائماً بنفسه، وله مَدارُه الخاصّ والمختلف عن مَدار الآخر.

فنحن في الجزء الأوّل نتوجّه إلى الله بالعبادة والتسبيح، فهو إذن جملةٌ إخباريّةٌ (نحن نعبدك) ليس فيها أيّ طلب، على حين نتوجّه إليه في الثاني بالسؤال وطلب العون، فيتحوّل السياق إلى إنشائيٍّ طلبيٍّ (أعِنّا) معاكسٍ للأسلوب الإخباريّ الذي سبقه، وإن جاء في صيغةٍ نحويّةٍ خبريّةٍ لا تصرّح بالطلب (إيّاك نستعين، تعني: أعنّا).

وربّما يتوضّح لنا هذا التميُّز العجيب بين الجزءين بشكلٍ أكبر لو قرأنا الحديث القدسيّ التالي:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول اللهُ تعالى: قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، فنصفُها لي ونصفُها لعبدي، ولعبدي ما سأل. إذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال: حَمِدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال: أثنى عليّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجّدني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل"[1]

وإذن، فالآية هنا هي التي تتوسّط السورة، ومنتصف الآية هو منتصف السورة، حيث ينتهي موقفٌ تسبيحيٌّ تعظيميّ لله ويبدأ موقفٌ دعائيٌّ توسّليٌّ طلبيٌّ مختلف. ويصل اللقاء الخطابيّ بين المتكلّمين (البشر) والمخاطَب (الله تعالى) ذروتَه القصوى في كلمةٍ واحدةٍ اجتمع فيها ضمير المتكلمين (نحن) وضمير المخاطَب (أنتَ) وهي الكلمة التالية مباشرةً لهذه الآية (اهدِنا).

وربما كان في إحدى القراءات الشاذّة التي تجعل من الفاتحة ثماني آياتٍ ما يساعدنا على إيضاح ما نقول، إذ تقسم تلك القراءةُ الآيةَ إلى آيتين لتكرّس هذا التمايز بين طبيعة الجزءين ضمن الآية الواحدة. كما أنّ لعليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قراءةً للفظ (نعبدُ) تصبّ في هذا الاتجاه، وهذه القراءة هي "بإشباع الدال حتّى تتولّد منه واوٌ" كما يورد ابن خالويه في (مختصر البديع) والكرماني في (شواذّ القراءة واختلاف المصاحف).[2]

إنّ مدّ الكلمة في العربيّة من شأنه أن يمنحها شخصيّةً واستقلاليّةً تجعلانها تتميّز عمّا قبلها أو بعدها من الكلمات. ومدّ الدال في (نعبد) يوازي إلى حدٍّ كبيرٍ التوقّف القصير، والتوقّفُ في نهاية كلمةٍ أو عبارةٍ يعني استقلاليّتها واختلافها وانفصالها المعنويّ النسبيّ عن الكلمة أو العبارة التالية، ولذلك كان معظم آيات القرآن الكريم ينتهي بمدّ، وهذا شأن أكثر القصائد الشعريّة أيضاً.

٢٠- إيّاك نستعين:

تعبيرٌ قرآنيٌّ جديدٌ، وهو خاصٌّ بسورة (الفاتحة) فلا يتكرّر بعد ذلك أبداً.

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص٢٩٦، حديث رقم ٣٩٥.

(٢) شاهين، **تاريخ القرآن**، مرجع سابق، ص١٧٥.

٢١- اهدِنا الصراط:

يتعدّى الفعل (هَدى) ومشتقّاتُه عادةً إلى المفعول به بأحد حرفَي الجرّ: (اللام) أو (إلى) كما في الآيتين:

- ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥]
- ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]

وتعدّي الفعل (اهدِنا) إلى مفعوله بنفسه، من غير الاستعانة بأحد هذين الحرفين -كما حصل في السورة- يُعدّ ظاهرةً خاصّةً بالقرآن الكريم.

والغريب أنّ لغتنا المعاصرة، ولغة تراثنا كلّه، وكذلك لغة الحديث النبوي، لا تكاد تعرف هذا الفعل متعدّياً بنفسه حتّى يومنا هذا، رغم التأثير القرآنيّ المستمرّ على مدى أربعة عشر قرناً، ورغم ترديدنا لهذا الفعل، ضمن هذه السورة، مراتٍ عديدةً كلّ يوم. حتى إن حدث وتعدّى بنفسه في الحديث الشريف، وهذا نادر، فستجد ذلك في روايةٍ موازيةٍ لروايةٍ أخرى للحديث نفسه تعدّى فيها باللام، كهاتين الروايتين من مسند أحمد:

- ربّنا اغفرْ لي وارحمْني واهدِني للطريقِ الأقوَم
- ربِّ اغفرْ وارحمْ واهدِني السبيلَ الأقوَم

وهذا يؤكّد لنا تَميّز الاستعمال القرآنيّ للفعل، مثلما يؤكّد جِدّة المعنى الاصطلاحيّ لهذا الفعل، وهو: اتّباع الطريق المؤدّي إلى الله.

٢٢- اهدِنا الصراط المستقيم:

رغم ورود اللفظ (صراط) ٤٥ مرّةً في القرآن الكريم فإنّ تعبير ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ يقتصر على هذه السورة فلا يتكرّر في غيرها أبداً، وهو تعبيرٌ قرآنيٌّ جديدٌ لم يعرفه العرب قبل الإسلام.

٢٣- أنعمتَ عليهم:

تعبيرٌ جديدٌ على العربيّ، خاصٌّ بالقرآن الكريم، وهو يتكرّر فيه مع مشتقّات هذا الفعل ١٧ مرّة.

٢٤- المغضوبِ عليهم:

هذا نوعٌ آخر من الالتفات، يتحوّل فيه الحديث فجأةً من صيغةٍ لغويّةٍ إلى أخرى مختلفةٍ وغير متوقَّعة. فبعد أن سمعنا الجملة الفعليّة ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ سنتوقّع أن نسمع بعدها جملةً فعليّةً موازيةً مثل (غضبتَ عليهم)، ولكنّ السورة تُخْرجنا من هذا الخَدَر والاستسلام للعرف اللغويّ، والانسياق مع توقّعات النفس الكسول، فتوقظنا بصيغة اسم المفعول الاسميّة المخالفة لتوقّعاتنا ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.(١)

٢٥- الضالّين:

وبالطريقة نفسها يفاجئنا هذا اللفظ الآخر. لقد انتهينا أوّلاً من صيغةٍ فعليّةٍ ماضية، وتوقّعنا بعدها صيغةً فعليّةً مماثلة، ففوجئنا، بدلاً من ذلك، بالصيغة الاسميّة. أمّا الآن، وقد بدأنا نستسلم لتوقّعات الصيغة الجديدة التي جاءت في شكل اسم مفعولٍ ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وتهيّأنا لاستقبال اسم مفعولٍ آخر يُعطف عليه من مثل (الملعونين) أو (المنبوذين)، فنجد أنفسنا أمام صيغةٍ مغايرةٍ وهي الصفة المشبّهة باسم الفاعل (الضالّين) -رغم أنّ الصيغتين كلتيهما جاءتا للوصف- إضافةً إلى أنّ هذه الصفة لم ترتبط بشبه جملةٍ يتعلّق بها كما حدث في الصفتين السابقتين اللتين انتهت كلتاهما بـ (عليهم) فلم يقل مثلاً (الضالّين منهم).

---

(١) تنبّه اللغويّ الكبير ابن جنّي إلى هذا الالتفات ووجد له تسويغاً بلاغيّاً بقوله: "قال ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فصرّح بالخطاب لمّا ذكر النعمة، ثمّ قال ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل (غير الذين غضبت عليهم) وذلك أنّه موضع تقرّبٍ من الله بذكر نِعَمه، فلمّا صار الكلام إلى ذكر الغضب قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل (غير الذين غضبت عليهم) كما قال ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأسند النعمة إليه لفظاً، وزَوى عنه لفظَ الغضب تحسُّناً ولطفاً"، انظر:

- ابن جني، أبو الفتح. **المحتَسَب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، ج١، ص٢٤٠- ٢٤١.

هذه الالتفاتات المتوالية السريعة لم يعرفها العرب قبل القرآن، لا بمثل هذا النضج والعمق والتفرّد والوضوح، ولا بمثل هذه الكثافة والتنوّع.

٢٦- غيرِ/ المغضوبِ عليهم:

هذا التعبير، في شكله الكامل ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، أو في شكله الجزئيّ ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، جديدٌ على العربيّ، وخاصٌّ بالقرآن الكريم وحده، بل هو خاصٌّ بسورة (الفاتحة) فلا يتكرّر بعد ذلك في غيرها من السوَر.

ثالثا – السبائك القرآنيّة:

فصّلنا القول في الجزء الأوّل عن الأشكال والقوالب اللغويّة التقليديّة التي اعتاد الشعراء والخطباء العرب قبل الإسلام أن يبنوا منها نصوصهم النثريّة والشعريّة فلا يكادون يخرجون عنها. وكانت هذه القوالب بمثابة "وحداتٍ قياسيّة" أو "لبِناتٍ" أو "سبائك لغويّة" يصوغون منها، أو على منوالها اللغويّ ومقاييسها النحويّة، وربّما على أوزانها أيضاً، خُطبَهم ورسائلهم، وبشكلٍ أخصّ: أشعارَهم.

وهكذا كانت للقرآن الكريم سبائكه الخاصّة التي استعصى معظمها على التقليد، فظلّت خاصّةً به وحده حتّى الآن. وفي الفاتحة ستٌّ من هذه السبائك القرآنيّة الجديدة، وقبل أن أشرح طبيعة الجديد في هذه السبائك الستّ، من المفيد أن نستحضر في ذواكرنا باستمرار طبيعةَ السبائك اللغويّة الشعريّة التي استشهدنا بها، فنجعلها نُصْبَ أعيننا أثناء الحديث لتَسهل علينا المقارنة، وتتضّح أمامنا الفكرة. وعذراً من القارئ لهذا الإلحاح، فنحن نخوض قضيّةً لغويّةً لم يخُض فيها أحدٌ من قبل، فيما أعلم، ونحتاج فيها إلى شيءٍ من التركيز والفِراسة، وبذلِ ما يمكن من الجهد للاستيعاب والاكتشاف والمقارنة.

١- بسم الله الرحمن الرحيم:

قلنا إنّ الإسلام لم يقضِ على التسمية الجاهليّة المعروفة (باسمكَ اللهمّ) فقد وردت في بعض الأدعية النبويّة، ولكنّ الإسلام وضع صيغةً جديدةً لها هي ﴿بِسۡمِ

ٱللَّهِ﴾، ثم لم يكتف بذلك بل وسّعها بإضافة الوصفين الجديدين لله تعالى لتصبح أربعة ألفاظ: الجارّ والمجرور (بِسْمِ) ولفظ الجلالة -المضاف إلى ذلك المجرور- والوصفين المتتاليين لاسم الجلالة، والمشتقّين من جذرٍ واحد: الرحمن الرحيم.

إنّها، بهذا التركيب المتميّز، والمواصفات الخاصّة، سبيكةٌ جديدةٌ أوجدها القرآن الكريم. حتى إن بدّلنا بعض الألفاظ فيها، كأن نقول: بسم الله العليّ القدير، أو: بسم الله السميع العليم، فإنّ البناء اللغويّ يظلّ كما هو، مع تأكيدنا، إضافةً إلى ذلك، على أهمّية تميّز هذه السبيكة عن السبيكتين اللتين مثّلنا بهما، أو أيّة سبيكةٍ أخرى توازي سبيكتنا، بوجود صفتين فيها مشتقّتين من مصدرٍ واحدٍ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ممّا يمنحها خصوصيّةً شديدة؛ إذ لا نتوقّع أن يعرف العرب، لا قبل القرآن ولا بعده، سبيكةً من مثل:

بسم الأمير الأكرم الكريم، أو:

بسم الملك المعظّم العظيم، أو:

بسم القائد المقدام القديم.

إنّ الهيكل اللغويّ والنحويّ، بتركيبه الرباعيّ والخاصّ هذا، وبوزنه الإيقاعيّ المتفرّد، يبقى هيكلاً متميّزاً وخاصّاً بالقرآن وحده.

٢- الحمد لله ربّ العالمين:

هذه السبيكة الرباعيّة الأخرى تنضمّ إلى السبائك القرآنيّة المتميّزة، بتركيبتها الجديدة المؤلّفة من مبتدأ (الحمد) وخبره شبه الجملة (أو الجارّ والمجرور: لله) مع صِفةٍ أو بدلٍ (ربّ) ومضافٍ إليه (العالَمين)، ولا وجود لمثل هذه "التركيبة النحويّة" أو السبيكة اللغويّة في التراث الجاهليّ.

إنّنا لن نتوقّع مثلاً أن نعثر هناك على جملةٍ مثل:

الشكر للملك عظيمِ الناس، أو:

العرفان للسيّد كبير الشأن

صحيحٌ أننا لا نملك الدليل القاطع على أنّ أحداً لم يقل في الجاهليّة مثل هذا، ولكنّنا نملك ما يكفي من النماذج الشعريّة، وهي مدخلٌ لنا لمعرفة الروح التي تنتظم لغة الجاهليّين، لندرك أنّ مثل هذه التركيبة لم تكن لِتندرج بين أساليب العرب آنذاك، ثمّ لم تصبح، كما يمكن أن نتبيّن بسهولة، من أساليبهم في أيّ عصرٍ تلا بعد ذلك، ولقد ظلّت كذلك غريبةً ومتفرّدةً إلى يومنا هذا.

٣- إيّاك نعبدُ وإيّاك نستعين:

طبعاً عرف العرب الضمير المنفصل (إيّاك) كما عرفوا تقديمه على الفعل العامل فيه، مثلما وقع هنا في الآية، وليس بعيداً عن ذواكرنا المثل العربي (إيَّاك أعني واسمعي يا جارة). ولكنّ التركيب القرآنيّ الجديد يتوالى في جملتين قصيرتين كلّ منهما في كلمتين ضمن آيةٍ واحدة، وبطريقةٍ متوازيةٍ متوازنة، تبدأ فيها كلّ جملةٍ بالضمير المنفصل نفسه وتنتهي بفعلٍ مختلفٍ يعمل في ذلك الضمير، وهو تركيبٌ قرآنيٌّ واضح الخصوصيّة والتميّز. إنّنا لا نتوقّع مثلاً أن نسمع عربيّاً، لا قبل الإسلام ولا بعده، أن يقول لملكه أو رئيسه:

إيّاك أُحبّ وإيّاك أُخلص، أو:

إيّاك أحترم وإيّاك أفتخر،

ولو اقتربنا بهاتين العبارتين بعض الشيء إلى لغتنا؛ إذن لقلنا على الأقلّ:

إيّاك أحبّ ولك أُخلص، أو:

إيّاك أحترم وبك أفتخر.

٤- اهدِنا الصراطَ المستقيمَ صراطَ الذين:

وهذا تركيبٌ متفرّدٌ آخر، يتألّف من فعلٍ مرتبطٍ بفاعله ومفعولِه الأوّل معاً (اهدِنا)، ويليه مفعولُه الثاني (الصراطَ) ومعه صفةٌ لهذا المفعول (المستقيمَ)، ثم يتكرّر اللفظ نفسُه (صراطَ) -ولكن بوصفه بدلاً هذه المرّة- يليه مضافٌ إليه في صورة اسم موصولٍ (الذين).

إنّ العبارة، بهذا التركيب المتداخل الفريد، والذي لا يخلو أيضاً من عنصر التوازي، وذلك بتكرار لفظ (الصراط) بحيث يأتي ترتيبه الثاني والرابع بين الألفاظ، تُعدّ سبيكةً قرآنيةً متميّزةً أخرى في هذه السورة، لا نعرف لها شبيهاً في التراث اللغويّ للعرب حتّى الآن.

٥- الذين أنعمت عليهم غيرِ المغضوب عليهم:

عرفنا من قبلُ تفرُّد استعمال اللفظ (غير) في هذه السورة، إذ حلّ لأوّل مرةٍ -ولآخر مرّة- محلّ (لا) أو (وليس)، وبدهيٌّ، بوجود هذا الهيكل اللغويّ الفريد، أن تكون السبيكة كلّها متميّزة في تركيبها، ولا سيّما أنه قد وقع لها أيضاً ما وقع من توازٍ في السبيكتين السابقتين، فتكرّر فيها اللفظ (عليهم) مرّتين بشكلٍ متوازنٍ -رغم تغيّر طبيعة اللفظ قبلهما من فعلٍ (أنعمت) إلى اسمٍ (المغضوب)- فكان ترتيبه الثالثَ والسادسَ في السبيكة المؤلّفة من ستّة ألفاظ.

٦- غير المغضوب عليهم ولا الضالّين:

تتمحور ألفاظ هذه السبيكة حول اللفظ (ولا) الذي عرفنا قيمته اللغوية حين حلّ في هذه السورة -أيضاً لأول مرةٍ وآخر مرة- محلّ (غير)، فكوّن بذلك محوراً لغويّاً هامّاً من شأنه أن يكوّن، إلى جانب ما في هذه السبيكة من مفارقةٍ صرفيّةٍ بين اسم المفعول (المغضوب) والصفة المشبّهة (الضالّين) كما أوضحنا، سبيكةً لغويّةً قرآنيّةً متميّزةً تختلف عن أيّة سبيكةٍ لغويّةٍ عرفها العرب.

ومن جديدٍ ، وقبل أن أغادر إلى الجانب التالي من جوانب الإعجاز التجديديّ في هذه السورة، عليّ أن أذكّر بأنّ فصل أيّة نقطةٍ من هذه النقاط الإعجازية الكثيرة عن النقاط الأخرى، والنظر إليها منعزلةً عن رفيقاتها، من شأنه أن يُفقدها قيمتها ويخرجها من رصيد هذا البحث. إنّ قوّة المواقع الإعجازيّة تكمن في كثافتها وتواليها عبر مساحةٍ يفوق فيها عددُ هذه المواقع عددَ ألفاظ السورة التي تحتويها.

رابعاً: اللغة المنفتحة

أوجد القرآن الكريم هذا النوع من الألفاظ والتعبيرات التي لم يعرفها العرب من قبل. فاللغة المنفتحة تقف على الطرف الآخر من اللغة العلميّة ذات البعد الواحد، والتي لا يمكن أن تفسَّر بأكثر من وجهٍ واحد. وبقدر ما تتعدّد أوجه إعراب اللفظة أو الجملة ومعانيهما فإنّهما تقتربان من تخوم "اللغة المنفتحة".

ونستطيع أن نعثر في السورة من أنواع هذه الألفاظ والتعبيرات المنفتحة على المواقع الثمانية التالية:

١- العالَمين:

هذا اللفظ يفتح أمام خيالنا آفاقاً لا حدود لها، إنه لا ينحصر في عوالم معروفةٍ محدّدة، هناك إذن "عوالم" لا "عالمٌ" واحد: فهل هي عوالم البشر وحدهم؟ أم عوالم الإنسان والحيوان والجنّ؟ أم سكّان الأرض والسماء؟ أم عوالم أخرى لا نعرفها؟ أم كلّ ذلك معاً؟[1]

٢- الرحمن:

عرفنا من قبل حَيرة المفسّرين، وحَيرتنا، ونحن نحاول أن نمسك، بأصابعنا البشريّة المحدودة، المعنى غيرَ المحدود لهذا الاسم الجديد من أسماء الله الحسنى، والذي يتجاوز في أبعاده المعنى المجرّد للرحمة الذي عرفه العرب قبل القرآن الكريم.

---

(١) هناك حديثٌ قدسيٌّ قد يلقي ضوءاً أكثر على معنى لفظ (العالمين) لأنّه يشير إلى وجود عوالم كثيرةٍ أخرى في السماء لا يعرف أحدها أيّ شيءٍ عن وجود العوالم الأخرى، وهو ما يرويه الديلميّ عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله عزّ وجلّ: يا جبريل، إنّي خلقتُ ألفَ ألفِ أمّةٍ لا تعلمُ أمّةٌ أنّي خلقتُ سواها، لم أُطلعْ عليها اللوحَ المحفوظَ ولا صريرَ القلم، إنّما أمري لشيءٍ إذا أردتُ أن أقولَ له: كنْ فيكون، ولا تسبقُ الكافُ النونَ"، انظر:

- الديلمي، شيرويه بن شهردار. **فردوس الأخبار بمأثور الخطاب المخرج على كتاب الشهاب**، تحقيق: فواز أحمد الزمرلي ومحمد المعتصم بالله البغدادي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط.١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ج٣، ص٢٢٩، حديث رقم ٤٥٢١.

٣- يوم الدين:

من منّا لا ينطلق خياله بعيداً وهو يحاول جاهداً أن يضع تصوّراً، ولو تقريبياً، عن ذلك اليوم العظيم الذي سيشهده كلّ إنسانٍ عاش على هذه الأرض، كيف وقد سمّاه تعالى بهذا الاسم الغريب الذي لا تجد له حدوداً لغويّةً كاملة الوضوح، والذي يزيده طيفيّةً ومرونةً هذا الجمع الفريد بين الزمن (يوم) واللفظ (الدين) الذي لم يعرف له العربيّ قبل القرآن دلالةً على حدثٍ، بل كان معنىً مجرّداً يُطلق على ما يعتقده الإنسان أو يدين به. وبإمكاننا تقدير القيمة الإيحائيّة لهذا التعبير لو قارنّاه بتعبيراتٍ أخرى تقابله أقلّ إيحائيّةً، من مثل: يوم الزلزال، يوم الخسف، يوم الخراب، يوم الحساب..

ورغم كثرة الآيات الكريمة، وتعدّد الأحاديث الشريفة التي تصف أحداث ذلك اليوم العصيب، تبقى تصوّراتنا الإنسانيّة عاجزةً عن الوصول إلى صورةٍ، ولو تقريبيّة، لذلك الحدث الغيبيّ.

٤- إيّاك نستعين:

إنّ حذف (المستعان من أجله) في الآية من شأنه أن يترك الخيارات مفتوحةً أمام الذهن البشريّ. ولو جاءت العبارة كهذه مثلاً: (إيّاك نستعين في مواجهة مصاعبنا) لانحصر طلب الاستعانة في هذا الجانب وحده، ولكنّها تُركت مفتوحةً لأيّ نوعٍ محتملٍ من الاستعانة: ضدّ العدوّ، ضدّ الشيطان، ضدّ النفس الأمّارة بالسوء، ضدّ المرض، ضدّ الألم، ضدّ الفقر، أو ربّما لطلب العون في تجاوز المحن، أو الأزمات، أو الاختبارات، أو الامتحانات، أو العثرات.. إلخ.

وقد سمّى السيوطي هذا النوع من اللغة المنفتحة (إيجاز الحذف) واستشهد بهذه الآية على أنّها نوعٌ من (قصد العموم) من بين الأنواع العديدة لإيجاز الحذف.[1]

---

(١) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق،ج٢، ص١١٢.

٥- الصراط المستقيم:

إنّ معنى هذا التعبير القرآنيّ يمكن أن يغطّي أبعاداً متعدّدةً من تفاصيل حياتنا، فهو أكثر من مجرّد (طريق الاستقامة) لأنّه يجمع في كلمتين خلاصة الإسلام والإيمان والتقوى والخلق الإسلاميّ والهداية والالتزام بما أمر الله والانتهاء عمّا نهى عنه.

وهو، إلى جانب ذلك، يمتزج في مخيّلتنا بالصراط الآخر الذي يتردّد ذكره في الحديث الشريف، والذي أُعِدّ لنا يوم الحساب لنعبره ويتقرّر مصيرنا من فوقه: في الجنّة أو في النار.

وهذا الامتزاج العجيب بين المعنى النبويّ والمعنى القرآنيّ في أذهاننا من شأنه أن يضاعف قوّة الشحنة الإيحائيّة للّفظ، ويزيد في أبعاده الاحتماليّة.

٦- أنعمتَ عليهم:

من هم تماماً: المنعَمُ عليهم؟ هل هي فئةٌ محدّدةٌ من المؤمنين؟ هل هم وحدهم أتباع محمّدٍ ﷺ أم هم أيضاً أتباع بقيّة الأنبياء؟ هل هم أولياء الله الصالحون؟ أم الأنبياء أنفسهم؟ أم الملائكة؟ أم كلّهم أجمعون؟ ولِكي ندركَ حقيقة القيمة الإشعاعيّة لهذه العبارة تصوّروا لو حلّ محلّها كلمةٌ مثل: المسلمين، أو: المؤمنين، أو: الأتقياء، أو الورعين، أو غيرها، ثم قارنوا بين هذه البدائل والتعبير القرآنيّ.

٧- ٨- المغضوب عليهم/ الضالّين:

ولو فعلنا مع هذين المصطلحين ما فعلناه مع العبارة السابقة لوجدنا الفروق واضحةً بين التعبير القرآنيّ، المنفتح على عدّة اتّجاهات، وبين أيّ خيارٍ لغويٍّ آخر يمكن أن يحلّ محلّهما.

خامساً: جوامع الكَلِم

إلى جانب السبائك اللغويّة، التي أرجو أن يكون مفهومها قد أصبح واضحاً الآن، سنكتشف، ونحن في سعينا لقراءة الأبعاد الأخرى للغة القرآن، ما يمكن تسميته بالصيغ الاصطلاحيّة أو بالعبارات السائرة، أو، وهو ما فضّلنا أن نختاره له، التعبير النبويّ الخاصّ "جوامع الكلِم"، ونعني بها العبارات أو الوحدات اللغويّة التي استطاعت لغة القرآن الكريم أن تفرضها على ألسنة العرب ولم يكونوا قد عرفوها من قبل، حتى غدا كثيرٌ منها بعد الإسلام جزءاً من لغة حياتهم اليوميّة لا يمكنهم التخلّي عنه، أو هو مرشّحٌ على الأقلّ ليكون كذلك.

وفي الفاتحة ما لا يقلّ عن سبعٍ من جوامع الكلِم هذه، وهي:

١- بسمِ الله:

هل يستطيع العربيّ، بل المسلم عامّةً، أيّاً كانت لغته الأمّ، أن يتصوّر حياته الآن من غير هذه العبارة؟ إنّها وحدها التي يجدها في قاموسه اليوميّ ليردّدها حين يبدأ شيئاً ما، من قولٍ أو فعلٍ أو طعامٍ أو شراب.

٢- بسم الله الرحمن الرحيم:

وهذه التسمية الموسَّعة الأخرى يردّدها العربيّ أو المسلم في مناسباتٍ تختلف غالباً عن تلك التي يردّد فيها التسمية المقتضبة، وذلك حين يبدأ رسالةً، أو كتاباً، أو كلمةً، أو عبادةً، أو حين يخاف من شيءٍ يعتريه، أو يفاجئه مفاجئ، أو يدهمه أمر. وهناك من يطلق هذه العبارة على الجنّ إذا أراد أن يتجنّب ذكر اسمهم على لسانه، وكأنّها تساعده بذلك على تجنّبهم وإبعادهم عنه.

٣- الحمد لله:

جزءٌ آخر من لغتنا اليوميّة نردّده في كثير من المناسبات، حتى من غير أن نعي ذلك في بعض الأحيان، فقد أصبح يملأ فراغاً في اللغة اليوميّة لكلّ عربيّ، مسلماً كان أو غير مسلم:

فإذا سألك أحدٌ عن صحّتك، قلت: الحمد لله،

وإذا سألك عن رزقك، قلت: الحمد لله،

وإذا سمعت خبراً يُطَمئنك، قلت: الحمد لله،

وإذا فرَغت من عملٍ، قلت: الحمد لله،

وإذا عزَّيت نفسك في مكروهٍ أصابك، قلت: الحمد لله،

وإذا هنّأت نفسك لخيرٍ أصابك، أو هنّأت غيرك، قلت: الحمد لله،

وإن شكرت ربّك على كلّ هذا وذاك، قلت: الحمد لله..

٤- ربّ العالمين:

من منّا لا يردّد هذا الوصف للخالق عزّ وجل في حياته اليومية بين حينٍ وآخر بوصفه اسماً آخر له يوحي بالقوّة والإحاطة والتفوّق؟ كم قلنا ونقول:

ربّ العالمين كان له حكمته في هذا الأمر،

و: أراد ربّ العالمين أن يعلّم فلاناً درساً،

و: شاء ربّ العالمين أن تجري الأمور خلافاً لما توقّعناه،

أو: سيتحقّق النصر حين يشاء ربّ العالمين...

وغير هذا كثيرٌ ممّا تقتضيه المناسبات والمواقف اليوميّة التي نجد أنفسنا فيها مدفوعين إلى استخدام هذا الوصف القرآنيّ لله عزّ وجلّ.

٥- الحمد لله ربّ العالمين:

هذه العبارة القرآنيّة متّكأٌ آخر من متّكآت لغتنا اليوميّة، وهي أوسع من عبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ السابقة، ولها مواقعها الخاصّة في حياتنا، قد تشاركها بها تلك العبارة أو لا تشاركها.

فهذه تختصّ بالانتهاء الكامل من عملٍ ما: طعام، أو شرابٍ، أو خطبةٍ، أو رسالة، أو عملٍ استغرق منّا زمناً أطول، أو حين يتحقّقُ أمرٌ انتظرناه لوقتٍ طويل. وقد تأتي أحياناً في مطلع بعض هذه الأعمال، كالخطبة والدعاء والرسائل.

لقد غدت هي أيضاً جزءاً لا يتجزّأ من نسيج حياتنا اللغويّة لا غنىً لنا عنه.

٦- الصراط المستقيم:

هذا التعبير دخل في صُلب قاموس لغتنا اليوميّة التي استعارته لتستخدمه استخداماً مجازيّاً في مواقف متنوّعةٍ:

فإذا أوصت الأمّ ولدَها بالتزام الحكمة والتعقّل في حياته، وتجنُّبِ ما يوسوس به الشيطان، نصحته بالتمسّك بالصراط المستقيم،

وإذا اشتكى موظّفٌ من إفراط رئيسه عليه في التدقيق والتمسّك بالتفاصيل قال: إنّه يحاسبني على الصراط المستقيم،

وإذا أعلن أحدُنا توبته وأكّد أنّه سيتجنّب في حياته ما يسبّب المتاعب لنفسه أو للآخرين، قال: سأمشي منذ الآن على الصراط المستقيم؟

٧- السورة بكاملها:

وأخيراً، أيّ مسلمٍ يستطيع أن يتصوّر حياته الآن من غير (فاتحة)؟ لقد غدت هذه السورة تملأ علينا مناسباتنا المختلفة: الاجتماعيّة: من أفراحٍ وأتراحٍ ومناسباتٍ متنوّعة، والاقتصادية: من عقودٍ واتفاقاتٍ وافتتاح مشاريع وبدءِ أعمالٍ، فضلاً عن المراسم الدينيّة، إذ لا يخلو منها كثيرٌ من عباداتنا اليومية.

* * *

هذه ثمانٍ وخمسون نقطةً إعجازيّةً تجديديّةً في سورةٍ مؤلّفةٍ من تسعٍ وعشرين كلمةً. إنّ كلّ نقطةٍ منها تشكّل لبِنةً واحدةً في بناءٍ لغويٍّ متكاملٍ، أحدثَ بتكامله هزّةً في أعماق العربيّ الأوّل وهو يسمع في لغة القرآن الكريم ألفاظاً غير ما عرف من ألفاظ، وأسلوباً غير ما عهد من أساليب، وفنوناً غير ما خبر من فنونٍ، لغويّةٍ أو نحويّةٍ أو بيانيّة.

وقد يخيّل لمن يقرأ القرآن اليوم أنّه أمام ألفاظٍ عاديّةٍ لا تختلف عن لغتنا اليوميّة أو عن لغة العرب القدماء على الأقلّ، والحقيقة هي غير ذلك. فصحيحٌ أنّ معظم الألفاظ، مستقلّةً عمّا قبلها أو بعدها، تبدو لنا عاديّة، ولكن المعاني القرآنيّة الجديدة التي اكتسبها بعضها، وطريقة ارتباط بعضها بما قبله أو بعده، أو طريقة تعدّي الأفعال منها إلى ما تتعدّى إليه عادةً من أسماء، جعل من معظم الألفاظ القرآنيّة من الناحية العمليّة ألفاظاً جديدة.

وسنختصّ سورة (الفاتحة) بهذا العرض السريع والموجز لطبيعة الجدّة في كلّ لفظ، مستقلاً أو مرتبطاً بغيره، ليكوّن القارئ فكرةً تقريبيّةً عن حجم هذه الجدّة في لغة القرآن، ولاسيّما أنّها لا تقتصر على ألفاظه فحسب، بل تغطّي بالقدر نفسه تراكيبه وعباراته وسبائكه أيضاً. وسندرك من خلال هذه الإحصائيّة أنّ جميع ألفاظ السورة، فيما عدا اسم الموصول (الذين) وحرف الجر المرتبط بالضمير (عليهم)، هي ألفاظٌ جديدة، إمّا بذاتها، وإمّا بطريقة استعمالها، أو بالسياق الذي وردت فيه:

الحمدُ: لفظٌ قديمٌ ولكنّه استجدّ بتعديته باللام لأوّل مرّة

لله: لفظٌ قديمٌ استجدّ بتعدّي لفظ (الحمد) إليه باللام

ربّ: لفظٌ قديمٌ استجدّ بوقوعه لأوّل مرّةٍ في موقع (البدل) من لفظ الجلالة (الله) ثمّ بإضافته إلى لفظ (العالمين)

العالمين: مفرده قديمٌ، ولكنّه استجدّ باستخدامه جمعاً لأوّل مرّة

الرحمن (مكرر مرتين): لفظٌ جديد

الرحيم (مكرر مرتين): لفظٌ قديمٌ استجدّ بوقوعه (بدلاً) من لفظ (الله) وبمجاورته للاسم الآخر المشتقّ من جذره (الرحمن)

مالك: لفظٌ قديمٌ استجدّ بوقوعه (بدلاً) من لفظ (الله) وبإسناده إلى زمن (يوم)

يوم: لفظٌ قديمٌ استجدّ بإسناد المُلكِ إليه

الدِّين: لفظٌ قديمٌ استجدّ بمعناه الجديد، وكذلك بإسناد الزمن (يوم) إليه

إيَّاك: لفظٌ قديمٌ استجدّ بالالتفات به إلى صيغة المخاطب بدلاً من الغائب (إيّاه)

نعبد: لفظٌ قديمٌ استجدّ بالمعنى الإسلاميّ الجديد الذي أعطاه للعبادة

وإيَّاك: لفظٌ قديمٌ استجدّ باستخدامه بدلاً من (بكَ): [بك نستعين]

نستعين: لفظٌ قديمٌ استجدّ بتعديته إلى الضمير بنفسه وبدون باء (نستعين إيَّاك)

اهدِنا: لفظٌ قديمٌ استجدّ بتعديته إلى (الصراط) بنفسه وبدون حرف الجرّ (إلى)

الصراط: لفظٌ جديدٌ كلّياً على العربيّة

المستقيم: لفظٌ استجدّ بارتباطه بلفظ (الصراط)، ثمّ إنّنا لا نجد هذا اللفظ فيما وصل إلينا من الشعر الجاهليّ إلاّ مرّةً واحدةً في بيتٍ لعنترة (عبابيدُ منهمْ مستقيمٌ وجامِحُ) مع تأكيدنا دائماً لتحفّظاتنا التاريخيّة تجاه معظم ما رُوي لهذا الشاعر الذي اختلطت حوله الحقيقة بالأسطورة

صراطَ: لفظٌ جديد

أنعمتَ: لفظٌ اكتسب جدّته من ارتباطه بـ(عليهم) فأصبح معناه: هديتهم

غيرِ: لفظٌ قديمٌ استُخدم استخداماً جديداً بمعنى (وليس)

المغضوبِ: لفظٌ قديمٌ استجدّ بالمعنى الاصطلاحيّ الذي حمله مرتبطاً بـ(عليهم)

ولا: أداةٌ قديمةٌ استجدّت باستخدامها استخداماً جديداً بمعنى (وغير)

الضالّين: لفظٌ قديمٌ استجدّ بمعناه الاصطلاحيّ الجديد وهو الانحراف عن الإيمان

وهكذا نجد أنّ معظم ألفاظ السورة قد اكتسب جدّةً بطريقةٍ ما: إمّا بنفسه، وذلك بسبق القرآن إلى استخدامه لأوّل مرّة، وهو النوع الأقلّ من الألفاظ، كالعالمين والرحمن والصراط، وإمّا بغيره، وذلك بمنح القرآن له معنىً جديداً من خلال استعماله استعمالاً مختلفاً، أو ربطه ربطاً جديداً بما قبله أو بعده، وهذا النوع يشمل معظم الألفاظ الجديدة في السورة.

وسوف نجد، حيثما نظرنا في كتاب الله، أنّ ما ينطبق على سورة (الفاتحة) ينطبق في الواقع على سائر سوَر القرآن الكريم.

السورة الثانية

الناس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾

نحن الآن مع السورة رقم ١١٤، أي الأخيرة في الترتيب من سور الكتاب العزيز. وسنتحرّك لاكتشاف حقائق الإعجاز في لغتها الجديدة على الخُطى نفسها التي تحرّكنا بها مع الفاتحة، فنبدأ بإلقاء نظرةٍ على ألفاظها ومصطلحاتها الجديدة، ثمّ نتفحّص الجديد في الصيغ والعلاقات اللغويّة والنحويّة والبيانيّة التي تربط بين هذه الألفاظ، ثم نحاول بعد ذلك اكتشاف الجديد في سبائكها اللغويّة، فالجديد في مواقعها المنفتحة ذات الأبعاد المتعدّدة، وأخيراً الجديد من جوامع الكلِم.

وإذا عرفنا أنّ عدد ألفاظ هذه السورة ٢٠ لفظاً أدركنا قيمة أن يكون فيها ٣٣ نقطةً جديدةً لم يعرفها قاموس العربيّة قبل الوحي.

ومرةً أخرى؛ لا بدّ من التذكير بأنّ كلّ نقطةٍ نتحدّث عنها من جوانب الإعجاز التجديديّ في لغة القرآن لن يكون لها في نفوسنا ذلك الصدى لو نظرنا إليها منفصلةً عمّا قبلها وما بعدها من النقاط. ولو افترضنا أنّ لكلّ نقطةٍ شُحنةً كهربائيّةً لا تزيد قوّتها عن ٥ إلى ١٠ فولت، فقد نُحسّ لو أمسكناها، أو لا نكاد نحسّ، بارتعاشةٍ طفيفةٍ تداعب يدنا، ولكن لو اجتمع العشرات منها في سورةٍ صغيرةٍ كهذه لتحوّلت في نفوس من يسمعونها لأوّل مرّةٍ إلى صعقةٍ تهزّهم من الأعماق، كما فعلت حقاً مع العربيّ الأوّل.

وتتبدّى الشخصيّة اللغويّة للسورة بتفرّدها بلفظين جديدين خاصّين بها هما ﴿ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ وخمسة تعبيرات لا تتكرّر أيضاً في أيّة سورةٍ أخرى، وهي: ﴿ بِرَبِّ ﴾، ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾، ﴿ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾، ﴿ يُوَسْوِسُ فِى ﴾، ﴿ يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾، يضاف إلى ذلك استقلال السورة بموضوعها الفريد الذي لم تشاركها به أيّة سورةٍ أخرى، وهو التعوّذ بالله من وسوسة شياطين الإنس والجنّ.

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- **قُلْ** (فعلٌ قرآنيٌّ، وابتداءٌ غير معهود، ومتكلّمٌ ومخاطَبٌ غير محدّدين، ومعنىً جديد، وغير متلوٍّ باللام، وجوابٌ لطلبٍ أو شرطٍ حُذف مع الفاء الرابطة له):

قد يخيّل إلينا أنّه فعلٌ عاديٌّ جداً، فهو شائعٌ وكثير الاستعمال في لغتنا، اليوميّة والرسميّة، ولكنّه في السورة غير عاديٍّ مطلقاً. إنه يختلف عن أيّ (قُل) نعرفها خارج القرآن الكريم في سبع صفات:

أ- أنه واحدٌ من أعلى الألفاظ أرقاماً في القرآن الكريم. فهو يتكرّر فيه ٣٣٢ مرة -لا يدخل في هذا الرقم المشتقّات الأخرى لهذا الفعل- على حين لا نجده في الشعر الجاهليّ -الذي يزيد حجم ما بين أيدينا منه على حجم القرآن الكريم- أكثر من ٧ مرّات، ممّا يجعل منه لفظاً ذا صبغةٍ قرآنيّةٍ غير عاديّة.

ب- أنه يأتي في بداية السورة، وهي وحدةٌ أدبيّةٌ أو لغويّةٌ كاملة، ولم يعتدِ العرب سابقاً، ولا لاحقاً، أن يبدأوا مقالتهم، أياً كان شكلها الأدبيّ، شعراً أو نثراً، هكذا بفعل الأمر، وبصيغة الإفراد أيضاً: قُل.

ت– ث – أنه، في أذن العربيّ الذي سمعه لأوّل مرّة:

- صادرٌ عن متكلّمٍ مجهولٍ، هو الآمِر، غير مذكورٍ في السورة، وإن كنّا نعلم الآن أنّه الله سبحانه وتعالى
- وموجَّهٌ إلى مخاطَبٍ مجهولٍ، وهو المأمور، غير محدّدٍ في السورة، وإن كنّا نعلم الآن أنّه رسول الله ﷺ

ج– لا مفرّ من الافتراض، لو حاولنا إيجاد تسويغ نحويٍّ لابتداء الكلام بهذا الفعل، أنّه جاء جواباً لسؤالٍ مقدّر: ماذا أقول؟ أو جواباً لشرطٍ محذوفٍ تقديره أقرب إلى أن يكون: إن شئت اتّقاء شرّ الشيطان فقل أعوذ.. وبهذا تكون الفاء، المفترض أن تكون رابطةً لجواب الشرط هنا، قد حُذفت أيضاً.

ح– أنه يحمل معنىً مختلفاً عن المعنى التقليديّ، فهو هنا بمعنى: اقرأ، أو: ردّد، أو: اُتْلُ، على حين عرفه العرب بمعنىً آخر هو: بلِّغ، أو: أخبِر.

خ– أنه، وقد اختلف معناه، تخلّى عن اللام بعده، وقد اعتاد العرب تعدِيته بها فقالوا:

قلْ لابنِ كُلثومٍ الساعي بذِمّتهِ ... أبشِرْ بحربٍ تُغِصُّ الشيخَ بالريقِ

بشر بن عمرو (ت؟ ؟)

ألا قلْ لمن تزدريهِ الحُرو ... بُ تنحَّ وخلِّ لها دارَها

سعد بن مالك البكري (ت ٩٥ ق.ه)

قلْ للمثلِّم وابنِ هندٍ بَعدَهُ ... إنْ كنتَ رائمَ عِزِّنا فاستقدمِ

سَنان المُرّي (ت ٣٣ ق.ه)

لاحظ في الأبيات السابقة أنّك لا تستطيع في أيٍّ منها إحلال الفعل (اقرأ) أو الفعل (اتلُ) محلّ الفعل (قُلْ). والغريب أنه بين ٣٣٢ حالةً قرآنيّةً لا نجد هذا

الفعل متلوّاً باللام إلاّ في خمس عشرة منها فحسب. ولو وضعنا هذه الحقيقة بإزاء حقيقة أن الشعر الجاهليّ لم يعرف هذا الفعل إلاّ متلوّاً باللام؛ أدركنا قيمة هذه الظاهرة القرآنيّة الجديدة، والدلالة الهامّة لحجمها، ومدى تَميُّزها عن اللغة البشريّة السائدة.

حتى إنْ جاء هذا الفعل القرآنيّ بمعنى (أخبِرْهم) أو(أجِبْهم) فإنه، خلافاً للشعر الجاهليّ، كثيراً ما يتخلّى عن اللام بعده، ومن ثمّ عن المتعدّي إليه، أي المقُول له، كما في الآيات التالية:

- ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (أي: قُل لهم) [الزُمر: ٩]
- ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ (أي: قل لهم) [الزُمَر: ٥٣]
- ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾ (أي: أجبْهم، أو: قُل لهم) [الكافرون: ١-٢]
- ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾ (أي أخبِرهم، أو: قل لهم) [الإخلاص: ١-٢]

وتزداد أهمّية هذه الظاهرة القرآنيّة بروزاً إذا أدركنا أنّ الفعل لا يَرد في الحديث الشريف، ولا في لغتنا، إلاّ موجَّها إلى مخاطَبٍ محدّد، وغالباً ما يكون هذا المخاطَب في الحديث سائلاً يسأل الرسول ﷺ فيردّ عليه، أو يرِد في شكل نصيحةٍ يلقيها ﷺ على شخصٍ محدّدٍ يتحدّث إليه، حتّى إن أمكن بعد ذلك إسقاط الحديث على بقيّة المسلمين:

- ".. يا عمِّ قل لا إلهَ إلاّ الله، كلمةً أشهدُ لكَ بها عند الله.."[(١)]
- ".. فلا تقُل: لو أنّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّرَ الله وما شاء فَعَل.."[(٢)]

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٤٥٧، حديث رقم ١٢٩٤.

(٢) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٠٥٢، حديث رقم ٢٦٦٤.

- "‥ عَلِّمْني دعاءً أدعو به في صلاتي، قال: قُلِ اللهمّ إنّي ظَلمتُ نفسي ظُلماً كبيراً، ولا يغفِرُ الذنوبَ إلاّ أنت، فاغفِر لي مَغفرةً مِن عِندِك‥"[1]

٢- أعوذ:

لم يعرف العرب، على الأغلب، الفعل (أعوذ) في صيغته الدعائيّة هذه، ولم أجده في الشعر الجاهليّ إلاّ مرّةً واحدةً ستؤيّدونني في الشكّ بصحّتها، لأنّ السياق الذي وردت فيه ليس جاهليّاً، وفي معاني الأبيات الأربعة التي وردت فيها آثارٌ لما لا يقلّ عن ستّ آياتٍ قرآنيّة، وتُنسب الأبيات، مع ذلك، إلى الحُصين بن حمام الفَزاري (ت ١٠ ق.هـ):

أعـوذُ بربّـي مـن المُخزِيــا	تِ يومَ ترى النفسُ أعمالَها
وخَــفَّ الموازيـنُ بالكافريـنْ	وزُلـزلـتِ الأرضُ زِلـزالَــها
ونادى مُنادٍ بأهلِ القبــورْ	فهَبّــوا لتُبــرِزَ أثقالَــــها
وسُعِّرتِ النارُ فيها العــذابْ	وكـان السلاســلُ أغلالَــها

وممّا يسوّغ شكوكنا هذه ما نُقل من أنّ هذا الشاعر أدرك الإسلام ولم يُسلم، وأنّ أرقام ورود هذا اللفظ، إن وُجد حقاً في الفترة الجاهليّة، ترتفع في الشعر العربيّ فجأةً، ومباشرةً بعد العصر الجاهليّ، لتزيد على ٢٢ مرة حتى نهاية العصر الأمويّ، وهو فرقٌ أكبر من أن نجد له تفسيراً غير جدّة هذا اللفظ وقرآنيّته.

ويروي المفسّرون في تفسير آية سورة (الجنّ): ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ٦﴾ رواياتٍ مختلفةً عن أنّ العرب اعتادوا أن يستخدموا هذا الفعل إذا حلّوا في مكانٍ أو وادٍ فيستعيذون بسادتهم من جنّ هذا الوادي، ولكنّ المفسّرين لا يذكرون في توثيق روايتهم ما يمكن أن نطمئنّ إليه من أسانيد. ففي تفسير الفخر الرازي لهذه الآية:

"فيه قولان: الأوّل: وهو قول جمهور المفسّرين، أنّ الرجل في الجاهليّة إذا سافر فأمسى في قفرٍ من الأرض قال: أعوذ بسيّد هذا الوادي، أو بعزيز هذا

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٢٨٦، حديث رقم ٧٩٩.

المكان، من شرّ سفهاء قومه.. وقال آخرون: كان أهل الجاهليّة إذا قَحطوا بعثوا رائدهم، فإذا وجدَ مكاناً فيه كلأٌ وماءٌ رجع إلى أهله فيناديهم، فإذا انتهوا إلى تلك الأرض نادَوا: نعوذ بربّ هذا الوادي من أن يصيبنا آفةٌ، يعنون الجنّ..".[١]

حتّى إن كانت هذه المنقولات صحيحةً، فلا ينبغي أن ننسى أن المفسّرين قد استعملوا لغتهم الإسلاميّة، وليس الجاهليّة طبعاً، في سرد هذه الأخبار، وبدهيٌّ إذن أن تتسرّب مثل هذه الألفاظ القرآنيّة إلى ألسنتهم.

٣- الوسواس:

لقد عرف العرب هذا الفعل قبل الإسلام، ولكن بعيداً عن المعنى المجازيّ الجديد الذي أضافه إليه القرآن.

فهو عندهم لا يعدو صوت الحُلِيّ، أو همسَ الصياد مع الكلاب. وكأنّما شَبّه القرآنُ صوت الشيطان، وهو يهمس في أذن ضحيّته بعيداً عن أسماع الآخرين، بوسوسة الحُليّ في يدَي المرأة وهي تكاد لا تُسمَع، أو بحديث الصيّاد وهو يهمس في كلابه همساً خشية تنبيه صيده وإفلاته من يديه.

ورغم أننا نعثر على هذا اللفظ ٥ مرّات على الأقلّ في الشعرين الأمويّ والإسلاميّ فإننا لا نجده بهذا المعنى في الشعر الجاهليّ أبداً، ويرد مرةً واحدةً في بيتٍ لحاتم الطائي (ت ٤٦ ق.هـ) ولكن في غير المعنى القرآنيّ، وفي غير لفظه:

إذا انقلبتْ فوق الحشَيَّةِ مَرّةً ترنَّمَ وِسواسُ الحُليِّ ترَنُّما

فاستعماله هنا كان بالمعنى الأصليّ والحسّي وهو (صوت الحليّ) لا بالمعنى المجازيّ الجديد، فهو على ذلك مصدر، ويُفترَض بالحرف الأوّل من هذا المصدر (وهو ما يسمّونه فاء الفعل) أن يكون مكسوراً (وِسواس) -كما هو في البيت حقّاً- شأن مصادر الأفعال الرباعيّة المضعّفة (أي التي يتوالى فيها حرفان مرّتين) كقولنا (زِلزال) من (زَلزلَ). ولكنّ اللفظ جاء في الآية مفتوح الواو، فهو لهذا اسمٌ لا مصدرٌ،

(١) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط.١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ج٣٠، ص١٣٨.

شأنه في ذلك شأن اللفظ (ثَرثار). إنّه إذن (الشيطان نفسُه) وليس (صوتَ الشيطان).

ولكنْ لو صحّ ما قاله أبو هلال العسكريّ في كتابه الهامّ (الفروق اللغويّة)[١] من أنّ القرآن استعمل هنا المصدر وهو يعني الاسم، وصحّ قول الرازيّ والقرطبي حين جعلا (الوسواس) -بفتح الواو- و(الزَلزال) -بفتح الزاي- مصدرين (أي بمعنى: وسوسة وزلزلة) فسيكون القرآن بهذا قد سَبق إلى إطلاق صيغة المصدر (وَسواس)، من باب المجاز أو من باب الحقيقة، على ما مِن حقّه الاسميّة، وهو الشيطان، لأنّ هذا الأخير ذاتٌ وليس حدثاً، وتكون هذه نقطةً جديدةً أخرى من نقاط الإعجاز التجديديّ في لغة القرآن.

أمّا في الحديث الشريف فإنه يرِد -خارج أيّ اقتباسٍ قرآنيّ- بمعنىً فقهيٍّ مختلفٍ عن المعنى القرآنيّ وهو التحرّج من النجاسة، أو بمعنى الشكّ، كما في قوله ﷺ:

- لا يبولَنّ أحدُكم في مُستَحَمِّه فإنّ عامّة الوَسواسِ منه[٢]

- اللهمّ اشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، وأعوذ بك من وَسواسِ الصَدر، وشَتاتِ الأمر، وفتنةِ القبر[٣]

نعم، وأعترف من جديد، أنّ من حقّ أحدنا الاعتراض هنا بقوله: وهل من المفترَض أن نجد في الشعر الجاهليّ كلّ كلمةٍ تكلّم بها العرب؟

طبعاً لا، بالرغم من أنّ بين أيدينا ما يزيد على عشرين ألف بيتٍ جاهليّ -هي كلّ ما جمّعته الموسوعات الضوئيّة حتى الآن- أي ما يَعدل كتاباً أضخمَ حجماً من القرآن الكريم. إنّ هذا الديوان الضخم هو بمثابة قاموسٍ للغة العصر الجاهليّ،

(١) العسكريّ، أبو هلال الحسن بن عبد الله. **الفروق اللغويّة**. تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٠م، ص٧٩.

(٢) القزويني، محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، (د.ط)، (د.ت)، ج١، ص١١١، حديث رقم ٣٠٤.

(٣) البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**، مرجع سابق، ج٥، ص٨١٧، حديث رقم ٩٢٥٨.

ولكن من المهمّ الاحتكام أوَّلا إلى وعينا التاريخيّ والاجتماعيّ واللغويّ والنقديّ لذلك العصر، وهو ما كنت أنطلق منه دائماً في أحكامي الأوّلية قبل الرجوع إلى الشعر الجاهليّ للتحقّق من صحّة هذه الأحكام أو تأكيدها.

ومع ذلك، يبقى احتمال الخطأ البشريّ وارداً خلف كلّ منعطَفٍ من منعطفات هذه الرحلة الاستكشافيّة الشاقّة، مهما كانت نسبة هذا الخطأ ضئيلة. صحيحٌ أنّه قد وصلَنا من الشعر الجاهليّ ما يساعدنا على الخروج بتصوّراتنا القريبة من الصحّة، ولكن يجب ألاّ نُغفل أيضاً حقيقة أنّ أضعاف ما وصلنا منه قد انقطع به المسير وتاه على أرصفة التاريخ فلم يصل إلى أيدينا منه إلاّ جزءٌ يسير.

وأخيراً، إنّ هذا اللفظ يُعدّ من المقوّمات اللغويّة التي تستقلّ بها سورة (الناس)، فهو لا يتكرّر في غيرها من السوَر أبداً.

٤- الخنّاس:

لا وجود لهذا اللفظ في الشعر الجاهليّ مطلقاً. وإطلاق القرآن لفظ "الخنّاس" على الشيطان، الذي يخنس وينكمش ويختبئ استعداداً للانقضاض على فريسته، كان بطبيعة الحال استعمالاً مجازيّاً جديداً على العرب.

بل إنّ وجود الشيطان نفسه، بالمعنى الإسلاميّ، مُسلَّمةٌ جديدةٌ على العربيّ، ومختلفةٌ عن (الجنّ) الذين عرفهم العرب ونسجوا القصص الكثيرة عنهم، حتى جعلوا لكلّ شاعرٍ من شعرائهم جُنّيه أو شيطانه أو هاجسه الذي يضع له الشعر على لسانه[(١)].

ومن جديدٍ نضيف هذا اللفظ إلى الخصائص اللغويّة للسّورة؛ إذ لن نجده بعد ذلك في أيّة سورةٍ أخرى.

---

(١) وارجع إلى قصّة الشاعر الجاهليّ (الأعشى) مع هاجسه -أي جنّيه- (مِسحل بن أُثاثة)، وغيرها من قصص الشعراء مع الجنّ، في كتاب الأغاني للأصفهانيّ، انظر:
- الأصفهاني، علي بن الحسين. **الأغاني**، تحقيق: سمير جابر، بيروت: دار الفكر، ط. ٢، (د. ت.)، ج٩، ص١٨٢.

٥- يوسوس:

ما ينطبق على لفظ (الوسواس) ينطبق على فعله أيضاً، سواءٌ من حيث اختفاؤه من الشعر الجاهليّ، أو من حيث جدّةُ استعماله وإطلاقُه على صوت الشيطان.

ويجب أن أعترف بأنني لم أجد هذا الفعل في الشعر الإسلاميّ أو الأمويّ بعد ذلك، أمّا في الحديث الشريف فإنّه يرد على ألسنة الصحابة غالباً، وليس على لسان الرسول ﷺ نفسه، كما في الحديث:

- .. أنّ رجالاً من أصحابِ رسولِ الله ﷺ سألوا رسولَ الله ﷺ عن الوسوسة التي يوسوس بها الشيطانُ في أنفسنا، أن يَسقطَ أحدُنا من الثريّا أَحَبُّ إليه من أن يتكلّم بها. فقال رسولُ الله ﷺ: قد وجدتُم؟ [أي هل شعرتم بهذا حقاً؟] ذلك صريحُ الإيمان[1]

٦- الجِنّة:

وهو جمع (جُنّيّ) أو اسم جنسٍ للجنّ، وهو لفظٌ قرآنيّ، إذ لا نجد هذا الجمع في الشعر الجاهليّ، وإنّما نجده هناك (الجِنّ).

ثانياً - الصيغ والعلاقات اللغويّة:

وبنظرةٍ أكثر شمولاً وعمقاً في أسرار الإعجاز التجديديّ في الصياغة اللغويّة وطبيعة العلاقات بين ألفاظ السورة، اللغويّة والنحويّة والبيانيّة، نستطيع أن نضع أيدينا على النقاط الستّ عشرة التالية:

١- قل أعوذ:

هذا تعبيرٌ جديدٌ على العربيّة، ولن يتكرّر بهذه الصيغة إلاّ مرّةً واحدةً في سورة (الفلق). ومن المهمّ ملاحظةُ أنّ المرّات الستّ الأخرى التي يرد فيها الفعل

(١) الصنعاني، عبد الرزاق بن همام. **المصنف**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: المكتب الإسلامي، ط. ٢، ١٤٠٣هـ، ج١١، ص٢٤٣، حديث رقم ٢٠٤٣٩.

(أعوذ) بهذه الصيغة في القرآن سُبِق فيها جميعاً بفعل القول أيضاً، كما يتّضح لنا من الآيات:

- ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧]
- ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [هود: ٤٧]
- ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ١٨]
- ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٧ – ٩٨]
- ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]

٢- أعوذ . . من شرّ:

هذا الفصل الطويل بين فعل الاستعاذة والمستعاذ منه يبدو، وبشكلٍ واضح، أمراً غير عاديٍّ في التقاليد اللغويّة العربيّة، ليس قبل الإسلام فحسب، بل في التراث اللغويّ العربيّ بشكلٍ عام، حتّى في القرآن الكريم نفسه.

فمن بين ١٥ حالة يتكرّر فيها الفعل ومشتقّاته في القرآن الكريم لا نجد هذا النوع من الفصل إلاّ في هذه السورة. ولنقرأ هذه الأمثلة القرآنيّة السريعة لنلاحظ قِصَرَالفاصل بين فعل الاستعاذة والمستعاذ منه:

- ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ [غافر: ٢٧]
- ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]
- ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦]
- ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]

وما يعطي هذه الآية خصوصيّةً أكبر أنّ المستعاذ منه قد استقلّ بآيةٍ وحدَه، منفصلاً بذلك عن الآية التي تضمّنت فعل الاستعاذة، ولا يتكرّر هذا إلاّ في سورة (الفلق)، وإن كان الفاصل هناك أضيق كما هو واضح.

٣- ربّ الناس:

عثرت على هذا التعبير في ثلاثة أبياتٍ للَقيط بن شيبان (ت؟) وحاتم الطائيّ (ت ٤٦ ق.هـ) والأسود بن يَعفُر النّهشليّ (ت ٣٣ ق.هـ). وما يجعلني كبير الشكّ في صدق جاهليّة هذه الأبيات؛ ليس لغتها، ولا السمعة التاريخيّة للشعراء الثلاثة الذين نُسِبَت إليهم فحسب، ولكن لأنّ هذه السّورة تنفرد بالتعبير أيضاً، وبشكلٍ غير عاديّ، دون سائر سوَر القرآن. فرغم تكرار اللفظ (ربّ) في القرآن الكريم ٨٣٨ مرّة، وهو رقمٌ غير عاديٍّ حقّاً، وتكرار لفظ (الناس) ٢٤١ مرّة، وهو أيضاً رقمٌ غير عاديّ، فإنّهما لم يجتمعا قطّ إلاّ في هذه الآية. والتعبير إذن، هو أحد مقوّمات الشخصيّة اللغويّة لهذه السورة.

٤ – ملك الناس:

لقد ألِف الناس لفظ (المَلِك) هكذا مجرّداً من أيّة إضافة، فإذا أضافوه فعلوا ذلك مع اسم البلد الذي يحكمه هذا الملك، فيقولون (ملك الهند، ملك إسبانية، ملك البرتغال..) أو مع اسم القوم الذين يحكمهم (ملك الفرس، ملك الفرنجة، ملك الروم..) أو مع ما يزيد مقامه رفعةً وشأناً (ملك الملوك، ملك الشرق والغرب..) ولكنهم لم يقولوا أبداً، ولا يُنتظر منهم أن يقولوا، (ملك الناس) لا في الشعر الجاهليّ ولا فيما بعده من تراثٍ شعريٍّ أو أدبيّ، وهنا سرّ خصوصيّة هذا التعبير القرآنيّ.

وممّا يزيد خصوصيّته بروزاً أن نعرف أنّ اللفظ (ملِك) قد ورد ١٣ مرة في القرآن الكريم لم يُضَف فيها إلى (الناس) إلاّ هنا، ممّا يمنح السّورة خصوصيّةً لغويّةً أخرى تنفرد بها دون باقي السور.

٥ + ٦- ملكِ الناس/ إلهِ الناس:

كلتا هاتين الآيتين بدأت بصفةٍ أو بدلٍ (ملكِ، إلهِ) وهو أمرٌ سبق أن عرفنا أنّه لم يكن معهوداً عند عرب الجاهلية في الوحدة اللغويّة الأولى والوحيدة التي عرفوها قبل القرآن، وهي الجملة.

ومن جديدٍ نتذكّر هنا ما يُنسب من مسجوعاتٍ قليلةٍ لبعض من عاشوا في الجاهليّة. إنّ مقارنةً نحويّةً بسيطةً وسريعةً تُظهر لنا الفرق بين هذه الظاهرة القرآنيّة ومسجوعة قُسّ بن ساعدة الإياديّ الذي عرفنا بعض أسجاعه، حيث يقول:

- أيّها الناس، اسمعوا وعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت، إنّ في السماء لخبراً: سحائبُ تَمور، ونجومٌ تغور[1].

إنّ من السهل أن نلاحظ، وخلافاً لأسلوب الآيات، أنّ العبارتين الأخيرتين عند قسّ، مثلهما مثل باقي عبارات الخطبة، بدأتا بدايةً تقليديّة. فاللفظ (سحائب) هنا خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هذه سحائب، وجملة اللفظ (تَمور) صفةٌ له. وكذلك اللفظ (نجومٌ) الذي جاء خبراً لمبتدأ محذوفٍ، وجاءت جملة (تغور) صفةً له. إنّهما إذن جملتان كاملتان مؤلّفتان من مبتدأ وخبر، على حين ليس هناك محذوفاتٌ في الآيتين، ومن ثمّ فلا تشكّل أيٌّ منهما جملةً في ذاتها.

٧ + ٨- ملك الناس/ إله الناس:

لقد أضحت الآية القرآنيّة تشكّل إذن، وحدةً لغويّةً جديدةً كاملة، إنها الآن بمنزلة (الجملة) وهذه يُفترض فيها الاستقلاليّةُ والاكتمال، كما تعارَف العرب وتعارَف أهلُ أيّة لغة أخرى، ولكنّ هاتين الآيتين تأتيان -شأن آياتٍ كثيرةٍ غيرهما- خلافَ ذلك. إنّ كلاًّ منهما مؤلّفٌ من بدلٍ أو صفةٍ للّفظ (ربّ) الذي ورد في الآية

(١) القزويني، زكريا بن محمد. **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت: دار صادر، (د. ت)، ص٣٢.

الأولى، مع مضافٍ إلى هذا البدل أو الصفة، وهذا كلّه غير كافٍ لتكوين ما نسمّيه وسمّاه العرب الجاهليّون، أو قبلوه على أنّه "جملة".

ولكم أن تتخيّلوا طبيعة المفاجأة التي تلقّاها العربيّ الأوّل وهو يستمع إلى هذا التحدّي الجديد للوحدة اللغويّة الأولى التي اعتاد أن يكوّن منها لغته اليوميّة، بعد أن أعاد القرآن الكريم صياغة هذه الوحدة الأساسيّة وأبرزَها في ثوبها الجديد.

٩- ربِّ.. ملكِ.. إلهِ..:

أتلاحظ معي التدرّج التصاعديّ في هذه الصفات؟ فعدا عن توازي مواقعها في الآيات الثلاث، وتوازي وتكرار اللفظ الذي أضيفت إليه (الناس) في المواقع الثلاثة أيضاً، يفاجئ القرآن العرب بهذا التوضيح أو التنظير الجديد لمعنى الألوهيّة.

إنه يرتفع بهم شيئاً فشيئاً من صفة الامتلاك (ربّ الناس) -فالربّ هو الصاحب أو المالك، أو (المربّي) كما يقول الرازيّ- إلى المُلك الذي يشمل الامتلاك والسيادة معاً (ملكِ الناس) -لأنّ الربّ، رغم امتلاكه، قد يكون سيّداً أو لا يكون- إلى الألوهيّة التي تهيمن على كلّ هذه الصفات بشكلٍ مطلقٍ لا يحدّه حدٌّ أو تعريفٌ (إله الناس).

هذا الترتيب التصاعديّ في السورة هو في حدّ ذاته صياغةٌ غير عاديّة، وغير مباشرة، وغير تقليديّة، لعرض الفروق بين المعاني الثلاثة.

١٠- إله الناس:

شأن هذين المتضايفين الآخرين شأن (ملك الناس). فرغم عثورنا على التعبير (ربّ الناس) ثلاث مرّات على الأقلّ في الشعر الجاهليّ، وهو أمرٌ نوّهنا بتحفّظنا تجاهه، فإنّنا لا نجد فيه التعبير (إله الناس) مطلقاً. ومع ذلك فإنّه يطفو على السطح فجأةً بعد نزول الوحي مباشرةً، فيتوالى في الشعر ٦ مرّات على الأقلّ حتى نهاية العصر الأمويّ.

وسيساعدنا في تقدير قيمة هذا الاستعمال القرآنيّ، ومدى تفرّده وتميّزه، لو علمنا أنّ اللفظ (إله) قد ورد ١١١ مرةً في القرآن الكريم ولفظ (الناس) ٢٤١ مرّة، ومع ذلك لم يلتقيا إلاّ في هذه الآية، وهو إذن تعبيرٌ آخر اختصّت به سورة (الناس) دون باقي سور القرآن الكريم.

١١- الذي يوسوس:

خلافاً للمعهود في الوحدة اللغويّة العربيّة (الجملة المفيدة) تبدأ هذه الآية/ الوحدة باسمِ موصولٍ (الذي) تابعٍ للفظٍ ورد في وحدةٍ لغويّةٍ سابقة (الوسواس) فهو صفةٌ له، وقد سبق أن أوضحنا أنّنا لم نعرف مثل هذه البدايات المقطوعة للوحدات اللغويّة في الأساليب العربيّة، لا قبل القرآن الكريم، ولا بعده.

١٢- يوسْوِس في:

أغرب ما في الفعل (يوسوس) أنه يرِد أربع مرّاتٍ في القرآن تعدّى في كلّ منها بحرف جرٍّ مختلف، أو من غير هذا الحرف إطلاقاً:

لقد تعدّى هنا بالحرف (في) ولكنّه يتعدّى بحرف اللام في قوله تعالى:

- ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا ﴾ [الأعراف: ٢٠]

ويتعدّى بالحرف (إلى) في قوله تعالى:

- ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾ [طه: ١٢٠]

ولا يتعدّى أبداً في قوله تعالى:

- ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾(١) [ق: ١٦]

والتعبير، مرّةً أخرى، خصوصيّةٌ من خصوصيّات هذه السورة، لم تشاركها بها أيٌّ من سوَر القرآن الكريم، فضلاً عن جدّة التعبير تماماً على اللغة العربيّة.

---

(١) نلاحظ هنا أنّ شبه الجملة (به) هو حالٌ من فعل الوسوسة وليس متعدّىً إليه، ولو حدث أن ذُكر هذا الأخير لقال (توسوس به نفسُه إليه) فيكون قد تعدّى بحرف الجرّ (إلى).

١٣- يوسوسُ في صدور:

إذا كان التعبير (يوسوس) يبدو غريباً وجديداً على العربيّ الأوّل، فممّا لا شكّ فيه أنه سيبدو أكثر غرابةً وأبعثَ على المفاجأة والدهشة إذا ارتبط بالصدور.

فالوسواس الخنّاس اسمٌ مجازيٌّ للشيطان جديدٌ على العربيّ، وها هي وسوستُه الآن تحتلّ في جسم الإنسان مكاناً مجازيّاً جديداً لها هو الصدور.

وبإمكاننا تصوّر تأثير هذا التعبير في الإنسان العربيّ لو قارنّاه بتأثير تعبيراتٍ أخرى محتمَلة. كأن نقول:

الذي يوسوس في الناس

فلا نحدّد له مركز استقبالٍ معيّناً في أجسام الناس. أو نذهب أبعد من ذلك فنحدّده قائلين:

في رؤوس الناس، أو ربّما:

في عقول الناس

أو نكون أكثر تحديداً لهذا المركز المتلقّي فنقول:

يوسوس في آذان الناس

فنجعل مركز الاستقبال هو المكان الطبيعي والحسّي لاستقبال الأصوات في جسم الإنسان: الأذن. ولكنّ القرآن الكريم جعله في الصدور، فغدا بذلك تعبيراً قرآنياً متميّزاً وخاصّاً بهذه السّورة، ولا سيّما إذا عرفنا الطرق المغايرة الأخرى لاستعمال لفظ (الصدور) والمعنى الأكثر شيوعاً له عند العرب في تلك الفترة، كما سنرى بعد قليل، ممّا يمنح السورةَ، إلى هذا، خصوصيّةً تضاف إلى خصوصيّاتها الأخرى التي أحرزتها بين باقي السوَر.

١٤- صدورِ الناس:

هذا أيضاً تعبيرٌ قرآنيٌّ جديدٌ آخر في السّورة، فإضافة الصدور إلى الناس أمرٌ غير مألوفٍ للأذن العربية، حتى ذلك العصر على الأقلّ.

ويمكن تقدير أهمّية ذلك لو علمنا أن اللفظ (صدور) يرد ٣٥ مرةً في القرآن لم يُضَف في أيٍّ منها إلى لفظ (الناس) إلاّ في هذه الآية. إنّها إذن، خصوصيّةٌ أخرى تضاف إلى سورة (الناس).

أمّا في الشعر الجاهليّ فيَرد اللفظ ١٥ مرةً على الأقلّ أضيفَ فيها إلى كلماتٍ عديدةٍ مختلفةٍ يعني فيها جميعاً: مقدّمةَ الشيء، أو سطحه، أو الجزء البارز منه، كما في قولهم: صدور رِكابكم - صدور الجِمال - صدور النعال - صدور الخيل - صدور الصافنات - صدور المنايا - صدور الرماح - صدور القنا - صدور المَشرفيّ - صدور الرجال (بمعنى مقدِّمات أجسادهم)، ولكن لن نجد على أيّة حالٍ التعبير القرآنيّ (صدور الناس) الذي اكتسب فيه اللفظ (صدور) معنى: (عقول) أو (قلوب) أو (نفوس).

إنّ هذا كافٍ، ليؤكّد لنا قرآنيّة وجدّة هذا التركيب، وهو تركيبٌ سيظلّ خارج القاموس الشعريّ العربيّ لعدّة قرونٍ قادمة، كما يؤكّد قرآنيّةَ المعنى المجازيّ الجديد للفظ (الصدور).

١٥- الجِنَّةِ والناس:

هناك ثنائياتٌ في اللغة العربيّة تعارفَ الناس عليها وأصبحت جزءاً من تقاليدهم اللغويّة، كقولنا: الخير والشرّ، والليل والنهار، والحقّ والباطل، والأنثى والذكر، والإنسان والحيوان، والسالب والموجب، والصالح والطالح، وغيرها كثير.

ولكنَ العربيّة لم تعرف اجتماع هذين اللفظين، ومن ثمّ اجتماع الجنسين (الجِنّة) و (الناس) هكذا على صعيدٍ واحد، إلاّ في القرآن الكريم، وقد اجتمعا فيه ثلاث مرّات.

والغريب أنّه حين يختلف أحد اللفظين في القرآن، كأن يتحوّل لفظ (الجِنّة) إلى الجمع الآخر (الجِنّ) أو يتغيّر لفظ (الناس) إلى (الإنس) يعتري التغيير اللفظَ الشريك أيضاً، فإمّا (الجِنّ والإنس) -وأحياناً (الإنس والجنّ)- وقد ورد هذا التركيب في القرآن ١٢ مرّة، وإمّا (الجِنّة والناس) وقد ورد فيه ٣ مرّات كما ذكرنا. ولن نجد في القرآن أبداً التركيب (الجِنّة والإنس) ولا التركيب (الجِنّ والناس) مما يلقي أمامنا مزيداً من الضوء على خصوصيّة التعبير وجدَّتِه على أذن العربيّ الأوّل.

١٦- موضوع السّورة:

وأخيراً، إذا كان عُتبة بن ربيعة، بليغُ قومه، قد عاد إليهم، وقد سمع من الرسول ﷺ ثلاث عشرة آيةً من مطلع سورة (فُصّلت) فلم يفهم منها -كما أخبرهم- إلاّ ذكرَ الصاعقة ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فماذا كان يمكن أن يفهم لو سمع هذه السورة، الجديدةَ بموضوعها، والغريبةَ بهذه الإشارات إلى الشيطان خاصّةً والجنّ عامّةً -بالمفهوم الإسلاميّ لهما طبعاً- وما يقع في آياتها من تداخُلٍ بينَ صفات الإنس والجنّ، وكذلك لو سمع هذه الدعوةَ الغريبة للنّاس في مطلعها لتلاوتها والتعوّذ بها من شرّ شياطين الإنس والجنّ؟!

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

على صغر هذه السورة نستطيع أن نضع أيدينا فيها على خمس سبائك لغويّةٍ جديدةٍ لا تمتّ بصلةٍ إلى السبائك اللغويّة التي عرفها العرب قبل القرآن أو بعده، وهي:

١- قل أعوذ بربّ الناس:

هذه سبيكةٌ قرآنيّةٌ خاصّةٌ تبدأ بفعل أمر يتوجّه إلى شخصٍ غير محدّد (قل) يليه فعلٌ مضارعٌ أُسند إلى متكلّم مفردٍ -أي أنا أعوذ- يليه شبه جملةٍ جارٌّ ومجرورٌ (بربّ) مضافٌ إلى اسمٍ عامٍّ (الناس).

أرأيتم إلى هذا البناء المتميّز للعبارة المؤلّفة من أربع كلمات؟ ورغم أنّنا نجد في القرآن الكريم ٣٣٢ عبارةً تبدأ بالفعل (قل) فإنّه يخلو تماماً من مثل هذا البناء

اللغويّ، إلاّ مرةً واحدةً هي أوّل آيات سورة (الفلق): ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾.
وقارنوا البناء النحويّ واللغويّ لهاتين السبيكتين بأبنيةِ سبائك قرآنيّةٍ أخرى ابتدأت بهذا الفعل، مثل:

- ﴿ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩١]
- ﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١]
- ﴿ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة: ١٤٠]
- ﴿ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢١٩]

والواضح أنّ الصياغة النحويّة واللغويّة للآيات الأربع، وكذلك لسائر الآيات التي تبدأ بهذا الفعل في القرآن، تختلف تماماً عن الصياغة التي تقوم عليها سبيكتنا.

٢- ربِّ الناس. ملكِ الناس. إلهِ الناس:

سبيكةٌ أخرى خاصّةٌ بالقرآن الكريم، مؤلّفةٌ من ثلاث ثنائيّاتٍ متواليةٍ كلٌّ منها مؤلَّفٌ من مضافٍ ومضافٍ إليه، ويختلف فيها المضاف دائماً، ولكن تتّفق الثنائيّات الثلاث في لفظ المضاف إليه (الناس).

ولم أجد هذا البناء الفريد مرةً أخرى في القرآن، ولا في غير القرآن أيضاً، وهي خصوصيّةٌ أخرى تضاف إلى خصوصيّات السورة.

٣- مِن شرِّ الوسواسَ الخنّاس. الذي يوسوس:

وهذه سبيكةٌ متميّزةٌ أخرى في السورة، فهي تبدأ بشبه الجملة (**من شرّ**) يليه مضافٌ إليه (الوسواس)، ويتبعه مباشرةً وصفٌ له على إيقاعه نفسه وقافيته نفسها (الخنّاس)، ثم جملةُ صلةٍ تُعَدّ وصفاً ثانياً له ويشتقّ فعلها (يوسوس) من

الموصوف (الوسواس) الذي جاء في مطلعها. ولا أعرف سبيكةً أخرى مشابهةً لها في القرآن الكريم أو غيره، فهي أيضاً سبيكةٌ خاصّةٌ بهذه السورة وحدها.

وبإمكاننا قياس كلّ سبيكةٍ من السبائك القرآنيّة على المبدأ الذي اقترحناه في الجزء الأول من هذا الكتاب، فنشتقّ ميزان بنائها اللغويّ من الفعل (عمل) بحيث نتجنّب الفعل الذي اشتقّ منه الخليل بن أحمد تفعيلات الأوزان العروضيّة وهو (فعَل) فلا نقع في شبهة الخلط بين القرآن والشعر. ولو شئنا تطبيق مقياسنا الجديد على هذه السبيكة لكان بناؤها: (مِنْ عَملِ العَمْلالِ العَمّال)[1].

٤- في صدور الناس. من الجِنّة والناس:

إنها أيضاً سبيكةٌ جديدةٌ خاصّةٌ بالقرآن وحده، وتتألّف من شبه جملةٍ ومضافٍ إليه ﴿فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ يليها شبه جملةٍ آخر هو ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ معلّقٌ بحالٍ محذوفةٍ من الموصوف (الوسواس) -أي: الوسواس كائناً من الجِنّة والناس- ثمّ ينتهي الجزءان اللذان تتألّف منهما السبيكة بالكلمة نفسها (الناس).

٥- السورة بكاملها:

وأخيراً، من الواضح أن هذه السورة تنفرد بين باقي سور القرآن الكريم بهيكلٍ لغويٍّ متميّزٍ وخاصٍّ بها؛ إذ تنتهي وحداتها اللغوية الصغيرة الستّ -أي الآيات- بالأحرف الأربعة نفسها (النون المشدّدة والألف والسين: نّاس) ولا وجود لهذا النوع من الالتزام اللغويّ في تراثنا، شعره أو نثره، حتّى خرج علينا المعرّي في القرن الرابع الهجريّ بديوانه المعروف (اللزوميّات).

---

(١) لا يهمّنا، بل لا ينبغي لنا، في هذا المقياس القرآنيّ المقترح أن ننظر إلى الوزن العروضي بل إلى البناء النحوي، وعلى هذا نقيس أفعالاً مثل (اكتبوا، كُلوا، اُدنُوا) جميعاً على المقياس (اعمَلوا) بغضّ النظر عن وزنها العروضيّ.

رابعاً: مواقع منفتحة

١- قل:

يكتسب هذا اللفظ قوّةً إيحائيّةً مزدوَجة، فهو، كما بيّنّا، أمرٌ صادرٌ من جهةٍ لم تُذكَر في السورة (طبعاً سيَفهم العربيّ فيما بعد أنّ الآمر هو الله)، ثم لم تُذكر الجهة التي وُجِّه إليها هذا الأمر، فالمخاطَب غير محدَّد، وإن كنّا نعرف أنه تعالى يخاطب الرسول ﷺ بداءةً، وذلك يفتح أمامنا خياراتٍ عدّة، لعلّ أهمّها إشعارُ من يردّد السورة، في حالات الخوف أو القلق أو ابتغاء السلامة، وكأنّ فعلَ القول موجّهٌ إليه شخصيّاً، وهذا يزيده تفاعلاً مع السورة، ويزيد من ثمّ استجابتَه الروحيّة لتأثيراتها.

٢- الوسواس الخنّاس:

وهو تعبيرٌ غنيٌّ بالظلال والإيحاءات بما اجتمع في لفظيه من جدّةٍ، وما شُحنا به من معانٍ مجازيّةٍ تمنح اجتماعهما معاً، وتفاعلهما في تركيبٍ واحد، مزيداً من الإيحاءات المركّبة والجديدة عن نوع الوسوسة وطبيعتها، وعن صاحب هذه الوسوسة وشكله المتحوّل وطبائعه المقلقة الغامضة.

خامساً: جوامع الكَلِم

١- قل أعوذ بربّ الناس:

هذه الآية أضحت اسماً للسورة كثيراً ما يحلّ محلّ اسمها الأصليّ، وربّما غدت بذاتها، دون باقي آيات السورة، تعويذةً سريعةً يردّدها المسلم لو حدث أن فوجئ بشيء أخافه أو أزعجه أو أغضبه.

٢- الوسواس الخنّاس:

وقد مضى هذا التعبيرعلى الألسنة، بعد نزول السورة، فأصبح مصطلحاً يُطلَق على الشيطان حيثما ذُكر.

٣- يوسوس في الصدور:

وهو تعبيرٌ يُستخدم في وصف أي خاطر سوءٍ قد يَعرِض للإنسان في لحظة ضعفٍ أو استسلامٍ للأهواء، أو لوصفِ عمل الشيطان داخل النفس الإنسانيّة.

٤- السّورة بكاملها:

لقد تحوّلت السّورة إلى تعويذةٍ يتلوها كلّ مسلم مع السورة التوأم لها (الفلق)، لتكونا جزءاً من عباداته وحياته اليوميّة. وقد أكّدتْ أهميَّتهما في ذلك أحاديثُ نبويّةٌ عدّة:

- عن عُقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: "أُنزِلتْ عليّ آياتٌ لم يُرَ مِثْلُهنّ: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ إلى آخر السورة، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ ﴾ إلى آخر السورة"[(١)]

- عن مُعاذ بن أبي عبد الله بن خُبيبٍ عن أبيه: قال: "كنتُ مع رسولِ الله ﷺ في طريق مكّة فأصبتُ خَلوةً من رسولِ الله ﷺ فدنوتُ منه فقال: قُل، فقلت: ما أقول؟ قال: قل، قلت: ما أقول؟ قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ حتىّ ختَمها، ثم قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ حتّى خَتَمها، ثمّ قال: ما تَعَوَّذ النّاسُ بأفضَلَ منهما"[(٢)]

- عن عائشة رضي الله عنها: "أنّ النبيّ ﷺ كان إذا أوى إلى فِراشه كلَّ ليلةٍ جَمع كفّيه ثمّ نفثَ فيهما فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾، ثمّ يمسحُ بهما ما استطاع مِن جسدِه، يبدأُ بهما

---

(١) الشيباني، أحمد بن حنبل. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: دار الرسالة، ط. ٢، ١٩٩٩م، ج٢٨، ص٦٠٥، حديث رقم ١٧٣٧٩.

(٢) النسائي، أحمد بن شعيب. **المجتبى من السنن**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط. ٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ج٨، ص٢٥٠، حديث رقم ٥٤٢٩.

على رأسه ووجهِه وما أقبلَ من جسدِه، يفعل ذلك ثلاثَ مرّات"[(1)]

* * *

وبعد، إنها ثلاثٌ وثلاثون نقطةً من الإعجاز التجديديّ في القرآن اجتمعت في سورةٍ من عشرين كلمة، وهي نموذجٌ مصغّرٌ آخر عن حجم الإعجاز الذي فاجأ الوحي به العرب وأحدث فيهم هزّته اللغويّة والفكريّة الكبرى، والتي نحاول في هذه الدراسة أن نضع أصابعنا على بعض أسرارها، من غير أن ندّعي، ولا ينبغي لنا أن ندّعي، أنّنا ألممنا بكلّ هذه الأسرار.

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩١٦، حديث رقم ٤٧٢٩.

السورة الثالثة

سورة الفلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾

هذه هي السورة الثانية من القرآن الكريم بترتيب السوَر التراجعيّ، وعدد كلماتها ٢٣ ولكنّنا سنتوقّف فيها عند ٣٨ من المواقع اللغويّة الجديدة.

ولهذه السورة، مثلها مثل باقي سوَر القرآن الكريم، شخصيّتها اللغوية المتميّزة بما فيها من ألفاظٍ جديدةٍ لا تتكرّر في السوَر الأخرى (الفلق، غاسق، وقب، النفّاثات، العُقد، حاسد، حسد). وتنفرد السورة أيضاً بعلاقاتٍ نحويّةٍ جديدة، ولا سيّما وصف النكرة، في آيتين متتاليتين، بالظرف (إذا)، ثمّ بالعلاقات الفكريّة الخاصّة جدّاً، كالاستعاذة من شيءٍ بمن أوجد هذا الشيء. وهناك أيضاً الصور العلميّة الكاشفة في لفظ (الفلق) ولفظ (وقب). وأخيراً فإنّ معظم صيغها التعبيريّة ممّا لا يتكرّر في القرآن أبداً.

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- قل:

(فعلٌ قرآنيّ، وابتداءٌ غير معهودٍ في فنوننا الأدبيّة، ومعنىً جديدٌ للفعل، وغير متلوٍّ باللام، ومتكلِّمٌ ومخاطَبٌ غير محدّدين، وجوابٌ لشرطٍ مقدّر):

ينطبق على هذا اللفظ ما ذكرنا عن صنوه في مطلع سورة (الناس). إنه جديدٌ على العربيّ، بوصفه:

أ- ابتداءً غير معهود لأيّ فنٍّ أدبيّ،

ب- صادراً من متكلّمٍ مجهولٍ أو غير محدّد،

ت- موجّهاً إلى مخاطَبٍ مجهولٍ أو غير محدّد،

ث- يحمل معنى: ردّد، أو: اقرأ، بدلاً من المعنى التقليديّ: بلّغ، أو: أخبِر،

ج- غيرَ متعدٍّ باللام كما اعتدنا مع هذا الفعل في الشعر الجاهليّ،

ح- يتردّد بكثافةٍ غير عاديّةٍ في القرآن (٣٣٢ مرة، مقابل ٧ مرّاتٍ في مجموع ما وصلنا من الشعر الجاهليّ)،

خ- جاء جواباً لسؤال، أو لطلبٍ، أو لشرطٍ مقدّر، وحُذف مع الفاء الرابطة له.

٢- أعوذ:

ينطبق على هذا الفعل ما انطبق على صِنوه في سورة (الناس).

٣- الفلَق:

لفظٌ قرآنيٌّ آخر لم يعرفه العرب في الجاهليّة، بهذا المعنى على الأقلّ، وأقدم بيتٍ نعثر فيه عليه هو للشاعر أوس بن حجر (ت ٢ ق.هـ):

وبـالأُدْمِ تُحدَى عليها الرِحـال   وبالشَـولِ فـي الفَلَـقِ العاشِـبِ

وعدا عن أنّ الشاعر كان ممّن امتدّ بهم العمر إلى عصر النبوّة، فإنّ معنى اللفظ في البيت لا يمتّ بصلةٍ إلى المعنى القرآنيّ. إنه هنا (المطمئنّ من الأرض بين الربوتين) -كما ورد في لسان العرب- أمّا معناه في القرآن، تبعاً للمفسّرين، فهو الصبح، وكذلك كلُّ ما انفلق، أي انشقّ، عن حياةٍ جديدة: من ضوءٍ، أو إنسانٍ، أو حيوانٍ، أو نبات، وقد يدخل المعنى الجاهلي، من هذا المفهوم، تحت المعنى القرآنيّ الجديد ما دامت الربوتان قد "انفلقتا" عن الأرض المنخفضة بينهما.

ويزيدنا ثقةً باختصاص القرآن الكريم بهذا اللفظ عدمُ وروده في الحديث الشريف، إلاّ في معرض سياقٍ قرآنيّ. ثمّ إنّه من خصوصيّات هذه السورة، فلا يتكرّر أبداً في غيرها من السوَر.

٤- غاسق:

لفظٌ قرآنيٌّ آخر للّيل لم يعرفه التراث الجاهليّ، كما يؤكّد لنا ما بين أيدينا من شعر تلك الحقبة، وتنفرد به هذه السورة فلا يتكرّر في القرآن مرّةً أخرى.

وبدهيٌّ أن نربطه باللفظ (غسق) الذي يعني ظُلمة أوّل الليل، وبالتعبير (غسَقَ الليلُ)؛ أي اشتدّت ظُلمته، و(غسقت العين)؛ أي أظلمت وانصبّ دمعها.

وأقدم بيتٍ يتضمّن هذا اللفظ في تراثنا الشعريّ يصادفنا عند الشاعر مجنون ليلى (ت ٦٨هـ):

ويومٍ كحَسوِ الطيرِ بِتنا ننوشُهُ   على شُعَبِ الأكوارِ والليلُ غاسقُ

ولا يَرد اللفظ أبداً في الحديث الشريف إلاّ في معرض التعليق على الآية أو شرحها.

٥- وقَب:

وقْبُ العين: هو النُقرة أو التجويف الذي تكون فيه، نقول: وقَبتْ عيناه: إذا غارتا. ولكنّ القرآن الكريم أخرج اللفظ مُخرَجاً جديداً، رغم أنّنا لا نعثر عليه

في الشعر الجاهليّ، لا بالمعنى القرآنيّ ولا بغيره، ولا نجده كذلك في الحديث الشريف، إلاّ أن يكون في معرض الحديث عن هذه الآية أو شرحها، ولكنّنا نجد الاسم منه (وَقْب) مرّةً على الأقلّ في حديث الحوت الذي عثر عليه المسلمون (ولقد رأيتَنا نغترفُ مِن وَقْبِ عينِه بالقِلال)[1].

ولكم أن تتخيّلوا الخصوصيّة العجيبة لهذا الاستعمال القرآنيّ لو قرنتم المعنى المقترح هنا للّفظ (غاسق)، وهو (المنصبّ بشدّة) إلى المعنى الجديد للّفظ (وَقَب)، وهو (الإحاطة بالشيء على شكل استدارة تجويف العين)، لتدركوا معي أيَّ وصفٍ جديدٍ ومَهيبٍ ودقيقٍ وعلميٍّ للّيل يقدّمه لنا هذا التعبير القرآنيّ.

ولا يتكرّر اللفظ في القرآن خارج هذه السورة، فهو أيضاً من خصوصيّاتها.

٦- النفّاثات:

أوّل شاهدٍ في تراثنا الأدبي يرِد فيه هذا اللفظ، خارج القرآن الكريم، يعود إلى القرن الثامن الهجريّ وعند شاعرٍ أندلسيّ هو ابن خاتمة (ت ٧٧٠هـ) حيث يقول (والبيت من المنسرح):

مهما يَرُمْ عنكَ الصبرَ مالَ بهِ ألحاظُكَ النفّاثاتُ في العُقَدِ

فإن وجدناه قبل ذلك ففي صيغة المذكّر، وعند شاعرٍ من القرن الثالث الهجريّ هو ابن الروميّ (ت ٢٨٣ هـ) حيث يقول:

حُوْرٌ سَحَرْنَ وما نَفَثْنَ برُقْيَةٍ فبلَغْنَ ما لا يَبلغُ النفّاثُ

إنه إذن، قرآنيٌّ في لفظه، وقرآنيٌّ في دلالته على الساحر، وقرآنيٌّ في تخصيصه بالسواحر (جمع ساحرة) فلا يشمل السَحَرة (جمع ساحر)، بل قيل إنّه، أو السورة كلّها، نزلت في بنات لَبِيد بن أعصَم اليهوديّ اللواتي حاولن أن يَسحَرْنَ النبيّ ﷺ.

واللفظ، مرّةً أخرى، خاصٌّ بهذه السورة فلا يتكرّر في غيرها، ولا وجود له في الحديث الشريف، إلاّ أن تُذكر فيه هذه الآية.

---

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٢٢، ص٢٤٢، حديث رقم ١٤٣٣٨.

وهكذا تختصّ هذه السورة القصيرة وحدها بسبعة ألفاظٍ لا تشاركها فيها أيّةُ سورةٍ أخرى في القرآن، وهي: (الفلق، غاسق، وقَب، حاسد، حَسد، النفّاثات، العُقد)، وأربعةٌ من هذه الألفاظ السبعة تختصّ بالقرآن وحده ولم تعرفها العربيّة ولا لغة الحديث الشريف وهي (الفلق، غاسق، وقَب، النفّاثات).

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- قل أعوذ:

عرفنا في حديثنا عن سورة (الناس) جِدّة هذا التعبير على اللسان العربيّ.

٢- الفلَق:

إنّها صورةٌ كاملةٌ في لفظٍ واحد، تحمل كلّ أبعاد الصورة البيانيّة، وإضافةٌ قرآنيّةٌ حقيقيّةٌ لقاموسنا اللغويّ والبلاغيّ معاً من خلال الصورة الجديدة التي حملها اللفظ.

وهو، بمعناه الجديد، صورةٌ لكلّ ما "تنفلق" عنه الكائنات، بمظاهرها المختلفة، الكونيّة والأرضيّة والإنسانيّة والحيوانيّة والنباتيّة، وهو بمعنىً آخر إحدى الصور الإعجازيّة الجديدة في القرآن التي تُؤكّد وحدة الخَلق وولادة كلّ المخلوقات من فلْقتين مهما اختلفت أشكالها، ودلالة وحدة المخلوق هذه، من ثَمّ، على وحدة الخالق.

٣- ربِّ الفلق:

شأن هذا التركيب في السورة شأن (ربّ الناس) و (ملك الناس) في السورة السابقة، فعدم وجود لفظ (الفلَق) في التراث الجاهليّ سيعني بالبداهة عدم وجود التركيب (ربّ الفلق) أيضاً، فهي إذن إضافةٌ جديدةٌ غير معهودةٍ إلى لفظ (الربّ)، وتعبيرٌ آخر جديدٌ يدخل المعجم التعبيريّ للغتنا العربيّة.

ولن نجد هذا التعبير بعد ذلك، لا في الحديث الشريف ولا في الشعر العربيّ، حتى مجيء الشاعر الرجّاز رؤبة بن العجاج (ت ١٤٥هـ) حين قال:

وَسْوَسَ يدعو مُخلِصاً ربَّ الفلقْ   سـرّاً وقد أوّنَ تأوينَ العُقَقْ

٤- مِن شرِّ ما خلَق:

ربّما لا نعي من النظرة الأولى، أو ربّما ولا الثانية ولا الثالثة، البعد الجديد وغيرَ العاديّ لهذه الآية. إنه تعالى يدعونا في الآية الأولى إلى أن نستعيذ من شرٍّ ينصّ في الآية الثانية على أنّه هو الذي خلقه وأوجده.

تخيّل أنّك تقول لصغيرك:

سأعلّمك يا ولدي كيف تحمي نفسك من لسعة الأفعى التي وضعتُها تحت وسادتك!!

إننا نردّد في هذه السورة ما معناه: أطلب حمايتك من شرّ أنت وضعتني في داخله!! وإذا أردنا للمضمَرات في هذه الآية أن تظهر لقلنا:

أعوذ بربّ الفلق من شرّ ما خلق ربُّ الفلق!!

وسيعيننا على فهم طبيعة الآية ما يُروى عن رسول الله ﷺ أنّه كان يدعوه تعالى بقوله: "وأعوذُ بكَ منكَ"[(١)]، وكذلك بقوله ﷺ: "لا ملجأ ولا مَنجَى منكَ إلاّ إليك."[(٢)]

وإذا كانت اللغة وعاءً للفكرة حقاً، ولا يمكن الفصل بينهما، شأن الروح والجسد، فبدهيٌّ أن تقع لغة هذه الآية أيضاً، بَلْهَ الفكرةَ نفسها، في رأس العربيّ الأول موقع الدهشة والحيرة والاستغراب.

---

(١) ابن خزيمة، محمد بن إسحاق، **صحيح ابن خزيمة**، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م، ج١، ص٣٣٥، حديث رقم: ٦٧١.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٩٧، حديث رقم: ٢٤٤.

٥- غاسقٍ إذا وقَب:

هذا التعبير هو إضافةٌ أخرى قدّمها القرآن الكريم إلى قاموسنا البيانيّ. ففيه لوحةٌ جديدةٌ تصوّر الليل وكأنّه طُوفانٌ كبيرٌ ينصبّ من السماء ليشمل الأرض ويلتفّ حول (وَقْبِها) المستدير، كما يلتفّ مِحجرُ العين حول تجويفها.

٦- ومِن شرِّ غاسقٍ إذا وقَب:

شأن هذه الآية شأن سابقتها في الغرابة، ولكن ممّا يقلّل من وقْع غرابتها أنّ الضمير في (وقَب) لا يعود على اللفظ (ربّ) أي (خالق الغاسق) -كما في الفعل (خلق) الذي اختُتمت به الآية السابقة- بل على (الغاسق) نفسه، وإن كان هذا الغاسق، الذي يعلّمنا ربُّه كيف نستعيذ من شرّه، هو في النهاية من مخلوقات هذا الربّ أيضاً.

إنها إذن، مرةً أخرى، دعوةٌ من الخالق لنستعيذ به من مخلوقه.

٧- ٨- شرِّ غاسقٍ/ شرِّ حاسدٍ:

اعتادت الأذن العربية في المعطوفات، من جُمَلٍ أو أشباهِ جمل، أن تجري على نسقٍ لغويٍّ أو نحويٍّ متشابهٍ، أو متقاربٍ على الأقلّ، كما في الحديث النبويّ:

- "من اغتسل يومَ الجمعةِ غُسْلَ الجَنابةِ (أي غُسلاً مثلَ غُسل الجَنابة) ثم راح (أي إلى صلاة الجمعة) فكأنّما قرّبَ بَدَنةً (أي ضحّى بناقةٍ)، ومن راح في الساعة الثانية (أي من وقت الاغتسال) فكأنّما قرّب بقرةً، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنّما قرّب كَبْشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنّما قرّب دَجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنّما قرّب بيضة.."[(١)]

لاحِظ كيف تعاطفت الجمل في الحديث على نسقٍ واحد، فالجمل الأربع الأخيرة كلّها بدأت بالشرط وفعله (ومن راح) وانتهت بأداة التشبيه (فكأنّما) يليها

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٣٠١، حديث رقم: ٨٤١.

فعلٌ ماضٍ فاعله مستترٌ تقديره (هو) ثم مفعولٌ نكرةٌ (بقرةً – كبشاً – دجاجةً – بيضةً). وبدهيٌّ ألاّ تتوقّع آذاننا ونحن نقرأها أن تخرج إحدى هذه الجمل فجأةً عن نسق الجمل الأخرى، فتصبح مثلاً: فكأنّما قرّب الكبش، أو: فكأنّما يقرّب كبشاً، أو: فكأنّ الرجل يقرّب، وهكذا..

لقد خرجت الآية ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ..﴾ عن السياق الذي بدأته الآية التي سبقتها ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ..﴾، إذ أضيف اللفظ (شرّ) هناك إلى معرفةٍ (وهو الاسم الموصول: ما) –لا يَخفَى طبعاً أن الاسم الموصول هو واحدٌ بين سبعة أنواعٍ من المعرفة– ولكنه أضيف هنا إلى نكرةٍ (غاسقٍ)، رغم أنّه يعود في الآية التالية إلى السياق الأول فيضاف إلى معرفةٍ (النفاثات) ليعود بعدها في الآية الرابعة فيضاف إلى نكرةٍ (حاسدٍ).

هذا التنوّع يدخل في باب الالتفات، وهو، رغم حدّة خروجه على المألوف، يأتي في نظامٍ إيقاعيٍّ متوازنٍ ومتناغمٍ يخفّف من أي تأثيرٍ سلبيٍّ يُمكن أن يقع في حالاتٍ لغويّةٍ بشريّةٍ مماثلة.

لاحظ معي مثلاً توازن الآيتين ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ / وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ مع تشابُه ثلاثة ألفاظٍ فيهما من أصل خمسةٍ (ومن – شرّ – إذا) وتناظرِ مواقع كلٍّ من هذه الألفاظ في الآيتين.

٩ إلى ١٢– مِن شرٍّ (ابتداء الآيات الأربع بحرف جرٍّ متعلّقٍ بوحدةٍ سابقة):

لن أتحدّث عن كلّ نقطةٍ من هذه النقاط منفصلةً عن غيرها، فالآيات الأربع الأخيرة من السورة تبدأ، كما ترون، بشِبه جملةٍ مؤلّفٍ من حرف الجرّ (مِن) مع مجروره، وهذا الفعل معلّقٌ في الحالات الأربع بالفعل نفسه (أعوذ) الذي جاء في مطلع السورة.

ولا شكّ أن ابتداء وحدةٍ لغويّةٍ مستقلّةٍ -أي الآية- بشِبه جملةٍ متعلّقٍ بفعلٍ سبق هذه الوحدة؛ أمرٌ غير معهودٍ في النثر العربيّ التقليديّ، ليس في الفترة الجاهلية فحسب، بل حتى اليوم، فضلاً عن التأثير الخاصّ الذي يُحدثه اجتماع أربع حالاتٍ متتاليةٍ في سورةٍ قصيرةٍ كهذه.

١٣ إلى ١٦- يضاف إلى ذلك أنّ التعبيرات الأربعة جميعاً (أعوذ من شرّ) إضافةٌ قرآنيّةٌ جديدةٌ على اللغة العربيّة، ولا نجد أيّاً منها في الشعر الجاهليّ، كما أنّها مختصّةٌ بهذه السّورة وحدها فلا تتكرّر مرّةً أخرى في القرآن الكريم.

١٧- النفّاثاتِ في العُقد:

ما تعقده الساحرة من عُقَدٍ في سحرها، من خيطٍ أو حبلٍ أو غيرهما، لم يرتبط في تراثنا، قبل هذه الآية، بالنفث أو النفّاثات.

حتّى إنْ حدث أن وُجد اللفظان أو أحدهما في الشعر الجاهليّ، وهذا لم يحصل كما بيّنّا، في أيٍّ من النصوص التي بين أيدينا، فإنّنا لن نجد هذا التركيب الذي يجمع بين اللفظين معاً، بل إننا لن نجد التعبير مطلقاً في غير هذه الآية من القرآن الكريم، فهو تركيبٌ اختصّ بسورة (الفلق) وحدها.

١٨- ٢١- غاسقٍ إذا وقب/ حاسدٍ إذا حسد:

هذه الـ(إذا) في الآيتين أخذت منّي أيّاماً من الحَيرة وأنا أبحث في كتب النحو والتفسير وإعراب القرآن وتأويل مُشكِلِه، لعلّي أظفر بإعرابٍ لها أطْمئنّ إليه ويجيب عن تساؤلاتي الكثيرة حولها، وخرجت في النهاية بحكمٍ كان لا مفرّ من اتخاذه: إنّ لها خصوصيّةً عجيبةً لا تشاركها فيه إلاّ آيةٌ واحدةٌ في سورة (النجم).

فالأداة (إذا) ترِد في القرآن الكريم مئات المرّات، وبمعانٍ تتنوّع بين:

أ- الشرط مع الزمان، كقوله تعالى ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾، فهي هنا أداة شرطٍ كاملةٌ لَحِقَها فعلُ الشرط (رَأَيْتَهُمْ) ثم جواب الشرط (حَسِبْتَهُمْ) ولكنّها

احتفظتْ، مع ذلك، بظرفيّتها الزمانيّة لأنها تعني (حين) في الوقت نفسه: (حين تراهم..).

ب- الزمان وحده من غير شرط، كقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ ﴾، فهي هنا تحمل معنى الظرفيّة الزمانيّة: (حين تطلُع الشمس) من غير أن يرافقه معنى الشرط.

ت- الفجائيّة، وهي تخلو خلوّاً شبه تامٍّ من معنى الزمن أو الشرط كقوله تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ فهي هنا بمعنى (فجأةً).

إنّنا لو أحللنا محلّ (إذا) في الآيتين كلمةً تُغني عنها، فقلنا في الأولى: ومن شرّ غاسقٍ واقبٍ، وفي الثانية: ومن شرّ حاسدٍ يحسد، لكان إعراب (واقبٍ) صفةً لـ (غاسقٍ) وإعراب جملة (يحسد) أيضاً صفةً لـ (حاسدٍ) أي (حاسدٍ حَسّادٍ).

طبعاً لا تخلو (إذا) في آيتَيْ (الفلق) من معنى الزمنيّة أيضاً، فكأنّ المعنى الدقيق في الأولى (غاسقٍ حين يَقِبُ) وفي الثانية (حاسدٍ حين يحسد).

ولأننا تعلّمنا أنّ الظرف وحرف الجر لا بدّ لهما من فعلٍ أو عملٍ أو حَدَثٍ يتعلّقان به، أي يقع أو يحدث فيهما، ونحن لا نجد هذا الحدثَ هنا إلاّ في الفعل (أعوذ) أي: أعوذ منه حين يقب، وأعوذ منه حين يحسد، فيكون مجموعُ ما تعلّق بهذا الفعل إذن سبعةَ أشباهِ جملٍ:

أ- (بربِّ)،

ب - ت - ث - ج - (مِن شرِّ) - في الآيات الأربع -،

ح - خ (إذا) - في الآيتين -.

ويمكن أن نختصر الحالة بكاملها في هذا الشكل الرياضيّ المبسّط:

أعوذ به منه ومنه ومنه ومنه حين وحين..

وهذا أيضاً من أندر الحالات الإعرابيّة في لغتنا.

لقد وعدتُ في مقدّمة هذا البحث بألاّ أخوض مع القارئ في مجاهل النحو والصرف واللغة والبلاغة، ويجب أن أعترف بأنني أخوض به الآن واحدةً من أعقدِها، ولكنني أعدكم بأن أحاول أن نخرج منها بسلام، ونرسو على برّ الأمان بعد أن نكون قد استوعبنا حقاً ما نبحث عنه من جِدّةٍ في الآيتين.

لنحاولِ الآن إيجاد بديلٍ لـ (إذا) في الأبيات الجاهليّة التالية، تماماً كما فعلنا في الآيتين:

وواضـحٍ أشنبِ الأنيـابِ ذي أشَـرٍ   كالأُقحُوانِ إذا ما نَورُهُ لَمعـا

لقيط بن يعمَر (ت ٢٤٩ ق.هـ)

لا يَصلُحُ الناسُ فوضَى لا سَراةَ لهمْ   ولا سَـراةَ إذا جُهّالُهُـمْ سـادوا

الأفوه الأوديّ (ت ٥٤ ق.هـ)

فبلَّغَـهُ دَلَـجٌ دائـمٌ   وسـيرٌ إذا صَـدَحَ الجُنـدبُ

المسيّب بن مالك (ت ٤٨ ق.هـ)

ففي البيت الأول نستطيع أن نقول (كالأقحوان لامعاً) أو (لامعاً نَورُه أو زهرُه) فيحلّ محلّ (إذا) الزمانيّة حالٌ مفردة (لامعاً) -نذكُر هنا القاعدة النحويّة التي تقول إنّ الجمل بعد النكرات صفات وبعد المعارف أحوال- وقد جاءت جملة (إذا ما نَوره لمعا) بعد اسمٍ معرفةٍ (الأقحوان) فلا شأن لها إذن بالآيتين، لأنها جاءت فيهما بعدَ نكرة.

ولا يدخل في ذلك البيتُ الثاني أيضاً، ففي (إذا) معنى الشرط؛ أي: إذا حَكم الجَهَلة اختفى السادة والأشراف. وليس في الآيتين معنى الشرط.

أمّا في البيت الثالث فقد جاءت (إذا) زمانيةً وسبَقها نكرةٌ (سَيرٌ) ولكنّنا لا نستطيع أن نُحلّ محلّها صفةً لهذه النكرة، فلو قلنا: سيرٌ صادحٌ (ولا نستطيع أن نقول: صادحٌ جُندبُه، لأنّ الجُندب ليس جزءاً من السير) فإنّنا نخطئ إذ ننسب هذه الصفة إلى السير، وهي في البيت للجندب، أي: جندبٌ صادحٌ.

أمّا آيتا سورة (العلق): ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ ﴾ فهما أكثر انسجاماً مع شروط آيتَيْ الفلق:

أ- لأنّه قد سبق (إذا) هنا اسمٌ نكرةٌ (عبداً)

ب- لأنّنا نستطيع أن نحلّ محلّها، مع فعلها، صفةً لهذه النكرة فنقول (عبداً مصلّياً).

ولكنّ فرقاً دقيقاً جداً بينها وبين آيتَيْ (الفلق) يجعلنا نستبعد هذه الحالة عن شروطنا، فما هو يا ترى؟

إنّ (إذا) في هذه الآية زمنيّةٌ وليست شرطيّة، ومع هذا ألم تشمّوا معي فيها رائحة الشرط؟

نحن نستطيع أن نتوقّف في الآية الأولى عند (غاسقٍ) وفي الثانية عند (حاسدٍ) من غير إخلالٍ مهمٍّ في المعنى، ولكن هل نستطيع أن نتوقّف عند (عبداً) في آية سورة (العلق) من غير أن نخلّ بالمعنى؟

إنّ النهي للعبد هنا هو عند الصلاة، وليس في مطلق الأوقات، ولذلك امتنع فيها الاستغناء عن الفعل بعد (إذا) كما فعلنا بسهولةٍ في آيتي الفلق.

أمّا الآية (٤٦) من سورة (النجم)، فهي وحدها التي وجدناها تدخل في حالة هاتين الآيتين: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ٤٦ ﴾.

فمن السهل هنا إحلال صفةٍ للاسم (نطفة) محلّ (**إذا تُمنى**) فنقول: (من نُطفةٍ مَمْنيّةٍ) وهذا ما تنفرد به الآيات الثلاث في القرآن الكريم ثمّ لا نجد مثيلاً له في سائر تراثنا العربيّ.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

ما زلنا نتذكّر طبعاً ما قصدناه بهذا المصطلح الجديد، ونتذكّر بعض النماذج التي قدّمناها لتوضيحه، وكيف أنّ لكلّ عصرٍ قوالبَه اللغويّةَ الخاصّة التي تسود فنونَه الأدبية عامّةً، والشعريّ منها خاصّةً، فتتردّد هي نفسها عند الكتّاب والشعراء.

وهكذا تردّدت السبيكة التي وزنها: (وعملٍ كعملِ العمل) عند الشعراء الجاهليين ومَن بَعدَهم، بدءاً من امرئ القيس (وليلٍ كمَوجِ البحر) إلى الشَّنْفرَى (وخَرقٍ كظَهر التُرس) إلى حاتم الطائي (وخرقٍ كَنصلِ السيف)، كما تردّدت سبيكة (ألا أيّهذا العاملِيْ) منذ طَرَفة بن العبد (ألا أيّهذا اللائمي – أو الزاجري –) إلى الأعشى (ألا أيّهذا السائلي) إلى الأخطل (ألا أيّهذا المُوعِدي)..

ولو توفّرت دراساتٌ لهذا الموضوع، لأمكننا إعادةُ معظم ما ورد في الشعر من عباراتٍ إلى فصائل أو أُسَرٍ، أو سبائك لغويةٍ، تمكّن منها الشعراء، أو تمكّنت منهم، ولم يعودوا قادرين على التخلّص منها أو إيجاد غيرها.

فإن وُجِد من استطاع منهم ذلك؛ فهم أولئك الأعلام الكبار في تاريخ الشعر العربي، ممّن أصرّ في سباق العبقريّات أن يقفز فوق الحبال، ولم يرضَ أن يمرّ من تحتها، وعلى رأسهم المتنبّي طبعاً. ولكنّ هؤلاء العباقرة لم يكن لديهم ما يقدّمونه من جديدٍ إلاّ سبيكةً هنا وسبيكةً هناك، إذ لم تكن سبائكهم الجديدة تغطّي أكثر من ٥ – ١٠٪ من لغتهم الشعريّة، على حين جاء القرآن الكريم، ومرَّة واحدة، بلغةٍ ليس فيها من السبائك المعروفة قبله إلا مثل هذه النسبة المئويّة البسيطة أو أقلّ، هذا إن وُجد بين سبائكه على الإطلاق مثل تلك السبائك.

لقد نزل القرآن الكريم ليفاجئ العرب بلغةٍ جديدةٍ تتجاوز سبائكها وألفاظها وتعبيراتها وتراكيبها وصورها وعلاقاتها اللغويّة والبيانيّة؛ كلّ ما عهدوه في نثرهم أو شعرهم، فكانت لغتُه بمثابة اختراقٍ لحاجز الصوت، أو ربّما حاجز الضوء عندهم.

كانوا في حَيرةٍ غير عاديّةٍ وهم يحاولون أن يوجدوا مسوِّغاً علميّاً، أو يضعوا تحليلاً نقديّاً للصدمة التي أحسّوها وهم يستمعون إلى اللغة الجديدة.

ولكنّ الوسائل النقديّة عند العرب، ولا أقول الحسّ النقديّ، لم تكن من التطوّر آنذاك بحيث تسمح لهم بأن يَخرجوا بتقريرٍ علميٍّ تحليليٍّ مفصّلٍ لطبيعة الانفجار الذي أحدثه القرآن في لغتهم، فكان أقصى ما استطاعوا أن يصفوا به كلام الوحي هو قولة الوليد بن المُغِيرة المشهورة، وهو الذي أصرّ على الشرك حتّى النهاية:

"إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمُثمرٌ أعلاه مُغدِقٌ أسفلُه، وإنّه لَيعلو ولا يُعلى، وإنّه لَيَحْطِمُ ما تحتَه".

ودعونا نستعرض الآن ما في هذه السورة الكريمة من سبائك قرآنيّةٍ جديدة:

١- قل أعوذ بربّ الفلق:

هذه نسخةٌ أخرى من السبيكة التي افتُتحت بها السورة السابقة ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ولا داعي لتفصيل تركيبتها النحويّة من جديد.

٢- ٣- من شرّ غاسقٍ إذا وقب/ من شرّ حاسدٍ إذا حسد:

سبيكةٌ أخرى من السبائك اللغويّة العديدة التي أحدثها القرآن الكريم في العربيّة، وقد تكرّرت مرّتين في آيتين من هذه السورة القصيرة التي لا تتجاوز خمس آيات.

إنّها بناءٌ لغويٌّ فريدٌ يبدأ بجارٍّ ومجرورٍ (من شرّ) مَتْلُوَّين باسمٍ نكرةٍ (غاسقٍ/ حاسدٍ) ويتلو هذا فعلٌ ماضٍ للغائب المفرد (وقَب/ حَسد) مسبوقٌ في كلّ مرّةٍ بظرف الزمان (إذا)، وميزانها: (مِن عملِ عاملٍ إذا عملَ)

ولم تتكرّر هذه الصيغة في أيّة سورةٍ أخرى. وأقرب السبائك القرآنيّة إليها، وإن لم تُماثلها تماماً، قولُه تعالى:

- ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ [النجم: ٤٦] (مِن عُملةٍ إذا تُعمَلُ)

- ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ [الأنعام: ١٤١] (اعملوا مِن عملِه إذا أعمَل)

٤- مِن شرٍّ.. ومن شرّ (سبيكةٌ مركّبةٌ تشمل رؤوس الآيات الأربع الأخيرة):

إنّ تكرار شبهِ الجملة ﴿ مِن شَرِّ ﴾ في مطلع كلّ آيةٍ من الآيات الأربع الأخيرة يشكّل ما يمكن أن أسمّيَه "سبيكةً مركّبة" وهي السلك الذي ينتظم هذه الآيات الأربع فتتوالى فيه بشكلٍ إيقاعيٍّ متناغمٍ ومتوازنٍ يجعل منها وحدةً لغويّةً تتلاحق أجزاؤها الواحد بعد الآخر لتكوّن هذه السبيكة الجديدة.

وتكرار ﴿ مِن شَرِّ ﴾ في مطالع الآيات الأربع يناظر تكرار الحروف الأربعة (نّاس) في فواصل آيات سورة (الناس)، فكأنّ ﴿ مِن شَرِّ ﴾ هنا بمثابة قافيةٍ/ فاصلةٍ أماميّةٍ تأتي على رؤوس الآيات بدلاً من خواتمها، إنّها بمثابة قافيةٍ أو سجعةٍ من نوعٍ جديد، أو فاصلةٍ متقدّمةٍ تحلّ محلّ الفاصلة المتأخّرة المعتادة.

رابعاً: اللغة المنفتحة

١- قُل:

لهذا الفعل ما لشبيهه في سورة (الناس) من قوّةٍ إيحائيّةٍ كان يمكن أن تفتح أمام العربيّ الأوّل خياراتٍ عديدةً من التصوّرات عن:

أ- حقيقة المتكلّم وطبيعته،

ب- وحقيقة المخاطَب ومن هو.

٢- الفَلَق:

إنّ اتساع مفهوم الفعل (فَلَق) في قاموس العربيّة يمنح هذا الاسم الذي اشتُقّ منه شحنةً إيحائيّةً شديدة الإشعاع، فهي تتجاوز المعاني المحدّدة لجذره الأساسيّ في معاجمنا الرسميّة، لأنّها تأخذ بشيءٍ من كلٍّ من تلك المعاني لتبني أشكالاً جديدةً من التصوّرات والإيحاءات.

فإلى جانب المعنى الواسع والممتدّ للّفظ؛ إذ يغطّي، كما رأينا، كلّ ما انفلقت عنه الحياة من ضوءٍ أو إنسانٍ أو حيوانٍ أو نباتٍ، فإنّ معناه معرّضٌ لاحتمالاتٍ أخرى، كقول المفسّرين مثلاً إنّه جُبٌّ في جهنّم، تبعاً لبعض الأحاديث، ومن هنا تأتي قيمة اللفظ وتلوّنه وغناه.

٣- شرّ ما خلق:

إنّ في تعدّد صور الشرّ وأنواعه، من ناحية، وصيغة (شرّ) التي تحمل معنى الاسميّة العاديّة (سوء) إلى جانب معنى اسم التفضيل (أكثر شرّاً)، وكذلك في عموميّة الفعل (خَلَق) وسعتِه وتعدّدِه، من ناحيةٍ أخرى، إلى جانب الطبيعةِ الإبهاميّة لمعنى الأداة (ما) قبله، سواءٌ أكانت نكرةً تامّةً بمعنى (شيء) أم كانت اسم موصولٍ معرفةً؛ إنّ في ذلك كلّه ما يكفي لأنْ يَمنح هذا التركيب شحنةً تصوّريّةً عاليةً لا يحدّها شخوصٌ ولا أحداثٌ ولا زمانٌ ولا مكان.

٤- شرّ غاسقٍ إذا وقب:

يحمل اللفظ (غاسق) في طيّاته أطيافاً متداخلةً من المعاني، فذهبوا إلى أنّه: الليل إذا انصبّ ودخل، أو: الليل البارد، أو: الزمهرير، أو: القمر؛ لأنّه يُكسف فيغسق، أي يذهب ضوؤه ويسودّ إذا وقب (أي دخل في كسوف نهاية الشهر فيزداد نحسه ويزداد معه عملُ السَحَرة بالسحر المُورِث للمرض)، وفي حديث عائشة رضي الله عنها "نظر النبيّ ﷺ إلى القمر فقال: استعيذي بالله من شرّه فإنّه الغاسق

إذا وقب"[1]. وقيل أيضاً هو الليل إذا غاب الشفق، أو الشمس إذا غابت وغسقت، أي سبحت في الفلك، أو الثريّا إذا سقطت في أدنى الأفق، فيستعاذ منها لِما عُرف من كثرة الطَواعِين والأسقام عند سقوطها.

ثمّ إنّ إيجاد القرآن للفعل (وقَب) من الاسم (وَقْب العَين)؛ أي تجويفها، يرسم لنا صورةً أخّاذةً للّيل وهو يلتفّ حول الأرض التفاف محجر العين حول العين، وهو من الإعجاز العلميّ الرائد في الدلالة على كرويّة الأرض، ممّا لم تكن عقول العرب، أو عقول غيرهم في ذلك الوقت، لِتدركه وتكتشف حقيقته من خلال هذه الصورة القرآنيّة المبكّرة[2].

وإضافةً إلى ما يحمله كلٌّ من اللفظين (غاسق) و(وقب) منفردَين من ظلالٍ معنويّةٍ متعدّدة، كما رأينا، فإنّ اجتماعهما في تركيبٍ واحدٍ يولّد أطيافاً فكريّةً أوسع وأعمق تنداح معها صور الفكر والخيال في أجواءٍ جديدةٍ غير تقليديّة.

خامساً: جوامع الكَلِم

١- قل أعوذ بربّ الفلق:

على غرار ما جرى للآية الأولى في سورة (الناس)، تحوّلت هذه الآية من سورة (الفلق) إلى تعويذةٍ سريعةٍ يردّدها المسلم عند شعوره بالخوف أو القلق، كما أضحت اسماً آخر يُطلق على هذه السورة.

---

(١) النيسابوري، محمد بن عبد الله. **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط. ١، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م، ج٢، ص٥٨٩، حديث رقم: ٣٩٨٩.

(٢) الغريب أن المشتغلين الكثُر في الإعجاز العلميّ اليوم لم يتنبّهوا في كتاباتهم، فيما أعلم، إلى هذه الصورة العلميّة المهمة والواضحة الدلالة على كرويّة الأرض، وإن وعدنا أنفسنا في هذا البحث بألاّ ندخل فيما ليس من اختصاصنا.

٢- النفّاثات في العقد:

شأنها شأن عباراتٍ قرآنيّةٍ أخرى كثيرة، تحوّلت هذه العبارة إلى مصطلحٍ جديد يجري على ألسنتنا للدلالة على السحرة، إناثاً كانوا أو ذكوراً، وبغضّ النظر عن الطرائق التي يتّبعونها في سحرهم، نفثاً في العُقد أو غيره.

٣- السورة بكاملها:

وكما تحوّلت سورة (الناس) إلى تعويذةٍ يوميةٍ للمسلمين يردّدونها في شتّى أمور حياتهم، تحوّلت سورة (الفلق) أيضاً لتكون لهم التعويذة اليوميّة المرافقة لها. وقد دأبت الأحاديثُ الشريفة على الجمع بين هاتين السورتين والتعاملِ معهما على صعيدٍ واحد، كما مرّ معنا في سورة (الناس)، وكما في الحديث:

- عن أبي سعيد الخُدرْيّ ﵁ قال: كان رسولُ الله ﷺ يتعوّذُ من الجانّ وعينِ الإنسان، حتّى نزَلتِ (المعَوِّذتان)، فلمّا نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما[١]

ويتنبّه الرازيّ إلى لطيفةٍ هامّةٍ في سورتَي (الفلق) و (الناس) فيقول: "إنّ المستعاذ به في السورة الأولى مذكورٌ بصفةٍ واحدة، وهي أنّه ربّ الفلق، والمستعاذ منه ثلاثة أنواعٍ من الآفات، وهي الغاسق والنفّاثات والحاسد، وأمّا في سورة (الناس) فالمستعاذ به مذكورٌ بصفاتٍ ثلاث: وهي الربّ والمَلك والإله، والمستعاذ منه آفةٌ واحدةٌ وهي الوسوسة. والفرق بين الموضعين أنّ الثناء يجب أن يَتقدّر بقدْر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن (أي قلّ الثناء لقلّة المطلوب: وهو السلامة في الدنيا)، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدِّين (أي زاد الثناء لأهمّية المطلوب: وهو سلامة الآخرة)"[٢].

---

(١) الترمذي، محمد بن عيسى. **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، تحقيق: أحمد شاكر، بيروت: دار إحياء التراث، (د. ط)، (د. ت)، ج٤، ص٣٩٥، حديث رقم ٢٠٥٨.

(٢) فخر الدين الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج ٣٢، ص١٨٢.

* * *

إنها ٣٨ نقطةً إعجازيةً جديدةً استطعنا أن نضع أيدينا عليها في هذه السورة القصيرة التي لا يتجاوز عدد ألفاظها ٢٣، ومن يدري، فلعلّ المستقبل يأتي لنا بمن يكتشف فيها المزيد من جوانب الإعجاز القرآنيّ وأسراره.

السورة الرابعة

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾

هذه هي السورة الثالثة في الترتيب التراجعيّ للسور، وتشكّل مع السورتين السابقتين ثلاثيّةً دينيّةً تحتلّ في عباداتنا اليومية أكثر من مكان، وتتردّد في أكثر من مناسبة.

إنّ عدد كلمات (الإخلاص) لا يزيد عن ١٥ كلمة ولكنّ عدد المواقع الجديدة التي أدخلتها إلى معجمنا يصل إلى ٢٢.

وتستمدّ السورة مقوّماتها اللغويّة، التي تستقلّ بها عن بقيّة السوَر، من عدّة عناصر، أهمّها الألفاظ الثلاثة التي لا تتكرّر مرّةً أخرى في القرآن (أحَد، الصمد، كفُواً) وكذلك التعبيرات المتفرّدة التي تشغل في الواقع آياتها الأربع جميعاً.

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- قل:

لن نعيد تفصيل ما ذكرناه عن الفعل (قل) في مطلع كلٍّ من سورتَي الناس والفلق، وحسبنا هنا التذكير بأنّ الاستعمال القرآنيّ للفعل اختلف عمّا اعتاده العرب بعدّة جوانب، وأنّ القرآن قد استحدث هذا النوع من الخطاب الذي تبدأ فيه الوحدة الأدبيّة -أي السورة بكاملها، كما هو الأمر في الحالات الثلاث- بصيغة الأمر الصادر عن غيرمحدَّدٍ والموجّه إلى غير محدَّد، واستُخدم كذلك بمعنىً جديد هو: اقرأ، أو: ردّد، وليس بمعنى: أخبِر، وموقعه يوحي بوجود شرطٍ محذوفٍ مع الفاء الرابطة لجوابه، والتقدير، إن سألوك عن الله فقل ..

ولكنّ الفعل هنا، خلافاً لوضعه في السورتين السابقتين، يمكن توجيهه أيضاً إلى مجرّد الإخبار، فكأنّه تعالى يوجّه نبيّه ﷺ إلى أن يقول ذلك للمشركين، فيكون معنى الفعل على هذا: (أخبِرْهم) وليس: (ردِّد)، ومع ذلك لم تلحق به اللام التي اعتاد العرب إلحاقها به في هذه الحال، وإلاّ لكانت العبارة: (قل لهم).

٢- أحَد:

يرِد هذا اللفظ مرّتين في السورة، مرّةً في المطلع، وهو موضع اهتمامنا هنا، وأخرى في الختام، ولا يدخل في دائرة هذا البحث.

فاللفظ (أحَد) في تراثنا اللغوي يعني: بَشَر، أو: شخص، أو: إنسان، أو: كائن، وحاول أن تُحِلَّ أيّاً من هذه المعاني محلّ اللفظ (أحد) في الأبيات الجاهليّة الآتية، وستجد أنّ معنى اللفظ فيها لا يعدو أن يكون واحداً من المعاني المذكورة:

يأتي على الناسِ لا يأتي على أحدٍ   حتى التقينا وكانت دوننا مُضرُ

أعشى باهلة (ت؟)

وقد حلفتُ يميـناً لا أصالحُهم ما دام منّا ومنهمْ في المَلا أحَدُ

الحارث بن عبّاد (ت ٧٤ ق.هـ)

ألا لا يجهَلَـنْ أحـدٌ علينـــا فنجهَلَ فـوقَ جهـلِ الجاهلينـا

عمرو بن كلثوم (ت ٣٩ ق.هـ)

وقفتُ فيهـا أُصَيلاناً أُسـائلُها عَيّتْ جواباً ومـا بالربعِ مِن أحَدِ

النابغة الذبياني (ت ١٨ ق.هـ)

فأنت تستطيع أن تُحلّ اللفظ (إنسان) محلّ اللفظ (أحَد) أينما ورد في الأبيات الأربعة، وكذلك في ختام سورة (الإخلاص) نفسها ﴿كُفُوًا أَحَدٌ﴾، ولكنّك لن تستطيع أن تفعل ذلك مع (أحَد) في الآية الأولى ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وإلاّ كان تجديفاً. إنّ المعنى القرآنيّ لهذا اللفظ هو (واحدٌ) أو (فرْدٌ) ولا يمكن توجيهه لغير ذلك.

ولاحظ الفرق بين معناه في هذه الآية ومعناه في نهاية السورة: إنّ باستطاعتنا هناك أن نقول شارحين: ولم يكن مخلوقٌ، أو بشرٌ أو إنسانٌ أو كائنٌ، كفواً له، ولكنّ هذا غير ممكنٍ مع اللفظ في الآية الأولى. قال الأزهريّ في (معجم التهذيب): "لا يُوصف بالأحَديّة غيرُ الله تعالى، لا يقال: رجلٌ أحدٌ، ولا: درهمٌ أحد".

وبدهيٌّ أنّ الواحد يدخل في الأحد، ولكنّ الأحد لا يدخل في الواحد. إنّ هذا يوضّح لنا تماماً خصوصيّة استعمال هذا اللفظ وقرآنيّته، حتى عُدّ اسماً من أسماء الله تعالى.

ويخلو تراثنا، قبل الإسلام وبعده، من هذا الاستعمال الخاصّ للفظ، كما يخلو منه الحديث الشريف نفسه، إلاّ أن يرِد في سياقٍ قرآنيّ، كما في الحديث القدسيّ:

- .. وأمّا شتْمُه إيّاي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحدُ الصمد لم ألِد ولم أُولَد ولم يكنْ لي كُفُواً أحد[1]

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٠٣، حديث رقم: ٤٦٩٠.

ورغم ورود الكلمة في القرآن الكريم ٧٤ مرّةً فإنّ هذه السورة تنفرد وحدها بهذا المعنى الخاصّ دون بقيّة السوَر.

٣- الصمد:

هذا اللفظ من خصوصيّات السورة أيضاً، إذ يقتصر وجوده في القرآن على هذه الآية. ونعثر على اللفظ مرّةً واحدة على الأقلّ في الشعر الجاهليّ، وذلك في قول طَرَفة بن العبد (ت ٦٠ ق.هـ):

يَزَعونَ الجهلَ في مجلسِهمْ   وهمُ أنصارُ ذي الحِلْمِ الصَمَدْ

ولكنّ اللفظ يأخذ في الإسلام بُعداً جديداً، فهو الآن اسمٌ من أسماء الله تعالى يحمل من المعاني ما لم يحمله اللفظ الجاهليّ. إنّه هنا: السَنَد، والمعتمَد، والذي يُقصَد في الحاجات، والمستغني عن كلّ أحد، والمحتاج إليه كلّ أحد، والسيّد الذي كمُل سؤدُده، والدائم الباقي، بل هو في بعض التفسيرات: الذي لا يأكل ولا يشرب، أو المُصْمَت الذي لا جوف له. وفي اجتماع هذه المعاني للّفظ الواحد، ضمن السياق القرآنيّ الجديد الذي يَرِد فيه، يتّخذ اللفظ شخصيّةً متفرّدةً جديدةً لا علاقة لها باللفظ الجاهليّ.

ويخلو الحديث الشريف أيضاً من هذا اللفظ، إلاّ أن يكون في سياقٍ قرآنيّ، كما في الحديث القدسيّ السالف الذّكر.

٤- لم يكن:

هذا الاستعمال للفعل الناقص (يكن) هو من الخصوصيّات العجيبة للقرآن الكريم؛ إذ لم يشاركه في هذا الاستعمال حتى الآن نصٌّ نثريٌّ أو شعريّ، قديمٌ أو حديث، بشريٌّ أو نبويّ.

لقد تحدّثنا في الجزء الأول عن الأداة الناقصة (كان) واستعمال القرآن الكريم لها في معنىً جديدٍ لم يعرفه العرب من قبل، ولا مِن بَعد، وهو معنى الاستمراريّة والتأكيد المطلق؛ أي ما يفيد معنى (إنّ) التوكيديّة.

واستعمال (كان) في هذه الآية هو من المرّات القلائل التي خرج فيها القرآن بهذه الأداة عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع (٨ مرّات) وحافظ مع ذلك على معناها القرآنيّ الجديد: تأكيد النفي المطلق الذي يغطّي الأزمنة الثلاثة: إنّه لم يكن، ولا يكون، ولن يكون.

والاستعمال القرآنيّ للفعل في صيغة الماضي يعني تأكيد الإثبات المطلق. فقوله تعالى: "وكان ذلك على الله يسيراً" لا يعني أنّ الأمر كان كذلك في الماضي ولم يعد كذلك الآن -كما يعني هذا الفعل عادةً أينما وقع في لغتنا البشريّة- بل يعني الاستمراريّة: كان في الأزل، وما يزال، وسوف يستمرّ إلى الأبد.

طبعاً، الحديث في آية سورة (الإخلاص) يتّجه إلى تأكيد النفي بدلاً من تأكيد الإثبات، أي: ليس له كفواً أحد، فالنفي هنا نفيٌ لوجود المثيل أو المُشابه، في الماضي والحاضر والمستقبل معاً.

ويتوضّح الفرق بين الاستعمال القرآنيّ والاستعمال البشريّ لو قارنّا بين معنى الفعل في الآية ومعناه في أيّة جملةٍ عاديّةٍ أخرى، كمثل قولنا:

لم يكن البائع في مخزنه

فما نتحدّث عنه هنا أمرٌ وقع في الزمن الماضي، ولا علاقة له بالحاضر أو المستقبل. وهكذا في الأبيات الجاهليّة التالية:

فإنّا لم يكنْ ضبّاءُ فينا ... ولا ثَقْفٌ ولا ابنُ أبي عصامِ

أوس الهُجَيميّ (ت؟)

رميتُ به سهماً فعجّل حتفَهُ ... وذلك شيءٌ لم يكن بخِياري

الحارث بن عبّاد (ت ٧٤ ق.هـ)

ألفيتَنا للضَيفِ خيرَ عِمارةٍ ... إن لم يكنْ لَبنٌ فعطفُ المُدْمَجِ

الحارث بن حِلِّزَة (ت ٥٤ ق.هـ)

والغريب أن استخدام القرآن للفعل بهذا المعنى الجديد يتوزّع على السوَر تبعاً لنظامٍ خاصّ، وقد سبق أن أوضحنا في الجزء الأول أنّه استُخدم في القرآن الكريم بهذا المعنى ١٩٠ مرّة، منها ٥٣ مرّةً في سورة (النساء) وحدها، رغم أنّ وجوده ينعدم تماماً فيما تبقّى من سوَر النصف الأوّل من القرآن، على حين تتوزّع بقيّة الاستعمالات على سوَر النصف الثاني منه.

ولا شكّ أنّ هذا التوزيع المنظّم للفعل على سوَر الكتاب الكريم يؤكّد حقيقة الشخصيّة المتميّزة لكلّ سورة، بل على عدم اختلاط آيات أيٍّ منها بالأخرى أيضاً، ثمّ إنّ هذا النظام من شأنه أن يؤكّد رأي من ذهبوا إلى أنّ ترتيب السوَر والآيات في القرآن الكريم كما هو الآن إنّما كان توقيفيّاً صادراً عن وحيٍ إلهيٍّ وليس عن مواضعاتٍ بشريّةٍ.

ولا بدّ من التنبيه هنا إلى أنّ المعنى القرآنيّ الجديد لا علاقة له بالفعل (كان) التامّ – عكس الناقص– فهذا من الأفعال المعروفة في القرآن الكريم وغيره، كقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أي: احصَل فيحصُل، والفرق واضحٌ بين معنى الحصول أو الحدوث وبين معنى إطلاق النفي أو إطلاق الإثبات ليشمل الأزمان الثلاثة.

٥- كُفُواً:

من اللافت للنظر ألاّ نجد هذا اللفظ، وهو شائعٌ جداً اليوم، في موسوعة الشعر الجاهليّ، إضافةً إلى أنّ هذه السورةَ القصيرة قد اختصّت بهذا اللفظ في القرآن فلا وجود له في أيّة سورةٍ أخرى.

ثمّ إنّ القرآن الكريم قد اختُصّ بهذا اللفظ دون الحديث الشريف، إلاّ أن يَرِد في سياقٍ قرآنيٍّ كما وقع في الحديث القدسيّ السابق.

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

كثيراً ما تتقارب الصيغ القرآنيّة، من تراكيب وتعبيرات، مع ما أسميناه بالسبائك القرآنيّة، تقارباً يصل أحياناً إلى حدّ التداخل الذي لا مهرب منه.

ولا بدّ من التأكيد على أنّ مقياسنا في محاولة الفصل بين النوعين، ما أمكننا ذلك، هو أن نُدخِل تحت الصيغ اللغويّة ما خالف فيه القرآنُ أعرافَ العرب النحويَّة واللغويّة والبيانيّة فيما لا يزيد عن عنصرٍ واحدٍ، بحيث لا يكون لهذا التغيير أيّ دورٍ في تغيير الوضع الإعرابيّ العام للجملة أو العبارة، وأن نُدخِل تحت السبائك ما خالفتْ به الجملةُ أو العبارة القرآنيّة البناءَ التقليديّ العامّ لترتيب أجزاء الجملة أو العبارةِ العربيّة بحيث تؤثّر هذه المخالفة في إعراب تلك الأجزاء، ويشمل هذا عادةً عنصرين لغويّين أو أكثر.

ونستعرض الآن ما في هذه السورة من صيغٍ وعلاقاتٍ لغويّةٍ جديدة:

١- هو اللهُ أحد:

لقد اختلفوا كثيراً حول إعراب هذه الألفاظ الثلاثة. ولا يهمّنا هنا أيّها المبتدأ وأيّها الخبر أو البدل، وحول ذلك يقع الاختلاف، بقدر ما يهمّنا مجيء الضمير (هو) في مطلع جملةٍ هي مقولٌ لقولٍ سبقها، أيّاً كان إعراب هذا الضمير.

إنه استعمالٌ قرآنيٌّ خاصٌّ يوقعنا، كما أوقع المختلفين قبلنا، بالحَيرة: فهل إعراب (هو): خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقدير: أتسألونني عن الله ونسبته وطبيعته؟ إذن فالجواب: الله هو..؟ أو إنّه ضمير شأنٍ مبتدأ وخبره لفظ الجلالة (الله)؟ أو لعلّ لفظ الجلالة بدلٌ منه، فيكون الخبرُ هو اللفظ (أَحَد)؟ أو ربّما غير ذلك؟

وباستطاعتنا أن نتبيّن الفرق بين التعبير القرآنيّ والتعبير البشريّ لو حاولنا أن نضع هذا المعنى في الصياغة التي اعتدناها في لغتنا البشريّة، فكيف يكون شكلها؟ قد يكون شيئاً من هذا القبيل:

إنّ الله أحد (بل نقول بالأحرى: واحد) أو:

الله أحد، أو:

إنّه أحد، أو:

هو أحد،

ولكن لن يتوقّع أيّ منّا أن نقول:

هو الله أحد.

إنّ وجود (هو) في هذا الموقع، بين فعل القول والاسم الظاهر (الله)، يشير إلى خصوصيّةٍ لغويّةٍ لا نجدها في أيّ مكانٍ آخر من تراثنا اللغويّ غير القرآن الكريم.

٢- اللهُ الصمَد:

أتذكرون آيات سورة (الفاتحة) المبدوءة ببدلٍ: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ .. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ .. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ..﴾ وآيتَي سورة (الناس): ﴿مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ﴾؟ فهذه الآن آيةٌ أخرى تبدأ بلفظ الجلالة (الله)، وقد جاء بدلاً من لفظ الجلالة في الآية التي سبقتها، وهي ظاهرةٌ لغويّةٌ لم تكن معروفةً في العربيّة قبل القرآن، ولم تُعرف بعده حتّى الآن، ولم يعرفها الحديث الشريف.

٣- اللهُ الصمَد (مكرّر):

اعتدنا، إذا بدأت الجملة بمبتدأ معرّف بـ "ال" –ولفظ الجلالة هو في حكم المعرّف بـ "ال"– وكان الخبر كذلك معرّفاً بـ "ال"، أن نفصل هذا المبتدأ عن خبره بفاصلٍ غالباً ما يكون ضميراً منفصلاً، فنقول:

الملكُ هو الحاكم، ولا نقول:

الملكُ الحاكم. ونقول:

الأتقياءُ هم الناجون، ولا نقول:

الأتقياءُ الناجون.

إنّها ليست قاعدةً نحويّة، فليس هناك قاعدةٌ تُلزمنا بذلك، ولكنّه عُرفٌ لغويٌّ سرى على تراثنا وخرج عنه القرآن الكريم في عديدٍ من آياته.

فإن حدث أن وقع مثل هذا في كلامنا فإنّما يكون في معرض الردّ على سؤال، كما فعل الرسول ﷺ حين ردّ على من سأله عن حكم الخلوة أو ظهور

الزوجة أمام إخوة الزوج فقال: "الحَمُو الموت"[1] أي هو الموت. وانظروا معي في هذه الآية:

- ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]

إنّها آيةٌ كريمةٌ أيضا، ولكنها انطلقت من العُرف اللغويّ، فلم تكن هناك حاجةٌ ملحّةٌ للضمير المنفصل في نصفها الأوّل، فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ﴾ لأنّ المبتدأ لم يكن معرّفاً بال، كما أنّ الخبر جاء اسماً موصولاً (الذين)، ولكنّ الحاجة كانت أكثر إلحاحاً لمثل هذا الضمير في النصف الثاني من الآية، لأنّ الخبر جاء اسماً معرّفاً بال (المتّقون) وإن لم يكن المبتدأ كذلك، فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾.

٤- اللهُ أَحَد. اللهُ الصمَد:

ومن الأعراف اللغويّة أيضاً، حين تتوالى جملٌ متوازيةٌ ومتناظرةٌ كهذه، يربطها عطفٌ أو إبدال، أن ينطبق التناظر على أركان الجملتين المتوازيتين، فتكون هذه الأركانُ في كلتا الجملتين مَعرفةً أو نكرة، أو مفرداً أو جمعاً، أو اسماً أو فعلاً، كما في الأحاديث:

- ..إلى مَن تكِلُني؟ إلى بعيدٍ يتجهّمني، أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري..[2]
- ..فمن كان أخوه تحت يده فليُطعِمْهُ ممّا يأكل ولْيُلْبِسْه ممّا يلبَس[3]
- سِبابُ المسلمِ فُسوقٌ وقتالُه كفرٌ[4]

أرأيتم كيف عطف النكرة على النكرة في الحديث الأول (بعيد، عدوّ) والنكرتين (ما) -أو المعرفتين لو عددناهما اسمَي موصول- إلى جانب الفعلين (فليطعمه، فليلبسه) في الثاني، والنكرتين في الثالث (فسوقٌ، كفرٌ)؟

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٠٠٥، حديث رقم: ٤٩٣٤.

(٢) المعافري، عبد الملك بن هشام. **السيرة النبوية**، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت: دار الجيل، ١٤١١هـ، ج٢، ص٢٦٨.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٢٠، حديث رقم: ٣٠.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٥٢، حديث رقم: ٤٨.

وواضحٌ أن الخروج عن العرف في الآيتين يتمثّل في مجيء الخبر نكرةً في الأولى (أحَد) ومعرفةً في الثانية (الصمد)، وهذا نوعٌ من أنواع الالتفات الفنّيّ في القرآن.

٥- لم يلِد:

لا أظنّكم سمعتم أحداً، أو قرأتم لأحدٍ يقول: فلانٌ وَلَدَ غلاماً، وإنما نقول: فلانٌ أنجب غلاماً، أو رُزق غلاماً، وفلانةٌ وَلَدَت، أو أنجبت غلاماً، والاستعمال القرآنيّ يخرق العرف اللغويّ حين يصف اللهَ تعالى بأنّه: لم يلد. وهو كذلك لفظٌ اختصّت بصياغته هذه السورة، فلا يرد في غيرها أبداً، وإن ورد في صيغة الماضي مرّتين في قوله تعالى:

- ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الصافّات: ١٧٢]
- ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ [البلد: ٣]

ويستخدم القرآن الكريم عادةً، لأداء هذا المعنى، تعبيراً مكوّناً من لفظين اثنين: (اتخذ ولداً) كما في الآيات:

- ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ ﴾ [البقرة: ١١٦]
- ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ [الكهف: ٤]
- ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩٢]

والغريب أن اللفظ الذي نستخدمه اليوم للتعبير عن هذا المعنى، وهو (أنجب) لا يرد في القرآن مطلقاً، والأغرب من هذا ألاّ يرد في الحديث أيضاً، لا للمرأة ولا للرجل، وإنّما هو في الحديث (وَلَدت) للمرأة، كقوله ﷺ:

- ..وإذا وَلَدتِ المرأةُ ربَّتَها[1]

أمّا الرجل فلا يُسنَد إليه هذا الفعلُ في الحديث مطلقاً، ولا أيُّ فعلٍ آخر بمعناه، وإنما يكون: (ولَدَت منه أو له) كقوله ﷺ:

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص١٧٩٣، حديث رقم: ٤٤٩٩.

- أيُّما وليدةٍ ولَدَتْ مِن سيِّدها ..[1]
- ..ووَلَدَتْ له أولاداً ..[2]
- ..ووَلَدَتْ منه أولاداً ..[3]

وهذا ينطبق على القرآن الكريم أيضاً حين يتعلّق الأمر بالبشر، واقرأوا معي هذه الآيات:

- ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ [النساء: ١١]
- ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ [النساء: ١٧٦]
- ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]
- ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [الأنعام: ٨٤]
- ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]

ألاحظتم كيف خلَت الآيات من أيّ فعلٍ يستقلّ وحده بمعنى الولادة أو الإنجاب؟

ويندر ورود الفعل (يلد) في الشعر الجاهليّ أيضاً، ولم أجده إلا في بيتٍ لابن عنقاء الفزاريّ (ت ٢ ق.ه):

فإنّ تميماً قبل أن يلِدَ الحصى أقامَ زماناً وهو في الناسِ واحدُ

أي يلد أمثال الحصى عدداً.

أمّا الفعل (يُنجب) فقد استخدمه الشعراء عادةً للتعبير عن النجباء أو عن إنجاب النجباء، وليس لأيّ إنجابٍ عاديّ كما جرينا على استخدامه نحن اليوم. واقرأوا معي هذه الأبيات:

رأينا قروناً مِن جديلةَ أنجبوا وفحلُ بني نبهانَ غيرُ نجيبِ
قل للأخيطل لا عجوزُكَ أنجبتْ في الوالداتِ ولا أبوكَ فَحيلُ

جرير (ت ١١٠ه)

---

(١) البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**، مرجع سابق، ج١٠، ص٣٤٢، حديث رقم: ٢١٥٥٢.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٦، ص٢٥٩٧، حديث رقم: ٦٦٧٦.

(٣) القزويني، **سنن ابن ماجه**، مرجع سابق، ج١، ص٦٣٤، حديث رقم: ١٩٧٤.

لقــد أنجَبَتْ آبــاؤه إذ أتت بـه   وكم مِن نجيبٍ سيّدٍ ليس يُنجِبُ

التهامي (ت ٤١٦هـ)

وكم مُنجِبٍ في تلقّي الدروسِ   تلقّــى الحيــاةَ فلــم يُنجِــبِ

شوقي (ت ١٩٣٢م)

هل تبيّنتم أنّ (الإنجاب) في الأبيات جميعها لم يكن مجرّد الولادة، وإنّما كان دائماً ولادة الفحول و (النُجباء) المتفوّقين من البشر.

٦- لم يلِد:

إنه وصفٌ آخر لله عزّ وجلّ يضاف إلى ما سبقه من أوصاف، ولكنْ حدث شيءٌ ما هنا انعطف معه تيّار الخطاب من مجرىً إلى آخر.

لقد كانت الصفات تتوالى في شكل أسماءٍ مفردة، أو جملٍ اسميّةٍ يمكن التأرجح في إعرابها بين الصفة والبدل والمبتدأ والخبر، ويمكن فهم كلماتها بأكثر من طريقة -كما وجدنا في (الصمد)- وهي سعةٌ في التأويل، إعراباً ومعنىً، تُناسب سعة الصفات الإلهيّة، وتترك المجال مفتوحاً للعقل وهو يسعى ليتخيّل طبيعة أوصافِ من لا يدركه وصفٌ ولا يحيط به عقل.

أمّا وقد وصل الحديث هنا إلى قضيّةٍ أخطر من أن تحتمل الاجتهاد أو التأويل: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ -وهي ثغرةٌ سبق أن نفذ منها الخلل إلى دياناتٍ عدّة- فقد تَحوّل الحديث إلى صيغة الفعل. ومن طبيعة الفعل أنّه، على الأغلب، أكثر صرامةً ودقّةً وتحديداً من الاسم، وهو التفاتٌ قرآنيٌّ فريد، بين الأنواع الكثيرة الأخرى من الالتفات التي أوجدها القرآن لأوّل مرّة.

إنّنا الآن أمام وصفٍ آخر من صفات الذات الإلهيّة، ولكن في جملةٍ فعليّةٍ كاملة ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ تليها جملةٌ فعليّةٌ أخرى ضمن الآية نفسها ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾: جملتان متتاليتان في آيةٍ قصيرةٍ واحدة، كلٌّ منهما تتكوّن من حرف نفيٍ وفعلٍ وفاعلٍ مستتر،

أو نائبِ فاعلٍ، فلا أسماء ولا صفات، ولا جملَ اسميّة، وإذن لا مجال للتردّد هنا أو للحيرة، لاً في إعراب الألفاظ ولا في تأويلها أو حرفها عن مسارها.

٧- لم، ولم، ولم:

سبق أن وقفنا عند ظاهرة اختتام آيات سورة (الناس) جميعاً بفاصلةٍ غريبةٍ هي الأحرف الأربعة (نّاس) التي تتكرّر في نهاية الآيات، ووقفنا عند الظاهرة الغريبة الأخرى في سورة (الفلق) حيث بدأت الآيات الأربع الأخيرة باللفظين **(من شرّ)** فكانت بمثابة قافيةٍ متقدّمة.

ونحن الآن أمام ظاهرةٍ أخرى مشابهة، إذ يبدأ كلٌّ من الآيات الأخيرة الثلاث بالأداة (لم) ثمّ لا يفصل بين الأدوات الثلاث إلاّ لفظٌ واحدٌ في كلّ مرّة.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- قل هو اللهُ أحد:

قبل أن أحاول توضيح "قرآنيّة" هذه السبيكة اللغويّة وإثبات تميّز بنائها اللغويّ عن بناء أيّة سبيكةٍ لغويةٍ أخرى، ألقوا معي نظرةً سريعةً على هذه الأبيات من الشعر الجاهليّ:

عليها فتىً لم تحملِ الأرضُ مثلَهُ ... أبَرَّ بميثـاقٍ وأوفى وأصبَرا
هو المُنزِلُ الآلافَ مِن جوِّ ناعطٍ ... بني أسَدٍ حَزْناً مِنَ الأرضِ أوعَرا

امرؤ القيس (ت ٨٠ ق.هـ)

رسا أصلُه تحت الثرى وسَما بهِ ... إلى النجمِ فَرعٌ لا يُنالُ طويـلُ
هو الأبلقُ الفردُ الذي شاعَ ذِكرُهُ ... يَعِزُّ على مَـن رامَـهُ ويطـــولُ

السموأل (ت ٦٤ ق.هـ)

هو الواهبُ المائةَ المُصطفاةَ ... تُجاوِبُ منها العِشارُ الفِصـالا

المسيّب بن مالك (ت ٤٨ ق.هـ)

إنّ خير طريقةٍ نميّز بها هذه السبيكة القرآنيّة عن السبائك الشعريّة التي قد تلتبس معها هي أن نحاول التمييز بين أحوال الضمير في كلٍّ من الطرفين.

ويكاد لا يختلف اثنان على أنّ الضمير (هو) في الأبيات السابقة جميعاً لا يعدو أن يكون (مبتدأً) عاديّاً، ولكن من يستطيع أن يصدر مثل هذا الحكم، وبمثل هذه الثقة، بخصوص هذا الضمير في الآية؟

لقد عرفنا كيف يميل بعض المفسّرين إلى أنّه (ضمير الشأن) وهذا النوع من الضمائر يمكن حذفه بسهولة عادةً، من غير أن يؤثّر حذفه على البناء الأساسيّ للجملة، فنقول مثلاً: الله أحدٌ، فهذه جملةٌ بسيطةٌ وكاملةٌ مؤلّفةٌ من مبتدأٍ وخبر، فإذا أعدناه إلى مكانه صحّ أن يكون مجرّد ضميرِ شأنٍ له دورٌ بلاغيٌّ معيّن، ليس هنا موضع شرحه، كما صحّ أن يكون مبتدأً، ولفظُ الجلالة (الله) خبراً، أو بدلاً منه، وأن يكون اللفظ (أحد) خبراً أو بدلاً من لفظ الجلالة.

أمّا الأبيات فلا يمكن حذف الضمير (هو) في أيّ منها، فإن فعلنا كان علينا إعادته إلى مكانه ولو تقديراً، فلو قلنا: المُنزِلُ الآلافَ، فنحن نعني: هو المُنزِلُ الآلافَ، لأنّ اللفظ (المُنزل) خبرٌ يجب أن نبحث له عن مبتدأ وإلاّ كانت الجملة مبتورة. وهذا شأننا مع جملة (هو الأبلق الفرد) وجملة (هو الواهب المائة).

ومن الواضح أنّ الأمر في الآية مختلفٌ تماماً؛ إذ لا نحتاج هناك، لو حذفنا الضمير، إلى مثل هذه التقديرات.

ورغم ورود التركيب ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ عدّة مرّاتٍ في القرآن، يبقى التركيب هنا متميّزاً عن الحالات الأخرى بالفعل (قل) الذي سبقه، ثم بالخبر -أو البدل- الذي تبعه: (أَحَد)، إذ لا يتوفّر هذان الشرطان معاً في الآيات الأخرى، ولا في الشعر الجاهليّ طبعاً، فإن توفّر فيها أحدهما افتقدنا الآخر، كما في قوله تعالى:

- ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]
- ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [القصص: ٧٠]

- ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ ﴾ [الحشر: ٢٢]
- ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ ﴾ [الحشر: ٢٤]
- ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٣٨]

٢- لم يلِد ولم يُولَد:

اجتماع هذين الفعلين في عبارةٍ واحدةٍ تقليدٌ لغويٌّ جديدٌ أدخله القرآن إلى العربيّة؛ إذ لا وجود للفعلين مجتمعَين في الشعر الجاهليّ، إلى جانب أنّ اجتماعهما في القرآن الكريم يقتصر على سورة (الإخلاص) وحدها.

وسرعان ما يقتنص الشعراء العرب، بعد نزول القرآن، هذا النمط اللغويّ الجديد، فيروّضونه لأوزان الشعر، مقدّمين في ألفاظه ومؤخِّرين، ليخرجوا بمثل هذه الأبيات:

تمنّتِ الأزدُ إذ غبّت أمورُهمُ ... أنّ المهلَّبَ لم يولَدْ ولم يَلِدِ

ذو الرُّمّة (ت ١١٧هـ)

الحمدُ للهِ الواحدِ الصمدِ ... هو الذي لم يولدْ ولم يلِدِ

أبو العتاهية (ت ٢١١هـ)

فإذا عزمتَ على مَساءتِهمْ ... فاجهَرْ بلم يولَدْ ولم يلِدِ

البحتريّ (ت ٢٨٤هـ)

٣- لم يكنْ له كفُواً أحد:

التقديم والتأخير في هذه الآية ليس أمراً عاديّاً، إذ تقدّم الخبر (كفواً) على الاسم (أحدٌ) ثمّ تقدّمت صفة الخبر (له) على الخبر نفسه.

ولو كان علينا إعادة ترتيب ألفاظ هذه الآية، وتقدير ما حُذف منها، لأصبحت على الشكل التالي: لم يكن أحدٌ كُفؤاً كائناً له، فيُعرَب (أحدٌ) اسماً للفعل الناقص

(يكن) و (كُفؤاً) خبراً له، و(كائناً) صفةً لـ (كُفؤاً) -طبعاً ستتحوّل هذه الصفة، تبعاً للقاعدة النحويّة المعروفة، إلى حالٍ لأنّ الصفة تقدّمت على الموصوف (وهو الضمير في: له)- فيكون التقدير: لم يكن كائناً له كفواً أحد[1]. وحاوِلوا صياغة جملةٍ بشريّةٍ موازيةٍ لهذه السبيكة، كقولنا:

ولم يكن عليه قادراً أحدٌ

فلن تحصلوا بهذه الصياغة البشريّة إلاّ على عبارةٍ كتلك العبارات المثيرة للسخريّة التي حاول بعضهم التطاول لتقليد لغة القرآن بها.

إنّ هذا (التقديم والتأخير) المزدوج، رغم استحالة التأكّد من عدم وجود مثيلٍ له في الشعر الجاهليّ بالإمكانات البحثيّة المتاحة حاليّاً، يبقى أمراً لافتاً للنظر وبعيداً، على أيّة حال، عن لغتنا اليوميّة العاديّة.

ومن السهل إدراك خصوصيّة ذلك لو قارنّا هذه الآية بالآية القرآنيّة ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ فقد تقدّم الخبر (كمثله) هنا على الاسم (شيء) ولكن لم يتقدّم على الخبر أيّ شيء آخر، من صفةٍ أو حال، كما وقع في هذه السورة.

رابعاً: مواقع منفتحة

رغم أنّ الشعر هو المكان الذي نبحث فيه عادةً عن الألفاظ أو التعبيرات المشعّة، وهي التي تحمل أكثر من معنىً وتؤوّل بأكثر من وجه، فإنّنا نفتقد مثل هذا النوع من الألفاظ أو العبارات في الشعر الجاهليّ، كما قدّمنا في التمهيد لهذه الدراسة في الجزء الأول.

ولكنّ القرآن الكريم يتجاوز الشعر واللغة الأدبيّة لذلك العصر بلغةٍ مشحونةٍ بالألفاظ الموحية والعلاقات الغنيّة بطيوفها وألوانها، بحيث يستجيب

---

(١) أوضحنا سابقاً أنّ حرف الجرّ أو الظرف يحتاجان إلى حدث يتعلّقان به، أو بتعبيرٍ آخر: يحدث فيهما، ولهذا كان علينا إيجاد اللفظ "كائناً" لأنّ اللفظ "كُفؤاً" اسمٌ لا يحمل معنى الحدث.

هذا النوع من الألفاظ والتعبيرات إلى تقلّب العصور وتجدّد الأحداث وتطوّر الفكر البشريّ عبر القرون، فيأخذ كلٌّ ما يعنيه، ويجد فيها ما يفهمه ويناسب عصره ومَصره وفكره وثقافته.

و نجد في السورة من هذا اللون المشعّ من الألفاظ والتعبيرات ثلاثةً على الأقلّ:

١- قل:

هذا لفظٌ منفتحٌ بإطلاق الخطاب فيه، فلا ينحصر في شخصٍ أو فئةٍ محدّدة، كما أوضحنا في السورتين السابقتين.

٢- هو اللهُ أَحَد:

هذه حالةٌ شديدة الخصوصيّة بين حالات اللغة المنفتحة توشك ألاّ تدخل في هذا الباب، إذ تتعدّد حالاتها الإعرابيّة، وهذا من أهمّ الأسس التي تقوم عليها اللغة المنفتحة، ومع ذلك فليس لها إلاّ معنىً واحدٌ لا ثاني له: الله واحد.

إنّ المواقع الإعرابيّة لألفاظها متداخلة، فهي بذلك محتمِلةٌ لأكثر من وجهٍ إعرابيّ، كما رأينا، ومن ثمّ فهي مفتوحةٌ على أكثر من احتمالٍ حول أيٍّ من الأجزاء يتمّ التركيز عليه في المعنى: هو، أم: الله، أم: أحد؟ ولكنّها في النهاية، خلافاً لكلّ ما عرفناه من مواقع لغويّةٍ منفتحة، لا تحتمل أكثر من معنىً واحدٍ تلتقي عنده هذه الأجزاء اللغويّة، وهو وحدانيّة الله سبحانه وتعالى.

٣- الصمَد:

في هذا اللفظ من الغنى والظلال ما يستجيب معه لأكثر من صفةٍ واحدةٍ من صفات الله تعالى كما سبق أن تبيّنّا.

خامساً: جوامع الكلِم

١ إلى ٣:

لا شكّ أنّ كلاًّ من العبارات الثلاث: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ - لَمۡ يَـلِدۡ وَلَـمۡ يُولَـدۡ - وَلَـمۡ يَـكُن لَّهُۥ كُـفُوًا أَحَـدُۢ ﴾ قد غدا ركناً لغويّاً في أيّ حديثٍ عن العقيدة أو التوحيد، فهذه العبارات تلخّص خير تلخيص، وبشكلٍ لغويٍّ بسيط، جوهر العقيدة الإسلامية ودعوتها التوحيديّة، وأهمَّ الصفات التي تلخّص طبيعة الذات الإلهيّة، ممّا يجعلها تتردّد على ألسنتنا باستمرار، كما تردّدت من قبل على ألسنة المسلمين الأوائل، في سياقاتٍ ومناسباتٍ دينيّةٍ وفكريّةٍ مختلفة.

٤ - السورة بكاملها:

لقد أصبح للسور الثلاث (الإخلاص والفلق والناس) مكانةٌ متميّزةٌ عند المسلمين، وتوحّد بينها الأحاديثُ النبويّة التي تدعوهم إلى ترديد هذا الثلاثيّ في أكثر من وقتٍ وأكثر من جزئيّةٍ من جزئيّات حياتهم اليوميّة، كما رأينا في السورتين السابقتين، وكما تؤكّد أحاديث أخرى للرسول ﷺ أُفردت لهذه السّورة:

- عن أبي سعيدٍ الخُدْريّ ؓ قال: قال النبيّ ﷺ: أيَعجَزُ أحدُكم أن يقرأ ثُلُثَ القرآنِ في ليلة؟ فشَقّ ذلك عليهم وقالوا: أيُّنا يُطيقُ ذلك يا رسولَ الله؟ فقال: (اللهُ الواحدُ الصمَد) ثُلُثُ القرآن[١]

- عن أبي سعيدٍ الخُدرْيّ ؓ قال: إنّ رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ يردّدها، فلمّا أصبح جاء إلى رسولِ الله ﷺ فذكر ذلك له، وكأنّ الرجلَ يَتَقالُّها، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: والذي نفْسي بيدِه إنّها لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن[٢]

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩١٦، حديث رقم: ٤٧٢٧.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص١٩١٥، حديث رقم: ٤٧٢٦.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: اُحشُدوا -أي اجتمِعوا- فإنّي سأقرأُ عليكم ثُلُثَ القرآن، فحَشَد مَن حَشَد، ثمّ خرج النبيُّ ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثمّ دخل، فقال بعضُنا لبعضٍ: إنّي أُرى -أي أعتقد-: هذا خبرٌ جاءه من السماء فذاكَ الذي أدخَلَه (أي شغله نزولُ الوحي فجأةً عن إتمام قراءة ثُلُثِ القرآن علينا كما وعد). ثمّ خرج نبيُّ اللهِ ﷺ فقال: إنّي قُلتُ لكم سأقرأُ عليكم ثُلُثَ القرآن، ألا إنّها تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن[1]

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص٥٥٧، حديث رقم: ٨١٢.

السورة الخامسة

المَسَد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾

هذه هي السورة الرابعة في الترتيب التراجعيّ لسور القرآن الكريم، وسنجد أنّ في كلماتها، التي لا تزيد عن ٢٣ كلمة، ما لا يقلّ عن ٣١ موقعاً إعجازيّاً جديداً فاجأ بها القرآن لأوّل مرّة سَدَنة اللغة العربيّة، وأضافها إلى قاموسها اللغويّ والنحويّ والبيانيّ والفكريّ. وستتوزّع دراستها على الجوانب الخمسة نفسها التي درسنا من خلالها السوَر السابقة.

وتتجسّد الهُويّة اللغويّة للسورة بألفاظها وتعبيراتها التي استقلّت بها دون باقي السوَر، كاللفظين (تَبّ، مَسَد) والتعبيرات (تبّت يدا، ناراً ذاتَ لهَب، حَمّالة الحطب، في جِيدِها حبلٌ، حبلٌ من مَسَد) وكذلك الجزئيّة النحويّة الجديدة الخاصّة، وهي الوضع الإعرابيّ للّفظ (حمّالةَ).

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- تبّت:

لفظٌ/ تعبيرٌ محضُ قرآنيّ، فالشعر الجاهليّ يخلو تماماً من هذا التعبير "الفعليّ"، رغم كلّ ما في شعرهم من هجاءٍ وشتائم لم يوفّر منها الشعراء لخصومهم شيئاً.

صحيحٌ أنّنا نجد لدى عرب الجاهليّة المصدر الاسميّ لهذا الفعل وهو (تبّاً) متعدّياً لما بعده دائماً باللام، ولكنّنا لا نجد الفعل نفسَه. وقد جاء التعبير الجاهليّ "الاسميّ" على لسان أبي لهبٍ حين قال لرسول الله ﷺ: "تبًّا لك، إنّما جمعتَنا لهذا؟!" فكانت كلمته سبباً لنزول سورة (المسَد).

ونعثر على المصدر في الشعر الجاهليّ مرةً واحدةً، متلوّاً باللام طبعاً، عند زهير بن جناب الكلبيّ (ت ٦٤ ق.هـ) في قوله:

تبّاً لتَغلِبَ أنْ تُساقَ نساؤهمْ   سَوقَ الإماءِ إلى المواسمِ عُطَّلا

ثمّ لا نجده عند الشعراء بعد الإسلام إلاّ في هذه الصيغة الجاهليّة، رغم تعدّد وروده لدى كثيرٍ منهم، كما في الأبيات:

تبّـاً لـدارٍ لا يدومُ نعيمُـها   ومَشـيدُها عمّا قليلٍ يَخـرَبُ

علّيّ بن أبي طالب (ت ٤٠هـ)

ألم تغضبوا، تبّاً لكم، إذْ سَطَتْ بكمْ   مجوسُ القُرى في داركمْ ويهودُها

ابن الزبير الأسَديّ (ت ٧٥هـ)

تبّاً لفخرِكَ بالضـلالِ ولم يزلْ   ثَوبَـا أبيـكَ مُدَنَّسَيْـنِ بعـارِ

جرير (ت ١١٠هـ)

وهكذا يبقى الاستخدام القرآنيّ متفرّداً:

أوّلاً: بفعليّته،

وثانياً: بإسناده إلى اليدين،

وثالثاً: بتعديته بنفسه، من غير الاستعانة بحرف الجرّ (اللام) كما في كلّ الأمثلة السابقة.

ولا يرِد اللفظ أبداً على لسان الرسول ﷺ.

٢- وتبّ:

يتَميّز هذا اللفظ أيضاً بفعليّته، وكذلك بتعديته مباشرةً إلى فاعله، وهو هنا الضمير المستتر (هو)، من غير الاستعانة باللام.

وكلا اللفظين لا يتكرّر في غير هذه السورة، فهما من أبرز خصوصيّاتها.

٣- كَسَب:

لأوّل مرّةٍ في التاريخ اللغويّ لهذا الفعل؛ يأخذ في القرآن شكلاً لا يتعدّى فيه إلى مفعولٍ به أو غيره. فعلى الرغم من أنّنا لا نعثر في الشعر الجاهليّ إلاّ على مصدره، وفي بيتٍ واحدٍ لقيس بن الحداديّة (ت ١٠ ق.هـ) فإنّ هذا المصدر الوحيد يتعدّى في البيت أيضاً، حتى إن جاءت التعدية في شكل مضافٍ ومضافٍ إليه:

فليس كمَنْ يغزو الصديقَ بنَوكِهِ وهِمّتُهُ في الغزوِ كَسْبُ المُراوِدِ

فأضاف الكسب إلى المُراود. ويستمرّ الفعل ومشتقّاتُه عند الشعراء بعد الإسلام على سيرته قبل الإسلام، متعدّياً باستمرار إلى مفعولٍ به، أو إلى ما هو في مقام المفعول به، كما في الأبيات:

نَجيبٌ يُجيبُ المستضافَ إذا دعا | ويسمو إلى كسْبِ العلاءِ إذا يسمو

مَعن المُزنيّ (ت ٦٤هـ)

وللخيرِ كسّابٌ وللمجدِ رافــعٌ | وللحمدِ أعــوانٌ وللخيلِ مُعْتَـلِ

عمر بن أبي ربيعة (ت ٩٣هـ)

لأكسبَ مالاً أو أؤولَ إلــى غنىً | مــن اللهِ يكفيني عُـداةَ الخلائفِ

الطِرِمّاح الطائيّ (ت ١٢٥هـ)

فتعدّى إلى (العلاء) في البيت الأوّل، وإلى (الخير) في الثاني، وإلى (مالاً) في الثالث.

ورغم أنّ الفعل يرِد في القرآن الكريم، مع مشتقّاته، ٦١ مرّة، فإنّه لم يتعدّ إلا في ثمانٍ منها، ويحافظ في بقيّة الحالات على وضعه القرآنيّ الجديد، كما في الآيات:

- ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة: ١٤١]
- ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا ﴾ [المائدة: ٣٨]
- ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]
- ﴿ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطفّفين: ١٤]

والأغرب من ذلك أنّه، على عكس استعماله في الشعر الجاهليّ واستعمالاتنا له حتى اليوم، استُخدم في أكثر الآيات الكريمة بالمعنى السلبيّ دون الإيجابيّ، فهو يأخذ فيها غالباً معنى كسب السيّئات والآثام بدلاً من الأجر والثّواب:

- ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ ﴾ [البقرة: ٨١]
- ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا ﴾ [يونس: ٢٧]
- ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا ﴾ [النساء: ١١٢]
- ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ ﴾ [الكهف: ٥٨]

أمّا في الحديث الشريف فهو، كحاله في لغتنا العاديّة، وخلافاً لاستخدامه القرآنيّ، متعدٍّ على الأغلب، ثمّ إنّه يُستخدم مع كلا السيّئات والحسنات بالدرجة نفسها تقريباً، كقوله ﷺ:

- أيُّما رجلٍ كسَبَ مالاً من حلالٍ، فأطعمَ نفسَه أو كساها، فمَن دونَه مِن خَلْقِ الله، فإنّ له بها زكاةً[1]

وقليلاً ما نعثر في الحديث على الشكل القرآنيّ للفعل؛ أي بحذف ما تعدّى إليه. ومن هذه الحالات القليلة قوله ﷺ:

- إذا تصدّقتِ المرأةُ من بيتِ زوجِها كان لها به أجرٌ، وللزوجِ مثلُ ذلك، وللخازنِ مثلُ ذلك، ولا يُنقِصُ كلٌّ واحدٍ منهم مِن أجرِ صاحِبِه شيئاً: له بما كَسَب، ولها بما أنفقتْ[2]

٤- سيَصلَى:

الفعل (صَلَى يَصْلي) متداوَلٌ في الشعر الجاهليّ، ولكنْ متعدّياً دائماً بحرف الجرّ (الباء) كما في هذه الأبيات:

إذا ما البخيلُ الخِبُّ أخمدَ نارَهُ ... أقولُ لمن يَصلَى بناريَ: أوقِدوا

حاتم الطائيّ (ت ٤٦ ق.هـ)

ويكاد يَنزِعُ جِلدَ مَن يَصلَى بهِ ... بلوافحٍ مثلِ السعيرِ المُوقَدِ

النابغة الذبيانيّ (ت ١٨ ق.هـ)

وإذا يُلاقي بَجْدةً معلومةً ... يَصلَى الكُماةُ بحرِّها لم يَبلُدِ

زهير بن أبي سُلمى (ت ١٣ ق.هـ)

---

(١) البستي، محمد بن حبان. **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط. ٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، ج١٠، ص٤٨، حديث رقم ٤٢٣٦.

(٢) الترمذي، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، ج٣، ص٥٨، حديث رقم: ٦٧١.

أمّا في القرآن الكريم فيتعدّى بنفسه دائماً من غير الاستعانة بالباء، رغم وروده فيه بمشتقّاته المختلفة ٢٥ مرّة، بل إنه، خلافاً للتاريخ اللغويّ لهذا الفعل، يتعدّى في القرآن عدّة مرّاتٍ إلى مفعولين اثنين بدلاً من واحد، فكأنّه يأتي بمعنى (نُذيق) أو (نَجْزي):

- ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]

- ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ ﴾ [النساء: ٣٠]

- ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدّثّر: ٢٦]

لاحظ كيف خلت الآيات الثلاث من حرف الباء وتعدّى الفعل فيها جميعاً إلى مفعولين: الأوّل هو الضمير (الهاء) المتصل به، والثاني هو (جهنّم) في الآية الأولى، و(ناراً) في الثانية، و(سقَر) في الثالثة.

٥- امرأتُه:

من أهمّ ما يختلف به القرآنُ الكريم عن الحديث الشريف في استخدام الألفاظ، اختلافاً لافتاً للنظر حقاً، أنّ القرآن لا يستخدم إلاّ أحد اللفظين (زوج) أو (امرأة) للمؤنّث -كما هو في هذه السورة- على عكس الحديث الشريف الذي يستخدم بدلاً منهما اللفظ (زوجة) على الأغلب فيتردّد فيه هذا اللفظ عشرات المرّات، من مثل قوله ﷺ:

- ..وزوجةٌ مؤمنةٌ تعِينُه على إيمانِه[1]

- ..إنّي لأعلَمُ أنّها زوجتُه في الدنيا والآخرة[2]

---

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٧٧، حديث رقم: ٣٠٩٤.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٣، ص١٣٧٥، حديث رقم: ٣٥٦١.

- لا تؤذي امرأةٌ زوجَها في الدنيا إلاّ قالت زوجتُه من الحُورِ العِين ..[1]
- وإنّ لِزوجتِكَ عليكَ حقاً ..[2]
- فيدخلُ عليه زوجتاه من الحُورِ العِين ..[3]

ولا أثر للفظ (زوجة) أو (زوجات) في القرآن الكريم، وإنما نجد اللفظ (أزواج) للإناث ٣٣ مرّة، واللفظ (نساء) بالمعنى نفسه ٣٣ مرة أيضاً. أمّا الحديث الشريف فيستخدم الجَمعَين كليهما (أزواج وزوجات) على السواء، ولكن قلّ أن يستخدم اللفظ القرآنيّ المفرد (زوج) للمؤنّث؛ إذ يحلّ محلّه فيه اللفظُ المؤنّث (زوجة).

أمّا في الشعر الجاهليّ فلا نعثر إلاّ على اللفظ (زوج) للمؤنّث، كقول السُلَيك بن السُلَكة (ت ١٧ ق.هـ):

... ...   ورُبَّ زوجٍ قد نكحتُ عُطبولِ

ثمّ يُتداول اللفظان كلاهما عند الشعراء بعد الإسلام، فنجد اللفظ (زوجة) عند العديد منهم –خلافاً لما يذهب إليه بعض لغويّينا المحْدَثين– ولنا في الأحاديث الشّريفة، وكذلك في الأبيات التالية، خير شاهدٍ على صحّة استعمال اللفظ:

فإنّ امرأً يسعى يُخبِّبُ زوجتي   كَساعٍ إلى أُسْدِ الشَرى يستبيلُها

الفرزدق (ت ١١٠هـ)

أذو زوجةٍ بالمصرِ أم ذو خصومةٍ   أراكَ لها بالبصرةِ العامَ ثاويا

ذو الرمّة (ت١١٧هـ)

وأراهُ عمّمني وعمَّم زوجتي   واختصّني مِن دونها بلِثامِ

ابن الروميّ (ت ٢٨٣هـ)

---

(١) القزويني، **سنن ابن ماجه**، مرجع سابق، ج١، ص٦٤٩، حديث رقم: ٢٠١٤.

(٢) النسائي، **المجتبى من السنن**، مرجع سابق، ج٤، ص٢١٠، حديث رقم: ٢٣٩١.

(٣) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص١٧٥، حديث رقم: ١٨٨.

٦ - حمَّالة:

من أشهر الاتّجاهات في تفسير هذا اللفظ، بين التفسيرات الكثيرة التي اقتُرحت له، أنّ امرأة أبي لهب ستحمل الحطب في جهنّم، جزاء ما كانت تحمله من أقذارٍ في الدنيا لتضعها في طريق النبيّ ﷺ.

وهكذا تكون مبالغة اسم الفاعل -وزن (فعّالة)- قد حلّت لأوّل مرّة، وربّما لآخر مرّة، محلّ الفعل المضارع الذي يقتصر على الزمن المستقبل؛ أي: وامرأته ستحمل الحطب، ولا أعلم حالةً أخرى شبيهةً لها في القرآن، ولا في الحديث، ولا في الشعر الجاهليّ، ولا في تراثنا القديم أو المعاصر حتّى اليوم. هل يمكن أن نقول مثلاً:

المجرمُ شَغّالَ الأشغالِ الشاقّة

ونحن نعني أنّ المجرم سيُحكم عليه بالأشغال الشاقّة؟

٧ - مَسَد:

اختلف المفسّرون اختلافاً غير عاديٍّ حول معنى هذا اللفظ، ولكنّ معظمهم اتّجه إلى أنّه الشوك، وهذا المعنى بعيدٌ عن معنى أيٍّ من الحالات القليلة التي ورد بها اللفظ في الشعر الجاهليّ، لأنه يعني هناك مجرّد (الحَبْل) كما نتبيّن من هذه الأمثلة:

كأنّ سَراتَهُ والخَيلُ شُعْثٌ ... غَداةَ وجِيفِها مَسَدٌ مُغارُ

بِشر بن أبي خازم (ت ٢٢ ق.هـ)

إذا جَمحتْ نساؤكمُ إليهِ ... أَشَظَّ كأنّهُ مَسَدٌ مُغارُ

زهير بن أبي سُلمى (ت ١٣ ق.هـ)

مقذوفةٌ بدخيسِ النَحْضِ بازِلُها ... له صَريفٌ صريفَ القَعوِ بالمَسَدِ

النابغة الذبيانيّ (ت ١٨ ق.هـ)

و(المُغار) هو المفتول، و (القعو) هو البكرة التي يلتفّ عليها حبل البئر فتُصدر حركتُه صوتاً خاصاً (صريفاً). وواضحٌ هنا أنّ معنى (المسَد) في الأبيات الثلاثة هو الحبل.

ولعلّ بيت الأحوص الأنصاري (ت ١٠٥هـ) يوضّح لنا حقيقة الفرق بين المعنى القرآنيّ والمعنى الجاهليّ؛ إذ يفرّق الشّاعر بين الحبل العاديّ وحبل المَسَد في جهنّم:

كلُّ الحبالِ حبالِ الناسِ مِن شَعَرٍ وحبلُها وسْطَ أهلِ النارِ مِن مَسَدِ

ورغم أنّ المفسّرين واللغويين لم يتّفقوا على معنىً نهائيٍّ لـ (المَسَد)، فإنّه ظلّ مرتبطاً في أذهاننا بامرأة أبي لهبٍ وعذابها الشديد في النار، فيظل معنى اللفظ، من ثمّ، افتراضيّاً موحياً بشدّة العقوبة وقسوتها حتّى إن لم نكن متأكّدين من طبيعة هذه العقوبة، ومَثَله في هذا كمَثل التعبير القرآنيّ ﴿ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ وقد شبّه الله تعالى به ثمار شجرة الزقّوم التي في جهنّم، رغم أنّ أحداً منّا لم يعرف الشياطين ولا رؤوس الشياطين ولا شجرة الزقّوم كيف تكون.

إنّه إذن، بهذا المعنى، لفظٌ قرآنيّ، وهو، إلى ذلك، يختصّ بهذه السورة وحدها، فلا وجود له في باقي سورِ القرآن الكريم، ولا وجود له مطلقاً في الحديث الشريف.

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- وتبّ:

إضافةً إلى ما عرفناه من أسرار الاستعمال القرآنيّ لهذا الفعل، سنجد أنّ في استعماله سرّاً جديداً آخر لم يُسبَق القرآن إليه، وهو أنّه فعلٌ فاعله كلٌّ (وهو أبو لهب)، عُطِف على فعلٍ فاعلُه جزءٌ من هذا الكلّ (وهو يدا أبي لهب)، والتقدير: تبّت يدا أبي لهبٍ وتبّ أبو لهبٍ كلُّه.

إنها خصوصيّةٌ لطيفةٌ لم أجدها في أيّ مكانٍ آخر، لا في القرآن ولا في غيرِه. وهي تختلف مثلاً عن العبارتين النبويّتين: "نجا ونجَوا" و "هلَك وهلكوا" وذلك لانفصال فاعل الفعل الأول فيهما عن فاعل الفعل الثاني، فالنجاة والهلاك هما للشخص في الفعل الأول من كلتا العبارتين النبويّتين، ولرفاقه في الفعل الثاني، دون أيّ تداخلٍ بين الطرفين.

٢- ما أغنَى:

هناك احتمالان على الأقلّ في معنى هذه العبارة: فإمّا أن تكون استفهاميّةً، فالتقدير: ماذا سيغني عنه أو يفيده مالُه؟ وإمّا أن تكون نافيةً، فهي إخبارٌ بالنفي، والتقدير: لن ينفعه مالُه. وفي الحالين تشير العبارة إلى المستقبل (لن يُغنيه، أو: ماذا سيغنيه) رغم أنها جاءت في صيغة الماضي، وهذا من خصوصيّات القرآن الكريم وظواهره اللغويّة المميَّزة: التعبير عن المستقبل في صيغة الزمن الماضي.

٣- سيَصلَى:

لو استجابت هذه الآيات لتوقّعاتنا اللغويّة البشريّة عند استعمال الفعل هنا لجاءت الصياغة هكذا:

ما أغنَى عنه مالُه، فسيصلى بالنار، أو:

فسوف نَصليه بنار جهنّم، أو:

فمآلُه إلى النار.

هل لاحظتم أنّنا لم نستغنِ عن حرف (الفاء) في أيٍّ من العبارات الثلاث التي اخترناها للتعبير عن معنى الآية؟

فعدم انتفاعه بما يملكه أو يربحه من مال؛ من شأنه أن يودي به إلى عذاب جهنّم، وكان بدهيّاً إذن أن نستعين بالفاء، أو بأيّة أداةٍ تفسيريّةٍ أخرى، في مطلع جملةٍ تفسّر جملةً سبقتها. ومثل ذلك قولنا:

لن يفيدك الهرب فسوف تقع في أيدينا بالنهاية، أو قولُنا:

لن تستفيد من الدراسة اليوم، فقد فات الأوان.

وفقدان الفاء، التي من شأنها أن تربط النتيجة هنا بالمقدّمة، أمرٌ لم تألفه الجملة العربيّة قبل القرآن، ولم تتعوّده بعده، ولم تألفه جملة الحديث الشريف أيضاً، وما تزال لغتنا العربيّة المتداوَلة بعيدةً حتّى اليوم عن هذا التقليد اللغويّ القرآنيّ.

٤- ناراً ذاتَ لهَب:

هذا وصفٌ قرآنيٌّ فريدٌ للنار لم يُستخدم قبل القرآن، وأكاد أقول: ولا بعده أيضاً، وإنما نقول: نارٌ متأجّجة، ولاهبة، ومتلهّبة، وملتهبة، وشديدة، وحامية، ومتوقّدة، ومُحرقة، أو ربّما، في أقرب الطرق إلى التعبير القرآنيّ، لها لهبٌ، كما قال جرير مرّةً (ت ١١٠هـ) محاولاً الاتّكاء على الاستعمال القرآنيّ:

وأوقدتُ ناري بالحديدِ فأصبحتْ لها لهبٌ يَصلي به اللهُ مَن يَصلي

وقد اقتصر الوصف ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ على القرآن الكريم، بل على هذا الموضع وحده في سورة (المسد) دون باقي السوَر.

ولا نعثر عليه في الحديث الشريف، ولا في الشعر العربيّ حتّى قرونٍ متأخّرة، ونصادفه أوّل مرّةٍ عند التلمساني المنداسي (ت ١٠٨٨هـ) حيث يقول:

لو رأيتمْ في الهوى ذاتَ لهْبٍ طَرحَتْ في الفؤادِ منه جِمارا

٥- حمّالةَ:

موقع هذا اللفظ وحركته من أغرب أوضاع الخبر والحال في القرآن. وللحال في الكتاب الكريم شؤونٌ عجيبةٌ لا نجدها في غيره، وليس هذا موضعَ تفصيلها، ولكنّ اللفظ (حمّالة) نموذجٌ من هذه الأحوال غير العاديّة لا مناص من تحليله.

فنصبُه لا يترك أمامنا خِياراً في إعرابه: إنّه حال، رغم أنّنا ما نزال نترقّب اكتمال الجملة ومجيء خبر المبتدأ الذي ابتدأت به الآية (امرأتُه).

وتبعاً لقواعد النحويّين، لا مسوّغ لمجيء الحال في أيّة جملةٍ –والحال هي من كماليّات الكلام– ما لم يأتِ أوّلاً خبرُ المبتدأ –والخبر هو من أساسيّات الكلام–.

والحلّ إذن –كما اقترحه النحويّون للخروج من هذا المأزق الإعرابيّ الذي وضعتهم في مواجهته لغةُ القرآن– هو أن أوجدوا لها، ولأمثالها، إعراباً خاصّاً فقالوا: منصوبٌ على الشتيمة أو الذمّ!! وهو وضعٌ نحويٌّ لا نجده في الشعر الجاهليّ، ولا أعرفهم ذهبوا إليه في غير القرآن.

وربّما وجدوا حلاً آخر للمعضلة بأن عدّوا اللفظ خبراً وحالاً في الوقت نفسه، فقالوا إنها حالٌ سدّت مسدّ الخبر. وهو حلٌّ ذكيٌّ للتوفيق بين قواعد النحويّين وبلاغة القرآن وإعجازه التجديديّ الذي كثيراً ما يحلّق فوق الحدود الضيّقة لقواعد النحو، فيوسّع آفاقها، ويجعلها أكثر مرونةً واستجابةً للغته الجديدة.

وفي أيٍّ من الخيارين نستطيع أن نتلمّس بوضوح جانباً من جوانب الخصوصيّة اللغويّة المدهشة للقرآن الكريم.

٦– حمّالةَ الحطب:

لم يقُل أحدٌ قبل القرآن الكريم ولا بعده ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ هكذا مبالغةً لاسم الفاعل (حامل) ومضافةً إلى الحطب. قد نقول في هذا المعنى:

- حاملة الحطب، أو:
- التي تحمل الحطب، أو:
- ستحمل الحطب

أو غير ذلك، ولكن ليس ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾. فإذا أضفنا إلى ذلك

خصوصيّتها الأخرى بإطلاقها على الزمن المستقبل -على حين أنّ من شأن هذه الصيغة أن تُطلق على الزمن الحاضر، ولهذا سمّوها حالاً- عرفنا مدى جدّة هذا التعبير، ووقعه الغريب على أذن العربيّ الأوّل.

٧- في جِيدِها:

لو أردنا أن نعبّر بلغتنا العاديّة عن معنى هذه الآية الأخيرة من السورة، لشعرنا بحاجةٍ إلى إضافة شيءٍ في مطلعها، مثل (سيكون)، لأنّ الواقعة تشير إلى زمنٍ آتٍ، وهو الآخرة، حين يلتفّ الحبل على عنقها في جهنّم.

وقد نضيف بدلاً من ذلك (واو الحاليّة) إذا قدّرنا أنّ هذا يجري في الزمن الحاضر، وليس المستقبل، لأن التفاف الحبل حول عنقها سيتمّ في وقتٍ يرافق ويزامن حملها للحطب وليس بعده؛ أي: تحمل الحطب وفي جيدها حبلٌ..

وربّما يكون الحديث هو عمّا تفعله في الدنيا، وليس في الآخرة، كما ذهب بعض المفسّرين، لأنّها اعتادت أن تلفّ الحبل على عنقها وهي تحتطب (وإن كانت هي نفسها تنفي ذلك في حديثٍ ورد في المستدرك على الصحيحين).

فإن كان إعرابُ (حمَّالة) حالاً فستكون جملة ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ حالاً لتلك الحال، لأنّها: تحمل الحطب في الحال التي عُلِّق بها في جيدِها حبلٌ من مسد، وسنكون بهذا أيضاً في حاجةٍ إلى واو الحال أو إلى لفظٍ آخر مثل (وقد) تبعاً لتقاليدنا التعبيريّة. أمّا لغة القرآن الكريم فكثيراً ما تستغني عنهما -أو عن اللفظ (سيكون) في التأويل الأوّل- كما وقع هنا حقاً ويقع في آياتٍ قرآنيّةٍ عديدة.

٨- في جِيدِها حبلٌ:

تظهر المفارقة هنا في أنّ العرب قد درجوا على استعمال لفظ (الجِيد) في الغزل أو الاستحسان أو الإطراء أو الفخر، وليس في القباحة والسوء والعذاب، وذلك على نحو ما فعلوا في الأبيات الآتية:

لقد علمَتْ عُلْيـــا ربيعةَ أنّنا ذُراها وأنّا، حينَ تُنسَبُ، جِيدُها

عمرو بن كلثوم (ت ٣٩ ق.هـ)

مِن كلِّ فاتنةٍ تَلفّتَ جِيدُهـا مرِحــاً كسالفةِ الغــزالِ الأغْيَـدِ

عنترة (ت ٢٢ ق.هـ)

إلى طَفلةِ الأطرافِ زَيّنَ جِيدَها مع الحَلْيِ والطِيبِ المَجاسِدُ والخُمُرْ

أبو الطمحان القينيّ (ت ٣٠هـ)

ولو تُرِك الأمر للعرب وأعرافهم لاستعاضوا عن اللفظ (جِيدها) في مثل هذا الموضع بألفاظٍ مثل (عنقها) أو (رقبتها) أو (نحرها)، ولكن ليس (جيدها) على الإطلاق.

وفي هذه المفارقة ما يزيد من حجم السخرية والإشفاق، لِما سيصيب هذا العنق في الآخرة من نارٍ وعذاب، وهو المتعوّد على أطواق الذهب والتنعّم بما نالته صاحبته في هذه الحياة الدنيا من غنىً ورفاه.

إنّه تعبيرٌ جديد، وهو أيضاً غنيٌّ بالسخرية القاتلة.

٩- حبلٌ من مَسَد:

وهذا تعبيرٌ قرآنيٌّ آخر لم تعتدْه الأذن العربية لغةً، ولم تعتده بياناً، لأنه صورةٌ جديدةٌ يعرفها الخيال العربيّ لأوّل مرة: حبلٌ من شوك، أو من أيّ شيءٍ غريبٍ أو مخيفٍ كالشوك أو النار، يلتفّ حول عنق امرأةٍ كانت ناعمة العيش في الدّنيا، سليلة الحسب والنسب في قومها، فلاقت يوم الحساب عاقبة ما قدّمت يداها.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

لا بدّ من التذكير هنا بأنّ القرآن الكريم أوجد أنماطه اللغويّة الخاصّة، والمباينة للأنماط اللغويّة التقليديّة التي عرفها العرب قبل الإسلام.

وقد كان الشعراء العرب يردّدون أنماطهم أو سبائكهم التقليديّة في أشعارهم، مع تغييرٍ في بعض ألفاظها بين آنٍ وآخر، دون المساس بمواقعها ونسيجها البنائيّ والإعرابيّ.

ولكنّ لغة القرآن تحرّرت من أبنيتهم القديمة وأوجدت لنفسها أبنيتها الخاصّة، وهذا ما يجعل اكتشافنا لها وتمييزها عن لغة البشر، بل عن لغة الحديث الشريف أيضاً، سهلاً وغير محتاجٍ إلى برهان.

ويمكن أن نعثر في هذه السورة على السبائك الجديدة الأربع التالية:

١- تبّت يدا أبي لهبٍ وتبّ:

إنّ اجتماع الفعلين الماضيين هكذا، وبمعنى الدعاء، مع الفصل بينهما بفاعل الفعل الأول (يدا) الذي هو أيضاً جزءٌ من فاعل الفعل الثاني المقدّر والعائد على (أبي لهب)، يشكّل سبيكةً لغويّةً خاصّةً بالقرآن، بل هي خاصّةٌ بهذه السورة وحدها.

وقارن مثلاً بينها وبين السبائك التي استُعمل فيها الفعل (تبّ) في الشعر بعد الإسلام، رغم اعتماد بعض هذه السبائك على آيات سورة (المسَد) نفسها:

أبا لهبٍ تبّتْ يداكَ أبا لهَبْ ... وتبّتْ يداها تلكَ حمّالةَ الحطبْ

تبّاً وتَعساً لكَ يا ابنَ عُتبَهْ ... أسقِيكَ مِـن كأسِ المنايا شُربَهْ

عليّ بن أبي طالب (ت ٤٠هـ)

تبّـت يـداكَ مُفَدّيـاً ... مـا تَـبَّ مِـن أحَـدٍ تَبابَـهْ

ومهما تَبَّ مِـن عمـلٍ وقَـولٍ ... فما عمَلُ ابنِ مَدْحِكَ للتَبـابِ

تَبَّ مَن يَرتجي لَحاقَكَ في المجـ ... ـدِ وما مُرتَجيكَ في تتبيـبِ

ابن الرومي (ت ٢٨٣هـ)

إنّ أيّاً من هذه السبائك الشعريّة الخمس، على تأثّرها بالصورة القرآنيّة وألفاظها وروحها، لا علاقة له بالبناء النحويّ للسبيكة القرآنيّة ولا بإيقاعها اللغويّ.

٢- ما أغنى عنه مالُه وما كَسَب:

لو قارنّا استعمال ﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾ في الآية مع استعمالها في الشعر العربيّ، وما تَبع هذا الاستعمال من معالم تعبيريّة، لأدركنا أنّنا أمام سبيكةٍ لغويّةٍ خاصّةٍ بالقرآن. فهي تُمازج هنا بين معنى النفي ومعنى الاستفهام، مع توجيهها في الوقت نفسه نحو المستقبل (لن يغني) كما رأينا. ثمّ إنّ الصيغة التي وردت فيها تختلف عن أيّة صيغةٍ لها في الشعر الجاهليّ. واقرأ هذا البيت لعبد مَناف الهُذَليّ (ت؟):

فما أغنى صياحُ الحيِّ عنهُ ... وولولةُ النساءِ مع الرنينِ

أرأيت كيف فَصل الفاعلُ (صياحُ الحيّ) بين الفعل (أغنى) وشبهِ الجملة الذي تعلّق به (عنه)، ثم عطف الشاعرُ على الفاعل اسماً (ولولة)، على حين تأخّر الفاعل في الآية وتقدّم عليه شبه الجملة، ثم عُطف على الفاعل مصدرٌ مؤوّل ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ -المصدر المؤوّل هو فعلٌ سبقه حرفٌ مصدريٌّ فيمكن تأويلُهما معاً بمصدرٍ عاديٍّ (كَسْبُهُ)- وليس مصدراً صريحاً على نحو ما جاء في البيت (ولولة). ولو صغنا السبيكة القرآنيّة صياغة السبيكة الشعريّة لكانت هكذا:

ما أغنى مالُه وكسْبُه عنه، أو ربما:

ما أغناه مالُه وكسبُه شيئاً.

٣- سيَصلَى ناراً ذاتَ لهَب:

هذه السبيكة مكوّنةٌ من حرف الاستقبال (السين)، والفعل المضارع المتعدّي بنفسه إلى مفعوله من غير الاستعانة بالباء -فلم يقل: (بالنار) كما رأينا- ويليه صفةٌ للمفعول مكوّنةٌ من مضافٍ شديد الخصوصيّة هو اللفظ (ذات) ومضافٍ إليه (لهب)، وهذا ما أعطى السبيكة شخصيَّتها القرآنيّة المميّزة.

٤- وامرأتُهُ حمّالةَ الحطب:

اجتمع في هذه السبيكة من العوامل اللغويّة والنحويّة ما يجعلها شديدة الخصوصيّة. فقد سدّ فيها الخبر (حمّالة) مسدّ الحال، وأُطلقت مبالغةُ اسم الفاعل على الزمن المستقبل -كما تبيّنّا- فاكتسبت بذلك جِدّتها وفَرادتها، واتّخذت بناءً إيقاعياً لغويّاً مميّزاً ووزنه: (وعامِلتُه عَمّالةَ العمل) وهو إيقاعٌ لا يتكرّر في سورةٍ أخرى من سوَر القرآن الكريم.

رابعاً: مواقع منفتحة

سنبحث هنا عن كلّ عبارةٍ أو لفظٍ يمكن أن يتّخذ أكثر من معنىً أو أكثر من وجهٍ إعرابيّ. فتعدُّد الوجوه الإعرابيّة في أيّ لفظٍ أو تعبيرٍ يتيح لنا تناولَه أو فهمَه بأكثر من وجه. وتزداد القيمة الإشعاعيّة أو الموحية لأيّ موقعٍ طرْداً مع ازدياد وجوه معانيه أو إعرابه.

وتتركّز المواقع المنفتحة للسورة فيما يلي:

١- تبّت يدا:

ممّا يؤكّد القيمة الإيحائيّة لهذا التعبير اختلافُ المفسّرين واللغويّين حول معنى الفعل (تبّت): أهو الخسران، أم الهلاك، أم اللعنة، وكذلك في الاختلاف حول معنى (يدا): هل هو حقيقيّ، فيعني يديه لا أكثر، أم هو مجازيٌّ أُطلِق فيه الجزء وأريد الكلّ، أي صاحب اليدين وهو أبو لهب.

٢- وتبّ:

رغم اختلاف المفسّرين واللغويّين في معنى الفعل (تبّت) الذي بدأت به السورة، كما رأينا، وفي معنى (يدا): هل هو حقيقيٌّ أم مجازيّ، فإنّ جملة الفعل (تبّ) جديرةٌ بأن نتوقّف عند إعرابها.

فقد تكون هنا في موقع العطف على (تبّت) أي: تبّت يداه وتبّ هو أيضاً، ولكنّها قد تكون في موقع الحال كذلك، أي: أهلكه الله، وقد تمّ إهلاكه حقاً وأصبح مفروغاً منه، فتكون الواو في الآية واواً للحال وليست للعطف.

وقد يكون تكراره لمجرّد توكيد معنى الفعل الأوّل، إذا أريد بذلك الفعلِ الكلُّ (أبو لهب) وليس يديه وحدهما.

من هذا التعدّد في احتمالات المعاني يكتسب الفعل أهميّته للتصنيف بين المواقع اللغويّة المنفتحة.

٣- ٤- ما أغنى عنه - وما كسب:

عرفنا أنّ الأداة (ما) في موضعيها من الآية يمكن أن تفسَّر أو تُعرَب بأكثر من وجه.

فقد تكون الأولى نافيةً أو استفهاميّة، أمّا الثانية فقد تكون نافيةً (أي: وما كسب شيئاً) أو استفهاميّةً (أي: وماذا كسب؟) أو موصولةً (أي: تبّ هو والذي كسبه) أو مصدريّةً (يمكن تأويلها مع ما بعدها بمصدر، أي: ما أغنى عنه مالُه ولا كسْبُهُ). ومن هذا التعدّد تتولّد القيمة الإيحائيّة أو المشعّة للعبارتين.

٥- وامرأتُه حمَّالة الحطب:

قد عرفنا المعاني الكثيرة المحتمَلة التي ذكرها اللغويّون والمفسّرون لمعنى حمل الحطب، كما عرفنا الاحتمالات المتعدّدة لإعراب اللفظ (حمّالةَ) وللزمن الذي يدلّ عليه: الحاضر أو المستقبل، وهذه العناصر مجتمعةً تشحن العبارة القرآنيّة بطاقةٍ انفتاحيّةٍ متعدّدة الأوجه.

٦- حبلٌ من مسَد:

ولا تقلّ احتمالات معاني (مَسَد) في هذه الآية عن احتمالات ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ في الآية السابقة، كما تبيّنّا من حيرة المفسّرين وهم يحاولون الإمساك بالمعنى المحدّد والنهائيّ لهذا اللفظ، وهو أمرٌ لن يتحقّق أبداً، وسيظلّ من باب "التصوير الافتراضيّ".

فقد يكون المقصود هو الحبلَ الشديد الفتل، أو قد يكون الليف، أو الشعر، أو الوبر، أو الصوف، أو الشوك، أو جلود الإبل، أو هو ﴿سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ كما في الآية (٣٢) من سورة (الحاقّة)، أو هو شيءٌ آخر غير ذلك كلّه.

إنّ القيمة الحقيقيّة لهذا التعبير مستمَدّةٌ من هذه المرونة، والقدرة على الخروج عن أيّة أُطرٍ معنويّةٍ يمكن أن يحصره فيها خيالنا الإنسانيّ المحدود.

خامساً: جوامعُ الكَلِم:

١- تبّت يدا:

لقد أخذت هذه اللعنة النموذجيّة طريقها حقّاً على أقلام الكتّاب والشعراء بعد نزول السورة، كما سبق أن رأينا في أبيات عليّ بن أبي طالبٍ ﷺ وابن الروميّ.

٢- ما أغنى عنه مالُه وما كسب:

عبارةٌ يصلح أن تطلق على كلّ ذي منصبٍ أو مالٍ أو جاهٍ، أساء لنفسه وللناس، ثم وقع في قبضة القانون، أو المرض، أو الفضيحة، أو الموت.

٣- سيَصلَى ناراً ذاتَ لهب:

عبارةٌ تحذيريّةٌ لكلّ من ارتكب، أو همّ بارتكاب كبيرةٍ، بأنّه لا بدّ أن يَلقى جزاءه في النهاية.

٤- وامرأتُه حمّالةَ الحطب:

يمكن أن توصف بهذه العبارة أيّة امرأةٍ سيّئةٍ صادف أنّها زوجة رجلٍ لا يقلّ عنها سوءاً.

٥- في جِيدِها حبلٌ من مسَد:

يمكن أن تطلق على امرأةٍ، وربما على رجلٍ، تزيّنا أو تنعّما بمالٍ حرام.

السورة السادسة

النصر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾

هذه هي السورة الخامسة بحسب الترتيب التراجعي لسور القرآن؛ التي نحاول اكتشاف جوانب التجديد الإعجازيّ فيها. وسنتوقّف فيها كالعادة عند خمس محطّاتٍ يتوزّعها ٢٤ موقعاً استطعنا أن نتبيّنها في ١٩ كلمةً تتألّف منها السورة.

وتتركّز الشخصيّة اللغويّة للسورة في مقدّمتها الشرطيّة، إذ تختلف مواصفات الأداة (إذا) فيها عن مواصفات شبيهاتها في القرآن الكريم أو غيره، ممّا سينعكس طيفه بعد ذلك على كامل السياق في السورة.

١- الألفاظ والمصطلحات:

التجديد في ألفاظ القرآن يمكن أن يقع في ثلاثة أشكالٍ مختلفة، كما عرفنا، اجتمعت كلّها في هذه السورة.

فقد يكون اللفظ قرآنيّاً خالصاً لم تعرفه العربيّة من قبل، كاللفظين: سَبِّحْ، توّاباً. وقد يكون اللفظ معروفاً لدى العرب ولكن القرآن أعطاه معنىً اصطلاحيّاً جديداً، كالألفاظ: الفتح، يدخلون، أفواجاً. وقد يتحقّق التجديد في استعمال الأداة النحويّة بطريقةٍ مختلفة، كما في الأداتين: إذا، كان.

وإذن، فالألفاظ والمصطلحات القرآنيّة الجديدة تتركّز في المواقع السبعة التالية:

١- إذا:

يُجمع النحاة على أنّ (إذا) الشرطيّة تختصّ بالزمن المستقبل، فنحن نقول في إعرابها عادةً: ظرفٌ لِما يُستقبَل من الزمان يتضمّن معنى الشرط. وحين اعترفوا، مع ذلك، بأنّها قد تأتي للزمن الماضي، لم يجدوا شاهداً على ذلك، فيما أعلم، إلاّ في القرآن.

ومع ذلك فما جاؤوا به من شواهد قرآنيّةٍ اطّلعتُ عليها لا ينسجم، في نظري، مع معنى الشرطيّة، أو لا يشير إلى الزمن الماضي. لقد استَشهد المُراديّ على ذلك في كتابه (الجَنَى الداني) [ص: ٣٧١] بقوله تعالى:

- ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ ﴾ [التوبة: ٩٢]

فلا أرى في (إذا) هنا معنى الشرط وإنّما اقتصرتْ على الظرفيّة، فما أسهل أن نستبدل بها الظرف (حين) فنقول: حين يأتونك لتحملهم. وهي، إلى جانب ذلك، لا تختصّ بالزمن الماضي، نعم إنّها استندت إلى واقعةٍ جرت قبل نزول السورة، ولكن لتشرّع قاعدةً للتعامل في المستقبل مع أولئك الذين يَصدُقون اللهَ في عزمهم على الجهاد ثم لا يجد القائد لهم ما يَركبونه من خيلٍ أو يحملونه من سلاح.

ويستشهد المُراديّ أيضاً بقوله تعالى:

- ﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا ﴾ [الجمعة: ١١]

إنّ (إذا) في هذه الآية لا تنحصر في الزمن الماضي، حتّى إن نزلت في واقعةٍ حدثت في حياة الرسول ﷺ، وإنّما، شأنها شأن كثيرٍ من آيات القرآن، تمتدّ إلى الحاضر والمستقبل، فالآية تتحدّث عن حالةٍ مستمرّةٍ يمكن أن تحدث كلّ يوم.

أمّا (إذا) في هذه السورة فتختصّ بحالةٍ تاريخيّةٍ حدثت ولم تتكرّر. إنّه الفتح الذي منّ الله به على رسوله، سواءٌ بمجيء الأقوام والقبائل إليه مبايِعةً

بالآلاف، بعد أن عَقد صلح الحديبية مع مشركي مكّة، حسب رأي بعضهم، أو بفتح مكّة من غير قتال في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة، واستقرار الأمن بعد ذلك الفتح في الجزيرة العربيّة، وبدء مرحلةٍ جديدةٍ من تاريخ الدولة الإسلاميّة، حسب رأي آخرين.

وفي الحالين تكون (إذا) قد اختصّت في السورة، لأوّل مرّة، بالماضي دون الحاضر أو المستقبل، خلافاً لكلّ الأعراف النحويّة المتّبعة مع هذه الأداة. إنّه معنىً جديدٌ أعطي لها، ولو شئنا التعبير عنه بلغتنا لقلنا: **أمّا وقد** جاء نصر الله والفتح .. فسبّح بحمد ربّك ..

ولا أجد (إذا) أخرى في القرآن يمكن أن نجري عليها مثل هذا الاستبدال، ولا في نصوص الحديث الشريف، ولا في لغتنا البشريّة على امتداد تاريخها.

٢- الفتح:

هذا مصطلحٌ إسلاميٌّ جديدٌ كلّياً على العرب. ربّما عرفوا المصدر (فتْحٌ) من الفعل (فَتَحَ) الذي هو عكس (أغلق) ولكنّهم، كما يظهر من قراءتنا للشعر الجاهليّ، لم يعرفوا هذا الجذر أبداً بمعنى الانتصار أو الاستيلاء على المدن أو البلدان أو القلوب.

ورغم خلوّ الشعر الجاهليّ كلّياً من هذا الاستعمال؛ نجده يتكرّر في القرآن الكريم بهذا المعنى، وبصيَغه الاسميّة أو الفعليّة المختلفة، ١٢ مرة.

لقد استخدم العرب بدلاً من ذلك الفعلَ (انتصر) والفعل (غزا) ومشتقّاتهما. وأوّل مرّة يصادفنا هذا الاستعمال في الشعر العربيّ بالمعنى القرآنيّ، كان عند الشاعر الإسلاميّ كعب بن زهير (ت ٢٦هـ) في قوله:

ضربناهمْ بمكّةَ يومَ فتحِ النـــ ـــبيِّ الخَيرِ بالبِيضِ الخِفافِ

ثمّ يزدهر الاستعمال الجديد بعد ذلك، فيستخدمه الشعر العربيّ حتى نهاية العصر الأمويّ ١١ مرّة على الأقلّ. كما يغدو جزءاً من لغة الحديث الشريف في معرض الحديث عن الحروب والغزوات والانتصارات.

٣- يدخلون:

اعتاد العرب قبل الإسلام استخدام الفعل (صبأ) للتعبير عن اعتناق دينٍ جديد، ولذلك كثيراً ما أطلق المشركون على الرسول ﷺ لقب (الصابئ).

ونستخدم اليوم غالباً الفعل (اعتنق) أو (أسلم) للتعبير عن هذا المعنى، ولكنّ القرآن استعمل التعبير (دخل في) لأوّل مرّة للتعبير عن هجر الوثنيّة والإيمان بالعقيدة الجديدة.

والغريب أنّ هذا الاستعمال اقتصر على هذه المرّة الواحدة في القرآن، رغم ورود الفعل (دخل) ومشتقّاته فيه ١٢٧ مرّة، على حين يخلو تماماً من الفعلين (صبأ) و (اعتنق) ومشتقّاتهما، ويحلّ محلّهما على الأغلب الأفعال (آمن) و (اتّبع) و (اهتدى) و(أسلم) أو غيرُها، كما في الآيات التالية:

- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [البقرة: ١٣]
- ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ [البقرة: ١٣٥]
- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة: ١٦٥]
- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧٠]
- ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦]
- ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

- ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]

- ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]

- ﴿ لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ ﴾ [الرعد: ٣١]

- ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١]

- ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢]

- ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ ﴾ [الحُجرات: ١٧]

وربّما لا نلاحظ جدّة استخدام القرآن لهذا اللفظ بالوضوح الذي لاحظناه في استخدامه للفظ (الفتح) مثلاً، وهذا نتيجة لطغيان المعنى الشائع لهذا الفعل (دخل) في لغتنا اليوم على المعنى القرآنيّ في هذه السورة. ولا بدّ من التذكير من جديد؛ بأنّ اجتماع هذه الاستعمالات الجديدة بعضِها إلى جانب بعضٍ في سورةٍ قصيرةٍ كهذه؛ هو الذي يجعل من السورة خزّاناً من المفاجآت يتدفّق دفعةً واحدةً على العربيّ الأوّل بعناصره المثيرة المختلفة.

٤- أفواجاً:

مصطلحٌ قرآنيٌّ جديدٌ جاء فيه اللفظ لأوّل مرّةٍ في صيغة الجمع للتعبير عن اجتماع الكثرة مع الحركة والتتابع في الوقت نفسه: إنّ العرب يتحوّلون الآن، وبسرعة، قبائل وجماعاتٍ، باتجاه الدِّين الجديد.

لقد استعمله القرآن مرّتين فحسب، ولكنّنا لا نعثر عليه في الشعر الجاهليّ، ولا في الحديث الشريف، رغم أنّه يبدأ بالظهور في الشعر العربيّ مباشرةً بعد عصر النبوّة، فنعثر عليه ٦ مرّاتٍ على الأقلّ حتى نهاية العصر الأمويّ.

وفي لغتنا العاديّة يرِد مثل هذا اللفظ مزدوجاً عادةً إذا أردنا إظهار معنى التوالي والكثرة الذي قصدته الآية، فنقول: أفواجاً أفواجاً، أو: جماعاتٍ جماعاتٍ،

وهو أسلوبٌ متأخّرٌ لم أجده في التراث اللغويّ للقرون الإسلاميّة الأولى. ولا نجد اللفظ في صحيح الحديث الشريف إلاّ أن يأتي في سياقٍ قرآنيٍّ، كقوله ﷺ: "إن الناس دخلوا في دينِ اللهِ أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً".[1]

٥- فسبّح:

لفظٌ قرآنيٌّ آخر لم يكد يعرفه العرب قبل القرآن، ليس فقط بمعناه الإسلاميّ الذي استقرّ عليه فيما بعد، أي تنزيه الله عن أيّ نقصٍ أو ضَعف، بل في أيّ معنىً محتملٍ آخر.

وأوّل بيتٍ نعثر عليه فيه ينسب إلى ورقة بن نوفل (ت ١١ ق.هـ) -لاحظ أنه قد توفّي بعد بدء نزول الوحي بعامين (بدأ الوحي عام ١٣ ق.هـ)- كما يُنسب البيت أيضاً، بالرواية نفسها تقريباً، إلى الشاعر المخضرم أميّة بن أبي الصلت (ت ٥هـ)، وكلا الرجلين حُمل عليهما ما لم يُحمل على غيرهما، ممّا يدعونا إلى الشكّ في نسبة البيت وزمنه، فضلاً عمّا يحويه من إشاراتٍ قرآنيّةٍ واضحة، كالعرش وجبل الجوديّ، وما فيه من رقّة النسج وبساطة اللغة، ممّا لا يتمشّى مع اللغة التي عرفناها للشعر الجاهليّ:

سبحانَ ذي العرشِ سبحانٌ نعوذُبه ... وقبلُ قد سبّحَ الجُوديُّ والجُمُدُ

ورغم ندرة وجوده -إن كان قد وُجد مطلقاً ولو لمرّةٍ واحدةٍ في الشعر الجاهليّ- يفاجئ القرآنُ العرب باستعمال هذا الفعل مع مشتقّاته ٩١ مرّةً على مساحة سوَرِه المختلفة، فضلاً عن تكرّر وروده في الحديث الشريف، فقد غدا التسبيح الآن جزءاً من العبادة اليوميّة للمسلم.

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٤٧، حديث رقم ١٤٦٩٦.

٦- كان:

سبق أن أكّدنا تفرّد القرآن الكريم باستعمال الفعل (كان) بمعنى (إنّ) أو (كائنٌ) ١٩٠ مرة، كما بيّنا أنّ اللغة العربيّة تخلو حتّى الآن، مثلما خلا الحديث الشريف، من هذا الاستعمال الرائد والمتفرّد للفعل.

لقد كان الله تعالى توّاباً، وهو كذلك الآن، وسيظلّ هكذا من الأزل إلى الأبد، خلافاً لما يتّصف به الفعل (كان) في لغتنا عادةً من اختصاصه بالزمن الماضي.

ومن المثير للاهتمام حقّاً أن أبا بكرٍ الرازي يتنبّه في تفسيره الكبير إلى الوضع الجديد لهذا الفعل في القرآن، فيؤكّد تفرّد الكتاب الكريم باستعمالاته له، وهو اعترافٌ يصعب انتزاعه حتّى الآن من معظم اللغويّين والنحويّين.

يذكر الرازي في تفسيره أنّ هذا الفعل يأتي في القرآن على خمسة أوجه:

بمعنى الأزل والأبد، كقوله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

بمعنى المضيّ المنقطع، وهو الأصل في معناها، نحو ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾

بمعنى الحال، نحو ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

بمعنى الاستقبال، نحو ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾

وبمعنى (صار) نحو ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[(١)]

ثم يضيف إليها الرازي ثلاثة أوجهٍ أخرى من نوعٍ مختلف:

بمعنى (ينبغي) نحو ﴿ مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾

بمعنى (حضر) أو (وُجِد) نحو ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ و ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً ﴾

للتأكيد، وهي الزائدة، ومنه ﴿ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[(٢)]

---

(١) والحقّ أنّ بإمكاننا إحلال (إنّ) محلّ (كان) في جميع هذه الآيات تقريباً، ما عدا الثانية طبعاً إذ جاءت فيها بمعناها الأصليّ.

(٢) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج١، ص٣٤١-٣٤٢.

٧- توّابا:

هذا اللفظ من أسماء الله الحسنى. وجِدّته ليست في صياغته الجديدة (فعّال)، أي مبالغة اسم الفاعل، فحسب، بل في أنّه أُطلق هنا على المَتُوب إليه وليس على التائب.

فحين يكثر الخاطئ من الخطايا، ثمّ من التوبة بعد كلّ خطيئة، يرتفع من مستوى (تائب) إلى مستوى (توّاب). ولكنّ القرآن استخدمه هنا للدلالة على من يقبل التوبة مرّةً بعد أخرى من التائب، وهو الله، فنحن نتوب إليه، وهو يتوب علينا.

إنه إذن اسم فاعلٍ ولكنّه يقع على المفعول، وهو لفظٌ قرآنيٌّ جديدٌ لم يعرفه العرب لا بهذا المعنى، ولا بهذا اللفظ، فلا نعثر عليه مطلقاً في الشعر الجاهليّ.

وفي الحديث الشريف يقتصر إطلاق هذا الاسم أيضاً على البشر التوّابين، إلاّ حين يُذكر بين الأسماء الحسنى لله تعالى، ومن ذلك قوله ﷺ:

- اللهمّ اجعلْني من التوّابين واجعلْني من المتطهّرين[١]
- وخيرُ الخطّائين التوّابون[٢]
- إنّ اللهَ تعالى يُحبُّ العبدَ المؤمنَ المُفَتَّن التوّاب[٣]
- جالِسوا التوّابين فإنّهم أرقُّ أفئدةً[٤]

---

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، ج١، ص٧٨، حديث رقم ٥٥.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص٦٥٩، حديث رقم ٢٤٩٩.

(٣) الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج١، ص٨٠، حديث رقم ٦٠٥.

(٤) ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد. **المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض: مكتبة الرشد، ط. ١، ١٤٠٩هـ، ج٧، ص٩٦، حديث رقم: ٣٤٤٦٥.

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- جاء نصر الله:

التعبير المعتاد لهذا المعنى في لغتنا هو (تحقَّقَ النصر) أو (تمّ النصر). وربّما اكتفينا بلفظٍ واحدٍ فقلنا: (انتصرنا).

ولكنّ "إلهيّة التعبير" هنا استدعت استخدام الفعل (جاء) للإشعار بـ"الإرسال". فالنصر عند البشر "يتحقّق" أو "يُنال" ولكنّه لدى من يمنح النصر "يُرسَل" فـ"يأتي" أو "يجيء" أو "يتنزّل" من عنده إلى الأرض.

إنّه الآن في حركةٍ انتقاليّةٍ تتحرّك به من السماء هابطةً إلى الأرض، وهذا يبعث في الفعل وفاعله معنىً متميّزاً وحياةً جديدةً أهّلتهما لأن يكونا صورةً بيانيّةً يمكن أن تنضوي تحت فنّ الاستعارة؛ إذ يُشَبَّه فيها النصر، وكذلك الفتح بعده، بإنسانٍ يجيء، وهو ما ذهب إليه بعض اللغويين في تحليل الآية[١].

وأرى أنّ فعلاً قرآنيّاً كهذا ينبغي أن نُخرجه من دائرة المجاز، لأنّ مجيء كلّ شيءٍ هو حدوثه، وحدوثه لا يكون إلاّ من الله، يرسله فيجيء أو يَحدث، وهكذا النصر. إنّها حقيقةٌ مجرّدة، فلا حاجة إذن للتأويل المجازيّ في مثل هذا الموضع.

٢- الفتح:

عرفنا أنّ القرآن الكريم قد أعطى هذا اللفظ معنىً جديداً لم يعرفه العرب من قبل، وهو النصر وزوال العقبات والصعاب.

وما نريد إثباته الآن، إضافةً إلى ذلك، هو تميّز علاقة هذا اللفظ بما قبله أو بعده. لقد جاء هنا معرَّفاً بال، ومجرّداً من الإضافة أو الوصف.

---

(١) الدرويش، محيي الدّين، **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، دمشق وبيروت: دار اليمامة ودار ابن كثير، ١٩٩٩م، ج٨، ص٤٣٦.

إنه لم يقل مثلاً:

فتحُ الله، أو:

الفتح المبين، أو:

فتحُ القلوب، أو:

فتحُ مكّة،

بل اتخذ اللفظُ شخصيّته المستقلّة بحيث لا يعتمد على غيره عند استعماله، فما أن يقال: (الفتح) حتى ينصرف الذهن إلى النصر الخاصّ بالمؤمنين على أعدائهم، أو دخولهم البلد المفتوح، حرباً أو سلماً.

وورود اللفظ ٦ مرّاتٍ في القرآن الكريم، هكذا معرّفاً بـ (ال) ومجرّداً من الوصف أو الإضافة، يؤسّس شخصيّته الإسلاميّة الجديدة.

٣- نصرُ الله:

هذا تعبيرٌ إسلاميٌّ جديدٌ لم يعرفه العرب مِن قبل. ولأنّهم لم يعتادوا نسبةَ النصر إلى الله فبدهيٌّ أنّنا لن نتوقّع منهم إضافة لفظ (النصر) إليه.

٤- نصر الله والفتح:

إنّ تجرُّد لفظ (الفتح) من الإضافة، بعد عطفه على لفظٍ قبله مرتبطٍ بمضافٍ إليه، ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ أوجد في التعبير مُناخاً غريباً على الجملة العربيّة.

فقد تعوّدت أذنُ العربيّ عطف الاسم المجرّد على الاسم المجرّد، والاسم المضاف على الاسم المضاف، فنقول مثلاً:

نصرُ الله وفتحُه، أو:

النصر والفتح،

كما نقول:

واجبات الإنسان وحقوقه،

ولا نقول:

واجبات الإنسان والحقوق،

وكذلك نقول:

شخصيّة المرء وأخلاقه،

ولا نقول:

شخصيّته والأخلاق،

ممّا يمنح هذا التعبير تميّزه، ويؤكّد اختصاصه بلغة القرآن الكريم وحدها.

٥- فسبّح بحمد ربّك:

سواءٌ كان الفعل (سبّح) جديداً على العرب، وهو الأرجح، أو كانوا قد عرفوه قبل ذلك، فسوف يفاجئهم هنا بتعدّيه إلى (الحمد) بدلاً من تعدّيه إلى المحمود متمثّلاً عادةً بلفظ الجلالة أو بأحد أسمائه تعالى، على الشكل الذي نجده عليه في آياتٍ أخرى، مثل:

- ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٩٦]
- ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴾ [طه: ٣٣]
- ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء: ٤٤]

لقد تعدّى الفعل إلى اسم الله بالباء في الآية الأولى، وبنفسه في الثانية من غير الاستعانة بأيّ حرف، وباللام في الثالثة، إلاّ أنه تعدّى في الآيتين الأخيرتين إلى ذاته تعالى (نُسَبِّحَكَ ، تُسَبِّحُ لَهُ) على حين تعدّى في آية سورة (النصر) إلى حمد الله وليس إلى الله. ويتكرّر هذا النوع من التعدّي في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

٦- إنّه كان توّابا:

لكي نلمس حقيقة التفرّد اللغويّ لهذه العبارة بإمكاننا أن نتصوّر أنّنا نحن الذين سنؤدّي معناها بلغتنا الخاصة، أو فلنقل: بلغة أي إنسانٍ عربيّ، بل بلغة الرسول ﷺ نفسه.

فكيف ستبدأ الجملة عندنا؟ لا شكّ أننا سنقول (مع الحفاظ على الألفاظ القرآنيّة):

فإنه كان توّابا، أو:

فقد كان توّابا

رغم أنّ العبارة هي جزءٌ من آيةٍ، وليست آيةً مستقلّةً بذاتها.

وبمعنىً آخر، إننا لن نستغني في لغتنا عن حرف الفاء في مطلع الجملة، لأنّ هذه الفاء سترتبطها بما قبلها، وستمنحها معنىً تفسيريّاً أو سببيّاً، فنحن نسبّح الله ونستغفره، لأنّنا نعلم أنّه يَقْبل التوبة من التائبين والمستغفرين.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة:

١ - إذا جاء نصر الله والفتح:

إنّ استخدام (إذا) للدلالة على الزمن الماضي في هذه الآية، وإضافة (النصر) إلى (الله)، وكذلك عطف الاسم المجرّد من الإضافة (الفتح) على الاسم المضاف ﴿نَصۡـرُ ٱللَّهِ﴾، وبهذه البِنية اللغويّة الخاصّة، يجعل منها كلّها سبيكةً لغويّةً قرآنيّةً جديدةً؛ لها بناؤها الإيقاعيّ الخاصّ، وشخصيّتها المستقلّة عن السبائك اللغويّة العربيّة التقليديّة، بل ربّما عن سائر السبائك القرآنيّة.

٢- فسبّح بحمد ربّك:

سبيكةٌ قرآنيّةٌ خاصّةٌ أخرى تتألّف من فعل تسبيح يتعدّى بالباء إلى مصدرٍ نقوم بأداء فعله لله: (الحمد)، ويليه اسمٌ من أسمائه تعالىً (الربّ)، وقد أضيف إلى

ضمير المخاطب (الكاف)، وهذا الأخير عائدٌ على فاعل الفعل الذي افتتحت به الجملة. هل نتخيّل نحن أن نقول مثلاً:

فاذكرْ بثناء معلّمك؟ أو:

فعظِّم بشكر مَلِكك؟

٣- إنّه كان توّابا:

هذا البناء اللغويّ الذي يبدأ بالأداة (إنّ) مع اسمها (الهاء) يتلوها الفعل الناقص (كان) -الذي هو أيضاً بمعنى (إنّ)- ويليه خبره المنصوب (توّاباً) -في صيغةِ مبالغة اسم الفاعلِ (فعّال)- أضحى بناءً قرآنيّاً مميّزاً، لأنّه يتكرّر فيه كثيراً، مع اختلاف الخبر أحياناً بين مبالغة اسم الفاعل وغيرها، كقوله تعالى:

- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]
- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦]
- ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]

رابعاً: مواقع منفتحة

١- الفتح:

إنّ تعدّد المعاني التي يمكن أن يحملها هذا اللفظ القرآنيّ الجديد، كالنصر على الأعداء، وفتح مكّة، وانفتاح القلوب للدّين الجديد، وانفتاح البلدان معها، ودخول الناس في الإسلام جماعاتٍ وقبائل، يضفي عليه طبيعةً ذاتَ ظلالٍ تسمح بتصنيفه بين الألفاظ ذات الأبعاد المتعدّدة.

فهو قد يعني الحرب، ولكن قد يعني السلم والأمان أيضاً، وهو أيضاً بمعنى (فَرَجٌ) عكس (ابتلاء وشدّة)، وبمعنى (كشْف) عكس (حَجب ومنْع وانحباس)،

فحيث يدخل الإسلام يدخل الأمان والسلام والخير والبناء، فكأنّ أبواباً من كلّ ذلك قد "فُتحت" على الناس بفتح المسلمين لبلدهم، وهو في الوقت نفسه فتحٌ ماديٌّ لأبواب المدن والقلاع والبلدان التي كانت مستعصيةً قبل ذلك.

٢- ورأيت:

هذا الفعل يحمل أيضاً أكثر من احتمال. فالمخاطَب ليس محدّداً؛ إذ يمكن أن يكون الرسول ﷺ، كما يمكن أن يكون أيّ مسلم عاش أيّام الانتصارات الكبيرة التي حقّقها المسلمون أواخر عهد النبوّة، بل أيّ مسلمٍ يعيش أيّ انتصارٍ آخر يتحقّق للمسلمين على مرّ العصور، في الماضي والحاضر والمستقبل.

ثمّ إن الفعل قد يعني التأكيد والرؤية الحقيقيّة، وهي لمن شاركوا بأنفسهم في القتال والنصر، أو عاشوا ذلك النصر على الأقلّ، وقد يعني مجرَّد التذكير بذلك كما يمكن أن نفهمه اليوم ويفهمه كلٌّ من لم يعاصر تلك الانتصارات النبويّة الأولى.

٣- فسبّح بحمد ربّك:

إنّ فعل التسبيح وحده، مجرّداً من ملحقاته هنا، فعلٌ أعطاه المفسّرون أكثر من معنىً. فهو في الأساس ذكرٌ لله، ولكنّه أيضاً تنزيهٌ له وإعلاءٌ لشأنه وتفكّرٌ وتعجّبٌ بخَلقه وبشأنه معهم، وهو أيضاً اسمٌ لصلاةٍ خاصّةٍ قيل إنّ الرسول ﷺ قد صلاّها وقت الضحى يوم الفتح ثماني ركعاتٍ، وسمّاها بعضهم صلاة الفتح.

فإذا ما اقترن الفعل بملحقاته ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أعطته هذه الملحقات مزيداً من الألوان والإيحاءات، وساعدت على طرحِ المزيد من التصوّرات والمزيد من التساؤلات: فما الفرق يا ترى بين تسبيح الله والتسبيح له والتسبيح باسمه والتسبيح بحمده؟!

٤- واستغفره إنّه كان توّابا:

إن دعوة الله لرسوله، وكذلك لكلّ مسلم، أن يشكره ويسبّحه على ما رزقه من نصرٍ على الأعداء، ودخولٍ للناس في دينه بالآلاف، أمرٌ عاديٌّ وبدهيّ، ولكنّ دعوته تعالى لنبيّه ﷺ بعد ذلك، وللمسلمين، بالاستغفار والتوبة تبدو أقلّ وضوحاً وأبعثَ على التساؤل: وممّ يستغفر الرسولُ الكريم أو يتوب فيُتاب عليه؟

لقد حاول المفسّرون أن يضعوا إجاباتٍ غير مباشرةٍ لهذا التساؤل، ووجدنا أكثر من حديثٍ نبويٍّ يشير إلى أنّ الأمر إنّما هو إشارةٌ من الله لنبيّه بقرب النهاية، وإيذانٌ له باكتمال رسالته ودنوّ أجله، حتى نُقل عن ابن مسعود أنّ هذه السورة تسمّى (سورة التوديع).

توفّي الرسول ﷺ بعد عامين من هذه الانتصارات والفتوحات.

خامساً: جوامع الكَلِم:

١- نصر الله:

لقد أصبح هذا التركيب من مفردات قاموسنا اليوميّ بعد نزول القرآن، ولا سيّما في معرض حديثنا عن الحرب والجهاد والشهادة، فنحن نتفاءل بإسناد النصر إلى الله. كما سرى هذا التركيب بعد ذلك في قاموس أسماء الأعلام العربيّة، بحيث أطلقه كثيرٌ من الآباء اسماً على أبنائهم.

٢- الفتح:

هذا لفظٌ واحدٌ وليس عبارةً كاملة، ولكنّه أصبح يحتلّ في قاموس العربيّة مكاناً واسعاً بعد نزول القرآن، واشتُقّت منه أفعالٌ ومصادر وجموعٌ وعناوين كُتبٍ، فقالوا: فتَح الله عليه في رزقه، وفتح الله عليه في الكتابة، والفتح العربيّ للأندلس، والفتوحات الإسلامية، وفتْح الفتوح، ووُضعت كُتُب: فتوح البلدان، والفتوحات المكّية، وتفسير فتح القدير... وغير ذلك كثير.

٣- يدخلون في دين الله أفواجا:

إنّها عبارةٌ أضحت تتردّد في كلّ مناسبةٍ يدخل فيها الإسلامَ مجموعاتٌ من الناس، وفي كلّ حدثٍ يتحقّق فيه للإسلام انتصارٌ أو مكاسب كبيرة، أو يزداد عدد معتنقيه في بلدٍ من البلدان، أو في العالم كلّه.

٤- دين الله:

وهو تعبيرٌ لم نعد نستغني عنه في أيّ حديثٍ أو دراسةٍ عن الإسلام أو الأديان عامّةً، والأديان السماويّة خاصّةً.

السورة السابعة

الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

هذه هي السورة السادسة في ترتيبنا التراجعيّ لدراسة سوَر القرآن الكريم. وعدد كلمات السورة ٢٧ كلمة، يتكرّر معظمها أكثر من مرّة، ولكنّ ما استطعنا أن نضع أيدينا عليه من مواقع جديدة يصل إلى ٤٥ موقعاً.

وتبرز الشخصيّة اللغويّة للسورة في عنصر التوازي بين آياتها، مع التكرار المتلوّن بشكلٍ خاصّ، ثمّ في احتوائها الأزمان الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل، عبر هذا التكرار، وكذلك في استغناء جميع الأفعال المتعدّية الأربعة التي اختُتمت بها بعض الآيات عن مفعولها.

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- قُلْ:

هذه هي السورة الرابعة التي تمرّ بنا حتى الآن، بعد الناس والفلق والإخلاص، مبتدئةً بهذه البداية القرآنيّة المتفرّدة (قل)، ويبقى سورةٌ أخرى في القرآن الكريم تبدأ بهذا الفعل أيضاً، وهي سورة (الجنّ).

وربّما كان من المفيد أن نذكّر هنا بما أثبتناه سابقاً من قرآنيّة هذا الفعل:

- وروده بكثافةٍ غير عاديّةٍ في القرآن
- الابتداء غير المعهود للوحدة الأدبيّة - السورة
- إغفال ذكر المتكلّم
- إغفال ذكرالمخاطَب
- عدم تعديته باللام
- وجود شرطٍ قبله حُذف مع الفاء الرابطة لجوابه، والتقدير هنا: إن سألوك أن تتبادلَ معهم عبادة آلهتهم فقل..
- ورغم أنّ الفعل جاء هنا بمعنى: أخبِرهم (قلْ لهم) وليس بمعنى (اِقرأ، أو: ردّد) كما جاء في المعوّذتين، وهذا يوافق المعنى الذي عرفه الشعر الجاهليّ، فإنّه مع ذلك لم يتعدّ باللام، وإلاّ لكانت الآية: (قلْ للكافرين) وبهذا ظلّت له شخصيّته القرآنيّة المميّزة.

٢- الكافرون:

لفظٌ قرآنيٌّ جديدٌ لم يعرفه العرب من قبل. وربّما عثرنا على مشتقّاته قليلاً في الشعر الجاهليّ، ولكن في معنىً مختلفٍ تماماً: وهو التغطية، أو كفران النعمة.

إنّه يُطلَق هناك على النهر أو البحر (لأنهما يغطّيان الشمس حين تغيب وراءهما) أو على الليل (لإخفائه الأشياء) أو على السحاب المظلم، أو الفارس المغطّى بالسلاح، وربّما أُطلق على المُزارع، ومثاله ما ورد في الآية:

- ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠]

وهو عند الشاعر الجاهليّ في صيغة المفرد دائماً، ومن ذلك قول المتلمِّس الضبعي (ت ٤٣ ق.هـ) حين ألقى صحيفته المشهورة في النهر فنجا من القتل:

وألقيتُها بالثِنْي مِن جَنْبِ كافرٍ كذلك أَقني كلَّ قَطٍّ مدلَّـلِ

فإن جاء فعلاً فهو غالباً بمعنى (يجحد أو يكفر النعمة) كقولهم:

فجزاهُ اللهُ مِن ذي نَعمــةٍ وجزاه اللهُ إنْ عبدٌ كَفَـرْ

المثقّب العبديّ (ت ٦٣ ق.هـ)

واذكُرِ النُعمى التي لم أنسَها لكَ في السّعيِ إذا العبدُ كَفَرْ

عَديّ بن زيد (ت ٣٦ ق.هـ)

٣ حتى ١٠ - أعبد (ومشتقاتها السبعة الأخرى في السورة):

سبق أن وقفنا على الفعل (نعبدُ) في فاتحة الكتاب، وتحدّثنا عن المعنى الجديد والمختلف لهذا الفعل في الإسلام، وفرّقنا بين معنيي العبوديّة لله والعبوديّة للبشر، فأظهرنا ما في الأولى من تقاربٍ وتجاذبٍ بين العابد والمعبود، وما في الثانية من تنافرٍ وتباغضٍ بين العبد وسيّده.

ورغم استعمال الفعل ومشتقّاته ثماني مرّاتٍ في السورة، حيناً مع الكافرين، وحيناً مع المؤمنين، فقد أصبح المعنى الإسلاميّ الجديد هو المعنى المتداول لفعل العبادة في أيّ نصّ قرآنيٍّ أو إسلاميّ، مع الأخذ بعين الاعتبار الفوارق العقديّة بين عبادة المسلم لله وعبادة غيره له، بحيث لم يقبل الإسلام عبادة أهل مكّة لله، رغم إصرارهم على أنّهم كانوا يعبدونه حقّاً، ولكن على طريقتهم، ممّا

توضّحه الآية الكريمة:

- ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزُمَر: ٣]

فعبادتهم لله كانت مقرونةً بتقديسهم لأولياء مِن دونه، زاعمين أنّهم إنّما يقرّبونهم إلى الله، ويردّ عليهم تعالى هذا النوعَ من العبادة المشوّهة، لأنّ العبادة الخالصة بمعناها الإسلاميّ الجديد بعيدةٌ كلّ البعد عن مفهوماتهم الجاهليّة التي تتّخذ البشر وسيلةً إلى الله.

١١- ١٢- ما أعبد [مكرّر]:

يفرّق النحويّون بين اسمَي الموصول (ما) و (مَن) بأنّ الأول مختصٌّ بغير العاقل والثاني مختصٌّ بالعاقل.

وإذا لم يكن من جديدٍ في استعمال (ما) في الآيتين الثانية ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ والرابعة ﴿مَّا عَبَدتُّمْ﴾؛ إذ عبّر بها القرآن في كلا الموضعين عن معبودات المشركين من الأصنام، وهي غير عاقلةٍ طبعاً، فإنّ الجديد هو في قوله تعالى ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ في الآيتين الثالثة والخامسة، إذ عبّرت الأداة (ما) فيهما عن الخالق عزّ وجلّ.

لقد كانت لغتنا البشريّة تتوقّع أن يقال: (مَن أعبد) محلّ ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ في الآيتين كلتيهما، ولكنّ القرآن استخدم الأداة نفسها في التعبيرعن كلا العاقل وغير العاقل في السورة.

وقد أخرج النحويّون أنفسَهم، من هذا "الحرج النحويّ" الذي واجههم في عدة مواضع من القرآن، فضلاً عن هذه السّورة، بقولهم إنّ (ما) استُخدِمت هنا للعاقل مراعاةً للمطابقة اللفظيّة، أي التناسب والتوافق بين الآيات الأربع فلا تخرج إحداها عن الأخريات بأداةٍ مختلفة؛ إذ يسوَّغ في مثل هذه المطابقات أو المقابلات ما لا يسوَّغ في الانفراد.

وقال آخرون إنها استُخدمت للعاقل، رغم أنها في الأصل لغير العاقل، على سبيل التعظيم.

ونحن لا يهمّنا، في المنهج الذي اعتمدناه لهذا البحث، إيجادُ مخرجٍ من هذا الإشكال بقدر ما يهمّنا إثباتُ جِدّة هذا الاستعمال القرآني وفرادتِه وخروجه على التقاليد اللغويّة التي تواضع عليها العرب قبل الإسلام، وما زال النحويّون يتعاهدونها حتى الآن.

١٣- دينِ (بحذف ياء المتكلّم):

هذه حالةٌ من حالات الحذف المحيِّرة التي تتكرّر في القرآن ولا نعرفها في غيره من نصوصنا الشعريّة أو النثريّة على مدى التاريخ، إلاّ أن يكون ذلك لضرورةٍ شعريّة، وهو أمرٌ نادر. لقد حذفت الياء هنا، وكذلك في مواقع عديدةٍ من القرآن الكريم، كتابةً ولفظاً، مثلما حذفت الألف والواو في بعض الأحيان، ولغير أيّة ضرورةٍ، حسب قواعدنا، كما رأينا في الجزء الأول من البحث حين درسنا فنّ الالتفات. ومن ذلك قوله تعالى:

- ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ [القمر: ٦]

- ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ [العلق: ١٨]

- ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ ﴾ [يوسف: ٥١]

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- يا أيّها:

هذا النداء بـ (يَـٰٓأَيُّهَا) ليس بجديدٍ على العرب، لكنّ خصوصيّته القرآنيّة تأتي من أنّه يتوجّه غالباً إلى الجماعة، على حين يقتصر عند الجاهليين على المفرد وحده، ومنه قول البرّاق بن روحان (ت ١٦٠ ق.هـ):

يا أيّها الراكبُ المجتازُ تَرفُلُ في حَزْنِ البلادِ وطَوراً في صحاريها

وقول عنترة (ت ٢٢ ق.هـ):

يا أيّهـا الملِكُ الذي راحـاتُهُ قامت مقامَ الغيثِ في أزمـانهِ

ويغلب في القرآن الكريم أن يتلو (يا أيّها) الاسمُ الموصول الدالُّ على الجماعة، ولا سيّما جماعة المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهو يكثر في السور المدنيّة، وأقلّ منه لفظ (الناس) وهو يكثر في السور المكّية حين كان الوحي ما يزال في بواكيره والخطاب موجّهاً إلى أناسٍ لم يعرفوا الإسلام ولا الإيمان بعد، ثم يلي ذلك درجةً ألفاظُ (الملأ) و (الرسل) و (النمل). أمّا إذا حدث أن تلاه مفردٌ فلفظ (النبيّ) غالباً، أو بعض صفاته (الرسول، المزّمّل، المدّثّر).

ورغم أنّ هذا النوع من النداء يرِد في القرآن الكريم ما يقرب من ١٤٠ مرةً فمن النادر أن نجده في الحديث الشريف، أو حتّى على ألسنة الصحابة، وإنما هو هناك (أيّها) بدون (يا) غالباً، وكذا الأمر في لغتنا أيضاً، ممّا يؤكّد خصوصيّته القرآنيّة، كما يؤكّد مرّةً أخرى، وهذا هو الأهمّ، التميّز الأسلوبيّ بين لغتَي القرآن الكريم والحديث الشريف، رغم التأثير القرآنيّ المفترَض في لغة الرسول ﷺ.

٢- لا أعبُد:

تخيّلوا أنّكم تريدون أن تعبّروا عن معنى الآية الثانية بلغتكم أنتم، بل بلغة أيّ كاتبٍ أو شاعرٍ تتخيّلونه، قديمٍ أو حديث، فكيف تبدأون جملتكم؟ ستقولون على الأغلب:

إنني لا أعبد، أو:

أنا لا أعبد

فالضمير (أنا) وكذلك أداة التوكيد (إنّ) –التي اعتدنا ابتداء الكلام بها أحياناً– قد اختفيا من الآية بحيث خرجت عن الشكل المألوف الذي كنّا نتهيّأ لسماعه. إنّ هذا، كما سبق أن أكّدنا دائماً، خروجٌ على الأعراف والتقاليد اللغويّة التي استقرّت لدى العرب قبل نزول القرآن الكريم، وظلّت مستمرّةً عندهم حتّى يومنا هذا.

٣- لا أعبد [مكرّر]:

واختلف المفسّرون واللغويّون حول معنى العبارة، هل هي مقتصرةٌ على الحاضر، أم تتجاوزه إلى المستقبل.

فذهب بعضهم إلى الرأي الأول، وفرّق بينها وبين ما جاء في الآية الرابعة ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ﴾ فقال إنّ معنى الأولى: لا أعبد الآن، والثانية: ولا أنا عابدٌ في المستقبل.

وقال آخرون: بل كلتاهما تشمل الحاضر والمستقبل معاً.

ولو ذهبنا إلى الرأي الأول لكان علينا، في لغتنا، أن نقول: أنا لا أعبد –كما سبق أن ذكرنا– ولو ذهبنا إلى الرأي الثاني لكان علينا أن نقول في لغتنا: أنا لن أعبد، بإضافة (لن) التي تخصّصها للمستقبل.

وفي كلتا الحالين تخرج الآية عن طرائقنا المعتادة في التعبير كما هو واضح.

٤- ما تعبدون:

تابعوا معي حتى النهاية تلك الجملة التي تخيّلتم أنّكم تقولونها، فماذا أنتم قائلون؟ إنّكم ستتوصّلون بسهولة إلى الجملة العاديّة التالية:

أنا لن أعبد ما تعبدونه

إذن فأنتم تعيدون إلى الجملة مفعول الفعل (تعبدون) أي الضمير (الهاء) وقد اختفى من الآية، وهو اختفاءٌ يمثّل ظاهرةً قرآنيّةً تتكرّر في آياتٍ عديدة، وستتكرّر في خواتم/ فواصل الآيات الثلاث التي ستتلو هذه الآية أيضاً. ويتحدّث البلاغيّون كثيراً عن الجمال البيانيّ الذي يضفيه هذا الحذف في كثيرٍ من الآيات على التعبير القرآنيّ.

٥- ٦ - ما أعبُد [مكرّر]:

وردت هذه العبارة مرّتين في السورة، وحُذف المفعول به في المرّتين، فلم يقل (أعبده) كما هو العرف في لغتنا العاديّة.

٧- عبدتُم:

مرةً أخرى يختفي المفعول به من هذه الجملة فتقتصر على الفعل (عبَد) والفاعل (التاء)، ولم تُلحق بالمفعول به لتكون (عبدتموه).

٨ إلى ١٠ - ولا أنتم عابدون [مكرّر] + ولا أنا عابدٌ:

ما ينطبق على الموقع السابق ينطبق على هذه المواقع الثلاثة جميعاً. فإذا كانت الجمل الثلاث مختصّةً بالمستقبل؛ كان من الضروريّ أن نضيف إليها، في لغتنا، أداة المستقبل (لن) وأن نحوّل اسم الفاعل (عابد/ عابدون) إلى فعلٍ (أعبُد/ تعبدون) فنقول:

ولن تعبدوا ما أعبُد،

ولن أعبُدَ ما تعبدون،

ولن تعبدوا ما أعبُد

١١ - تعبُدون - عابدون - عبَدتُم:

رغم ورود مشتقّات الفعل (يعبد) ثماني مرّات في هذه السورة المؤلّفة من ٢٧ كلمة فإنّ التكرار يقع في لفظين فقط من تلك الألفاظ الثمانية وهما (عابدون، أعبد)، وهذا لسببٍ بسيطٍ هو تكرار الآية التي تتضمّنهما: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾.

وما يلفت النظر حقاً هو تنقُّلُ اللفظ الذي يختصّ بعبادة الكافرين بين ثلاثة أشكال، بل لنقُل ثلاثة أزمان: الماضي (عبدتم) والحاضر (تعبدون) والمستقبل (عابدون). وهكذا نستطيع قراءة السورة بالمفهوم الآتي:

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ . لَآ أَعْبُدُ [الآن] مَا تَعْبُدُونَ [أنتم الآن]. وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ [مستقبَلاً] مَآ أَعْبُدُ [أنا حاليّاً أو مستقبلاً]. وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ [مستقبلاً] مَّا عَبَدتُّمْ [أنتم في الماضي وما تزالون تعبدونه حاليّاً]..

ألاحظتم كيف جُمع اللفظ (عابدٌ) الدالُّ على المستقبل مع اللفظ (عبدتم) الدالّ على الماضي في آيةٍ واحدة؟ فكأنّه إنباءٌ مسبَقٌ لهم بأنّ عبادتهم لأصنامهم ستكون في مستقبل الأيام شيئاً في حكم الماضي، وإلاّ فلماذا لم يقل في الآية الثانية أيضاً: لا أعبد ما عبدتم؟ ولم يقل في الآيتين الثالثة والخامسة: ولا أنتم عابدون ما عبدتُ؟ أو لماذا لم يقل: لا أنا عابدٌ ما أنتم عابدون، ولا أنتم عابدون ما أنا عابد، ولا أنا أعبد ما أنتم تعبدون؟

إنّ هذا التغيّر يرجّح لدينا إرادة الفوارق الزمانيّة بين الآيات، كما يوضّح بعضَ الشيء غرابةَ التغيّر الاشتقاقيّ والزمنيّ ضمن الجذر الواحد للألفاظ الثمانية في السورة، وهو أمرٌ جعل العربيّ الأول، في تقديرنا، يقف مشدوهاً أمام هذا التنقّل السريع والمتلوّن ولكن على حبلٍ مفرد، أو جذرٍ لغويٍّ واحد!

١٢- لكم دينُكم:

حاولوا الآن من جديد محاولتكم الأولى، وتخيّلوا أنّكم تعبّرون بلغتكم الخاصّة عن معنى هذا الجزء من الآية، فكيف سيكون؟ ستقولون، وهو نفسه ما أقوله أنا أيضاً، شيئاً من هذا القبيل:

أنتم لكم دينكم، وربّما:

أنتم تؤمنون بشيء، أو:

إنّكم تَدينون بشيء..

وإذن فقد اختفى من مطلع الآية ضمير المخاطبين (أنتم) أو التأكيد الافتتاحيّ (إنكم) وقد كنّا حريصين على الابتداء بأحدهما في مختلف خياراتنا البشريّة، ولكنْ (للقرآن لغته وللبشر لغتهم) رغم حتميّة تأثّر لغتنا بلغة القرآن، كما فعلت أنا الآن في هذه الجملة الأخيرة التي وضعتها بين قوسين وقد صغتها على نمط الآية الأخيرة، ولكنّ هذا التأثّر سيبقى ضمن حدود، فلا يتجاوزها إلى ما لا يمكن تقليده في لغة القرآن الكريم، كما سبق أن برهنّا.

١٣- وليَ دينِ:

تابعوا معي الآية حتى نهايتها، واختاروا الطريقة التي اعتدتم أن تعبّروا بها عن معنى الجزء الثاني فيها، فماذا تختارون؟ هل سيختلف ما تقترحونه كثيراً عن إحدى هذه العبارات:

أنتم لكم دينكم وأنا لي ديني، أو:

إنكم تؤمنون بدينٍ وأنا أؤمن بدينٍ آخر، أو:

أنتم تَدينون بشيءٍ وأنا أَدين بشيءٍ مختلف..

وهكذا نجد أنفسنا مرةً أخرى وقد بدأنا الجزء الثاني من الآية بضميرٍ منفصلٍ هو هذه المرة ضمير المتكلّم (أنا) وقد اختفى من الآية القرآنيّة، ممّا أكّد اختلافهاً في كلا الجزءين عن لغتنا العاديّة.

١٤ – لكم دينُكم وليَ دينِ:

وأخيراً نجد الآية بأكملها وقد تخلّت عن الرابط اللغويّ التقليديّ الذي اعتدنا في لغتنا العاديّة أن يربط الجملة مع ما سبقها، وهو عادةً أحد الحرفين الواو أو الفاء، منفردَين أو مرتبطَين بأداةٍ أخرى مثل (إنّ)، فنقول مثلاً:

فلكم دينُكم وليَ دين، أو:

فإنّ لكم دينكم وليَ دينِ ..

ثالثاً: السبائك القرآنية:

١– قُلْ يا أيها:

سبيكةٌ خاصّةٌ بالقرآن وحده، وهي مؤلّفة من فعل الأمر (قل) وأداة النداء (يا) والمنادى (أيّ) الذي أُلحقت به (ها) التنبيه، وتتكرّر في القرآن خمس مرّات. وهي مختلفةٌ عن السبيكة القرآنيّة الأخرى التي يتلو فيها أداةَ النداء منادىً عاديٌّ غيرُ مركّبٍ من (أيُّ) و (ها)، من مثل قوله تعالى:

– ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزُمر: ٥٣]

٢– يا أيّها الكافرون:

سبيكةٌ خاصّةٌ بالنداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ المتلوّ بجمع مذكّرٍ سالمٍ منتهٍ بالواو والنون، وهي سبيكةٌ تقتصر على هذه السورة ولا تتكرّر مرّةً أخرى فيٍ القرآن الكريم. إنّنا لن نجد فيه مثلاً: (يا أيّها المؤمنون) أو (يا أيّها المرسَلون) وإنّما هناك سبائك

تُقاربها من غير أن تُطابقها، كالسبيكة التي يتلو النداءَ فيها جمعٌ غير سالم، كما في قوله تعالى:

- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ [النمل: ١٨]

وكالسبيكة التي يتلو النداءَ فيها جمعٌ سالم، ولكنّها مجرّدةٌ من أداة النداء (يا) كقوله تعالى:

- ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [الذاريات: ٣١]

٣- لا أعبدُ ما تعبدون:

هذه السبيكة القرآنيّةُ تقوم على (لا) النافية) و (ما) الموصولة، ويتبع الأولى فعلٌ للمتكلّم المفرد، ويتبع الثانية الفعلُ نفسه ولكن لجمع المخاطَب.

ومن السهل علينا أن نميّز اختلافها عن سبيكةٍ قرآنيّةٍ أخرى قد تقترب منها بعض الشيء، من غير أن تتطابق معها، كقوله تعالى:

- ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦]

أو عن السبيكة القرآنية الأخرى في قوله تعالى:

- ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣]

٤- ٥- ولا أنتم عابدون ما أعبُد [مكرّر]:

هذه سبيكةٌ شديدة القرب من السبيكة السابقة، وتختلف عنها بدخول الضمير المنفصل (أنتم) بين (لا) وفعل العبادة، الذي يتحوّل هنا إلى اسم فاعلٍ للجمع (عابدون)، كما يتحوّل الفعل الثاني إلى صيغة المتكلّم المفرد (أعبد).

٦- ولا أنا عابدٌ ما عبدتُم:

وهذه أيضاً سبيكةٌ شديدة الشبه بسابقتها، ولكنها ليست هي نفسَها، فقد تحوّل الضمير المنفصل من المخاطَبين (أنتم) إلى المتكلّم المفرد (أنا)، وكذلك

اسم الفاعل الجمع (عابدون) إلى اسم الفاعل المفرد (عابدٌ)، وتحوّل المضارع المتكلّم المفرد (أعبد) إلى الماضي الغائب الجمع (عبدتم).

٧- لكم دينكم وليَ دينِ:

اختصّت هذه السبيكة بهذا التوازي أو التطابق الذي يتحقّق بين نصفها الأول ونصفها الثاني، فكلاهما مؤلّفٌ من خبرٍ مقدّمٍ في شكل شبه جملةٍ (لكم - لي) يليه مبتدأٌ مؤخّرٌ مضافٌ إلى ضميرٍ متصلٍ به (دينكم - ديني). ويقترب منها كثيراً، ولكن ليس إلى درجة التطابق، العبارة القرآنيّة التي تتردّد في أكثر من سورة:

- ﴿ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ ﴾ [القصص: ٥٥ والشورى: ١٥]

٨- السورة بكاملها:

لا شكّ أنّ لكلّ سورةٍ في القرآن الكريم شخصيّتها الخاصّة، ونظامها اللغويّ المختلف.

وإذا كنّا عاجزين الآن عن الإمساك بأسرار البناء اللغويّ العامّ للسوَر الكبيرة، فيمكن أن نحدّد بسهولةٍ معقولةٍ الشخصيّةَ اللغويّة للهيكل العامّ الذي بُنيت عليه سورةٌ صغيرةٌ كهذه السورة، كما فعلنا مع سورتي الفلق والناس.

إنّ فيها أربع آياتٍ متتاليةٍ من أصل ستّ آياتٍ تبدأ بالأداة النافية (لا)، كما يتكرّر الفعل (أعبد) مع مشتقّاته ثماني مرّات، والضمير (أنتم) مرّتين، واللفظ (دين) مرّتين.

وهذه الأرقام، وجميعها مزدوجةٌ كما تلاحظون، يدعّم تأثيرَها ويقوّي شخصيَّتها ازدواجيّةُ الجمل والعبارات داخل السورة أيضاً.

ويتمثّل هذا الازدواج للآيات أو العبارات القرآنيّة في كلٍّ من الثنائيّة ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ و ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾، والثنائيّة ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ و ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾، والثنائيّة ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ ﴾ و ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾.

رابعاً: مواقع منفتحة:

١ إلى ٨ - أعبد (ومشتقّاتها السبعة الأخرى):

قد عرفنا مّما سبق حجم التساؤلات التي أثارتها هذه السورة بسبب الصياغة الخاصّة التي صيغت بها بعض الألفاظ المشتقّة من الفعل (عبد).

فالكلمات: أعبد، تعبدون، عابدون، عابد، عبدتم، تمتزج فيها الأزمان: الماضي والحاضر والمستقبل، حتى نكاد لا نضع أيدينا على زمنٍ إلاّ وأعيننا تنظر إلى زمنٍ آخر، مّما يعطي هذه الألفاظ، ومن ثم الآيات التي تضمّنتها، أبعاداً متعدّدةً تمنحها مزيداً من المرونة في الفهم والتأويل.

وهذا ما حيّر المفسّرين أشدّ الحَيرة، وهم يرون إلى هذا المقدار من الألفاظ المتقاربة، ولكن المختلفة، تتوالى في السورة، بل إلى السرّ وراء تكرار الآيات نفسها أحياناً، كالآية ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾.

وهكذا ذهب بعضهم إلى أنّ الغرض من تكرار الآية هو مجرّد التأكيد، ورجّح آخرون أنّه تعالى أراد من نبيّه ﷺ بهذا التكرار التأكيديّ أن يُيئس الكافرين من طمعهم في استجابته لهم حين عرضوا عليه أن يتبادل معهم عبادة آلهتهم فقالوا: تَعبُد آلهتَنا سنةً ونعبد إلهَك سنةً، وتعبدها سنةً ونعبده سنةً، فردّ عليهم تعالى بطريقتهم التناظريّة نفسها، استهزاءً بهم وسخريةً من عرضهم.

ومّما يزيد تعدّدَ الاحتمالات في توجيه معاني السورة ذهابُ بعضهم إلى أنّ الأداة (ما) في قوله تعالى ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وقولِه ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ مصدريّةٌ وليست اسم موصول، فيكون المعنى على هذا: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي. وهكذا لا يقتصر الأمر في هذه الحال على تبادل الآلهة بل يتعدّاه إلى تبادل طريقة العبادات أيضاً.

خامساً: جوامع الكَلِم:

١- لكم دِينُكم وليَ دينِ:

لقد أضحت هذه السبيكة القرآنيّة المتميّزة صيغةً متداوَلةً بين الناس منذ نزول القرآن الكريم بها، وقد نستخدمها في أيّ نقاشٍ يدور بيننا وبين من يخالفنا في الرأي أو المبدأ أو المذهب أو العقيدة، أو ربّما الذوق والاهتمامات، وحين نيأس من إقناعه برأينا أو مذهبنا نحسم الموقف معه قائلين: لكم دينكم ولي دين، أو: لكم لغتكم ولي لغتي (كما قال مرّةً أحد الأدباء) أو: لك رأيُك ولي رأيي.

٢- السورة بكاملها:

إنّها إحدى السور القلائل التي شجّع الإسلامُ الناسَ على حفظها وتردادها، ومنَحها من الأجر والثواب ما لم يحظَ به غيرها من طوال السور. وكما عدَلَت سورة (الإخلاص) في الحديث الشريف ثلثَ القرآن، عدلت (الكافرون) رُبُعَه:

- عن فَروة بن نوفل عن أبيه رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لنوفل: اِقرأ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ثمّ نَمْ على خاتمتها فإنّها براءةٌ من الشِّرك[1]
- عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يصلّي ركعتين قبل الفجر، وكان يقول: نِعم السورتان هما يُقرأ بهما في ركعتَي الفجر: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[2]
- عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجلٍ من أصحابه: هل تزوَّجت يا فلان؟ قال: لا واللهِ يا رسولَ الله ولا عندي ما أتزوّج به، قال: أليس معك

(١) السجستاني، سليمان بن الأشعث. **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، (د. ت.)، ج٢، ص٧٣٣، حديث رقم ٥٠٥٥.

(٢) القزويني، **سنن ابن ماجه**، مرجع سابق، ج١، ص٣٦٣، حديث رقم: ١١٥٠.

(قل هو الله أحد)؟ قال: بلى، قال: ثُلُث القرآن، قال: أليس معك (إذا جاء نصرُ الله والفتح)؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: أليس معك ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال أليس معك (إذا زُلزلت)؟ قال: بلى، قال: ربع القرآن، قال: تزوّجْ[1]

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، ج٥، ص١٦٦، حديث رقم ٢٨٩٥.

السورة الثامنة

الكوثر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾

هذه هي السورة السابعة في الترتيب القرآنيّ الذي اعتمدناه لهذه الدراسة، وهي أقصر سورةٍ في القرآن، فلا يتجاوز عدد ألفاظها العشرة، ولكننا سنجد فيها ما لا يقلّ عن ١٥ موقعاً إعجازيّاً جديداً أدخله القرآن في معجمنا العربيّ لأوّل مرّة.

وتستمدّ السورة شخصيّتها اللغويّة من انفرادها بتعدية الفعل (صلِّ) باللام خلافاً للمرّات الإحدى عشرة الأخرى التي تكرّر بها هذا الفعل في القرآن، وتستمدّها كذلك من أنّ ألفاظها جميعاً بعد ذلك، ما عدا الأدوات واللفظ (ربّ)، قد انفردت بها من دون سائر سوَر القرآن الكريم، وهي (أعطيناك، الكوثر، وانحر، شانئك، الأبتر)، وتستمدّها أخيراً من التعبيرات التي استقلّت بها عن غيرها من السور، وهي تغطّي في الحقيقة التعبيرات الثلاثة التي تقوم عليها السورة (أعطيناك الكوثر، صلِّ لربّك وانحر، شانئك هو الأبتر).

ولكنّ أهمّ ما يميّز السورة أنّها، من بين السور التي درسناها حتّى الآن، أوّل سورةٍ يظهر فيها ضمير المتكلّم (أو المتكلّمِين) العائد على الجلالة الإلهيّة. لقد كان الضمير الإلهيّ في السوَر التي درسناها حتّى الآن:

أ- إمّا مختفياً خلف أفعال أمرٍ صادرةٍ عن مجهولٍ لم يُذكَر أبداً في السياق: ﴿قُلْ أَعُوذُ ...﴾ ﴿قُلْ هُوَ ...﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ...﴾

ب- وإمّا مضمراً تحت صيغةٍ حياديّةٍ/ غائبةٍ تتحدّث "عنه"، أي عن شخصيّة المتكلّم "هو" من غير أن يكون الضمير ظاهراً بنفسه، ولا مقدّراً إعرابيّاً: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ...﴾ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ...﴾ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ...﴾ ﴿رَبِّ ٱلنَّاسِ ...﴾ ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ...﴾ ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ...﴾ ﴿رَبِّ ٱلْفَلَقِ ...﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ...﴾

ت- أو ضميراً مفرداً غائباً صريحاً (هو)، ظاهراً أو مقدّراً إعرابيّاً، لا يلفّه ثوب الحياد كما يلفّ الآيات السابقة: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ...﴾ ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ...﴾ ﴿لَمْ يَلِدْ ...﴾ ﴿وَلَمْ يُولَدْ ...﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا ...﴾ ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ...﴾

وكثيراً ما يتوارى الضمير الإلهيّ في القرآن الكريم خلف أساليبَ بلاغيّةٍ ونحويّةٍ متعدّدةٍ تساعده على الاختفاء. فتأتي صيغة الغائب المطاوِعة الحياديّة المجرّدة ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾ بدلاً من صيغة المتكلّم الصريحة (سأُصليه ناراً)، أو تحلّ صيغة الحال الحياديّة المجهولةُ العامل ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾، ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ محلّ صيغة الفاعل الحقيقيّ (سأجعلها تحمل الحطب، سأجعل في جيدها حبلاً من مَسَد)، أو تحلّ صيغة المبنيّ للمجهول الذي توارَى فاعلُه ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾، ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، كما سوف يمرّ بنا في السوَر القادمة، محلّ المبنيّ للمعلوم الذي يظهر فيه الفاعل عادةً بوضوح (سأنبُذُه في الحُطَمَة، سأسأُلكم يومَئذٍ عن النعيم ..).

وسنعرف أنّ الضمير الإلهيّ للمتكلّم في القرآن يميل غالباً إلى الظهور، حين يظهر، في صيغة ضمير الجماعة ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ والأقلّ من ذلك بكثيرٍ أن يظهر في صيغة ضمير المفرد. وعلينا أن ننتظر طويلاً، لو كان لبحثِنا أن يمتدَّ في أعماق هذا الجزء الثلاثين من القرآن، قبل أن نصل إلى سورة (الفجر) ليفاجئنا هناك أوّلُ ضميرِ متكلّمٍ إلهيٍّ مفرد ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾. أما

ضمير الغائب العائد عليه تعالى فلا يكون في القرآن إلاّ مفرداً (هو) ولا يمكن أن يأتي في صيغة الجماعة (هم).

ومن الواضح أنّ ضمير المتكلّم المفرد الصادر عن الله تعالى (أنا) يتميّز بحميميّةٍ خاصّة، فنحسّ معه أنّنا أكثر قرباً إلى المتكلّم (الله)، ولذلك يغلب أن نجده في الآيات الأكثر تعبيراً عن عمق العلاقة الخاصّة بين الله وعبده، كما في الآيات:

- ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦]

- ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحِجْر: ٤٩ – ٥٠]

- ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: ١٢]

- ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزُمَر: ٥٣]

- ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧ – ٣١]

إنّ موضوع الضمير العائد عليه تعالى في القرآن الكريم موضوعٌ شائقٌ وشائكٌ حقّاً، ويجدر بالدارسين إفراده في بحثٍ مستقلٍّ. ومن المهمّ هنا أن نذكر حقيقةً غريبةً تتعلّق بلغة الكتب السماويّة الثلاثة، وهي اقتصار استخدام صيغة جماعة المتكلّمين (إنّا، نحن) على لغة القرآن الكريم وحده للتعبير عن ذاته تعالى دون العهدين القديم أو الجديد، ولو ألممنا إلمامةً متأنّيةً ومتفحّصةً للغة التوراة والإنجيل لوجدناها تقتصر فيهما على صيغة المتكلّم المفرد وحدها دون ضمير الجماعة للتعبير عن الذات الإلهيّة (إنّي، أنا).

أوَّلاً: الألفاظ والمصطلحات

فصّلنا في الجزء الأوّل من هذا البحث الحديث عن قيمة اللفظ الجديد عند الأوائل، وكيف أسبغ العرب على بعض شعرائهم ألقاباً اتّخذوها لهم من لفظٍ واحدٍ غريبٍ أتى به هؤلاء الشعراء في شعرهم، ولا سيّما إذا وقع هذا اللفظ موقعه في العقول والقلوب، وسار على ألسنة الناس.

إنّ هذا يساعدنا على أن نفهم بشكلٍ أوضح موقفَ العربيّ وهو يفاجأ بثلاثة ألفاظٍ تحمل معاني جديدةً تحتشد كلّها في سورةٍ صغيرةٍ كهذه مؤلّفةٍ من عشر كلمات:

١- الكوثر:

لم أجد هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ أبداً، ويؤكّد ذلك ما وقع من خلافٍ كبيرٍ بين المفسّرين حول معناه.

وقد ذهب أكثرهم إلى أنه نهرٌ في الجنّة يتشعّب منه جميع أنهارها، وقيل إنه الحوض الذي يدعو الرسول ﷺ المسلمين للشّرب منه يوم القيامة، وقيل هو القرآن، أو النبوّة، أو كثرة الذرّية، أو الخير الكثير (فاللفظ مشتقٌّ من الكثرة).

وذكر القرطبيّ له ستّة عشر معنىً، ووصل بعضهم بهذه المعاني إلى ستّةٍ وعشرين.

ويقتصر ورود اللفظ على هذه السورة وحدها دون غيرها في القرآن الكريم.

٢- وانحر:

ذكر له المفسّرون أكثر من معنى، ومعظم هذه المعاني يدلّ على جِدّة استعمال اللفظ وقرآنيَّةِ.

فعلى رأس المعاني أنّه دعوةٌ لأداء صلاة النحر، أي عيد الأضحى، وهو أمرٌ لم يعرفه العرب قبل الإسلام طبعاً.

ومن معانيه وضع اليد اليمنى فوق اليسرى على النحر؛ أي الصدر، أثناء الصلاة، وهو أيضاً أمرٌ غير معروفٍ قبل فرض الصلاة على المسلمين.

وقيل إنه رفع اليدين إلى مستوى النحر عند كلّ تكبيرةٍ في الصلاة. كما قيل إنه الذبح يوم العيد، فكأنّها في هذه الحال دعوةٌ إلى ذكر الله عند ذبح الأضحية، أي: فصَلِّ وانحر لي وليس لغيري كما كان يفعل المشركون، أو هي دعوةٌ إلى ذبح الأضحية أو النُسُك بعد صلاة العيد لا قبله، وقيل أيضاً إنها دعوةٌ للتوجّه بالنحر نحو القِبلة في الصلاة.

والغريب أنّنا لا نعثر على هذا الفعل مرةً أخرى في القرآن، ولا على أيٍّ من مشتقّاته، فهو أيضاً من خصوصيّات هذه السورة.

٣- الأبتر:

نجد هذا اللفظ مرّةً واحدةً في الشعر الجاهليّ، ولكن في غير المعنى القرآنيّ، لأنه هناك وصفٌ للسيف (القاطع) وهو في بيت عنترة (ت ٢٢ ق.هـ):

فشككتُ هذا بالقنا وعلوتُ ذا   معَ ذاكَ بالذَكَرِ الحُسامِ الأبترِ

أما في القرآن فهو، تبعاً لأكثر المفسّرين، الذي لا عقِب له، أي سلالة. ولكن من معانيها أيضاً الحقير والذليل والمنقطع من الخير والمقطوع الذنَب.

وقد قال أناسٌ من قريش (ذُكر أنه العاص بن وائل السهميّ) حين توفّي ولدا الرسول ﷺ واحداً بعد آخر: إنّ محمداً صُنبورٌ، أي مقطوعٌ من النسل ولا ولد له، فإذا مات انقطع ذِكره، فأنكر الله عليهم ذلك بهذه السورة.

ومرّةً أخرى يقتصر ورود هذا اللفظ على سورة (الكوثر) فهو أحد عناصر هويّتها اللغويّة أيضاً. ولا يرِد اللفظ في الحديث الشريف إلاّ في معنىً آخر بعيدٍ عن المعنى القرآنيّ، وذلك في وصف بعض أنواع الحيّات: "اقتلوا الحيّات وذا الطفيتين والأبتر فإنّهما يستسقطان الحَبَل ويلتمسان البصر".[١]

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٧٥٢، حديث رقم: ٢٢٣٣.

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- إنّا أعطيناك:

من السهل أن نعثر في الشعر الجاهليّ على أبياتٍ تبدأ بالضمير (إنّا) الذي بدأت به الآية، كبيت النابغة الذبياني (ت١٨ ق.هـ):

إنّـا اقتسـمنا خطّتينـا بيننـا فحملـتُ بَـرَّةَ واحتملـتَ فَجارِ

ولكن من الواضح أنّ النابغة أراد نفسه بضمير الجماعة (إنّا) مع شخصٍ آخر ينافسه، وليس شخصه وحده. فهذه الأبيات الجاهليّة، على قلّتها، لم تعرف الابتداء بضمير جمع المتكلّمين المقصود به صيغة المفرد.

ربما اعتاد الملوك في ذلك العصر أن يتحدّثوا عن أنفسهم بصيغة الجمع، ولكنّ هذا النوع من الحديث، لو ورد، فسيرِد في قراراتٍ أو توصياتٍ أو إعلاناتٍ ملكيِّة ليس غير، وهو عادةً صيغةٌ ترمز إلى مجموع الأمة التي يمثلها ذلك الملك، كمثل قولنا:

نحن كسرى عظيمَ الفرس نأمر بما يلي..

على حين جاءت الجملة القرآنيّة، شأن كثير من الآيات المشابهة، إخباريّةً إعلاميّةً، لا طلبيّة، صادرةً عن واحدٍ أحدٍ لا شريك له.

٢- إنّا أعطيناك الكوثر:

ضعوا أنفسكم الآن مكان عُتبة بن ربيعة، بليغِ قومه، وقد أرسلوه ليسمع من محمّد ﷺ ثمّ يعود إليهم بتقريرٍ عن هذا "الحديث" الذي "يدّعي" محمّدٌ أنّه يتنزّل عليه من السماء. لقد عاد عُتبة وقد سمع من الرسول ﷺ الآيات الثلاث عشرة الأولى من سورة (فُصِّلت) ليقول لقومه: "والله ما فهمتُ شيئاً ممّا قال إلاّ ذِكرَ الصاعقة"!!

هل أنتم متأكّدون أنّكم نجحتم الآن في تلبّس حالته وتصوُّرِ أنفسكم في مكانه وفي زمانه؟ حسناً، فماذا تفهمون لو سمعتم هذه الآية بآذانكم من محمّدٍ ﷺ وأنتم لا عِلمَ لكم بعدُ بالقرآن ولا بالإسلام؟

لا شكّ أنّكم ستتساءلون: مَن المتكلّم في (إنّا)؟ ومَن المخاطَب في (أعطيناكَ)؟ أو بالأحرى: مَن المعطي؟ ومَن المعطَى؟ وما طبيعة هذا النوع من العطاء؟ وما هذا "الكوثر"؟ إنّها تساؤلاتٌ كافيةٌ لتجعل من هذه الآية أمراً محيراً للعربيّ الذي يسمعها لأوّل مرة.

تصوّروا علامات الاستفهام التي سترتسم على وجوهكم لو استمعتم إلى المذياع ذات يوم وهو يقطع الأخبار فجأةً، ليبثّ هذه الرسالة القصيرة ومن دون أيّ تعليقٍ: (نحنُ سنبعث إليكَ بقَوْلَلٍ)؟ -لا تظنّوا أنّني أخطأت بالكتابة، فهي (قَوْلَل)-. ألن تقولوا في أنفسكم: من هذا الذي سيَبعث بالقَوْلَل؟ ومن ذلك الذي سيُبعث إليه القَوْلَل؟ ثمّ ما هذا (القَوْلَل) الذي سيُبعَث به؟ -طبعاً هي كلمةٌ صغتُها من (القليل) كما صيغ لفظ (الكوثر) من (الكثير)-.

وهل لاحظتم أنّني استخدمت في جملتي فعلاً مضارعاً، وليس ماضياً كما جاء في الآية (أعطيناك)، فلو أنّني قلت (بعثنا) لكانت حيرتكم أكثر وأشدّ: فأين هذا "الشيء" الذي "بُعِث به" إذا كان قد بُعث به حقّاً؟ ومع من بعثوه؟ ولمن سلّموه؟

لقد كان هذا، ولا شكّ، شأن الذين سمعوا الآية من العرب لأوّل مرّة، أفلا تظنّون معي أنّهم تساءلوا كما تساءلتم: وأين هذا (الكوثر) الذي (أُعطي)؟ وما طبيعته؟ ومَن أعطاه؟ ولمن أُعطي؟!

٣- فصلّ لربّك:

على ندرة ورود الفعل (صلّى) ومشتقّاته في الشعر الجاهليّ، فإنّ الاستعمال القرآنيّ له في هذه الآية يختلف عن استعمال العرب له في الجاهليّة، على ندرته، ليس في المعنى فحسب، بل في السياق اللغويّ أيضاً.

فالصلاة عندهم تكون "على شيء" وليس "لشيء" كقول الأعشى في الخمرة (ت٧هـ):

وقابَلَها الريحَ في دَنّها وصلّى على دَنِّها وارتسمْ

وقوله:

لها حارسٌ ما يَبرحُ، الدهرَ، بيتَها إذا ذُبِحت صلّى عليها وزمزما

بل إنّ الاستعمال القرآنيّ للفعل يختلف في هذه السورة عن استعماله في السور الأخرى. فمن أصل اثني عشر فعلاً في القرآن تكتفي ستّة أفعالٍ بنفسها فلا تتعدّى إلى شيء، كما في قوله تعالى:

- ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [آل عمران: ٣٩]
- ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣١]

على حين تتعدّى خمسة أفعالٍ بالأداة (على) كقوله تعالى:

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]
- ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤]

أمّا في هذه السورة، وفي هذه السورة وحدها، فيتعدّى الفعل باللام، وهو رصيدٌ آخر يضاف إلى قائمة ما اختُصّت به سورة (الكوثر) دون باقي سور القرآن الكريم من خصائص لغويّة.

٤- فصلِّ لربِّكَ وانحَر:

وسوف تتساءلون هنا أيضاً، كما تساءل الأوائل: وأيّة صلاةٍ هذه؟ ومَن المخاطِبُ هنا، ومَن المخاطَب؟ وما هذا "النحر" الذي يتحدّث عنه؟ ولماذا يقترن بالصلاة؟

حتى بعد مرور ألفٍ وأربعمائة عامٍ على نزول القرآن الكريم، أكاد ألمح الآن في وجوه بعضكم تلك التساؤلات نفسَها، أو بعضَها على الأقلّ، ولا سيّما أولئك الذين قلّ أن عادوا إلى التفاسير لمعرفة أقوال العلماء والمفسّرين في أمثال هذه الآيات. فكيف إذن بذلك العربيّ الذي فوجئ بسماع القرآن في فترة تنزّله، وللمرّة الأولى في حياته، مهما عدّ نفسه، أو عدّه الآخرون، من البلغاء؟!

٥- إنّا . . فصلِّ لربِّك:

لقد بدأ الحديث في الآية الأولى موجَّهاً من الله تعالى، وبصيغة جمع المتكلّمين (إنّا)، وهو أمرٌ يتكرّر كثيراً في القرآن الكريم، بل إنّ هذه الصيغة الجمعيّة هي، كما ذكرنا، الأكثر في كتاب الله عندما يتحدّث تعالى عن ذاته.

ولكنّ الحديث يتحوّل فجأةً وبسرعةٍ في الآية التالية ليصبح كلامه تعالى عن نفسه في صيغة الغائب المفرد هذه المرّة: فصلِّ لربّك (أي: له هو) بعد أن توقّع المرء، وقد سمع في الآية الأولى:(إنّا)، أن يسمع في الآية التالية: فصلِّ (لنا) أو ربّما (لي).

إنّه نوعٌ أخّاذٌ من الالتفات، ما نزال نحسّ بغرابته إلى اليوم، وقد فاجأ القرآن به العرب الذين لم يعرفوا هذا الفنّ البلاغيّ من قبل، كما سبق أن أكّدنا في حديثنا عن (فنّ الالتفات) في الجزء الأوّل من البحث.

وسيصبح هذا الأسلوب أحد أهمّ السمات اللغويّة والبيانيّة للقرآن الكريم.

٦- إنّ شانئك هو الأبتر:

مرةً أخرى تتكرّر هذه الظاهرة القرآنيّة البارزة التي تتخلّى فيها الآية عن أيّ رابطٍ لغويٍّ يربطها بالآية التي سبقتها. وعلى رأس الروابط التى نبحث عنها هنا ونفتقدها طبعاً: الواو والفاء، ومن شأن القارئ العاديّ لهذه السورة أن يتوقّع أن تبدأ الآية هكذا: (فإنّ شانئك).

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

أرى أنّ عليّ أن أعود للتذكير، بين الحين والآخر، بما قصدت بـ "السبائك اللغويّة" وقد جعلتُها أحد خمسة عناصر من جوانب التجديد الإعجازيّ في لغة القرآن الكريم.

لقد سبق أن تأكّدنا من سهولة تمييز لغة القرآن الكريم عن لغة البشر على أيّ متكلّم للعربيّة، حتى إن لم يكن هذا المتكلّم من الضالعين فيها، أو لو يكن ممّن قرأوا القرآن بأكمله، فما أسرع ما يميّز الإنسانُ العاديّ الجملةَ القرآنيّة لو خلطناها له بين عشرات الجمل البشريّة.

إنّ عمَلَنا في هذا الجانب هو كشف العلاقات اللغويّة التي تؤلّف بين مختلف عناصر العبارة، فيكون منها سبيكةٌ لغويّةٌ كاملةٌ، هي بمثابة لبِنةٍ في البناء اللغويّ العامّ، تتبعها سبيكةٌ أخرى وأخرى، حتى تتمّ الآية أو السُورة.

ومن السهل علينا أن نضع أيدينا في سورة (الكوثر) على سبائك قرآنيّةٍ ثلاث، وهي تشكّل في الحقيقة مجموع الآيات الثلاث للسّورة:

١- إنّا أعطيناك الكوثر:

هذا البناء اللغويّ ستميّزه الأذن التي تمرّست بلغة القرآن الكريم، بالسهولة نفسها التي تميّز بها أبنيةً لغويّةً قرآنيّةً أخرى قريبةً من هذا البناء، مع اختلافٍ طفيفٍ هنا أو هناك. وحاولوا أن تميّزوا معي بين هذه السبيكة والسبائك القرآنيّة الخمس التالية:

- ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢]
- ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]
- ﴿ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ ﴾ [ص: ١٨]

- ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ [الفتح: ١]

- ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الإنسان: ٣]

طبعاً تشترك هذه الحالات مع آية (الكوثر) بأنّها تبدأ جميعاً بـ (إنّا) ويتلوها دائماً فعلٌ ماضٍ بصيغة المتكلّمين (نحن)، ثم تأتي بعد ذلك الاختلافات، الطفيفة ولكن الدقيقة، التي أصبح بإمكان معظمنا الآن تمييزها بسهولة. حاولوا أن تحلّلوا الآيات وتتأكّدوا من هذا بأنفسكم هذه المرّة، وسوف تتبيّنون كيف حافظت آية (الكوثر) على شخصيّتها واستقلاليّتها حتّى عن السبائك القرآنيّة القريبة منها.

٢- فصلِّ لربِّكَ وانحر:

إنّ اجتماع فعلَيْ أمرٍ في جملةٍ واحدة أمرٌ مألوفٌ في اللغة، ولكنّ غير المألوف هو مجيء أحد الفعلين لازماً لا يحتاج إلى مفعولٍ (فصلِّ) مع إلحاقه، رغم ذلك، بشبه جملة (لربّك)، ومجيء الثاني (انحر) متعدّياً، ولكن مع تجريده من مفعوله، أو أيّ ملحَقاتٍ يمكن أن تلحق به، ليصبح شكله بذلك شكل الفعل اللازم.

لقد اعتدنا إلحاق هذا الفعل الأخير بمفعوله الذي يمكن أن يكون (الذبيحة، أو الأضحية) أو غير ذلك، ولكنّه، على غير المتوقّع، تجرّد هنا من أيٍّ منهما. إنّ أقرب الآيات في ذهني لهذه الآية قوله تعالى:

- ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي ﴾ [آل عمران: ٤٣]

- ﴿ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ ﴾ [النجم: ٦٢]

- ﴿ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]

فيتوالى في كلٍّ من الآيات الثلاث أكثر من فعل أمرٍ واحد، ومعظم هذه الأفعال لازم، باستثناء فعلٍ متعدٍّ واحدٍ على الأقلّ (واعبدوا)، ولكنّه تجرّد مع ذلك من مفعوله، فأصبح مُناظراً وقريباً في طبيعته للفعل اللازم قبله (فاسجدوا).

ورغم هذا التقارب فمن الواضح أنّ لكلٍّ من الآيات الأربع خصوصيّتها وسبكها المختلف عن الآيات الأخرى، ممّا يؤكّد شخصيّة آية (الكوثر) واستقلالها اللغويّ حتّى عن السبائك القرآنيّة القريبة منها، التي استقلّت كلٌّ منها بشخصيّتها أيضاً.

٣- إنّ شانئَك هو الأبتر:

سبيكةٌ قرآنيّةٌ متفرّدةٌ أخرى نستطيع تمييزها، ببنائها الإيقاعيّ الخاصّ: (إنّ عاملك هو الأعمل) عن أيّة سبيكةٍ أخرى غير قرآنيّة.

فاسم (إنّ) جاء على صيغة اسم الفاعل (شانئ) المضاف إلى ضمير المخاطب (شانئَك) ويتلوه ضمير الفصل أو التأكيد (هو)، ثم الخبر، وقد جاء اسمَ تفضيلٍ على وزن (أفعَل) مرتبطاً بال التعريف (الأبتر).

واجتماع هذه الصفات في جملةٍ واحدةٍ يجعل منها سبيكةً قرآنيّةً يمكن تمييزها بسهولةٍ حتى عن السبائك القرآنيّة الأخرى القريبة منها. لاحظوا اختلافها، مثلاً، عن الآية التالية:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩]

فالآيتان، رغم اتفاقهما في عددٍ من الخصائص، تختلفان في أنّ اسم (إنّ) في الثانية لم يكن اسم فاعلٍ، والخبر لم يرتبط، كما حصل في الأولى، بـ "ال" التعريف، رغم مجيئه اسماً للتفضيل (أعلَم)، كما أنّه تعدّى إلى غيره (بالمعتدين) على حين انقطع (الأبتر) عن الإضافة أو التعدية. وبهذا تحتفظ آية (الكوثر) بشخصيّتها اللغويّة مستقلّةً عن غيرها من السبائك.

رابعاً: مواقع منفتحة

١- الكوثر:

إنّ المعاني الكثيرة التي اقترحها علماء اللغة والمفسّرون لهذا اللفظ، كما رأينا، والأحاديث الشريفة التي وردت فيه، والغنى الإيحائيّ الذي يكتسبه اللفظ من كلّ ذلك، يمنحه الأبعاد والشفافية التي تؤكّد صفته الانفتاحيّة.

٢- وانحَر:

هذا اللفظ -كما رأينا في حديثنا عن الألفاظ والمصطلحات- لا يقلّ عن اللفظ السابق غنىً وإيحائيّةً وتعدّداً في المعاني التي اقترحوها له.

خامساً: جوامع الكَلِم

إنّ شانئَك هو الأبتر:

من الحقّ أنّ هذه الآية جاءت ردّاً على المشركين والمنافقين الذين راحوا يتقوّلون الأقاويل على الرسول ﷺ، ويعيّرونه بانقطاع نسله من البنين.

ولكنّ صياغة الآية تمنحها خصائص الأمثال أو العبارات السائرة، فيمكن أن نستشهد بها في أيّ موقفٍ يَتّهم فيه مسيءٌ محسناً حين يكون المسيء أولى بهذه التهمة، فنقول للمحسن مطَمْئنين: لا تبالِ، إنّ شانئكَ هو الأبتر.

السورة التاسعة

الماعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾

هذه هي السورة الثامنة في الترتيب التراجعي لسور القرآن الكريم، وهي مؤلّفةٌ من ٢٥ لفظاً، ويصل فيها عدد المواقع اللغويّة التي فاجأ القرآن بها العرب إلى ٣٦ موقعاً.

وتتبدّى الشخصيّة اللغويّة للسورة في لفظ (الماعون) الذي أُطلق اسماً لها، والذي لا نجده في أيّ مكانٍ آخر من القرآن الكريم، وتتبدّى كذلك في التراكيب والتعبيرات التي تستقلّ بها عن غيرها فلا تتكرّر في غيرها من السوَر (يكذّب بالدّين، يدعّ اليتيم، فذلك الذي، ويلٌ للمصلّين، عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤون، يمنعون الماعون).

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١ – أرأيت:

رغم ورود هذا الاستعمال مرةً واحدة على الأقلّ في الشعر الجاهليّ نجده وقد اتّخذ مجرىً آخر في القرآن أكثر تنوّعاً. ولْنقارن بين الاستعمال القرآنيّ لهذا الفعل واستعمال النابغة الذبيانيّ (ت١٨ ق.هـ):

أرأيتَ يومَ عُكاظَ حينَ لقِيتَني تحتَ العَجاجِ فما شَقَقتَ غُباري

فمن الواضح أنّ المعنى في البيت لا يتجاوز استحضار الرؤيا، فكأنّه يقول: أتذكُر؟

ولكنّه في القرآن يتّسع، ليستوعب معاني جديدةً مختلفة. إنّه في معظم الاستعمالات القرآنيّة يشير بوضوح إلى معاني (الاعتبار) و (التأمّل) و (التفكير) أكثر منه إلى مجرّد (الرؤية) أو (التّذكّر)، ولذلك فإنّه يشير إلى ما لم يقع بعد، على عكس ما في بيت النابغة من إشارةٍ إلى حدثٍ وقع وانتهى، ولذلك يرتبط في القرآن غالباً بشرطٍ يأتي بعده، كما في قوله تعالى:

- ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٠]

- ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٢٠٦) ﴾ [الشعراء: ٢٠٤ ـ ٢٠٦]

- ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ (١١) أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ (١٢) ﴾ [العلق: ١١-١٢]

لقد ارتبط في المواقع القرآنيّة الثلاثة بأداة الشرط (إنْ) وهي مختصّةٌ بالمستقبل، وكان في الموقعين الأوّل والثاني أقرب إلى معنى (ماذا سيحدث؟) أو (ماذا لو حصل؟) وفي الموقع الثالث أقرب إلى معنى (هل يمكن أن يكون؟) من غير أن يعني هذا حصر التعبيرات القرآنيّة في هذه المعاني، فالصياغة القرآنيّة

المتداخلة والمتنوّعة لهذا الفعل كما نرى: (أرأيتَكم، أفرأيتَ، أرأيتَ إنْ) تضفي عليه ظلالاً وأبعاداً غنيّةً أوسع من أن يحيط بها معنىً محدّدٌ واحد.

ويختلف استعمال الفعل في هذه السورة عن جميع الآيات التي استشهدنا بها، فقد تعدّى فيها صراحةً إلى مفعولٍ به (الذي)، ولم يرتبط بحرف شرطٍ بعده، ثم إنّه جاء فيها بمعنى: أتُميّز، أو: أتُدرك؟ أو: أتعْرف؟ ممّا يزيد هذا الاستعمال القرآنيّ في السورة خصوصيّةً واستقلاليّةً.

٢- يَدُعّ:

لا نجد هذا اللفظ في التراث الجاهليّ، لا بالمعنى القرآنيّ ولا بغيره، لذلك وجد المفسّرون أنفسهم مدفوعين إلى اقتراح أكثر من معنىً له، فهو، من خلال الحالات الأربع التي ورد بها في القرآن الكريم، يحمل غالباً معنى الدفع بعنفٍ وغِلظة، وهذا واضحٌ بشكلٍ خاصّ في قوله تعالى:

- ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [الطور: ١٣]

أي تدفعهم الملائكة دفعاً شديداً خشناً. ومع ذلك فقد حمّلوا الفعل في سورة (الماعون) معنىً إضافيّاً هو معنى القهر والظلم ومنع اليتيم من الوصول إلى حقّه.

ولا وجود لهذا اللفظ في الحديث الشريف.

٣ – طعام:

أينما ورد هذا اللفظ في كلامنا فإنّه يعني ما نأكله، حتى إن قلنا: حلّ وقت الطعام، فإنّما نعني: وقت تناول الطعام. ولكنّه في هذه السورة، وفي آيتين مشابهتين من سورتَي (الحاقّة) و (الفجر)، يحمل معنىً جديداً خاصّاً بالقرآن الكريم هو الإطعام، وليس الطعامَ نفسَه، رغم وروده ٢١ مرةً في سوَرٍ أخرى بالمعنى المعتاد، أي الاسم وليس المصدر.

ولا وجود لهذا الاستعمال في الحديث الشريف، وإنّما هو هناك (إطعامٌ) فحسب، كما في قوله ﷺ لمن سأله عن كفّارة الجماع في رمضان "فهل تجد إطعامَ ستّين مسكيناً؟"[1]

٤- المصلّين:

مرّ بنا في سورة (الكوثر) كيف حمل الفعل (صلّى) معنىً إسلاميّاً جديداً مختلفاً عن المعنى الجاهليّ له، وهكذا سائر مشتقّات هذا الفعل في القرآن الكريم.

٥- ويلٌ:

يرِد هذا اللفظ التحذيريّ في الشعر الجاهليّ مضافاً على الأغلب إلى اسمٍ يليه. ومن ذلك قول الحارث بن عبّاد (ت ٧٤ ق.هـ):

ياويلَ أمِّكمُ مِن جَمْعِ سادتِنـــا   كتائباً كالرُبى والقَطرُ ينسكبُ

وقول عَبِيد بن الأبرص (ت٢٥ ق.هـ):

وَيْلُمِّهـــاصاحبـــاًيُصاحبُهــــا   مُعتسِفُ الأرضِ مُقفِرٌ جَهَــلُ

ونجده متعدّياً باللام في بيتين فحسب:

له الويلُ إن أمسَى ولا أمُّ هاشمٍ   قريبٌ، ولا البَسباسةُ ابنةُ يشكُرا

امرؤ القيس (ت٨٠ ق.هـ)

ويـــــلٌ لشيبـــانَ إذاصبّحتُـهــــا   وأرسلـتْ بِيضُ الظُبا شعاعَها

عنترة (ت٢٢ ق.هـ)

ورغم أنّه يتكرّر في القرآن ٢٧ مرةً فإنّه لا يرد إلاّ متعدّياً بهذه اللام، فإذا تجرّد منها كان لا بدّ أن يُضاف إلى ضمير، وتتكرّر هذه الحالة الأخيرة ١٣ مرّةً في القرآن الكريم، وإن خلا منها الشعر الجاهليّ تماماً، كما في الآيات:

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٨٤، حديث رقم ١٨٣٤.

- ﴿ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾ [المائدة: ٣١]
- ﴿ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ ﴾ [الكهف: ٤٩]
- ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ ﴾ [الأحقاف: ١٧]
- ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [طه: ٦١]
- ﴿ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ﴾ [يس: ٥٢]

وعلى أهمّية هذا التميّز للّفظ القرآني، وغزارةِ تكراره، فإنّه يكتسب جدّته من حقيقة أنّ أكثر المفسّرين يذهبون إلى أنّ (ويل) المتعدّي باللام في القرآن هو (ويلٌ) خاصٌّ ومختلف، لأنّه هنا ليس مجرّد لفظٍ تحذيريٍّ كأخيه الذي يأتي مضافاً، وإنّما هو مصطلحٌ إسلاميٌّ جديدٌ يشير إلى "وادٍ في جهنّم يسيل من صديد أهلها" وهم يعتمدون في هذا التفسير على بعض الأحاديث النبويّة الشريفة.

٦- صَلاتهم:

ينطبق على هذا اللفظ ما انطبق على لفظ (المصلّين) فيما يحمله من معنىً جديد.

٧- ساهُون:

لم أجد هذا اللفظ أو مشتقّاته في الشعر الجاهليّ بمعناه القرآنيّ؛ أي: الغافلون، أو غير المبالين، أو المهملون للصلاة، أو المؤخّرون لها عن وقتها. وأقدم شاهدٍ له وجدته عند شاعرٍ مخضرمٍ هو تميم بن أبيّ (ت٣٧هـ)، ولكنّه جاء في معنىً مختلف:

هَيْفٌ هَدوجُ الضحى سَهْوٌ مَناكِبُها ... يكسو بها بالعَشيّاتِ العَثانينا

ولا نجد اللفظ بهذه الصيغة في الحديث الشريف إلاّ في معرض شرح الآية: "سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: عن الذين هم عن صلاتهم ساهون؟ قال: إضاعة الوقت".[1]

---

(١) البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**، مرجع سابق، ج٢، ص٢١٤، حديث رقم ٢٩٨٣.

٨- يراؤون:

أقدم شاهدٍ لهذا اللفظ في الشعر العربيّ نعثر عليه لدى شاعرٍ مخضرمٍ آخر هو الأعشى (ت٧هـ). ولكنّ اللفظ عنده لا يتجاوز معنى (الإظهار) أو (الإعلان)، وهو يتحدّث عن دعواه ودعوى صديقه الذي يخاصمه، بأنّهما معاً على حقّ:

أراني وعَمْراً بيننا دَقُّ مَنشِمِ ... فلم يبقَ إلاّ أن أُجَنَّ ويَكلَبا
كِلانا يُرائي أنّه غيرُ ظالمٍ ... فأعزبْتُ حِلمي، أوهو اليومَ أعزَبا

وواضحٌ أنّ اللفظ القرآنيّ يعني مَن يُظهر شيئاً ويُبطن غيره، وهو النفاق وعدم الخشوع في الصلاة وعدم ابتغاء مرضاة الله في العمل، هذا مع خصوصيّة علاقة اللفظ بما حوله، فهو لم يتعدَّ إلى شيءٍ بعده، على حين تعدّى في بيت الأعشى إلى المصدر المؤوّل (أنّه غير ظالمٍ). وفي الحديث "مَن يرائي يُرائي اللهُ به".[1]

٩- الماعون:

نجد هذا اللفظ مرةً أو مرّتين في الشعر الجاهليّ/ المخضرم، ولكن بمعنى (المطر). ويستخدمه الأعشى (ت٧هـ) حين يمدح قيس بن مَعْدِيكَرِب، فيشبّه عطاءه بالمطر، ويقول إنّ الفرات ليس بأجود من مطره أو عطائه حين يقلّ الغيث وتختفي الغيوم من السماء:

بأجوَدَ منه بماعونِهِ ... إذا ما سماؤهُمُ لم تَغِمْ

كما نجد اللفظ في بيتٍ لشاعرٍ مجهولٍ يستشهد به ابن منظور[2]، ويصف فيه الشاعر هطول المطر الغزير من السحاب الأبيض (الصبير) عندما تهبّ عليه ريح الجنوب الحارّة (الهَيف):

يمجُّ صبيرُهُ الماعونَ مَجّاً ... إذا نَسَمٌ مِن الهَيْفِ اعتراهُ

---

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج١٧، ص٤٥٣، حديث رقم ١١٣٥٧.

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط.١، (د. ت.)، ج١٥، ص٣٦٤.

فكأنّما ارتبط لفظ (الماعون) في ذهن العربيّ بالخير، لأنّ المطر والماء عماد حياته وأصل معيشته، فأطلق القرآن هذا اللفظ، لأوّل مرّة، على أيّ نوعٍ من العطاء: الزكاة، الصدقة، الحقّ، الطاعة. ويذهب أهل اللغة إلى أنّه كلّ ما يتعاطاه الناس ويستعيرونه في حياتهم اليوميّة: كالفأس والقِدر والدلو والمنخل والإبرة والقدّاحة والميزان والملح والكلأ والماء.

وقيل إنّ اللفظ جاء من (المَعْن) وهو الشيء القليل، فكأنّ هذه الأشياء من قلّة القيمة بحيث لا يجوز منعها عن الآخرين، كما أنّ الزكاة والصدقة لا يساويان من مال المرء إلاّ قليلاً من كثير.

ويقتصر ورود اللفظ على هذه السورة فلا يتكرّر في غيرها. ولا نجد اللفظ في الحديث الشريف ولكنّه يرِد مرّةً على لسان عبد الله بن مسعود ﵁ يشرح اللفظ القرآنيّ: "كنّا نَعدّ الماعونَ على عهد رسول الله ﷺ عاريةً؛ الدَّلْو، والقِدْر".[1]

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- أرأيت الذي:

إنّها السورة الوحيدة في القرآن التي تبدأ بهذه البداية، بل هي العمل الأدبيّ الوحيد الذي يُفتتح في التراث العربيّ بهذا النوع من التساؤل التقريريّ.

وقد اختلف فيه المفسّرون: أهو فعلٌ بصريٌّ بمعنى الرؤية الحقيقيّة، وإذن فلا يحتاج إلى مفعولٍ ثانٍ وقد استوفى حقّه بوجود مفعوله (الذي)؟ أم هو فعلٌ قلبيٌّ (أي بمعنى: ظنّ) يحتاج إلى مفعولين، ولا بدّ إذن من تقدير مفعولٍ ثانٍ له لم يظهر في السورة، أي: (أرأيتَه مَن هو؟)

ويتكرّر هذا التعبير في القرآن ثلاث مرّات، رغم أن الفعل (أرأيت) يتكرّر بهذا المعنى، ولكن في غير هذا الاستعمال، ١٣ مرّة، هكذا في صيغة المفرد، و٢١ مرّةً في صيغة الجمع (أرأيتم).

(١) البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٣، حديث رقم ٧٥٧٨.

٢- يكذّب بـ:

لم نتوقّف عند هذا الفعل حين تحدّثنا عن ألفاظ السورة؛ إذ لم تَخلُ لغة الشعراء الجاهليّين من مثل هذا اللفظ، كما في قولهم:

فمَنْ يَكُ لم يَلْقَ البيـانَ فإنّه ... سيأتيْه بالأنبـاءِ مَن لا يُكَذِّبُ

بِشْر بن أبي خازم (ت٢٢ ق.ه)

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصطادُ الرّجالَ إذا ... ما كَذَّبَ الليثُ عن أقرانِهِ صَدَقا

زهير بن أبي سُلمى (ت١٣ ق.ه)

ولكنّ ما يجعله أدخَلَ بباب العلاقات منه بباب الألفاظ هو تعدّيه بالباء، وهو استعمالٌ خاصٌّ بالقرآن الكريم لم يعرفه الشعر الجاهليّ.

ولو استقْرينا لغتنا الأدبيّة اليوم، ولغة الأدباء والشعراء على مرّ العصور، قبل القرآن وبعده، لوجدناها تخلو تماماً من هذا النوع من التعدية للفعل، لأنّه يتعدّى بنفسه عادةً من غير الاستعانة بالباء، كما في النماذج التالية:

فلا يُكَذَّبُ مِن ذُبيانَ فاخـرُها ... إذا القبائلُ عَدّت مجدَها الكُبَـرُ

الفرزدق (ت١١٠ه)

تَنِمُّ عليه عَينُهُ، ولســانُهُ ... يُكذِّبُ ما في العينِ، والعينُ أصدقُ

ابن نُباته (ت٤٠٥ه)

فإن تعدّى عندهم بالباء؛ فبتأثّرٍ واضحٍ أو اقتباسٍ من القرآن الكريم، كقول أبي نُواس (ت١٩٨ه):

أرأيتَ الذي يُكـذِّبُ بالديـ ... ـنِ فذاكَ الذي يَدُعُّ اليتيمـا

ومن الواضح من استقرائنا للآيات التي ورد فيها هذا الفعل، متعدّياً فيها بالباء أو غير متعدٍّ، وهي كثيرة، أنّ التعدية بالباء لا تكون مع الذين يُكذَّبون -بفتح الذال- وهم غالباً من الأنبياء والرسل، كما في الآيات:

- ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧٦ ﴾ [الشعراء: ١٧٦]

- ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِىۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [سبأ: ٤٥]

- ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ [القمر: ٩]

وإنّما تقتصر التعدية بالباء على ما يحمله هؤلاء إلى البشر من رسالاتٍ وآياتٍ ونُذُرٍ، كما في قوله تعالى:

- ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٩٥ ﴾ [يونس: ٩٥]

- ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ ﴾ [الإسراء: ٥٩]

وتتوضّح لنا فكرة التعدية، بالباء أو بغيرها، في آيةٍ واحدةٍ اجتمعت فيها الحالتان:

- ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًاۚ ﴾ [الفرقان: ١٩]

فتعدّى الفعل (كذّب) هنا بنفسه إلى مَن يكذّبونه من البشر ﴿ كَذَّبُوكُم ﴾ وتعدّى بالباء إلى أقوال هؤلاء البشر ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾.

٣- يكذّبُ بالدِّين:

تعبيرٌ جديدٌ لا نجده في أيّ مكانٍ آخر من تراثنا، وتنفرد (الماعون) بهذا التعبير؛ فلا يتكرّر في أيّة سورةٍ أخرى.

٤- فذلك الذي:

هذه لغةٌ أضحت تشكّل ظاهرةً في القرآن، وذلك بالاستغناء عن الضمير المنفصل الذي يحتلّ مكانه عادةً في لغتنا ما بين اسم الإشارة واسم الموصول. فنحن نقول:

فذلك هو الذي

فهؤلاء هم الذين

ورغم أنّها ظاهرةٌ لغويّةٌ قرآنيّةٌ، فإنّ هذا التركيب بعينه يقتصر على هذه السّورة فلا يتكرّر في أيّة سورةٍ أخرى.

٥- يدعّ اليتيم:

بغضّ النظر عن جِدّة الفعل (يدعّ)، فإنّ تعديته إلى اليتيم في هذه السورة منحته خصوصيّةً إضافيّة، وكأنّ الدعّ قد أضحى فعلاً خاصّاً باليتيم ومقترناً به. إنّه تعبيرٌ قرآنيٌّ جديد، من ناحية، ثمّ إنّه خاصٌّ بهذه السّورة وحدها فلا يتكرّر في غيرها من السُّوَر، من ناحيةٍ أخرى.

٦- الذين هم:

خلافاً للتقاليد اللغويّة العربيّة في ابتداء الجملة أو العبارة، نجد الآية هنا وقد ابتدأت باسمٍ موصولٍ تابعٍ للفظٍ ورد في آيةٍ سابقةٍ، لأنه صفةٌ له، وهو (المصلّين). إنّها ظاهرةٌ تتكرّر في آياتٍ كثيرة، كما خبِرنا في السّور السابقة، وكما سيمرّ بنا في السُّوَر اللاحقة.

٧- عن صلاتهم ساهون:

إنّ تقديم الخبر على المبتدأ في اللغة العربيّة أمرٌ شائعٌ وعاديّ، ولكنّنا لا نجد قبل القرآن الكريم تقديماً لشبه الجملة الخبر الذي يبدأ بحرف الجرّ (عن) على المبتدأ، بل إنّ هذا النوع من التقديم والتأخير يشكّل ظاهرةً لغويّةً قرآنيّة، فيتكرّر في القرآن ٢٩ مرّةً، فضلاً عن ٣٥ مرّةً أخرى يتقدّم فيها هذا الحرف (عن) أيضاً على العامل فيه، من فعلٍ أو غيره. كما في الآيات:

- ﴿ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٣]
- ﴿ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦]
- ﴿ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٢]
- ﴿ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ٤٩ ﴾ [المدّثر: ٤٩]

وهكذا تقدّم شبه الجملة الخبر ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ على المبتدأ (سَاهُونَ) في آية (الماعون)، أما التعبير البشريّ فيأخذ على الأغلب شكلاً من أشكال هذه الصورة:

هم ساهون عن صلاتهم

وهكذا يكون الأسلوب النبويّ أيضاً، كما في قوله ﷺ:

- ..وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّته[1]

- ..ونهيتكم عن الانتباذ فانتبذوا، وكلُّ مسْكِرٍ حرام، ونهيتُكم عن زيارةِ القبور فزوروها..[2]

- ..اِقبَلوا مِن مُحسِنِهم وتجاوزوا عن مسيئهم[3]

٨- الذين همْ عن صَلاتِهم ساهون:

لو حاولنا التعبير بلغتنا العاديّة عن معنى هذه الآية للجأنا إلى الجملة الفعليّة بدلاً من الاسميّة، فقلنا:

الذين يسهون عن صلاتهم، أو:

الذين يصلّون وهم ساهون

٩- الذين همْ يراؤون:

مرة أخرى تبتدئ الآية باسم موصولٍ تابعٍ للفظٍ ورد في آيةٍ سبقتها، (المصلّين. الذين) وهي ظاهرةٌ قرآنيّةٌ تردّدتْ وستتردّد معنا في آياتٍ كثيرة.

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٣٠٤، حديث رقم ٨٥٣.

(٢) الأصبحي، مالك بن أنس. **موطأ الإمام مالك**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ط.)، (د. ت.)، ج٢، ص٤٨٥.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٣، ص١٣٨٣، حديث رقم ٣٥٨٨.

١٠- الذين همْ يراؤون:

نحن هنا أيضاً أمام الظاهرة القرآنيّة التي مرّت معنا في أكثر من سورة، وهي ظاهرة الاستغناء عن الرابط اللغويّ الذي يربط الجملة بما قبلها، ولو تُرك أمرُ هذه الآية إلى لغتنا البشريّة لقلنا: (والذين).

١١- الذين همْ يراؤون:

شأن هذه الآية كشأن سابقتها ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ﴾ في إثبات الضمير المنفصل بين الاسم الموصول وصِلتِه، وإذا أردنا أن نعبّر بلغتنا عن هذا المعنى استغنينا عن الضمير المنفصل (هم) وقلنا: (الذين يراؤون).

١٢- يمنعون الماعون:

إنّ ما سبق أن قلناه عن تفرّد التعبير القرآنيّ ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ ينطبق على هذا التعبير أيضاً، مع الإشارة إلى أنّ التعبيرين كليهما اقتصرا في القرآن على هذه السُورة وحدها.

ثالثاً: السبائك القرآنية

١- أرأيت الذي يكذّب:

هذه سبيكةٌ قرآنيّةٌ يميّزها الفعل التأمّلي الذي افتُتحت به (أرأيت)، والمتلوّ باسم موصولٍ، ثم بفعل. وتتكرّر السبيكة، هي أو سبائك قريبةٌ إليها، عدة مرّاتٍ في القرآن، كقوله تعالى:

- ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]
- ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ [النجم: ٣٣]
- ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾﴾ [العلق: ٩]

٢- فذلك الذي يدعّ:

يميّز هذه السبيكةَ ابتداؤها بفاء الإفصاح أو الفصيحة، أو الواقعة في جواب شرطٍ مقدّر، والمرتبطة باسم إشارةٍ، فكأنّه أراد: إن لم تعرفه بعدُ، وأردتَ منّي الإفصاح عنه، فهو ذلك الذي..، ويتلوها اسمٌ موصولٌ هو مع صلته (يدعّ) خبرٌ لاسم الإشارة، مع ملاحظة اختفاء الضمير (هو) كما قدّمنا.

٣- الذين هم عن صلاتهم ساهون:

وهي سبيكةٌ أخرى من السبائك التي تتكرّر في القرآن، وتبدأ بالاسم الموصول المبتدأ والخاصّ بجماعة الذكور (الذين)، ويليه الضمير المنفصل، ثم الجار والمجرور المتقدّمان، وقد تعلّقا بالخبر المؤخّر (ساهون).

٤- الذين هم يراؤون:

وهي سبيكةٌ أقلّ تردّداً في القرآن من سابقتها، وتختلف عنها باختفاء الجارّ والمجرور، وإلاّ لكانت (الذين هم في صلاتهم، أو أعمالهم، يراؤون).

رابعاً: مواقع منفتحة

إنّ أهمّ ما يميّز لغة القرآن الكريم عن لغتنا العاديّة، بل عن لغة الشعر أيضاً كما أثبتنا، الغنى الذي يوشّي الكلمات والتعبيرات، بما تحمله من ظلالٍ وألوانٍ واحتمالاتٍ إعرابيّةٍ تجعل منها لغةً منفتحةً قابلةً للتكيّف والاستجابة لعوامل تطوّر الثقافات والشعوب واختلاف الأماكن والعصور.

وبإمكاننا العثور في هذه السورة على المواقع اللغويّة المنفتحة أو المتجدّدة التالية:

١- أرأيتَ الذي:

عرفنا كيف تعدّدت الآراء في اقتراح معنىً محدّدٍ لهذا التعبير، بطبيعته التساؤليّة التقريريّة التأمّليّة، وكيف اختلفوا في طبيعة الفعل فيه: بصريٌّ هو أم قلبيّ (أي ظنّيّ)، وهل له مفعولٌ واحدٌ مذكور (الذي) أم له مفعولان أحدهما محذوف؟

ومن هذا التعدّد في الآراء والتفسيرات يكتسب التعبير قوّته الانفتاحيّة المتجدّدة.

٢- فذلك الذي:

إنّ اختلاف المفسّرين في إعراب الفاء: أهي استئنافيّةٌ أو عاطفةٌ أو فصيحةٌ أو واقعةٌ في جواب شرطٍ مقدَّر، واختلافَهم في إعراب (ذلك): أهو مبتدأ، أو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ والتقدير (فهو ذلك)، وكذلك اختلافهم في (الذي): أهو نعتٌ لاسم الإشارة، أو ربّما نعتٌ لبدلٍ محذوفٍ منه، والتقدير: فذلك الشخص الذي، أم هو خبرٌ له، هذا الاختلاف والتعدّد في الآراء ممّا يغني العبارة ويضفي عليها صفة الانفتاح.

٣- يكذّب بالدين:

من الواضح أنّه لا بدّ من تقدير مفعولٍ للفعل (يكذّب). فلو ظهر في الآية لكانت شيئاً من هذا القبيل:

يكذّب الرسولَ بالدين

فالباء إذن، ليست مجرّد: "صلةٍ، دخولُها في الكلام وخروجُها واحدٌ" كما يذهب الطبريّ وهو يحاول أن يجد مخرجاً لقراءة من قرأ (أرأيتَ الذي يكذّب الدين) -هكذا بإسقاط الباء-[1]. فقد عرفنا أنّ هذه الباء مختصّةٌ بالأشياء التي يكذَّب بها:

---

(١) الطبري، محمد بن جرير. **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج٢٤، ص٦٢٩.

الآيات والمعجزات والكتب السماويّة، وليس بالأنبياء الذين يحملونها، فلا نقول:

يكذِّب بالأنبياء

ولا نقول:

يكذِّب الدِّين

وإنّما نقول:

يكذِّب الأنبياءَ بدينهم

وفضلاً عن ذلك يحمل لفظ (الدِّين) أكثر من معنىً. فهو الرسالة، وهو العقيدة، وهو التوحيد، وهو الحساب، وهو العقاب وما ينتظرنا في الآخرة من جنّة أو نار، وهذا يعيدنا إلى معنى (الدِّين) في (الفاتحة) كما فصّلناه في التعليق علىً قوله تعالى ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾.

٤ – يدعّ اليتيم:

تعدّدت أقوال المفسّرين في هذا الفعل، وازدادت بذلك طيوفه وأبعاده، فهو عندهم ليس مجرّد دفعٍ لليتيم بشدّةٍ وخشونةٍ فحسب، كما يحمله المعنى الجاهليّ، والأصليّ، لهذه الكلمة، بل هو، إضافةً إلى ذلك، حرمانه من حقوقه ومنعه منها، وقهره وظلمه، وعدمُ إطعامه أو الأخذِ بيده، من غير خوفٍ من عقاب الله وناره، وهي معانٍ تمنح هذا التعبير شحنةً إيحائيّةً غنيّةً بالظلال والألوان.

٥ – فويلٌ:

وكما في اللفظ السابق، لا يقتصر المعنى الإسلاميّ الجديد لهذا اللفظ على الإنذار بالهلاك والخراب كما هو في الاستعمال الجاهليّ –مع قدرٍ من الاختلاف في السياق اللغوي للّفظ كما رأينا– بل يتجاوزه إلى الهالات الجديدة التي أضْفتْها الأحاديث النبويّة على هذا اللفظ وهي تصف وادي (الويل) المخيف في جهنّم، وما يحيط بهذا الوصف من تفاصيل مرعبةٍ تُلهب الشحنة اللغويّة التي يحملها اللفظ وتزيدها قوّةً وتأثيراً.

٦- ٧- للمصلّين/ عن صَلاتهم:

من حقّ المفسّرين أن يقترحوا في تفسير هذين اللفظين أكثر من معنىً، فهل هي صلاة المصلّين الذين يصلّون ولكن كأنّهم في صلاتهم لا يصلّون، أم صلاة من يُفترض فيهم أن يُصلّوا، ولكنّهم لا يصلّون أبداً؟ وسيوضّح هذا أكثر حديثُنا عن اللفظ التالي.

٨- ساهون:

اختلفوا كثيراً حول معنى (السهو) هنا: هل هو داخل الصلاة أو خارجها؟ هل هم ساهون عن صلاةٍ يؤدّونها حقّاً، ولكنّهم لا يَعُون ما يقولون لأنّ الشيطان يشدّهم بعيداً عنها وعن الله؟ أم هم ساهون عن صلاةٍ يجب أن يؤدّوها، ولكنّهم لا يفعلون ذلك أبداً، مفضّلين عليها اللهو والتجارة وغيرها من أمور الدنيا؟

٩- يمنعون الماعون:

إلى جانب المعاني الكثيرة التي اقترحها المفسّرون للفظ (الماعون) كما رأينا، وما أضفَوه بذلك على اللفظ من أبعادٍ وغنىً وتنوّعٍ، تتضاعف هذه الأبعاد بعدم ذكر المفعول الأوّل للفعل (يمنعون)، كأن يقال مثلاً:

يمنعون الناسَ أو ذوي الحاجة الماعونَ

فبقيت الآيةُ مفتوحةً لكلّ الاحتمالات الممكنة في تقدير هذا المفعول المحذوف.

خامساً: جوامع الكَلِم

١- فويلُ للمصلّين:

هذا التعبير القرآنيّ أضحى جزءاً من قاموسنا اللغويّ، فكلّما سمعنا حديثاً غير منطقيّ، أو استنتاجاً منقوصاً لا يرتبط بمقدّماتٍ سببيّة، علّقنا فقلنا: إنّك كمن يقول: فويلٌ للمصلّين..

٢- يمنعون الماعون:

وهي عبارةٌ يمكن أن تطلق على كلّ من يمنع خيره عن الناس قلّ أو كثر.

السورة العاشرة

قريش

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤ ﴾

هذه هي السورة التاسعة في الترتيب العكسيّ لسوَر القرآن الكريم. تتكوّن من ١٧ كلمة، ويصل عدد النقاط الإعجازية الجديدة فيها ممّا وضعنا يدنا عليه إلى ٢٧ موقعاً.

وتُحقّق السورة تميّزَها اللغويّ عن باقي سوَر القرآن بارتباطها نحويّا، على رأي أكثر المفسّرين، بسورة (الفيل) التي سبقتها، ولا يحدث مثل هذا النوع من الارتباط بين أيّ سورتين أخريين في القرآن الكريم. ثمّ إنها تتفرّد بألفاظٍ ثلاثةٍ تقتصر عليها وحدها (إيلاف، قريش، آمَنهم) وبستّة تعبيراتٍ، هي في الحقيقة كلّ تعبيرات السورة، لا يشاركها فيها أيٌّ من السور الأخرى، وهي ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ، إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ، رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ، رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ، أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ ، وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾.

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- ٢- لإيلاف/ إيلافهم:

لا يرِد اللفظ (إيلاف) في الشعر الجاهليّ، بل إنّه يختفي تماماً ولقرونٍ عديدةٍ في تراثنا الشعريّ والأدبيّ، إلا في معرض الحديث عن هذه السورة. والبديل عنه هو على الأغلب (اعتياد، تعوّد، عادة، دأب، دَيْدَن، أُلفة).

ولا يتكرّر اللفظ في القرآن خارج هذه السورة، فهو من خصوصيّاتها. ولا وجود له في الحديث الشريف أيضاً.

٣- فليعبدوا:

يعيدنا هذا اللفظ إلى حديثنا عن الفعل (نعبد) ومعناه الإسلاميّ الجديد في سورة (الفاتحة): ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾، ونتذكّر كيف فرّقنا بين (العبادة) بالمعنى القرآنيّ و (العبوديّة) بالمعنى البشريّ المتداول وهو الرقّ.

ونؤكّد هنا مرةً أخرى جدّة استعمال هذا الفعل وقرآنيّتَه، وأنّ العبوديّة لله علاقةٌ إيجابيّةٌ تقوم على الحبّ المتبادل بين الطرفين، وعلى الرغبة والرهبة معاً من الطرف الأوّل (الإنسان) نحو الطرف الثاني (الله)، على حين تكون هذه العلاقة في العبوديّة البشرية علاقة تنافرٍ وكراهية، مع سعي أحد الطرفين باستمرار(العبد) للتخلّص من الطرف الآخر (السيّد).

٤- آمنَهم:

نعثر على هذا اللفظ مرّتين في الشعر الجاهليّ، ولكنّ استعماله في المرّتين يختلف تماماً عن الاستعمال القرآنيّ. يقول تأبّط شرّاً (ت٨٥ ق.هـ):

تالله آمَنُ أنثى بعدما حلفَتْ   أسماءُ باللهِ مِن عهدٍ وميثاقِ

فمعناه في البيت كما هو واضح: أثِق بـ، أو أُصَدِّق؛ أي إنّه لن يمنح ثقته أيّة امرأةٍ بعدما نقضت أسماء يمينها وعهدها معه، أمّا في الآية فهو، على عكس البيت الجاهليّ، يعني: أمّنهم، أو منحهم الأمان.

ويقول سلامة بن جندل (ت٢٣ ق.هـ):

كالصَعْدَةِ الجَرداءِ آمَنَ خَوفَها   لَطَفُ الدواءِ وأكرمُ الأعراقِ

وقد استُخدم الفعل في البيت استخداماً مغايراً للاستخدام القرآنيّ؛ إذ تعدّى فيه إلى الخوف (آمَنَ خوفَها) فهو بمعنى (أبعَدَ) أو (أزالَ) أو (هدّأ) على حين تعدّى في الآية إلى الخائف نفسِه وهو الضمير (هم) في (آمنهم) فكان بمعنى (منحهم الأمان).

ورغم ورود مشتقّات الفعل مرّاتٍ عديدةً في القرآن الكريم، فإنّ هذا الاستعمال للّفظ من خصوصيّات السورة أيضاً إذ اقتصر عليها وحدها. أمّا الفعل المضارع (آمنُكم) في قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ ﴾ [يوسف: ٦٤]

فمن الواضح أنّ معناه يختلف عن معنى الفعل في سورة (قريش). إنه يعني هنا (أثق بكم أو بأمانتكم)، وهو بعيدٌ عن معنى (منح الأمان) كما هو في السورة، وقد تعدّى في آية سورة (يوسف) إلى المَخُوف منه (إخوة يوسف) على حين يتعدّى هنا إلى المَخُوف عليه.

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- لإيلاف:

وقفنا سابقاً عند آياتٍ تُشكّل ظاهرةً لغويّةً جديدةً في القرآن، وذلك حين وجدنا هذه الآيات، خلافاً لأعراف الوحدة اللغويّة الأساسيّة وتعريفاتها في اللغة العربيّة، تبدأ بصفةٍ أو بدلٍ أو جارٍّ ومجرور.

ولكنّ الوضع هنا يبدو أشدّ بروزاً وأكثر إثارةً لدهشة من سمع السورة لأوّل مرّةٍ ممّن عايشوا فترة نزول الوحي خاصّةً، فليست الآية وحدها هي التي تبدأ هنا بجارٍّ ومجرور، وإنّما السورة بأكملها.

وممّا يزيد من بروز هذه الحالة، ويضاعف من أهمّيتها، اختفاءُ المتعلَّق الذي سنعلّق به شبه الجملة هذا، اختفاءً اضطَرّ بعضَ المفسّرين إلى البحث عنه في سورة (الفيل) التي تسبق هذه السورة مباشرةً، وهو أيضاً أمرٌ غير مألوفٍ للعربيّ الأوّل، بل لم يعرفه العرب حتى اليوم في أيّ نوعٍ من الأنواع الأدبيّة المعروفة، بل لا وجود له في القرآن الكريم في غير هذا الموقع.

وقد نطق الفرّاء (ت٢٠٧هـ) بلساننا حين عبّر عن هذه الدهشة بقوله: "يقول القائل: كيف ابتُدئ الكلام بلامٍ خافضةٍ ليس بعدها شيءٌ ترتفع به؟"[١] أي ليس بعدها مبتدأٌ مؤخَّرٌ تكون هي مع مجرورها خبراً مرفوعاً متقدّماً له (أي يتعلّقان بهذا الخبر المقدّر).

والتقدير، على وجه من علّقوا اللام بالسورة السابقة، سيكون كما يلي: (فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قريشٍ) (أي أهلك الله أصحاب الفيل من أجل الحفاظ على قريش واعتيادهم القيام برحلَتَيهم في الشتاء والصيف).

٢- إيلافِهم رحلةَ:

واختلفوا حول المعنى الدقيق لهذا التعبير، وأيّاً كان تقديرُنا أو تفسيرنا فإنّه يظلّ جديداً على العربيّ الأوّل الذي كان، على الأغلب، سيعبّر بلغته العاديّة عن معناه بشيءٍ من هذا القبيل: اعتيادهم على الارتحال، أو: تعويد الله لهم على الارتحال.

---

(١) الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد. **معاني القرآن**، تحقيق: عبد الفتاح اسماعيل شلبي. القاهرة: دار السرور، د. ت، ص٢٩٣.

٣- إيلافِهم رحلةَ الشتاءِ والصّيف:

مرّةً أخرى، وخلافاً لأعرافنا اللغويّة، تبدأ هذه الوحدة اللغويّة المستقلّة؛ أي الآية، ببدلٍ تابعٍ للَفظٍ في آيةٍ سبقتها، وإن كان هذا البدل عاملاً فيما بعده بحيث يمكن أن يشكّلَ مع اللفظ (رحلة) جملةً كاملةً، كما أوضحنا، مؤلَّفةً من مصدرٍ مع فاعله ومفعوله، أو مفعوليه.

٤- رحلةَ الشتاءِ والصيف:

هذا الإخبار باثنين (الشتاء والصيف) عن لفظٍ مفردٍ (رحلة) نكتةٌ لغويّةٌ لطيفةٌ تنبّه إليها الزمخشريّ في (كشّافه)، ويُعدّ خروجاً على العرف اللغويّ الذي يقتضي أن يقال: رحلتَيْ الشتاء والصيف. وأنا أرى مع ذلك أنّ اللفظ (رِحلة)، وهو أمرٌ خاصٌّ بالقرآن وحده أيضاً، جاء بمعنى المصدر وليس بمعنى اسم المرّة. إنّه هنا بمعنى (رحيل) أو (ارتحال) أو (ترحّل) وليس بمعنى (الرحلة الواحدة) كما اعتدنا استعماله، ممّا يؤهّله للإضافة للمثنّى رغم أنّه مفرد، كقولنا مثلاً:

زيارة القبور والمرضى سُنّة

من غير أن نعني بهذا زيارةً واحدة، رغم إفرادنا للّفظ.

٥- فلْيعبدوا:

هذا النوع من الأمر الموجّه إلى الغائب أو الغائبِين، والمرتبط دائماً بالواو أو الفاء، ربّما عرفته لغتنا البشريّة على ندرة، ولكنّ القرآن الكريم حوّله، بتكراره المتعدّد فيه، إلى ظاهرةٍ واضحةٍ في لغته، وأسلوبٍ مميَّزٍ من أساليبه.

والأمثلة على ذلك كثيرةٌ في الكتاب الكريم، ومنها في صيغة الجمع: (فلْيستجيبوا، فليتّقوا، فليرتقوا، فليأتوا، وليؤمنوا، وليعْفوا، ولْيَصفَحوا، وليقولوا، وليأخذوا) ومنها في صيغة المفرد: (فلينظر، فليمدُد، فليتوكّل، فليكتب، فليعمل، وليتلطّف، وليحكم، وليخشَ..).

٦- فلْيعبدوا ربّ:

(الإخبار) في علم البلاغة هو أن تُخبِر عن شيءٍ بجملةٍ قابلةٍ للتصديق أو للتكذيب، كأن تقول: أنا مسافر، فيمكن أن يقال لك حينئذٍ: أنت صادقٌ أو أنت كاذب. أمّا عكسه (الإنشاء) فهو طلبٌ، من أمرٍ أو نهيٍ أو استفهام، لا مجال معه للتصديق أو التكذيب، فلا تستطيع أن تقول: أنت صادق، أو: أنت كاذب، لمن يسألك: هل أنت مسافر؟ أو لمن يأمرك: سافِرْ، أو لمن ينهاك: لا تسافرْ، فهذه كلّها جملٌ إنشائيّةٌ طلبيّةٌ لا تحتمل التصديق والتكذيب.

لقد بدأ الخطاب في السورة بالصيغة الحياديّة الإخباريّة القابلة للتصديق والتكذيب: إنّ لقريش عاداتهم وترحالهم، ولكنّه تحوّل عن الإخبار فجأةً إلى الإنشاء، ليُصدر لهم أمراً -وبصيغة الغائب أيضا: (فلْيعبدوا هم)، بدلاً من صيغة المخاطَب المألوفة عادةً مع الأمر: (فلتعبُدوا أنتم)- مستخدماً (لام الأمر) لتحقيق هذا التحوّل أو "الالتفات" من صيغةٍ إلى صيغة، وهو الفنّ الذي لم يعرفه العرب، كما أثبتنا، قبل نزول القرآن الكريم.

٧- هذا البيت:

اعتدنا أن نستخدم أسماء الإشارة لندلّ بها على ما نحتاج إلى أن نشير إليه، أو ما هو أمامنا بحيث نراه حقّاً، بعيداً كان أو قريباً، فنقول: هذه الأرض، وذلك الجبل، وتلك الباخرة، حين نحاول تمييزها عمّا سواها من الأراضي والجبال والبواخر.

أمّا (البيت) هنا، وقد اقترن بذكر ربّه، فما كنّا، بلغتنا العاديّة، لنستخدم اسم الإشارة معه، بل نقول: فليعبدوا ربّ البيت، من غير إشارةٍ، وهذا ما حدث حقّاً في كلّ مرّةٍ أخرى تكرّر فيها هذا اللفظ في القرآن خارج هذه السورة (١٣ مرّة)، ومن ذلك قوله تعالى:

- ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة: ١٢٥]

- ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ ﴾ [البقرة: ١٥٨]

- ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ ﴾ [الأنفال: ٣٥]

وهذه الإشارة القريبة إلى البيت (هذا) استعمالٌ خاصٌّ بهذه السورة لا يتكرّر في غيرها من السوَر.

٨- ربّ البيت:

هذا تعبيرٌ جديدٌ سبق إليه القرآن الكريم، فضلاً عن أنّ سورة (قريش) تختصّ به وحدها دون بقيّة السوَر.

٩- ١٠- أطعمهم مِن/ آمَنَهم مِن:

إنّهما استعمالان قرآنيّان خاصّان لهذين الفعلين ومميَّزان جداً؛ إذ لم يستخدمهما أحدٌ من العرب فيما نعلم، لا قبل الإسلام ولا بعده، متعدّيين بحرف الجرّ (مِن)، إنما قالوا، ونقول مثلهم أيضاً:

أطعمهم، أو:

أسكتَ جوعهم، أو:

أطعمَ جائعهم، أو:

أطعم الجائع منهم، أو:

خفّف عنهم الجوع، أو:

أطعمهم بعد أن كانوا جائعين.

كما قالوا ونقول:

أمّنهم، أو:

أمّنهم من خوفهم، أو:

أمّنهم من الخوف، أو:

أمّن خائفَهم، أو:

أمّنهم بعد أن كانوا خائفين.

ومرّةً أخرى يقتصر استعمال التعبيرين كليهما على هذه السورة وحدها دون بقيّة السوَر.

١١- ١٢- جوع/ خوف:

إنّ تنكير اللفظين هنا هو أيضاً لغةٌ قرآنيّة. لاحظوا كيف جاء اللفظ (جوع) واللفظ (خوف) في الأمثلة البشريّة التي اقترحناها في النقطة السابقة مُعرَّفَين دائماً، إمّا بالإضافة إلى الضمير، وإمّا بـ (ال) التعريف. وفي هذا التنكير حكمةٌ وبلاغةٌ قرآنيّةٌ كما سوف نرى.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- لإيلافِ قريشٍ إيلافِهم:

إنّ ما قدّمناه عن خصوصيّة تعليق شبه الجملة (لإيلاف)، وكذلك تكرار المصدر نفسه (إيلاف) بعد لفظ المضاف إليه (قريش) وموقعُه الإعرابيّ المميَّز، يمنح العبارة بناءً إيقاعيّاً مميّزاً، ويجعل منها سبيكةً شديدة الخصوصيّة، وهي سبيكةٌ تقتصر على سورة (قريش) وحدها.

٢- ٣- أطعمهم من جوعٍ/ آمنَهم مِن خوف:

التركيب الخاصّ لكلٍّ من هاتين الجملتين، كما رأينا، ثم اجتماعُهما، وتعاطفُهما الواحدةِ على الأخرى، مع التناظر والتطابق الكاملين بينهما، يجعل من كلٍّ منهما سبيكةً قرآنيّةً مميّزة، لا نجدها في تراثنا الأدبيّ القديم أو الحديث، ولا تتكرّر في أيّ موقعٍ آخر من القرآن.

رابعاً: مواقع منفتحة

من المهمّ التذكير أوّلاً بأنّ انفتاح أيّ لفظٍ أو تعبيرٍ نتوقّف عنده في لغة القرآن الكريم لا يعني تساوي هذه الألفاظ أو التعبيرات في قوّتها الإشعاعيّة، أو في عدد الأبعاد أو الأطياف أو المعاني التي تحتملها.

وبقدر ما تزداد احتمالات المعاني والشروح، واحتمالات الإعراب والتخريج للّفظ أو التعبير، وكذلك اختلافات المفسّرين واللغويّين حوله، تزداد قوّةُ إشعاعه، ومن ثمّ قابليّته للتصنيف تحت هذا النوع من المواقع الانفتاحيّة الجديدة في القرآن.

هذا التفاوت في درجات المواقع الموحية أو المشعّة سوف يظهر لنا من خلال تحليلنا لهذه النقاط اللغويّة في السورة:

١- لإيلاف قريش:

هناك مولّدان للطاقة الإشعاعيّة الموحية في قوله تعالى (لإيلاف): الأوّل هو اللام والثاني هو مجرورها (إيلاف).

أمّا اللام فقد كان تعليقها أحدَ أهمّ النقاط التي أشكلَت على المفسّرين. فذهب بعضهم إلى أنّها للتعجّب، وهذا يعني تقدير فعل الأمر (اِعجب) قبلها لتتعلّق به، فيكون المعنى: اِعجب لأمر تعَوُّد قريش.

وذهب آخرون إلى أنّ التقدير هو: انظر، أو اسمع، أو التفت لاعتياد قريش، أو: عد بالحديث أو الذكر إلى أمر ذلك الاعتياد.

وذهب آخرون إلى أنّ اللام متعلّقةٌ بالفعل (فليعبدوا) الذي يليها، رغم ارتباطه بالفاء التي تفصل بينه وبينها، وهو ما يمنع، في رأي كثيرٍ من النحويين، إمكان تعليقها به، ولكن أجاز ذلك بعضُهم على حياء.

ولكن الأخطر من هذا ما ذهب إليه بعض المفسّرين، كما ذكرنا، من أنّ اللام للتعليل، أي بمعنى: من أجل، أو بسبب، وهي، على ذلك، معلَّقةٌ بالفعل (جعل) في الآية الأخيرة من سورة (الفيل) التي تسبق هذه السورة مباشرةً، ليكون المعنى هكذا: فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ من أجل إيلاف قريشٍ وحماية تجارتهم ورحلاتهم. وبهذا تُعامَل السورتان نحويّاً وكأنّهما سورةٌ واحدةٌ رغم انفصالهما ووجود البسملة بينهما، وهو أمرٌ عجيبٌ لم يقع إلاّ لهاتين السورتين.

أمّا (إيلاف) فتستمدّ طاقتها الإشعاعيّة من احتمال تفسيرها:

أ- على أنّها اسمٌ بمعنى (عادة) أو (اعتياد) فيكون المضاف إليه فيها هو الاسم المذكور بعدها (قريش)، أو:

ب- على أنّها مصدرٌ يحمل معنى الحدَث، أي بمعنى (تعويد) فيكون المضاف إليه الحقيقيّ فيها محذوفاً وتقديره هو لفظ الجلالة (الله)، ويكون المعنى على هذا التقدير: تعويد الله لقريشٍ رحلةَ الشتاء والصيف.

ولا شكّ أن تداخل وتقاطع الإشعاعات المعنويّة المتباينة الصادرة عن كلٍّ من جزءي الكلمة سيولّد المزيد من الأطياف والألوان الجديدة لمعانيهما.

٢- إيلافهم:

وقع على هذا اللفظ اختلافٌ آخر بين المفسّرين، يضاف إلى الخلاف الذي وقع على صنوه (لإيلاف).

فالضمير (هم) بمثابة الفاعل هنا، في رأي بعضهم، فكأنّما قال: ما آلَفَتْهُ قريشٌ، ويكون اللفظ (رحلةَ) مفعولاً به للمصدر (إيلاف) أي: آلفتْ قريشٌ رحلةَ..

ولكن ذهب بعضهم إلى أنّ الفاعل غير ظاهرٍ وهو (الله)، وأنّ الضمير (هم) هو مفعولٌ أوّل، و(رحلةَ) مفعولٌ ثانٍ. والتقدير على هذا -كما بيّنّا أعلاه-:

آلَف اللهُ لهم رحلتَهم،

أو بصيغةٍ أخرى:

آلف (أي عوَّد) اللهُ قريشاً رحلتَهم.

ومن تقاطع هذه التفسيرات، أو الإعرابات، يَغنى اللفظ ويكتسب طاقته الإضافيّة الموحية من خلال تعدّد شروحه وتعدّد أبعاده.

٣- رحلةَ الشتاءِ والصيف:

أكثرُ المفسّرين على أنّ هذه الرحلة كانت إلى اليمن في الشتاء وإلى الشام في الصيف.

ولكن ذهب بعضهم إلى أنّها بين مكّة والطائف، وذهب آخرون إلى أنّ الرحلات لم تكن رحلات قريشٍ إلى البلدان الأخرى، بل هي رحلات الآخرين إلى قريش، فكأنّ الله يمُنّ عليهم أن أتى إليهم في عقر دارهم بأهل الشام واليمن وغيرهم، صيفاً وشتاءً، إمّا حجًّا وإمّا عمرةً، ليجلبوا إليهم السلع والبضائع من كلّ مكانٍ وهم يحجّون ويعتمرون إلى مكّة.

وإذن، فإنّ الله تعالى يمنّ على قريشٍ بوجود البيت، وبحماية هذا البيت ومَن حولَه من كلّ معتدٍ، مثلما حماه من أصحاب الفيل، فألِفه الناس وألِفوا أهله، بل صار أبناء قريش في أمانٍ من أي اعتداءٍ، حتى وهم مسافرون خارج مكّة، لأنّ جميع القبائل لها مصالح أساسيّةٌ مع قريشٍ ما دامت ملتزمةً بالحجّ أو العمرة إلى مكّة كلّ عام، فكانت هذه القبائل حريصةً على إقامة علاقاتٍ متينةٍ وآمنةٍ معها، وهي ميزةٌ عظيمةٌ لأهل قريش لم تكن لأحدٍ غيرهم.

٤- فليعبدوا:

محور تعدّد الأبعاد في هذا اللفظ هو الفاء. فقد عدّها بعضهم ابتدائيـةً (أو: حسب ما قبلها، كما يسمّيها النحاة) لأنّ الكلام يبدأ بها وإن تأخّرت، والتقدير: فليعبد أهلُ قريشٍ اللهَ لإيلافِهِ لهم رحلتَهم.

ولكن ذهب بعضهم إلى أنّها استئنافيّة، لأنّ الكلام استؤنِف بها، ولم يبدأ بها، بعد أن ذكّرهم الله قبلها بالإيلاف وتفضُّلِه به عليهم.

وذهب آخرون إلى أنّها الشرطيّة، ويدافع الزمخشريّ عن وجهة النظر هذه بقوله: "فإن قلت: فلِمَ دخلَت الفاء؟ قلت: لما في الكلام مِن معنى الشرط، لأنّ المعنى: إمّا لا؛ فليعبدوه لإيلافهم، على معنى: أنّ نِعَم الله عليهم لا تُحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نِعَمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمةٌ ظاهرة".[١]

٥- أطعمَهم مِن جوعٍ:

هناك أكثر من مصدرٍ إشعاعيٍّ واحدٍ في هذه الجملة يغنيها بالأطياف الموحية والأبعاد المتعدّدة.

فتجريد اللفظ (جوعٍ) من (ال)، ونقلُه بذلك من التعريف إلى التنكير، حرّره من قيود التعريف التي تحصر المعنى عادةً بأمرٍ واحد.

فلو قال (الجوع) لكان هو الجوع الذي نعرفه جميعاً، ولكنّ تنكيره فتح أمامنا احتمالاتٍ عدّةً لفهمه وتفسيره:

أهو نقص الطعام فقط لقلّة المصادر الغذائيّة في أرض مكّة؟

أم هو الفقر عامّةً والنقص في الأموال والثمرات وكلّ شيء؟

أم هو نقص الأنفُس والموارد البشريّة؟

ومِن جهةٍ ثانية:

هل الأداة (مِن) هنا للتقليل أو التبعيض، أي خفّف عنهم بعضَ الجوع؟

أو هي بمعنى (بدَلَ) أي أسبغ عليهم الإطعام بدَلَ الجوع؟

---

(١) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، ج٤، ص٨٠٦.

أو بمعنى (عن) -كما يذهب المُرادي- أي: أطعمهم عن جوعٍ، أو: على جوعٍ، أي: وهم على جوع؟[1]

وهل الإطعام في (أطعمهم) يقتصر على الطعام، أو يشمل المأكل والملبس والمأوى والمال والولد وسائرَ تكاليف الحياة؟

٦- آمَنَهم مِن خوف:

ينطبق على هذه الجملة ما انطبق على الجملة السابقة من احتمالاتٍ وتعدّديّةٍ في الأبعاد والمعاني، ولا سيّما في تنكير اللفظ (خوف).

خامساً: جوامع الكَلِم

١- رحلةَ الشتاء والصيف:

هذه العبارة القرآنيّة قد تطلَق في مجال الحديث عن أمرٍ يتكرّر جيئةً وذَهابا، على شكلٍ واحدٍ أو على أكثر من شكل، أو الحديث عن عادةٍ لها أوقاتٌ ثابتة، سنويّةٌ أو فصليّةٌ أو شهريّة، أو أقلّ من ذلك أو أكثر، كأن تقولها لمن يعاوده المرض بين حينٍ وآخر، أو لمن يتردّد متنقّلاً بين بلدين، أو لمن لا يفتأ يطالبك، في الذهاب وفي الإياب، بأمرٍ أو دَينٍ أو إتاوةٍ.

٢- أطعمهم مِن جوعٍ وآمَنَهم مِن خوف:

عبارةٌ يمكن أن نصف بها من قام، أو يقوم، برعاية قومٍ أو أسرةٍ أو حيوانٍ خير رعاية، بحيث يضمن سلامتهم ويؤمّن لهم كلّ حاجاتهم المعيشيّة المطلوبة.

---

(١) المرادي، الحسن بن قاسم. **الجنى الداني في حروف المعاني**، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٩٢م، ص٣١١.

السورة الحادية عشرة

الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾

الآن، وبعد أن انتهينا من دراسة عشر سورٍ قصيرةٍ من القرآن الكريم، بعد سورةٍ سبقتها متوسّطة الطول، يحقّ لي أن أسأل القرّاء: هل بدأتم تتحسّسون في داخلكم قدرةً جديدةً على قراءة القرآن الكريم بصورةٍ مختلفة، مستفيدين من المنهج الذي درسنا به تلك السوَر؟

صحيحٌ أنّها كانت، إذا استثنينا (فاطر)، سوَراً قصيرةً جداً، بل هي الأقصر بين سور القرآن الكريم، ولكن هل تجدونها كافيةً لتمهيد الطريق أمامكم لاكتشاف المواقع التجديديّة في السور الأخرى، أو بعض هذه المواقع على الأقلّ؟

طبعاً لن أتوقّع منكم أن تكملوا هذه الدراسة عنّي، على الأقلّ في هذه المرحلة المتقدّمة منها، ولكنّني أطمح إلى أن يكون كثيرون منكم قد غدَوا قادرين على استباق حديثي في عديدٍ من المواقع، والنطق بأحكامهم قبل أن أنطق أنا بها.

حاولوا ذلك معي في هذه السورة، واكتشفوا مدى ما اكتسبتم من قدرةٍ على الاكتشاف في هذا السبيل.

أيّ الألفاظ مثلاً تتوقّعون أن تعثروا عليه بين ألفاظ سورة (الفيل)، مّما تظنّون أن العرب لم يكونوا يعرفونه قبل الإسلام، أو لم يعرفوه على الأقلّ بمعناه القرآنيّ الجديد؟

حسناً، لعلّ بعضكم قد بدأ يردّد الآن فيما بينه وبين نفسه بعض هذه الألفاظ. إنّنا سنعثر في هذه السورة التي لا يزيد عدد ألفاظها عن ٢٣ لفظاً على خمسة ألفاظٍ أو مصطلحاتٍ جديدة، إضافةً إلى ٢٢ موقعاً جديداً آخر تتوزّع بين الصيغ والعلاقات اللغويّة، والسبائك القرآنيّة، والمواقع المنفتحة، ثمّ جوامع الكلِم.

وكالعادة في باقي السوَر، تؤكّد هذه السورة شخصيّتها اللغويّة من خلال لفظين لا يتكرّران مرّةً أخرى في القرآن: (تضليل، أبابيل)، وكذلك تعبيراتها المتفرّدة الخمسة التي اقتصرت عليها وحدها دون باقي السوَر: ﴿أَصْحَابِ ٱلْفِيلِ﴾، ﴿كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾، ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾، ﴿عَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- تضليل:

وجدتُ هذا اللفظ مرةً واحدةً في الشعر الجاهليّ وذلك في بيت الطفيل الغنويّ (ت١٣ ق.هـ):

إنْ تُمْسِ قد سَمِعَتْ قِيلَ الوُشاةِ بنا   وكلُّ ما نطقَ الواشون تضليلُ

ومن الواضح اختلاف الاستعمال القرآنيّ عن الاستعمال الشعريّ. فاللفظ في البيت مصدرٌ، أي فيه معنى الحدَث، وهو التمويه والتزييف وإثارة الشّكوك، ولكنّه في الآية اسمٌ أو صفةٌ بمعنى الضياع والهلاك، وهو استعمالٌ فريدٌ وجديدٌ في قاموس اللغة العربيّة، ثمّ إنّه، إلى ذلك، مختصٌّ بهذه السورة وحدها، فلا يتكرّر مرّةً أخرى في القرآن الكريم، ولا وجود له في الحديث الشريف أيضاً.

٢- طيراً:

الغريب في هذا اللفظ أنّه إذا عُرّف في القرآن بـ"ال" دلّ دائماً على الجمع، وقد تكرّر بهذه الصورة ١٦ مرّة، منها قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

- ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ ﴾ [النمل: ١٧]

- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ ﴾ [المُلك: ١٩]

فإذا تجرّد من "ال" دلّ على المفرد، وقد تكرّر هذا مرّتين أخريين في القرآن وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [آل عِمران: ٤٩]

- ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ ﴾ [المائدة: ١١٠]

فقد جاء لفظ (الطير) -المعرّف بـ"الـ"- في الآيتين بمعنى الجمع أو اسم الجنس، على حين جاء اللفظ النكرة (طيراً) فيهما دالاًّ على المفرد، وهو طائرٌ من الطين بعث فيه عيسى -عليه السلام- الحياة بقدرة الله لإثبات نبوّته أمام من كذّبوه.

ولكنّ اللفظ في آية سورة (الفيل)، خلافاً لكلّ استعمالاته في القرآن، دلّ على الجمع رغم تنكيره وتجرّده من "الـ".

أمّا اللفظ المفرد الآخر (طائر)، الذي يكثر تداوله في لغتنا، فنعثر عليه خمس مرّاتٍ في القرآن، واحدةٌ منها فقط بالمعنى المتداول في لغتنا العاديّة، وذلك في الآية:

- ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ ﴾ [الأنعام: ٣٨]

ولكنّه في المرّات الأربع الأخرى يحمل معاني مختلفةً تماماً عن الطير أو الطيور، وهي الفأل السيّء أو العقوبة أو العمل المؤدّي إلى هذه العقوبة[1] كما يتبيّن لنا من الآيات:

(١) هذه المعاني تمتّ بصلةٍ إلى اعتقاد عرب الجاهليّة بالتيمّن بالطائر السانح، وهو ما اتّجه يميناً، وبالتشاؤم من الطائر البارح، وهو ما اتّجه يساراً.

- ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [النمل: ٤٧]
- ﴿ قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [يس: ١٩]
- ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١٣]
- ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣١]

أمّا في الشعر الجاهليّ فيختلط استعمال الألفاظ أو الحالات الأربع (طير) و (الطير) و (الطائر) و (الطيور) عند الشعراء دون تخصيص، كما في الأبيات:

ولقد شببْنـــا بالجِفـــارِ لِدارمٍ ... ناراً بها طَيـــرُ الأشائمِ يَنعَبُ

عَبيد بن الأبرص (ت٢٥ ق.ه)

أَحِنُّ إلى تلك المنـــازلِ كلّما ... غـــدا طائرٌ في أيكةٍ يترنّـــمُ

أيا صادِحاتِ الطّير إنْ مِتُّ فاندُبي ... على تُربتي بين الطيور السواجعِ

عنترة (ت٢٢ ق.ه)

إذا ما غَزَوا بالجيشِ حَلَّق فوقهمْ ... عصـائبُ طَيرٍ تهتدي بعصائبِ

النابغة الذبياني (ت١٨ ق.ه)

٣ - أبابيل:

لفظٌ آخر اختُصّت به السورة دون باقي سور القرآن، ودون الحديث الشريف أيضاً، وإن كنّا نعثر عليه مرّةً واحدةً على الأقلّ في الشعر الجاهليّ عند زهير بن أبي سُلمى (ت ١٣ ق.ه). وتتعدّد الآراء في تأويل لفظ زهير، وهو على الأغلب بمعنى القطعان من الإبل أو الحيوان أو الطير:

وبالفوارسِ مِن ورقاءَ قد عَلِموا ... فرسانَ صِدقٍ على جُردٍ أبابيلِ

ثمّ نعثر عليه عند الشاعر المخضرم الأعشى (ت ٧ه) مقترناً بالطير هذه المرّة، حيث يقول:

طريــقٌ وجبّــــارٌ رواءٌ أصولُــهُ		عليه أبابيــــلٌ من الطيــرِ تَنعَبُ

ومع ذلك أعطت التفسيراتُ المتعدّدة في وصف الطير أو الطيور التي وردت في سورة (الفيل) معنىً مميّزا للّفظ. فقد قيل إنها طيورٌ بِيض، وقيل: طيورٌ سودٌ أتت من البحر، أو من جهة البحر، وقيل إنها كانت طيراً خُضراً لها مناقير صفرٌ، أو خراطيم كخراطيم الطير، وأكفٌّ كأكفّ الكلاب، أو رؤوسٌ كرؤوس السباع، تحمل في مناقرها وأظفارها الحجارة، فكانت تختلف عليهم سرباً إثر سرب، أو يتْبع بعضُها بعضاً. وهذا كلّه يُوجّه اللفظ القرآنيّ توجيهاً يختلف بمعناه عن الاستعمال الجاهليّ.

وقيل أيضاً: إن (الأبابيل) هي الكثيرة، كالإبل المؤبَّلة، وقيل: "هي الفِرَق، فشبّه الفرقة منها بالإبّالة، وهي الحُزمة الكبيرة، ومنه قولهم: ضِغثٌ على إبّالة، فشُبّهت الفرقة الكبيرة من الطير في تضامّها بالحُزمة".

وقيل: هي المختلفة تأتي من هاهنا ومن هاهنا، وقد أتتهم من كلّ مكان، فكأنّ اللفظ جاء هنا، في نظري، بمقام الحال وليس الوصف، رغم أنّه أُلحِق بنكرةٍ (طيراً) تمنع حاليّته، تبعاً لقواعدنا الإعرابيّة، ولكنّ السياق الذي ورد فيه يرجّح تلك الحاليّة: أي أرسلها عليهم وهي مؤبّلةٌ، فلا مناص حينئذٍ من إعرابه حالاً من الطير، بغضّ النظر عن حقيقة التنكير في اللفظ (طيراً)، وبغضّ النظر عن القواعد الإعرابيّة التي تَواضعْنا عليها، وهذا مثل قولنا: أرسل جيوشاً أفواجاً أفواجاً، فلا أرى لإعراب (أفواجاً) هنا بديلاً من الحاليّة، لأنّ الحديث فيها هو عن "كيفيّة" إرسال الجيوش أكثر ممّا هو عن مجرّد وصفها.

وهكذا نجد اللفظ القرآنيّ وقد حُمّل من المعاني أكثر بكثيرٍ ممّا حَمَله اللفظ الشعريّ، وشُحن بِطاقة العمل وبعبقريّة الموقع الإعرابيّ أكثر ممّا تتحمّله أعرافنا النحويّة.

٤- سجّيل:

هذا لفظٌ قرآنيٌّ لم أعثر عليه في الشعر الجاهليّ ولا في الحديث الشريف، لا بالمعنى القرآنيّ ولا بغيره. وقيل إنّه معرّبٌ من اللفظين الفارسيّين مجتمعَين: (سَنْجْ) بمعنى (حَجر) و (جِلْ) بمعنى (طين) أي: حجرٌ طينيّ، وقيل: هو الشديد، أو هو المصنوع من طينٍ مطبوخ كما يُطبخ الآجرّ، وقيل: طُبخت هذه الحجارة بنار جهنّم مكتوباً فيها أسماءُ من تسقّط عليهم.

وقيل إنّ السجّيل هي السماء الدنيا، وهي التي أنزل الله على قوم لوط، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴾ [هود: ٨٢]

ومن الواضح أنّه في المرّات الثلاث التي ورد بها اللفظ في القرآن ارتبط دائماً باللفظ (حجارة).

٥- عَصْف:

لفظٌ قرآنيٌّ آخر لا نعثر عليه في الشعر الجاهليّ، ولا في الحديث الشريف. كما لا يتكرّر في القرآن الكريم إلاّ مرةً واحدةً أخرى ومعرَّفاً بال، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴾ [الرحمن: ١٢]

واللفظ في الآيتين، كما يبدو، بمعنى قشر القمح، أو الحَبّ عامّةً، أو ورقِه، وقيل: هو التِبن، أو الزرع. وجاء في البخاريّ (في شرح سورة الرحمن): "أنّه بَقْل الزرع إذا قُطع منه شيءٌ قبل أن يدرِك"[1].

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص ١٨٤٦.

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- ألم ترَ

تعيدنا هذه المقدّمة التي بدأت بها السورة إلى مقدّمات السور الثلاث الأخيرة في القرآن والتي بدأت جميعاً، كما بدأت هذه السورة، بخطاب لم يُذكر فيه المخاطِبُ ولا المخاطَب: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

ولو وضعتم أنفسكم مكان العربيّ الأوّل الذي سمع هذه الآيات لأدركتم أنّه لا بدّ أن يتساءل فيما بينه وبين نفسه حين سمعها: من السائل هنا ومن المسؤول؟

وهذا أسلوبٌ تعبيريٌّ اختصّ به القرآن الكريم وحده. فلو حدث أن طرح الشاعر مثل هذا التساؤل فإنّنا سنعرف بطبيعة الحال أنّ الشاعر هو الذي يسأل، وأنّ من وَجّه إليه القصيدة هو المسؤول، كقول النابغة الذبيانيّ مادحاً (ت١٨ ق.هـ):

ألـم تـرَ أنّ اللهَ أعطاكَ سُـورةً ... تَرى كلَّ مَلْـكٍ دونها يتذبذبُ

ولكن كيف سيواجه العربيّ الأول الموقف وهو يسمع من الرسول ﷺ هذا التساؤل الذي يؤكّد الرسول أنّه ليس هو قائلَه؟! إنّني أتخيّله يلتفت يميناً ثم شمالاً ثم يميناً ثمّ شمالاً وكأنّه يقول لنفسه متعجّباً: أين السائل؟! ومن المسؤول؟!

٢- ألم ترَ كيف:

التعبير (ألم ترَ) يتكرّر ما لا يقلّ عن ٤٥ مرّةً في الشعر الجاهليّ والشعر المخضرم (الجاهليّ/ الإسلاميّ) ومع ذلك خلت جميع الاستخدامات الشعريّة لهذا التركيب من الأداة (كيف) خلوّاً تامّاً.

ودخول اسم الاستفهام هذا على استفهامٍ سبقه مباشرةً (ألم) أمرٌ لم يكن مألوفاً للعربيّ، بل إنّه أربك النحويّين فيما بعد.

إنّ القواعد تمنع أن يعمل في اسم الاستفهام ما جاء قبله، لأنّ له الصدارة دائماً، فلا تسمح هذه القواعد لـ (كيف) أن تكون مفعولاً للفعل الذي سبقها (ترَ)، ولهذا لم يجدوا بدّاً من أن يجعلوها مفعولاً للفعل الذي يليها (فَعَلَ) رغم أنهم يدركون ما في هذا الحلّ من مغالطةٍ ومن مخالفةٍ للمنطق، فالمطلوب هنا ليس رؤيةَ الفعل نفسِه وإنما كيفيّة حدوث هذا الفعل، وإلاّ لكانت الجملة:

ألم تر فِعْلَ ربّك

مستغنيةً بذلك عن (كيف) التي لن يعود هناك في تلك الحال ضرورةٌ لوجودها.

ورغم خلوّ الشعر الجاهليّ والمخضرم تماماً من هذا التركيب، وكذلك الحديث الشريف، فإنّه يتكرّر في القرآن الكريم ٦ مرّات.

٣- أصحاب الفيل:

كانت قصّة الفيل وأبرهة الحبشيّ جدّ معروفةٍ للعرب قبل الإسلام، وبتفاصيل كثيرةٍ لم تُذكر في القرآن الكريم، منها أنّ الرسول ﷺ وُلد في عام الفيل، على معظم الأقوال، ومنها أنّ عائشة رضي الله عنها قالت: "لقد رأيتُ قائدَ الفيل وسائسَه أعميين مُقعدين يستطعمان بمكّة"[١]. ومنها أنّ أوّل ما رُئيَت الحَصْبة والجُدَريّ بأرض العرب كان في عام الفيل؛ إذ كان ما أصاب أصحابَ الفيل من تلك الحجارة أشبه بذلك المرض.

رغم كلّ ذلك لا نجد مصطلح (أصحاب الفيل) في الشعر الجاهليّ أو المخضرم، كما لا نجده في القرآن الكريم إلاّ في هذه السورة.

---

(١) البيهقي، أحمد بن الحسين. **دلائل النبوة**، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، بيروت والقاهرة: دار الكتب العلمية ودار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ، ١٩٩٨م، ج١، ص١٢٥.

٤- ألم يجعل:

عرفنا كيف تحوّل فقدان الرابط اللغويّ، الذي يربط الجملة عادةً بما قبلها، إلى ظاهرةٍ لغويّةٍ في القرآن الكريم. وتكاد لا تخلو سورةٌ من السور التي درسناها حتى الآن من حالةٍ أو أكثر من الحالات التي تمثّل هذه الظاهرة.

لقد استغنت الآية هنا عن أيّ رابطٍ لغويٍّ يربطها بما قبلها، كالواو أو الفاء، واستعاضت عنه بتأكيد الاستفهام (ألم) الذي سبق أن افتُتحت به الآية قبلها. ولو اتّبعنا أعرافنا اللغويّة في التعبير لقلنا:

فجعل كيدهم، أو:

فقد جعل، أو:

حين جعل...

٥- في تضليل:

أثبتنا قبل قليلٍ تفرّد القرآن الكريم باستعمال اللفظ (تضليل) بالمعنى الجديد الذي أعطي له. وما نريد إثباته هنا هو تفرّد القرآن أيضاً بالتركيب (في تضليل) أو بتعبيرٍ آخر: تفرّده بتعدية الفعل (يجعل) إلى الاسم (تضليل) باستخدام حرف الجرّ (في) بدلاً من أن يتعدّى إليه مباشرةً، فيكون مثلاً، لو أردنا الالتزام بتقاليدنا اللغويّة، شيئاً من هذا القبيل:

يجعل كيدَهم تضليلاً، أو:

يجعل كيدهم ضالاًّ

٦- يجعل كيدهم في تضليل:

لأول مرّةٍ، ولآخر مرّة، يعرف قاموس البيان العربيّ هذا التعبير لوصفِ موقفٍ يوميٍّ نواجهه باستمرار ولكنّنا نعبّر عنه بأسلوبٍ آخر، فنقول:

يُحبط مؤامرتهم، أو:

يُجهض محاولتهم، أو:

يُفشل خططهم، أو:

يبدّد مساعيهم..

لقد خلا التراث العربيّ الجاهليّ والإسلاميّ من هذا التعبير، وخلا منه الحديث الشريف أيضاً.

٧- أرسَلَ عليهم:

لم يتعدّ الفعل (أرسل) بحرف الجرّ (على) مطلقاً في الشعر الجاهليّ، ولا في الحديث الشريف، ومع ذلك فهو يتعدّى به في القرآن الكريم ٢١ مرةً، وبمعنىً مختلفٍ يكتسبه الفعل من هذه التعدِية الجديدة.

ولاحظوا الفروق في معاني الفعل واستعمالاته بين الآيات الكريمة التالية:

- ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]
- ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [هود: ٥٢]
- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤]
- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الصافّات: ٧٢]
- ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [الشورى: ٤٨]
- ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام: ٦١]

فالفعل في الآيتين الأولى والثانية تعدّى بـ(على)، وهو لذلك يحمل فيهما معنى الاستعلاء والإسقاط والتغطية والشمول. وغالباً ما يحمل الفعل في القرآن،

مع هذا النوع من التعدية، معنى العذاب، وقد شمل معظم الآيات الـ ٢١ التي تعدّى فيها بـ(على) إلاّ ثلاث آياتٍ -منها آية سورة (هود)- وقد جاءت في إرسال الغيث مدراراً على المؤمنين كما نرى.

أمّا في الآية الثالثة فقد تعدّى بالباء في قوله ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ فاكتسب معنى المصاحبة والحمل والتوصيل، على حين حمل قولُه في الآية نفسها ﴿أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٍ﴾، وكذلك في الآية الرابعة ﴿أَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ﴾، معنى الظرفيّة المكانيّة مع الدخول والانتشار، وذلك لتعدّيه بحرف الجرّ (في) فكأنه يقول:

ولقد أرسلنا في أرضهم رسُلاً منذرين يتخلّلون ديارهم وينتشرون فيهم.

وقد تعمّدتُ الاستشهاد بالآيتين الخامسة والسادسة، لأوضّح أنّ وجود الحرف (على) بعد الفعل (أرسل) في القرآن لا يعني دائماً تعْدية هذا الفعل بذلك الحرف، فـ(على) في آية الشورى متعلّقٌ بـ(حفيظاً) وليس بـ(أرسلناك) أي: أرسلناك لتكون حفيظاً عليهم. وفي آية الأنعام يحتمل الوجهين، فربّما تعلّق بـ(حَفَظَة) أي: حَفَظَةً عليكم (وليس بـ: يرسل) وربّما تعلّق بـ(يرسل) فيكتسب الفعل بذلك معنى الاستعلاء والتغطية والشمول.

٨- حجارة من سجّيل

وهو تعبيرٌ جديدٌ آخر لم تعرفه العربيّة قبل القرآن، ولا بعده، فهذه الحجارة الغريبة المجبولة من موادّ مجهولةٍ غامضة، والتي لم يتّفق المفسّرون على طبيعتها، أمرٌ حدث في الماضي، مرةً مع قوم لوطٍ، وأخرى مع أصحاب الفيل، ثم لم يتكرّر بعد ذلك أبداً.

ويخلو الحديث الشريف من هذا التعبير أيضاً.

٩ – كعصفٍ مأكول

عرفنا أنّ للقرآن الكريم قاموسه البيانيّ الخاصّ المفعم بالصور الجديدة، والعصف المأكول إحدى هذه الصور، وقد شَبّه فيها تعالى أجسامَ القوم، وقد تقطّعت أوصالهم وفتّت أجسادَهم المرضُ الذي سبّبته حجارة السجّيل، بالتبن أو قشور الحبوب التي أكلتها الحيوانات ومضغتها، ثم لفظتها أو راثتها.

والتعبير، فضلاً عن جدّة الصورة التي يحملها، هو أيضاً تعبيرٌ جديدٌ على العربيّة، ولا نجده إلاّ في القرآن الكريم، وفي هذه السورة وحدها. ويخلو منه الحديث الشريف.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- ألم ترَ كيف فعل ربّك:

لقد أثبتنا جدّة التركيب ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ وتفرُّد القرآن به حين نزل، وتكراره، مع ذلك، ٦ مرّات فيه.

ولكنّ هذه السبيكة ستستغرق فعلاً لاحقاً (فَعَلَ) ربّما كان يعمل في اسم الاستفهام الذي سبقه (أي أنّ التقدير: فَعَلَ كيف) -كما يذهب النحويّون- يتلوه فاعله المضاف إلى ضميرٍ (ربُّك)، وهذا الضمير عائدٌ على المخاطَب غير المذكور في الآية (أنتَ)، كما رأينا، ممّا يُؤكّد لهذه السبيكة خصوصيّتها القرآنيّة وبناءها الإيقاعيّ المتميّز: (ألم تعمل كيف عمِلَ).

٢- ألم يجعل كيدَهم في تضليل:

جاء الاستفهام (ألم) في الآية الأولى تقريريّاً إخباريّاً تذكيريّاً أكثر منه تساؤليّاً طلبيّاً إنشائيّاً، كعادة الاستفهام في القرآن غالباً، وهو هكذا في هذه الآية أيضاً، فرغم التقريريّة التي تسربل إنشائيّته، لأنّه من نوع الاستفهام التأكيديّ، أو "الاستفهام

التقريريّ" كما يسمّيه النحويّون، فإنّ المقصود في النهاية هو الإنشاء والطلب، وليس مجرّد الإخبار: انظر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، وانظر كيف جعل كيدهم في تضليل؛ إذ لا يقتضي منّا السياق بعد سماع الآيتين أن نقول: (نعم) أو (لا).

أترون كيف اضطررنا إلى التنقّل من محطّةٍ إلى أخرى، وهي محطّاتٌ غنيّةٌ بالمعاني والإشارات، قبل العودة إلى المحطّة الأولى التي سبق أن انطلقنا منها: (الطلب أو الإنشاء)، مستفيدين طبعاً من المنعطفات الذكيّة لهذه الرحلة، وما تركته في نفوسنا من إيحاءاتٍ وأصداء.

فإذا أضفت إلى هذا طبيعةَ البناء الخاصّ للآية، وشكْلَ المفعول الثاني للفعل (يجعل) -وهذا الأخير من الأفعال التي تتعدّى إلى مفعولين- وقد جاء هذا المفعول شبه جملة، من ناحية، وفي صياغةٍ لم يعرفها مِن قبْلُ القاموسُ التعبيريّ العربيّ ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ من ناحيةٍ أخرى، كان هذا كافياً ليجعل من الآية سبيكةً قرآنيّةً لها خصوصيّتها وتميّزها.

٣- وأرسلَ عليهم طيراً أبابيل:

إنّ تفرّد التعبير القرآنيّ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾ بتعدية الفعل (أرسل) بالأداة (على)، واقتصار التركيب النحويّ الخاصّ والعجيب ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ على القرآن، بل على هذه السورة - كما رأينا - يجعل من الآية سبيكةً أخرى لها بناؤها اللغويّ والإيقاعيّ القرآنيّ المميّز.

٤- تَرميهم بحجارةٍ من سِجّيلٍ فجعلَهم

يميّز هذه السبيكة القرآنيّة أنّ الآية تبدأ بجملة حالٍ (ترميهم) وقد جاء صاحب الحال في آيةٍ سبقتها (طيراً)، ولكن ينعطف على هذه الحال جملةٌ أخرى تبدأ بها الآية التالية لها (فجعلهم)، وهذه تابعةٌ لصاحبٍ آخر مختلفٍ هو الضمير المستتر العائد على (الله) في قوله (وأرسل) في الآية التي سبقتها نفسها.

فإن كانت جملة (ترميهم) صفةً لـ(طيراً) وليست حالاً، كما يمكن أن يذهب بعضنا في إعرابها، فإنّ ذلك لن يغيّر شيئاً من أمر هذا الحكم.

رابعاً: مواقع منفتحة

١- كيدهم:

بإمكاننا تبصّر القيمة الانفتاحيّة لهذا اللفظ لو استبدلنا به الألفاظ المغلقة التي تعبر عن معناه الجوهريّ بشكلٍ مباشر، فكيف يمكن أن نعبّر بألفاظنا عن ذلك؟ طبعاً ليس أمامنا إلاّ ألفاظٌ مثلَ: غزْوَهم، حربهم، جيشهم، عدوانهم، حمْلتهم، خطّتهم، تدبيرهم..

وهكذا يسهل علينا إدراك حيويّة اللفظ القرآنيّ وغناه وتعدّد أبعاده، فإنّ الكيد يشمل كلّ هذه المعاني التي ذكرناها، مضافاً إليها النوايا السيّئة والخبث والإجرام والعدوان المبيّت، وما إلى ذلك من الظلال المعنويّة التي يتمتّع بها اللفظ في السياق القرآنيّ.

٢- في تضليل:

إنّ فرادة هذا التعبير القرآنيّ تمنحه قوّةً إيحائيّةً غير عادية، وترفعه بهذا العنصر الإيحائيّ عن مستوى أيّ تعبيرٍ آخر يمكن أن يؤدّي معناه بشكلٍ مباشر، من مثل: هزيمة، أو دمار، أو هلاك، أو إحباط، أو إفساد..

٣- طيراً أبابيل:

رأينا كيف اختلف المفسّرون حول المعنى الدقيق للّفظ (أبابيل)، وكذلك حول وصف (الطير) التي أرسلها الله على أصحاب الفيل.

ولا شكّ أنّ تعدّد احتمالات المعاني أو الأوصاف التي ذكرناها لكلٍّ من اللفظين، مع اجتماعهما معاً هنا وتقاطع هذه الاحتمالات وتلاقحها فيما

بينها، من شأنه أن يضاعف القوّة الانفتاحيّة للتعبير ويمنحه المزيد من الغنى والإيحاءات والظلال.

٤ – حجارةٍ من سِجّيل:

و(السجّيل) الذي اختلف المفسّرون أيضاً حول معناه، واقترحوا له أكثر من معنىً، يكتسب بهذه المعاني العديدة المقترحة، كما تكتسب الحجارة التي وُصفت به أو صُنعت منه، أثواباً وألواناً وغنىً لا تتمتّع بها الألفاظ أو العبارات المباشرة ذات البعد الواحد.

٥ – كعصفٍ مأكول:

وكما اختلفوا حول الأبابيل والسجّيل اختلفوا حول (العصف) فأعطوه أكثر من معنىً، كما أضفى عليه الوصفُ الغريب والجديد (مأكولٌ) أكثر من وجه، ممّا يغني إلى درجةٍ كبيرةٍ الطاقة الاحتماليّة لهذا التعبير القرآنيّ.

خامساً: جوامع الكَلِم

١– أصحاب الفيل:

لقد أخذ هذا التعبير موقعه في قاموسنا التاريخيّ والقصصيّ والدينيّ، فما أن تقول ﴿أصحاب الفيل﴾ حتى يذهب الذهن إلى تلك القصة القرآنيّة بكلّ تفاصيلها. وهكذا غدا التركيب بمثابة مصطلحٍ لغويٍّ رمزيٍّ يُجْمل تلك الحادثة الهامّة.

٢– ألم ترَ كيف فعل ربّك:

تفرّد القرآن الكريم بهذا التعبير –كما رأينا– ولكنه غدا صالحاً لترديده بعد كلّ عقابٍ ينزله الله في عبدٍ أو عبادٍ من عبيده إذا اشتدّ ظلمهم على الآخرين، أو لإطلاق صرخةَ تحذيرٍ في وجه كلّ من تحدّثه نفسه بهذا الظلم.

٣- يَجعلْ كيدَهمْ في تضليل:

وهذا تعبيرٌ قرآنيٌّ آخر يَصلح أن نستخدمه في كثيرٍ من ممارساتنا اليوميّة. فهو خير ما نردّ به على أيّ ظالم يهدّد أحدَهم بانتقاص حقٍّ من حقوقه فنقول لهذا معزّين: لا تقلق، سيجعل الله كَيدهم في تضليل. وإذا أحسسنا بمؤامرةٍ تدبَّر ضدّ أوطاننا من قبل معتدٍ أو ظالمٍ، أو بمكرٍ يدبّره لنا من أراد بنا سوءاً، دعَونا الله تعالى مبتهلين: اللهمّ اجعل كيدهمً في تضليل ..

٤- فجعلهم كعصفٍ مأكول:

فإذا تحقّقت الهزيمة، وباء العدوّ بالخسران، وعُدنا لنتحدّث عمّا تحقّق لنا من انتصارات، ووصفِ ما وقع للأعداء من دمار، قلنا: فجعلهم كعصفٍ مأكول.

السورة الثانية عشرة

الهُمَزة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ٣ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩ ﴾

هذه هي السورة الحادية عشرة حسب الترتيب التراجعيّ للسوَر، ومجموع كلمات السورة لا يتجاوز ٣٣ كلمة، ولكننا نكتشف فيها ما لا يقلّ عن ٦٠ موقعاً جديداً أحدثه القرآن الكريم في اللسان العربيّ.

إنّها واحدةٌ من أغنى سوَر القرآن الكريم بالمواقع اللغويّة الجديدة على مختلف جوانبها. وفيها، إلى ذلك، ما لا يقلّ عن سبعة ألفاظٍ لا تتكرّر في غيرها من السوَر: (هُمَزة، لُمَزة، عَدّده، أَخلَده، لَيُنبَذَنّ، الحُطَمَة، المُوقَدة) وما لا يقلّ عن سبعة تعبيراتٍ تقتصر عليها وحدها أيضاً دون باقي سوَر القرآن: (هُمَزةٍ لُمَزة، جمع مالاً وعدّده، كلاّ ليُنبَذنّ، نارُ الله، تطّلعُ على الأفئدة، عليهم مؤصدة، عَمَدٍ ممدّدة)، فضلاً عن السبائك اللغويّة المتفرّدة التي اختصّت بها دون باقي السُّوَر.

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- ويلٌ:

سبق أن تعرّضنا لهذا اللفظ في الآية ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ من سورة (الماعون)، ولدينا هنا ما نضيفه أيضاً.

لنسمع أولاً ما قاله ابن خالويه عن جدّة استعمال هذا اللفظ في القرآن الكريم:

"وقال آخرون: ويلٌ: معرفةٌ لأنه اسم وادٍ في جهنّم، فإن قيل: وهل تعرف العرب ذلك؟ فقل إنّ ألفاظ القرآن تجيء لفظاً عربيّاً مستعاراً، كما سمّى الله تعالى الصنمَ بعلاً، حيث اتُّخِذ ربّاً، والصنمَ عذاباً ورجزاً، فقال: والرُجزَ فاهجُر، لأنّ من عَبَد الصنم أصابه الرُجز، فسُمّي باسم مسبّبه، فلمّا كان الويل هلاكاً وثبوراً، ومن دخل النار فقد هلك، جاء أن يسمّى المصيرُ إلى الويل: ويلاً."[1]

وما يذهب إليه ابن خالويه هو أنّ القرآن كثيراً ما ينقل اللفظ من استعماله الحقيقيّ إلى استعماله المجازيّ. فإذا كان الويل في العربيّة هو مجرّد الهلاك أو العذاب، فقد منحه القرآن معنىً جديداً حين أطلقه، على مذهب بعض المفسّرين واستناداً إلى بعض الأحاديث غير الموثّقة، على اسم وادٍ في جهنّم يعاقَب فيه أصحاب النار، أو ربّما على جبلٍ في جهنّم، أو جبلٍ من النار فيها، وهو إذنْ، بهذا المعنى، مكان العذاب وليس العذابَ نفسَه.

والحقّ أن الاستعمال القرآنيّ لهذا اللفظ، بغضّ النظر عن معناه، حقيقيٌّ هو أم مجازيّ، يختلف غالباً عن استعمال العرب له، كما نتبيّن في الحالات الـ ١٣ التي وجدناها له في الشعر الجاهليّ. فهو يرد في ١٠ حالاتٍ منها مضافاً إلى اللفظ (أمّ) وفي حالةٍ واحدةٍ أخرى مضافاً إلى (أَب). كما في الأبيات:

يا ويلَ أمِّكمُ مِن جَمْعِ ســـادتِنا ‏ ‏ ‏ ‏ كتائباً كالرُبى والقطرُ ينســـكبُ

الحارث بن عبّاد (ت٧٤ ق.هـ)

---

(١) الدرويش، **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، مرجع سابق، ج٨، ص٤٠٧.

هلاّ عطفْتَ على أُخَيِّك إذ دعا ... بالثُكلِ ويلُ أبيكَ ياابنَ أبي شَمَرْ

عمرو بن كلثوم (ت٣٩ ق.هـ)

ويْلُمِّ حيٍّ دفعتُمْ في نحورِهمُ ... بني كِلابٍ غداةَ الرُعْبِ والرَهَبِ

الطُفيل الغنوي (ت١٣ ق.هـ)

على حين نجده متعدّياً باللام في بيتين فقط:

له الويلُ إن أمسَى ولا أمُّ هاشمٍ ... قريبٌ، ولا البَسباسةُ ابنةُ يشكُرا

امرؤ القيس (ت٨٠ ق.هـ)

ويـــلٌ لشيبانَ إذا صبّحتُهـــا ... وأرسلـتْ بِيضُ الظُبا شُعاعَهـا

عنترة (ت٢٢ ق.هـ)

أمّا في القرآن الكريم ففي الحالات الـ ٤٠ التي يرد بها هذا اللفظ نجده يتعدّى في ٢٧ منها باللام –لاحظ الفرق الكبير في نسبة هذا الاستعمال بين كلٍّ من القرآن والشعر– ومنه قوله تعالى:

- ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩]
- ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطفّفين: ١]

وقد أضيف في بقية الحالات (١٣ حالة) إلى ضميرٍ (ضمير المتكلّم أو المتكلّمين أو المخاطب أو المخاطبين) وهذا ما لم يعرفه الشعر أبداً من قبل، كما في الآيات:

- ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ [هود: ٧٢]
- ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهف: ٤٩]
- ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [الأحقاف: ١٧]
- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ ﴾ [القصص: ٨٠]

والأغرب من هذا ألاّ نجد في القرآن الكريم إضافةً واحدةً إلى الأب أو الأمّ، ولا في الحديث الشريف، وهي الصيغة التي استأثرت بمعظم حالات استعمال هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ.

وهكذا نجد أنّ القرآن الكريم قد خالف الشعر الجاهليّ في ثلاثة أوضاع والتقى معه في وضعٍ واحدٍ من الأوضاع الأربعة التي استُخدم فيها هذا اللفظ، وهي حالة التعدّي باللّام، مع ملاحظة عظم الفجوة بينهما حتّى في هذا الاستعمال (٢٧ / ٢). ويلخّص كلّ ذلك الجدول التالي:

الحالة	في القرآن الكريم	في الشعر الجاهلي
العدد الإجمالي	**٤٠**	**١٣**
مضاف إلى (أمّ)	–	١٠
مضاف إلى (أب)	–	١
متعدٍّ باللام	٢٧	٢
مضاف إلى ضمير	١٣	–

ويخلو الحديث الشريف من ثلاثةٍ من هذه الأوضاع، ويقتصر على وضع التعدّي باللام "ويلٌ للأعقاب من النار"[١] وينفرد بوضعٍ لا نجده في القرآن ولا في الشعر الجاهليّ، وهو التعريف بـ "ال" "يَدْعون بالويلِ والثبور". [٢]

٢- هُمَزَة:

لفظٌ قرآنيٌّ محضٌ لا نعثر عليه أو على مشتقّاته في تراثنا الجاهليّ، ولا في تراثنا الإسلاميّ حتى القرن الرابع الهجريّ، ويخلو منه الحديث الشريف تماماً.

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٣٣، حديث رقم ٦٠.

(٢) الطبراني، سليمان بن أحمد. **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، الموصل: مكتبة العلوم والحكم، ط. ٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣، ج٧، ص٣١٠، حديث رقم ٧٢٤٢.

وفضلاً عن ذلك تختصّ سورة (الهُمزة) باللفظ، فلا يتكرّر في غيرها من سوَر القرآن الكريم.

٣- لُمَزَة:

وهو لفظٌ قرآنيٌّ آخر لا نجده، هو أو مشتقّاته، في الشعر العربيّ، لا قبل الإسلام ولا بعده. ولا يتكرّر اللفظ في القرآن في غير هذا الموضع، ويخلو منه الحديث الشريف أيضاً.

٤- عَدَّده:

رغم ورود اللفظ (عَدَد) -من غير تضعيفٍ- ٨ مرّات في الشعر الجاهليّ، لا نعثر عليه هناك أبداً بالتضعيف كما هو هنا، ولا على مشتقّاته.

وعلينا أن ننتظر حتى العصر الأمويّ لنجد اللفظ عند الفرزدق (ت١١٠هـ) أكثر من مرّة، كقوله:

كم فيكَ إنْ عُدِّد المعروفُ من كرمٍ ونائلٍ كخليج المُزبدِ الجاري

ومن الواضح أنّ المعنى القرآنيّ للفعل يختلف عن المعنى الشعريّ أو المألوف في لغتنا العاديّة، لأنّه في القرآن بمعنى: نوّعه، أو أكثر منه، أو عاد إليه مرّةً بعد أخرى، على حين لا يتجاوز الفعل في لغتنا معنى العدّ أو الإحصاء.

ومرةً أخرى تنفرد هذه السورة باللفظ، فلا يتكرّر ثانيةً في القرآن الكريم، ومرةً أخرى لا نعثر عليه في الحديث الشريف أيضاً.

٥- أَخْلدَه:

أوّل مرّةٍ نعثر فيها على هذا اللفظ في الشعر العربيّ هي في القرن الخامس الهجريّ عند الشاعر عليّ الحصريّ القيروانيّ (ت ٤٨٨هـ)، ثم في القرن السابع عند المكزون السنجاريّ (ت ٦٣٨هـ) وقد استند هذا الأخير في استعماله إلى التعبير القرآنيّ:

وظَــنّ أنّ مــالَه أخلــدهُ   فكان ما ظَنَّ ولكنْ في سَقَرْ

فهو إذن، لفظٌ قرآنيٌّ لم يعرفه الشعر العربيّ قبل الإسلام، وهو -مرةً أخرى- لفظٌ خاصٌّ بهذه السورة لا يتكرّر في القرآن في غير هذا الموضع، ويخلو منه الحديث الشريف أيضاً.

ومن المهمّ أن نفرّق هنا بين الفعل الثلاثي اللازم (خَلُدَ) والمتعدّي بالتضعيف (خَلَّدَ) وبين المتعدّي بالهمزة (أخلَدَ). فنحن نستعمل في لغتنا العادية الفعل المضعّف فنقول: خلّدَ التاريخُ أبطالَنا، وقد نستعمله لازماً (أي في صيغةٍ لا يحتاج معها إلى مفعولٍ به) كقولنا: وهل يظنّ أنّه سيَخلُد في هذه الدنيا؟ ولكنّ القرآن الكريم يأتي من الفعل اللازم بصيغةٍ جديدةٍ (أخلَدَ) ليُكسبه بالهمزة قوّة المتعدّي فيصبح على وزن (أفعَلَ).

ونجد للفعل صيغتين أخريين في الشعر الجاهليّ والإسلاميّ -ولكن ليس الصيغة القرآنيّة طبعاً (أخلَد)- كما في قول زهير (ت ١٣ ق.هـ):

لو كان يَخْلُدُ أقوامٌ بمجدِهمُ   أوْ ما تَقَدَّمَ مِن أيّامِهمْ خَلُدوا

ولاحظ كيف كان بإمكان زهير أن يقول (لو أخلَدَ الله أقواماً) بدلاً من (لو كان يَخلُد أقوامٌ) من غير أن يعتور بحرَ البسيط، الذي جاء عليه البيت، أيُّ أذىً، ولكنّ هذا الفعل القرآنيّ لم يكن متداوَلاً آنذاك في قاموس الحياة اللغويّة عند العرب، ولم يدخل بعد ذلك في لغة الحديث الشريف، وظلّ إلى الآن بعيداً عن قاموسنا اللغويّ المعاصر.

٦- كلاّ:

يتكرّر هذا اللفظ في القرآن الكريم ٣٣ مرةً في صورةٍ لم يعهدها الشعر العربيّ من قبل، ولا من بعد، ولم يعرفها كذلك الحديث الشريف. ورغم ورود هذا اللفظ عدة مرّات في كلا الشعر العربيّ والحديث الشريف -ليس بالكثافة القرآنيّة على أيّة حال-؛ فإنّه يأتي فيهما بمعنى النفي أو تأكيد النفي، أو ردّاً لزعمٍ،

أو نفياً لإثباتٍ يسبق هذا اللفظ أو يلحق به، كما نقول نحن اليوم: أتريدني أن أخون ضميري؟ كلاّ وألف كلاّ. وكما في هذه الأبيات:

أفَبعدَ مَقتَلِكمْ بُجَيراً عَنْوَةً — تَرجُونَ وُدّاً آخِرَ الأيّـامِ
كلاّ وربِّ الراقصاتِ إلى مِنىً — كلاّ وربِّ الحِـلِّ والإحرامِ

الحارث بن عبّاد (ت٧٤ ق.هـ)

أخشى عليها ولولا ذاكَ ما وقفتْ — ركائبي بين وِرْدِ العَـزمِ والصَـدَرِ
كلاّ ولا كنتُ بَعد القُربِ مقتنعاً — منها، على طولِ بُعدِ الدّار، بالخَبرِ

عنترة (ت٢٢ ق.هـ)

كلاّ زعمتمْ بأنّـا لا نقابلُكـم — إنّا لأمثالِكمْ يا قومَنـا قَتَـلُ

الأعشى (ت٧هـ)

فقلتُ لهم خلّوا النّساءَ لأهلِها — فقالوا لنا: كلاّ، فقلنا لهم: بلى

النابغة الجعديّ (ت٥٠هـ)

فالحارث ينفي باللفظ (كلاّ) في البيت الثاني ظنونَ القوم وآمالهم بالعفو والصلح معهم بعد قتلهم لبُجَير، وعنترة يؤكّد نفيه في بيته الثاني لِما سبق أن نفاه في البيت الأول، والأعشى ينفي زعماً لأعدائه سيذكره بعد (كلاّ)، والنابغة يستعمل اللفظ بمثابة حرف جواب، مثله مثل: (نعم) و (لا) و (بلى).

ويتأكّد لنا تميّز الاستعمال القرآنيّ عن الاستعمال النبويّ أيضاً لو استعرضنا الأحاديث الثلاثة الآتية:

- رأى عيسى بنُ مريمَ عليه السلام رجلاً يسرق، فقال له: أسرقتَ؟ قال: كلاّ والله الذي لا إله إلاّ هو، فقال عيسى: آمنتُ بالله وكذّبتُ عيني[1]

- قال سعدُ بنُ عبادة: يا رسولَ الله، لو وجدتُ مع أهلي رجلاً، لم أَمَسَّه حتى آتيَ بأربعةِ شهداء؟! قال رسول الله ﷺ: نعم. فقال: كلاّ والذي بعثكَ

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٧٣٨، حديث رقم ٢٣٦٨.

بالحقّ، إنْ كنتُ لأعاجلُه بالسيف قبل ذلك. فقال رسول الله ﷺ: اسمعوا إلى ما يقول سيّدُكم!! إنّه لغَيور، وأنا أغيَرُ منه، والله أغْيَرُ منّي[1]

- .. كلاّ واللهِ، لَتَأمُرُنَّ بالمعروف، ولَتَنهَوُنَّ عن المنكر، ولتأخُذُنَّ على يدِ الظالم، ولتَأطُرُنَّه على الحقِّ أَطْراً، ولَتَقْصُرُنَّه على الحقِّ قَصْرا[2]

لقد جاء اللفظ في الحديث الأول على لسان السارق وهو ينفي أمام عيسى عليه السلام أنّه سرق.

وجاء في الحديث الثاني على لسان سعدٍ رضي الله عنه ينفي قدرته على أن ينتظر حتى يأتي بأربعة شهودٍ إذا رأى الزنى في أهله.

وجاء الحديث الثالث -وهو في الأصل حديثٌ طويل- على لسان الرسول نفسه، بعد أن حكى لنا ﷺ كيف كان اليهود لا يتناهَون عن منكرٍ فعلوه، فحذّرنا من ذلك بقوله: كلاّ والله.. وهي جميعاً معانٍ لا تخرج عمّا عهدناه، وما نزال نعهده، من أبواب استعمال هذا اللفظ، وإن كان استعمال النبيّ ﷺ له في الحديث الأخير أقربَ من الحديثين اللذين سبقاه إلى الاستعمال القرآنيّ.

أمّا اللفظ القرآنيّ فيضعنا مرغمين أمام تساؤلاتٍ عديدةٍ ونحن حائرون: تحت أيّ صنفٍ من المعاني التي عهدناها لهذا اللفظ نضعه؟! ولنقرأ معاً هذه الآيات الكريمة:

- ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ [المعارج: ٣٦ - ٣٩]

- ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ [عبس: ٢٠ - ٢٣]

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص١١٣٥، حديث رقم ١٤٩٨.

(٢) البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**، مرجع سابق، ج١٠، ص٩٣، حديث رقم ١٩٩٨٣.

- ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ [المطفّفين: ١٣ – ١٩]

- ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ١٩ – ٢٢]

- ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [التكاثر:١ – ٥]

ففي آيات (المعارج) قد يتبادر إلى الذهن أنّ (كلاّ) جاءت لتنفي آمال الكافرين بأن يدخلوا الجنّة، ونتوقّع، من ثمّ، أن يأتي بعدها ما هو موضِّحٌ ومؤكِّدٌ لهذا النفي، أي شيءٌ من هذا القبيل: (كلاّ لن يدخلوا الجنّة)، ولكنّنا نفاجأ بأنه يلتفت إلى شأنٍ آخر، فيتحدّث عن عمليّة خَلقِهم، ويذكّرهم بما كانوا عليه من حقارة شأنٍ قبل هذا الخَلق.

أمّا في آيات (عبَس) فيحدث العكس؛ إذ تتحدّث الآيات الأولى عن خلق الإنسان وموته وبعثه، فنتوقّع أيضاً أن يكون ما بعد (كلاّ) نفياً لشيءٍ يتعلّق بما قبلها، كأن يقال مثلاً: (كلاّ لمّا تنقضِ مراحل مصيره كلُّها بعد، فهناك أيضاً الحساب، والجنّة أو النار بانتظاره)، ولكنّنا نفاجأ بالالتفات إلى نفي قيام الإنسان بما أمره به ربّه في الحياة الدنيا، وتقريعِه على ذلك.

ومن الواضح في آيات (المطفّفين) أنّ (كلاّ) الأولى جاءت زجراً لمن أُغلِقت قلوبهم (أي عقولهم) فوصفوا ما جاء به الرسول ﷺ من عند ربّه بأنّه أساطير، فينبّئهم الله تعالى بما ينتظرهم من عذابٍ جزاءَ تكذيبهم، ونتوقّع أن يجري السياق بعد (كلاّ) الثانية تأكيداً لهذا المعنى، أو نفياً لمزاعمهم –كما كان في الأولى– ولكننا نفاجأ بالانتقال بعدها من الحديث عن جزاء الكافرين إلى الحديث عن جزاء المؤمنين.

طبعاً تلاحظون معي أنّ هناك مقابلةً مقصودةً بين النهايتين المتناقضتين لهؤلاء وهؤلاء، وهذا هو دور (كلاّ) هنا: تغيير "إشارة المرور" ليتحوّل السياق من موضوعٍ إلى آخر، قد يكون نقيضَه تماماً، كما هو هنا، وكما هو في آيات (الفجر) و(التكاثر)، وكما هو كذلك في آيات (الهُمزة) التي نحن بصددها، ولكنّه قد يقتصر على مخالفته له، قليلاً أو كثيراً، كما في آيات (المعارج) و (عبس).

٧ - ليُنبَذَنّ:

رغم وجود اشتقاقات هذا الفعل في الشعر الجاهليّ، وكذلك في الحديث الشريف، فإننا لا نعثر عليه فيهما بهذه الصيغة القرآنيّة الخاصّة: القَسَم التأكيديّ لصيغة الغائب المبنيّ للمجهول. ورغم أنّ الموسوعات الضوئيّة لا تساعدنا في هذه المرحلة على التأكّد من وجود صيغة القسم هذه، من أي فعلٍ كانت، فأنا أشكّ في أنّها كانت معروفةً على الإطلاق قبل نزول القرآن.

ومرّةً أخرى تختصّ سورة (الهُمزة) بهذه الصيغة للّفظ فلا تتكرّر في القرآن أبداً. ولم أجد الفعل (نبذ) في الحديث الشريف متعدّياً بالحرف (في) كما هو هنا، ومن ثمّ لم أجده فيه بالمعنى القرآنيّ، وإنّما جاء متعدّياً بنفسه فيكون بمعنى (نبَذَ النبيذ)، أو بمعنى (أعطى) "ينبُذُ الرجلُ إلى الرجل الثوبَ"،[1] أو متعدّياً بـ (إلى)، فيكون بمعنى (يبثّ) أو (يوحي) كما في حديث الرسول ﷺ عن نزول جبريل عليه بالوحي "فيَنبُذه إلي".[2]

٨- ٩- الحُطَمَة (مكرّر):

لم أجد هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ، وإنّما نعثر فيه مرةً واحدة على (حُطْمَة) -بتسكين الطاء- وهي سَنَة القحط الشديدة، وذلك في قول ذي الخِرَق الطُهَويّ (ت؟):

---

(١) النسائي، **المجتبى من السنن**، مرجع سابق، ج٧، ص٢٦٠، حديث رقم: ٤٥١٣.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص١٤٦، حديث رقم: ٩٣٣.

إنّا إذا حُطْمَةٌ حَتّتْ لنا ورَقاً نمارسُ العُودَ حتّى يَنبُتَ الورقُ

وقد عثرت عليها في الحديث الشريف مرةً واحدة، وجاءت فيه بمعنى الراعي الذي يشتدّ على غنمه في سَوقه لها حتى يَحطم بعضُها بعضاً:

- أنّ عائذ بن عمرو دخل على عُبيد الله بن زياد فقال: أيْ بُنيّ، إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنّ شرَّ الرِّعاء الحُطَمَةُ" فإيَّاك أن تكون منهم..[1]

واللفظ يرد مرّتين في القرآن، كلتاهما في هذه السورة القصيرة.

ومن الواضح أن القرآن الكريم قد أعطى هذا اللفظ معنىً جديداً تماماً، وسيصبح منذ الآن اسماً من أسماء جهنّم.

١٠- تطّلع:

لا نعثر على هذا اللفظ أو مشتقّاته في الشعر الجاهليّ، لا بالمعنى القرآنيّ، وهو الكشف والإظهار، ولا بغيره، وإنما نجد اللفظ (تَطَلَّعُ) بمعنى (تَطلُع) أو (تخرج) وربما بمعنى (تنظر) وذلك عند الشاعر عمرو بن قُميئة (ت٨٥ ق.هـ):

ويــومٍ تَطَلَّــعُ فيــه النفـــو سُ تُطـرِّفُ بالطّعنِ فيه الرجالا

ويتكرّر اللفظ مرةً أخرى في سورة (المائدة). ولم أجده في الحديث الشريف.

١١ – الأفئدة:

لا وجود لهذا اللفظ في الشعر الجاهليّ بصيغة الجمع هذه أبداً، رغم أنّ الصيغة تتكرّر في القرآن الكريم ١١ مرة. ولا وجود له في الحديث الشريف إلاّ أن يرد في سياق آية.

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٤٦٣، حديث رقم ١٨٣٠.

١٢ - مؤْصَدَة:

هذا أيضاً من الألفاظ التي سنستغرب لو عرفنا أنها لا ترِد مطلقاً، هي أو مشتقّاتها، مهموزةً أو مخفَّفةً بالواو (موصدة)، لا في الشعر الجاهليّ ولا في الحديث الشريف.

وأوّل استعمالٍ لأحد اشتقاقاتها في الشعر العربيّ نجده عند مجنون ليلى (ت٦٨هـ) في قوله:

وعهدي بليلى وهي ذاتُ مؤصَّدٍ تَـردُّ علينـا بالعشيِّ المواشـيا

والمؤصّد هنا قميصٌ تلبسه صغار الفتيات تحت الثوب، ويقابله الدرع عند كبارهنّ، وقد ذُكر الاثنان معاً بعد ذلك في بيتٍ لكثيّر عزّة (ت١٠٥هـ)؛ إذ يقول:

وقد درّعوها وهْي ذاتُ مُؤصَّدٍ مَجوبٍ ولمّا يَلبَسِ الدِرعَ رِيدُها

أمّا اللفظ نفسه فعلينا أن ننتظر قرنين آخرين لنعثر عليه لأوّل مرة في الشعر العربيّ، وفي وصف جهنّم أيضاً، عند ابن الروميّ (ت٢٨٣هـ) وذلك قوله:

تراهُ عيونُ الناظرين ودونَهُ حجابٌ وبابٌ من جهنَّم مُؤصَدُ

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١ - ويلٌ:

من الواضح أنّ ابتداء الحديث بنكرة، سورةً كان هذا الكلام أو أيَّ فنٍّ أدبيٍّ عرفناه، أمرٌ لم تعتده الأذن العربيّة.

فأن تبدأ جملةٌ أو بيتٌ من الشعر بنكرةٍ ليس أمراً خطيراً، رغم أنه ليس مألوفاً كثيراً أيضاً، ولكن أن يبدأ بها فصلٌ كاملٌ من كتاب فهذا أمرٌ غير عاديٍّ ويستحقّ التوقّف عنده.

هل يتوقّع الوالدان، مثلاً، أن يتسلّما من المدرسة يوماً رسالةً تبدأ هكذا:

السيّد فلان، تـحيّةً وبعد،

طرْدٌ لولدكم من المدرسة لأنّه...؟

إنّ سور القرآن الكريم تخلو من مثل هذا الابتداء بالنكرة، إلاّ أربع سور، كما سبق أن رأينا في الجزء الأوّل من هذا الكتاب:

أ- التوبة، وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾،

ب- النور، وتبدأ بقوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا ﴾،

ت- والمطفّفين، وتبدأ بقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾،

ث- والهُمَزة.

وإذن، فسورتان من السور الأربع بدأتا بالنكرة نفسها (ويلٌ). ولعلّ ممّا سهّل هذا الابتداء بنكرة هو الذي جعل بعضهم يذهب إلى أن اللفظ اسم علمٍ لوادٍ أو جبلٍ في جهنّم، فتكون السورتان، وفق ذلك التفسير، قد ابتدأتا بمعرفة.

وقيل إنّ ممّا سوّغ الابتداء بهذا اللفظ ما تضمّنه من معنى الدعاء.

أمّا اللفظ (براءة) في مطلع سورة (التوبة) واللفظ (سورةٌ) في مطلع سورة (النور) فيخفّف من تنكيرهما أنّهما موصوفان بإلحاقهما تعالى في الأولى بقوله: ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ أي: براءةٌ آتيةٌ منهما، وفي الثانية بقوله: ﴿ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ أي: مُنزَلةٌ ومفروضة. والمعروف أنّ إلحاق النكرة بصفةٍ يقرّبها من مرتبة المعرفة.

ورغم وجود بعض المذاهب التي تسوّغ الابتداء بنكرة، أحياناً، تحتفظ هذه الحالة بقوّتها وفرادتها، لأنها، كما قدّمنا، ليست مجرّد ابتداءٍ لجملةٍ أو بيت، وإنما هي ابتداءٌ لعملٍ أدبيٍّ كامل.

٢- ويلٌ لكلّ:

هذا التعبير خاصٌّ بالقرآن وحده، إذ لا وجود له في الشعر الجاهليّ -كما رأينا من استعمالات اللفظ (ويل)- ولا وجود له في الحديث الشريف أيضاً، ولا يتكرّر في القرآن إلاّ مرّتين، كما أسلفنا.

٣- هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ:

هذا تعبيرٌ قرآنيٌّ خاصٌّ لم يسمعه العرب في الجاهليّة، ولا يتكرّر في القرآن أبداً، ولا وجود له في الحديث الشريف.

٤- الذي:

من المعروف أنّ الاسم الموصول هو أحد المعارف السبع في اللغة العربيّة، ومن أعرافنا النحويّة أن توصف المعرفة بمعرفة، والنكرة بنكرة، وهذا ما لم يحدث هنا.

نقول:

انهمر مطرٌ غزيرٌ، أو:

انهمر المطرُ الغزير..

ولا نقول:

انهمر مطرٌ الغزيرُ، ولا:

انهمر المطرُ غزيرٌ

فالاسم الموصول (الذي) جاء في السورة صفةً لأحد اللفظين (هُمزة) أو (لُمزة) أو للاثنين معاً، وكلاهما نكرة، وهو معرفة.

ولا نجد هذا النوع من الوصف في الشعر الجاهليّ، ولا في القرآن الكريم، ولا في الحديث الشريف، إلاّ ما جاء في روايةٍ واحدةٍ تخالف رواياتٍ أخرى للدعاء النبويّ المأثور:

- اللهمّ ربَّ هذه الدعوةِ التامّة والصلاةِ القائمة، آتِ محمّداً الوسيلةَ والفضيلة، وابعثْه مقاماً محموداً الذي وعدتَه[1]

فوُصِفت النكرة (مقاماً) هنا، خلافاً للروايات الأخرى، بالاسم الموصول (الذي). ورغم أنّ وصفها بـ (محموداً) يخفّف من تنكيرها ويقترب بها من حدود المعرفة فإنّها تَرِد في الروايات الأخرى معرفةً هكذا "وابعثْه المقامَ المحمودَ الذي وعدتَه"[2] فينتفي معها الشاهدُ في الحديث.

وفي القرآن أكثر من حالةٍ شبيهةٍ بهذه الحالة، ولكن مع غير الاسم الموصول، ممّا سبّب للنحويين حيرةً لخّصها ابن هشام بقوله:

"إنّ (الذي) -في الهُمَزة- بدلٌ، أو صفةٌ مقطوعة، بتقدير: هو، أو: أذمّ، أو: أعني، هذا هو الصواب، خلافاً لمن أجاز وصف النكرة بالمعرفة مطلقاً، ولمن أجازه بشرطِ وصفِ النكرة أولاً بنكرة، وهو قول الأخفش"[3].

٥- الذي جمع مالاً وعدّده:

تمثّل هذه الآية ظاهرةً قرآنيّةً مرّت بنا في سورة (الماعون)، وتتكرّر كثيراً في القرآن الكريم، ولا نجدها في غيره.

فالآية تبتدئ باسم موصول، وهو صفةٌ أو بدلٌ من (هُمزة) أو (لُمزة) كما رأينا، وهي حالةٌ تختلفُ بها عن الآيات التي ربما تبتدئ باسم موصولٍ، ولكن يُسبَق عادةً برابطٍ يربطه بما قبله (الواو أو الفاء مثلاً) كقوله تعالىً:

- ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ [النساء: ١٦]

- ﴿ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [النساء: ٣٤]

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٢، حديث رقم: ٥٨٩.

(٢) البستي، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، مرجع سابق، ج٤، ص٥٨٦، حديث رقم ١٦٨٩.

(٣) ابن هشام الأنصاري، جمال الدين عبد الله بن يوسف. **مغني اللبيب عن كلام الأعاريب**، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٥م، ص٧٤٧.

ولم أعثر على أيّ بيتٍ جاهليّ، وربما غير جاهليّ، يبدأ بـ (الذي) أو مشتقّاتها، مذكَّرةً كانت أو مؤنّثة (الذين، اللذان، التي، اللتان، اللواتي، اللائي) إلاّ أن تسبقها أداةٌ أو رابطٌ (هي غالباً الأداة: إنّ) كقولهم:

إنّ الذي يقبضُ الدنيا ويبسُطها ... إن كان أغناكَ عنّي سوف يُغنيني

ذو الأصبع العدواني (ت٢١ ق.هـ)

إنّ التي علِقَتْ بها آمـالُنا ... دارٌ تَصَرَّفُ كالظِلالِ الأُفَّـلِ

عبد الله اليَشكُريّ (ت؟)

٦- جمَعَ مالاً:

لو تركنا لأنفسنا أن نعبّر عن هذا المعنى نفسه بلغتنا فماذا يمكن أن نقول؟ دعونا نجرّب:

جمع المال

جمع مالاً وفيراً

جمع المال الكثير

جمع كثيراً من المال

جمع مال الدنيا

يمكن أن نقول كلّ هذا، وغيرَه أيضاً، ولكنّنا لن نقول (جمع مالاً) -بتنكير (مالاً)- ثم نتركها هكذا من غير أيّ وصفٍ أو إضافة.

إنه إذن، تعبيرٌ خاصٌّ بالقرآن لا تشاركه فيه صيغ البشر، ولا صيغ الحديث الشريف. وقد قيل في تفسير هذا التنكير إنه تحقيرٌ لشأن هذا المال المجموع.

٧- جمع مالاً وعدّده:

مرّةً أخرى حاولوا معي أن تعبّروا عن هذا المعنى القرآنيّ بالطريقة البشرية، فماذا يمكن أن نقول؟ دعونا نجرّب مرّةً أخرى مستنيرين بالمعاني التي اقترحها المفسّرون لهذه الآية:

جمع المال وراح يعدّه كلّ يوم

جمع المال وانكبّ عليه يعدّه ويحصيه

جمع المال وأكثر من تعداده

جمع المال بأشكاله المتعدّدة

جمع المال الكثير وأعدّه لحياته

وهكذا ترون أنّ من المحتمل أن نقول أيّ شيءٍ إلاّ ﴿ جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾.

٨- يَحسَبُ أنّ مالَه أَخلَدَه:

وهذه آيةٌ جديدةٌ أخرى لا يربطها بما قبلها أيّ رابطٍ لغويّ، كالواو أو الفاء أو (إنّ) أو غيرها، ولو تُرك الأمر للغتنا البشريّة لقلنا:

وهو يحسَب، أو:

إنّه يَحسب، أو:

وقد حسِب، أو:

ويحسَب..

٩- أنّ مالَه:

إن تكرار اللفظ (مال) هنا، بعد ثلاث كلماتٍ فقط من ذكره في الآية السابقة، أمرٌ لافتٌ للنظر.

ولو أعدنا صياغة الآيتين بلغتنا البشريّة -مع مراعاة الإبقاء على الشكل القرآنيّ للأجزاء الأخرى- لقلنا:

الذي جمع مالاً يحسب أنّه أخلده

يقول الشوكاني في هذا: "والإظهار في موضع الإضمار للتقريع والتوبيخ".[1] وبغضّ النظر عن المغزى من وراء هذا التكرار، فإنه أسلوبٌ قرآنيٌّ خاصٌّ بهذا الموضع وحده.

١٠ - أخلَدَه:

هذا فعلٌ ماضٍ حقاً، ولكنّه في معنى المضارع. وحاولوا أن تعبّروا بلغتكم عن هذا المعنى، إذن لقلتم:

يحسب أنّ ماله سيُخلّده

هكذا بالمضارع، وكذلك بتشديد اللام على أنه من الفعل: خلّد، كما سبق أن رأينا.

١١- كلاّ لَـ:

رغم ورود (كلاّ) في القرآن (٣٣) مرّة؛ لم تتبعها (لام التوكيد، أو اللام الرابطة لجواب القسم) إلاّ في هذه الآية، وإنما تبعتها لامٌ أخرى يسمّيها النحاة (الموطئة للقسم) في آيةٍ واحدةٍ أخرى، وذلك قولُه تعالى:

- ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ [العلق: ١٥]

ولم يعرف الشعر الجاهليّ مثل هذا الاستعمال، ولا الحديث الشريف.

(١) الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير**، مرجع سابق، ج٥، ص٧٠٢.

١٢- الحُطَمة:

نحن هنا أمام صورةٍ بيانيّةٍ جديدةٍ على الخيال العربيّ، تَعرض لقطةً سريعة، ولكن عميقةٌ وحادّة، لمنظر جهنّم وهي تَحْطِم ما فيها ومن فيها ممّن قُدّر له أن يُعاقَب بها.

إنّها صورةٌ حيّةٌ كاملةٌ في لفظٍ واحد، ولم يعرفها العربيّ قبل الإسلام.

١٣- وما أدراك:

قد يُفاجأ أحدنا لو علم أن هذا التعبير، لم يعرفه الشعر العربيّ قبل الوحي ولا بعده حتى مجيء ابن الرومي (ت٢٨٣هـ). ويكرّره هذا الشاعر عدّة مرّاتٍ في إحدى مقطوعاته الخفيفة فيقول:

وما أدراكَ ما الليثُ ... وما غرَّك بالبَبْرِ
وما أدراكَ ما السيلُ ... وما غرَّك بالبحرِ
وما أدراكَ بالموتِ ... وما غرَّك بالدهرِ

وسنعجب أكثر لو علمنا أنّ هذا التركيب لا يرِد في الحديث الشريف أيضاً، رغم تردّده في القرآن الكريم (١٣) مرة. وفي الحالة الوحيدة التي ورد بها في الحديث الشريف جاء بصيغة السؤال الحقيقيّ، وهي الصيغة التي نستعملها في لغتنا العاديّة اليوم حين نريد أن نقول لأحدهم: كيف عرفتَ بالأمر؟ جاء في (صحيح البخاري):

- عن أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه أنّ ناساً من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم أتوا على حيٍّ من أحياء العرب، فلم يَقْرُوهم (أي يضيّفوهم)، فبينما هم كذلك؛ إذ لُدغ سيُّد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواءٍ أو راقٍ؟ فقالوا: إنّكم لم تَقرونا، ولا نفعلُ حتى تجعلوا لنا جُعْلاً، فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء. فجعل يقرأ بأمّ القرآن، ويجمع بُزاقَه ويَتفِل، فبرأ. فأتَوا بالشاء فقالوا: لا نأخذُه حتى

نسألَ النبيَّ ﷺ. فسألوه، فضحك وقال: "وما أدراكَ أنّها رُقْيَة؟ خذوها، واضربوا لي بسهمٍ"[1]

وواضحٌ أنّ الاستعمال النبويّ يختلف تماماً عن الاستعمال القرآنيّ، إنّه في القرآن جملةٌ إخباريّةٌ تعجّبيّةٌ تشير إلى استعظام الشيء واستكباره، وهو في الحديث جملةٌ إنشائيّةٌ محضُ استفهاميّة.

وربّما كان من المفيد أن نذكر هنا ما لاحظه القدماء بخصوص هذا التركيب، وهو أنّ كلّ ما ورد منه بصيغة الماضي في القرآن فقد أخبر به تعالى بعده، كما أخبرنا هنا بعد قوله (ما أدراك) بقوله (نارٌ حامية)، وكلّ ما ورد منه في صيغة المضارع (وما يُدريك) لم يُخبِر به أبداً بعد الفعل بل ظلّ معلّقاً.

١٤ - نارُ الله الموقَدة:

مرةً أخرى تبدأ الآية من غير رابطٍ لغويٍّ يربطها بما قبلها، ولو جرى هذا السياق على لساننا لقلنا:

إنّها نار الله، أو:

هي نار الله،

فلا نبدأ الجملة في لغتنا الرسميّة، ولا أقول اليوميّة أو العاميّة، بخبرٍ حُذف اسمه -إنْ أعربْنا (نارُ) كذلك- ولا ببدلٍ من لفظٍ ورد في جملةٍ سابقة -إنْ أعربْنا (نار) بدلاً من (الحُطمة)-.

١٥- نارُ الله:

لأوّل مرّةٍ يسمع العربيّ بشيء اسمه (نار الله)؛ إذ لم تعتد أُذُنه من قبلُ إضافةَ لفظ (النار) إلى لفظ الجلالة (الله). وتختصّ سورة (الهُمزة) بهذا التعبير الجديد، فلا يتكرّر في أيٍّ من السور الأخرى، ولا نجده في الحديث الشريف أيضاً.

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٢١٦٦، حديث رقم ٥٤٠٤.

١٦- التي تطّلعُ على الأفئدة:

ينطبق على هذه الآية ما انطبق على الآية الثانية (الذي جمع مالاً وعدّده) من ابتدائها بالاسم الموصول (التي) بغضّ النظر عن محلّه من الإعراب.

١٧- تطّلع على الأفئدة:

هذا تعبيرٌ قرآنيٌّ جميلٌ وجديدٌ على لغتنا، بل صورةٌ بيانيّةٌ تصف وصول آلام عذاب النار إلى قلوب المعذَّبين، أو، بحسب تفسيرٍ آخر، تصف معرفة النار بمقدار ما يستحقّه كلٌّ واحدٍ منهم من العذاب حسب عمله، أو، بتفسيرٍ ثالث، تصف كيف تحرق باطنَ الإنسان كما تحرق ظاهرَه، بخلاف نار الدنيا.

ولم يتكرّر هذا التعبيرُ/ الصورةُ في القرآن، ولا في الحديث الشريف، ولا في تراثنا العربيّ بعد ذلك إلى اليوم.

١٨- إنّها عليهم مؤصَدة:

لا نجد في مطلع هذه الآية الرابط اللغويّ الذي يربطها بما قبلها والذي كانت تتوقّعه لغتنا البشريّة، فنحن نقول هنا:

فإنّها عليهم مؤصدة، أو:

فهي عليهم مؤصدة، أو:

وهي عليهم مؤصدة

١٩- عليهم:

لقد ظلّ الحديث طوال السورة محصوراً بالمفرد الغائب (هو) وضميره (الذي، جمَعَ، عدَّده، يحسب، أخلده، ليُنبَذَنّ) ولكنّه انقلب فجأةً هنا إلى ضمير الجماعة (هم)، ليشمل كلّ من يعذَّبون في نار جهنّم.

ومن ناحيةٍ أخرى نجد الحديث وقد تحوّل عند هذا اللفظ من حالة غير العاقل (الأفئدة) إلى حالة العاقل؛ أي أصحاب الأفئدة، فاستعمل هنا ضمير جماعة العقلاء (هم).

وهكذا يدخل التعبير تحت فنّ الالتفات لأحد سببين:

أ - إمّا لإعادة الضمير في (عليهم) إلى مقدّمة السورة فهو إذن، التفاتٌ من المفرد هناك إلى الجمع هنا،

ب - وإمّا لإعادته إلى (الأفئدة) فهو إذن التفاتٌ من غير العاقل إلى العاقل.

٢٠- إنّها عليهم مُؤْصَدَة:

لا نجد هذا التعبير، أو التركيب، في أيٍّ من أشكال تراثنا، لا قبل الإسلام ولا بعده، ولا في الحديث الشريف، كما تختصّ هذه السورة به فلا يتكرّر في غيرها أبداً.

٢١- في عَمَدٍ ممدّدة:

مرةً أخرى تبدأ الآية من غير رابطٍ لغويٍّ يربطها بما قبلها. ولو عدنا إلى تقاليدنا اللغويّة البشريّة لقلنا:

وهم في عَمَدٍ، أو:

وإنها في عَمَدٍ، أو:

وهي في عَمَدٍ ممدّدة ..

٢٢- عَمَدٍ ممدّدة:

هذا وصفٌ غريبٌ على الأذن العربيّة، وقد تكون هذه الأعمدة (العَمَد) أعمدةً حقيقيةً يعذَّب بداخلها أهلُ النار بعد أن أُوصِد عليهم فيها، كما يذهب بعض

المفسّرين، أو هي أعمدةٌ مرتفعةٌ تحيط بهم في جهنّم فلا منفذ لهم للخروج، كما يذهب غيرهم، أو قد تكون أغلالاً يقيَّدون بها هناك، كما ذهب آخرون.

وأيّاً ما كان يشير إليه لفظ (عمَد)، فإنّ هذا التعبير الثنائيّ فاجأ العرب أوّل ما سمعوه، وما يزال يفاجئنا حتى اليوم، لأنّ تراثنا خلا منه بعد ذلك، وما يزال، كما يخلو منه الحديث الشريف.

وتختصّ السورة بهذا التعبير فلا يتكرّر في سائر سور القرآن الكريم.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

لو عدنا إلى تجربتنا العمليّة التي ساعدتنا على تمييز طبيعة السبائك القرآنيّة الجديدة، وعلى اكتشاف هذه السبائك في سورة (الكوثر)، فسنجد أنّ من السهل علينا الآن اكتشاف السبائك الستّ التالية في سورة (الهُمزة):

١- ويلٌ لكلّ هُمَزَةٍ لُمَزَة:

لقد اجتمع في هذه الآية الكاملة ما اجتمع من عناصر سبق أن تحدّثنا عن بعضها، وذلك حين أثبتنا فَرادة معنى (ويل)، وجدّة اللفظين (هُمزة ولُمزة)، واستقلاليّة التركيب (ويلٌ لكلّ).

فإذْ توحّدت عناصر الجدّة هذه جميعاً تحت مظلّة آيةٍ واحدة، وإذْ سُبك بعضها إلى بعضٍ في هذا الترتيب النحويّ الخاصّ جدّاً، الذي يبدأ بنكرةٍ -أو باسم علمٍ أخذ شكل نكرةٍ (ويل)- ثم تبعه اللفظ (لكلّ) الذي ينقل الآية من خصوصيّة حادثةٍ فرديّةٍ وقعت للرسول الكريم ﷺ مع أحد المشركين (قيل هو الوليد بن المغيرة، أو أميّة بن خلف، أو جميل بن عامر الجُمَحيّ، أو الأخنس بن شُريق، أو أبيّ بن عمر) إلى قاعدةٍ أخلاقيّةٍ أزليّةٍ لا يحدّها زمانٌ أو مكان..

وإذْ أضيف اللفظ (كلّ) بعد هذا كلّه إلى التركيب القرآنيّ العجيب الذي

جمع بين لفظين غريبين جديدين (هُمَزة لُمَزة) وقد جاءا دراكاً على وزنٍ واحدٍ غير مشتهرٍ أيضاً (فُعَلَة)، تبيّنّا عند ذلك أيَّة سبيكةٍ جديدةٍ اختصّ بها القرآن الكريم وحده، واختصّت بها هذه السورة.

٢- الذي جمع مالاً وعدّده:

سبيكةٌ قرآنيّةٌ أخرى سبق أن تحدّثنا عن عددٍ من جزئيّاتها: ابتداء الآية بـ(الذي)، وصفُ النكرة بمعرفة (هُمَزةٍ لُمَزةٍ. الذي)، تنكيرُ (مالاً)، جدّةُ اللفظ (عدّده)، جدّةُ التعبير ﴿ جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾.

ولا شكّ أنّ التقاء هذه العناصر المتفرّدة جميعاً في جملةٍ واحدة، أو بالأحرى في آيةٍ كاملة، وبهذا البناء القرآنيّ الخاصّ، يجعل من الآية سبيكةً قرآنيّةً متفرّدةً نستطيع تمييزها عن بُعد، حتى إن أُدخِلت بين عشرات الجمل البشريّة الأخرى.

٣- يَحسَبُ أنّ ماله أخلده:

وهذه السبيكة القرآنيّة تقوم أيضاً على التفرّد النحويّ في مطلعها. وقد بدأت بجملةٍ حاليّةٍ لم يربطها بصاحبها (الهُمزة اللُمزة) الرابطُ المعتاد، فلم يقل مثلاً:

وهو يحسَب، أو:

حاسباً، أو:

وقد حسِب.

وتقوم كذلك على جدّة اللفظ (أخلده) وتفرّدِه القرآنيّ، وكذلك على عدم ارتباطه بالرابط المعتاد؛ إذ نقول في لغتنا: (قد أخلده). وتقوم أخيراً على إطلاق هذا الفعل الماضي على المستقبل، والمعنى: (سيُخْلِده).

٤- كلاّ لَيُنبَذَنّ:

لو بحثنا عن هذه السبيكة القرآنيّة، على صغرها، في تراثنا كلّه لما وجدنا شبيهاً لها أو لنظامها النحويّ الغريب، لا في الشعر ولا في النثر، ولا في الحديث

الشريف، فكيف يجتمع هذا النهي أو الزجر، أو النفي، في (كلاّ) جنباً إلى جنبٍ مع التأكيد والقسم والإثبات في (ليُنبذنّ)!!

وما يزيدها خصوصيّةً مجيئُها في صيغة الغائب المبنيّ للمجهول، فإذا كان من الصعب أن تجد في تراثنا شيئاً مثل:

كلاّ ليَفعَلَنّ هذا

هكذا في صيغة الغائب المبنيّ للمعلوم، فمن الأصعب أن تجد مثل:

كلاّ ليُفعَلَنّ

هكذا في صيغة الغائب المبنيّ للمجهول. وربّما وجدناها في القرآن في غير هذا الموضع بصيغة المبني للمعلوم، كقوله تعالى:

- ﴿ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ ﴾ [الحجّ: ٦٧]

مع ملاحظة أنّ النهي في هذه الآية الأخيرة اعتمد على (لا)، وليس على (كلاّ).

وتقتصر السبيكة على هذه السورة، فلا تتكرّر بعد ذلك في باقي سوَر القرآن الكريم.

٥- الحُطَمَة. وما أدراكَ ما الحُطَمَة:

هذه سبيكةٌ مشهورةٌ تتكرّر عدّة مرّاتٍ في القرآن الكريم، ولا نجدها مع ذلك في الشعر ولا في النثر ولا في الحديث الشريف.

والنماذج القرآنيّة الآتية تساعدنا على فهم طبيعة تركيب هذه السبيكة. وهي تتلخّص في تكرار اللفظ نفسه مرّتين في آيتين متتابعتين، مع الفصل بينهما بالتعبير القرآنيّ الخاص ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ ﴾:

- ﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المدّثر: ٢٦ – ٢٧]

- ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ﴾ [الطارق: ١ - ٢]

- ﴿ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣ ﴾ [القارعة: ٢ - ٣]

٦- إنّها عليهم مؤصَدةٌ. في عَمَدٍ مُمدّدةٍ:

فضلاً عمّا في هذه العبارة، التي قد تكون جملةً واحدةً وقد تكون اثنتين، من ألفاظٍ وعلاقاتٍ لغويةٍ قرآنيّةٍ جديدة، تحدّثنا عنها فيما مضى، تأتي تركيبتها الكلّيّة متميّزةً أيضاً.

فشِبه الجملة (عليهم) يتقدّم على ما يتعلّق به (مؤصدة) مع تأخير شبه جملةٍ آخر متعلّقٍ بهذا الأخير أيضاً أو بحالٍ مقدّرةٍ من الضمير المرتبط به (أي: مؤصدةٌ عليهم كائنين أو محبوسين في عَمَدٍ)، وإن كنّا لا نستطيع الجزم هنا بهذه المواقع الإعرابيّة نتيجةً لاختلاف التفسيرات المحتملة حول معنى الآيتين، وكذلك حول إعراب الآية الأخيرة بشكل خاصّ، كما سوف نرى في حديثنا عن المواقع المنفتحة في السورة.

رابعاً: مواقع منفتحة

١- ويلٌ:

إنّ اختلاف المفسّرين على معنى لفظٍ أو إعرابه، أو كليهما معاً، هو أوّل ما ينبّهنا إلى تعدّدية أبعاد اللفظ أو انفتاحه.

لقد اختلفوا كثيراً حول معنى (ويل) كما رأينا، وهل هو دعاءٌ، أم إنذارٌ، أم إخبار؟ وهل هو معرفةٌ، أم نكرة؟ وهل هو مبتدأٌ أم خبرٌ لمبتدأ محذوف (أي: هو ويلٌ)؟ وهل هو حقيقةٌ، أم هو مجازٌ (لأنه سَمَّى ما يؤدّي إلى الويل ويلاً)؟

وبازدياد الاختلاف على هذه الجوانب المتعدّدة للّفظ تزداد قيمته التعدّدية وصفته الانفتاحيّة على تقلّب العصور وتطوّر الثقافات.

٢- ٣- هُمَزةٍ لُمَزة:

اقترح المفسّرون لهذين اللفظين عشرات المعاني، وذهبوا في صيغتهما (فُعَلَة) مذاهب شتّى، فهل هي صيغةٌ عاديّة، أم صيغةُ مبالغةٍ، كما يقال: سُخَرَةٌ وضُحَكَة؟ وهل معانيهما حقيقيةٌ أم مجازيّة؟ هذا ما ينقله لنا القرطبيّ في تفسيره عن هذين اللفظين:

"وعن ابن عبّاس: أنّ الهُمَزة: القَتّات، واللُمَزة: العيّاب.

وقال أبو العالية، والحسن، ومجاهدٌ، وعطاء بن أبي رباح: الهُمَزة: الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل، واللُمَزة: الذي يغتاب مِن خلفه إذا غاب..

وقال مقاتلٌ ضدّ هذا الكلام: إنّ الهُمَزة: الذي يغتاب بالغَيبة، واللُمَزة: الذي يغتاب في الوجه.

وقال قتادة ومجاهد: الهُمَزة: الطعّان في الناس، واللُمَزة: الطعّان في أنسابهم.

وقال ابن زيد: الهامز: الذي يهمز الناس بيده ويضربُهم، واللُمَزة: الذي يلمِزهم بلسانه ويعيبهم.

وقال سفيان الثوريّ: يهمز بلسانه، ويلمِز بعينيه.

وقال ابن كيسان: الهُمَزة: الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، واللُمَزة: الذي يكسر عينه على جليسه ويشير بعينه ورأسه وبحاجبيه.

وقال مُرّة: هما سواء."(١)

هذه المعاني الكثيرة التي أوردها القرطبيّ للّفظين، لم تُحصِ كلّ ما جاء في كتب المفسّرين من معانٍ، ومع ذلك فهي تعطينا فكرةً مبسّطةً عن طبيعة اللفظ المنفتحة وثروته الإيحائيّة.

---

(١) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج٢٠، ص١٨١ - ١٨٢.

٤- الذي:

وهو لفظٌ حيّر علماء النحو أكثر ممّا حيّر المفسّرين. وربّما كان أصلَ الإشكال فيه مجيئُه بعد نكرة، كما رأينا، فاقترحوا أن يكون بدلاً من (كلِّ) أو صفةً له أو لـ (هُمزة) أو (لُمزة)، أو لكليهما ولـ (كلِّ) معاً.

وعارض آخرون، فاقترحوا التوقّف عند (لُمزة) والاستئناف من جديدٍ، ليكون لفظ (الذي) مبتدأً وخبرُه جملةَ (يحسَب)، أو يكون خبراً لمبتدأ محذوفٍ والتقدير (هو الذي)، أو يكون منصوباً على الذمّ بإضمار (أعني) أي (أعني هذا الذي جمع..).

إنّ مثل هذا التعدّدِ في الآراء يمنح اللفظ مكانته بين المواقع المنفتحة والمتجدّدة مع العصور.

٥- وعَدَّدَه:

قيل في معنى (عدّده): جمع مالاً وأحصى عدده ولم يؤدّ حقّ الله فيه، أو: ضبَطه وأحصاه، أو: عدّه مرةً بعد أخرى، أو: أعدّه وأمسكه لنوائب الدهر، أو: أعدّه لمن يرثه، أو: فاض بكثرةِ عدده، أو: فاخر بعدده وكثرته، أو: امتلك أنواعاً متعدّدةً منه.

وبدهيٌّ أنّ تعدّد المذاهب في معاني اللفظ عائدٌ إلى جدّة استعماله وطبيعة السياق الذي ورد فيه، وقد رأينا أنّ الشعر العربيّ لم يعرف هذه الصيغة قبل الإسلام.

٦- يَحسَب:

تأتي القيمة الانفتاحيّة لهذا اللفظ من وضعه الإعرابيّ. فجملته خبرٌ للمبتدأ (الذي) كما يرى بعضهم، أو هي حاليّةٌ عند غيرهم؛ أي: يجمع ماله حاسباً أو ظانّاً

أنّه سيخلّده، أو هي استئنافيّةٌ لا علاقةَ نحويّةً لها بما قبلها، فكأنّ الكلام توقّف عند (عدّده) ثم استؤنِف الحديث من جديد فقال: هو يحسب.

٧- كَلاّ:

قد عرفنا ما لهذه الأداة من خصوصيّةٍ في القرآن، وما منحته هذه الخصوصيّة لها من احتمالاتٍ متعدّدةٍ في معناها، تبعاً للسياق الذي ترد معه في كلّ مرّة.

وقد تكون هنا لنفي ما قبلها حين اعتقد صاحب المال أنّ ماله سيخلّده، وقد تكون زجراً له عمّا يفعل، كما قد تكون تأكيداً لما سيليها من حكمٍ عليه، فتكون هكذا بمعنى (حقّاً) أي: من المؤكّد أو حقّاً سيُلقى في جهنّم.

٨- ليُنبَذَنّ:

في هذا الفعل أكثرُ من إشكال، ومن ثم أكثر من معنىً. فقد يكون المنبوذ في النار هو الشخص الذي يصفه القرآن بالهُمزة اللُمزة، وقد يكون أيضاً أيَّ شخصٍ آخر مثله، ولكنّه قد يكون أيضاً المال الذي يجمعه ويعدّده وليس الشخص نفسه.

ومن ناحيةٍ أخرى نستطيع أن نفهم (النبذ) هنا بأكثر من طريقة. فهو الطرح والإلقاء، وهو أيضاً التحقير والإذلال، وكذلك النفي والعزل والإبعاد والإهمال، وربما كانت هذه الأخيرة أشدّ العقوبات على الإطلاق لأهل النار: ألاّ تجد من يهتمّ بك ويشفق عليك من العذاب هناك، حتى أمّك وأبوك وأقرب الناس إليك.

٩- ١٠- الحُطَمَة (مكرّر):

اقترح المفسّرون لهذا اللفظ عدّة معانٍ:

منها أنّه يُطلق على الرجل الأكول، فهو على هذا صورةٌ بيانيّةٌ لإبراز هول جهنّم وطحنِها لمن فيها كما ينطحن الطعام بين فكّي الرجل النهِم. قيل: إنها تَحطم العظام وتأكل اللحوم، حتى تهجم على القلوب،

ومنها أنها الطبقة السادسة من جهنّم، قيل: هي الثانية أو الرابعة،

ومنها أنها اسمٌ آخر من أسماء جهنّم، وذهب الفرّاء في (معاني القرآن) إلى أنّ (الحُطَمة) من أسماء النار، كقوله تعالى: جهنّم، وسَقَر، ولظى، فلو ألقيت منها الألف واللام لما عادت اسم علمٍ فتكون مجرّد وصفٍ للنار.

ولكنّ أجمل ما في كلمة (حُطَمة) من طاقةٍ إيحائيّةٍ هو مجيء لفظها على الوزن نفسه لهُمَزة ولُمزة، أي (فُعَلَة)، وكأنّما في ذلك إشارةٌ إلى أنّ العقاب سيكون من جنس الجريمة، أو على قياس الجريمة التي أدّت إليه ونظيراً معادلاً لها.[1]

وما يهمّنا من كلّ هذا هو بروز القوّة الانفتاحيّة للكلمة، وقد اكتسبتها غالباً من جدّتها وجدّة المعنى الذي اكتسبته في القرآن.

١١- تَطَّلِعُ على الأفئدة:

اقترح المفسّرون للّفظ (تطّلِع) معاني عديدة:

منها أنه بمعنى (تطلُع) تقول: اطّلعتُ أرضي أي بلغت، وخصّ الأفئدة بالبلوغ، لأنّ الاحتراق إذا وصل إليها مات الإنسان، وهم لا يموتون، لقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾،

ومنها أنه بمعنى (يصعد ويعلو) تقول: اطّلعت الجبل واطّلعت عليه؛ أي أنها تتسلّق إلى القلوب وتعلو عليها من غير أن تحرقها، وهذا من أجل أن يظلّ أصحابها أحياءً يذوقون طعم العذاب،

ومنها معنى الاطّلاع ومعرفة الشيء الخبيء، كأنّ النار تعلم مقدار ما يستحقّه كلّ واحدٍ منهم من عذابها، فتحرقه بحسب عمله.

---

(١) الدرويش، **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، مرجع سابق، ج٨، ص٤١٠.

١٢- عليهم مؤصَدة:

رأينا كيف وقع الالتفات هنا في السورة، من صيغة المفرد، التي طبعت جميع الآيات التي سبقتها حتى الآن، إلى صيغة الجمع المتمثّلة بضمير الجماعة (هم).

وهذا الالتفات، من مفردٍ بعينه إلى جماعةٍ غير معيّنين لا يجمعهم إلاّ وجودهم في جهنّم، ولا تحدّدهم السورة، ولا تشير إليهم بأيّ ضميرٍ آخر بعد ذلك، يضفي على العبارة أطيافاً من المعاني، وأنواعاً من النماذج البشريّة التي نتخيّلها وهي تخضع لهذا العذاب.

كما أنّ اللفظ (مؤصَدة) جاء وصفاً للنار (الحُطمة) رغم أنه من صفات الأبواب عادةً لا النار، ممّا يمنح العبارة قوّةً مجازيّةً أخرى تضاعف من عنصر الخيال فيها وتزوّدها بشحنةٍ إضافيّةٍ من الصور والمعاني المحتمَلة.

١٣- في عَمَدٍ:

الجانب النحويّ في شبه الجملة هذا هو الذي رشّحه ليكون بين المواقع المنفتحة. فبم نعلّق شبه الجملة هنا؟

هل هو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ هو (أصحاب النار) أي: هم موجودون أو محبوسون في عَمَد؟

أم أنّ المبتدأ هو النار نفسها التي أُغلق عليها داخل الأعمدة، فيكون التقدير: هي موصدٌ عليها في أعمدة؟

أم هي حالٌ من الضمير في (عليهم) أي: هي موصدةٌ عليهم في حال وجودهم فيها؟

أم هي خبرٌ ثانٍ للأداة (إنّ) أي: إنها موصَدةٌ وفي أعمدةٍ ممتدّةٍ متطاولة؟

١٤- في عَمَدٍ ممدّدة:

إنّ الاحتمالات المتعدّدة لتعليق شبه الجملة ﴿فِي عَمَدٍ﴾ سيضاف إليها الآن احتمالاتُ معاني (في) ومعاني (ممدّدة) وإعرابُها:

لقد ذهب بعضهم إلى أنّ أهل النار، أو أنّ النار نفسها، هي داخل الأعمدة.

وذهب آخرون إلى أنّ (في) بمعنى (الباء) فيكون المعنى: إنّ النار موصدةٌ عليهم بسياجٍ محكمٍ من أعمدةٍ لا يسمح لهم بالخروج منها قيد أنملة.

أمّا (ممدّدة) فيمكن أن تعني أنها مجرّد طويلة، ويمكن أن تعني أنها ممدّدةٌ من شدّة حرارة النار المتّقدة.

ولا شكّ أنّ تشابك هذه الاحتمالات المتعدّدة وتداخلها في الألفاظ الثلاثة من شأنه أن يولّد شحنةً قويّةً من الظلال والمعاني والأبعاد المتعدّدة لهذه العبارة.

خامساً: جوامع الكَلِم

إنّها تعبيراتٌ قرآنيّةٌ غدت معروفةً مشهورة، فسار بعضها على الألسنة وأصبح شأنه شأن الأمثال، أو شأن التعبيرات التي اصطلح عليها اللسان العربيّ. ومنها ما يصلح لأن يكون كذلك لو استخرجناه من آيات القرآن الكريم ونبّهنا إلى أهميّته ودورِه المحتمَل في إغناء معجمنا اللغوي.

ونجد من هذه التعبيرات في سورة (الهُمزة) ستّةً على الأقلّ:

١- ويلٌ لِكلٍّ:

رغم جِدّة هذا التركيب على اللسان العربيّ حين نزول القرآن، غدا اليوم مألوفاً لدينا، كثير الجريان على اللسان. ومن السهل أن نتوجّه به، مثلاً، إلى مجموعةٍ من المشاغبين قائلين: ويلٌ لكلّ من تحدّثه نفسه بالاقتراب، أو نتوجّه به محذّرين لبعض الآباء: ويلٌ لكلّ أبٍ يترك أولاده للشارع ..

٢- هُمَزةٍ لُمَزة:

هذا التركيب القرآنيّ الخاص يصلح إطلاقه على كلّ من اعتاد الغيبة والنميمة أو الإيقاع بين الناس، أو من اتصف بالغطرسة والغرور واحتقار الآخرين والنيل منهم لسببٍ أو لغير سبب.

٣- جَمَعَ مالاً وعَدَّده:

تصلح للتعبير عن الإشفاق أو السخرية من امرئٍ همُّه في الحياة جمع المال، مع بخلٍ وسوء خُلق، أو لوصف من كان يوماً ما من أصحاب الجاه والمال فلم يحسن القيام عليهما فآل مصيره إلى الإفلاس والضياع.

٤- وما أدراكَ ما الحُطَمة:

وهذا التعبير يمكن أن نطلقه لإظهار شدّة ما ينتظر أحدَهم من عقابٍ جزاءَ سوء فعله، أو ربما لوصف شخصٍ مخرِّب، عاقلاً كان أو طفلاً صغيراً، يدمّر كلّ ما تصل إليه يداه.

٥- نارُ اللهِ المُوقَدة:

يمكن استخدام هذا التعبير للمبالغة في وصف الحرّ الشديد، أو ربّما للتعبير عن شدّة غلاء الأسعار، أو في وصف إنسانٍ شديد القسوة في التعامل، أو أيّ شيء تجاوز حدوده المعتادة.

٦- تَطَّلِعُ على الأفئدة:

ويمكن إطلاق هذه العبارة للمبالغة في وصفنا أو تعجّبِنا من قدرة فردٍ أو هيئةٍ أو حكومةٍ أو أجهزة أمنٍ على معرفة ما يدور في أذهان الآخرين، أو ما يجري من أمورٍ قد تَخفى عادةً على الكثيرين.

السورة الثالثة عشرة

العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾

إنّها إحدى أقصر سوَر القرآن الكريم، ولكنّها تحتلّ مكانةً مهمة في حياة المسلمين اليوميّة، وهي السورة الثانية عشرة في الترتيب التراجعي لسوَر الجزء الثلاثين من القرآن الكريم.

وفي كلماتها الأربع عشرة ما لا يقلّ عن ٢٢ موقعاً لغويّاً جديداً يعرفها العرب لأوّل مرّة ويضيفها القرآن إلى قاموسهم اللغويّ اليوميّ.

ويميّزها عن باقي سوَر القرآن الكريم تفرُّدها بلفظ (العصر) الذي أصبح اسماً لها، وكذلك بتعبيرين اختصّت بهما ولا يتكرّران في القرآن الكريم، وهما: (في خُسْر، وتَواصَوا بالحقّ).

أوّلاً: الألفاظ والمصطلحات

١- العصر:

ذهب المفسّرون في تفسير هذا اللفظ أكثر من مذهب، ويرجّح أكثرهم أنّه صلاة العصر، أو الصلاة الوسطى كما سمّاها القرآن في آيةٍ أخرى، تِبعاً لبعض المفسّرين.

ومن أشهر معانيه الأخرى؛ الوقت المتوسّط ما بين الظهر والمغرب، وكذلك الزمن أو الدهر. وسنأتي على مزيدٍ من المعاني لهذا اللفظ فيما بعد.

وتنفرد سورة (العصر) بهذا اللفظ فلا يتكرّر في غيرها من السوَر.

ويرِد اللفظ عند امرئ القيس (ت٨٠ ق.هـ) مرةً واحدةً ولكن بضمّ العين والصاد، فهو لفظٌ مختلفٌ إذن، عن اللفظ القرآنيّ، وإن كان معناه الزمن أو الدهر أيضاً، وذلك في قوله:

ألا عِمْ صباحاً أيّها الطللُ البالي   وهل يَعِمَنْ مَن كان في العُصُرِ الخالي

و لفظ (العُصُر) في بيت امرئ القيس مفرد، رغم مجيئه على إحدى صيغ الجموع المشهورة. وصيَغ جمعه المعروفة هي: أعصُرٌ وأعصارٌ وعُصْرٌ وعصور.

ويرِد مرةً أخرى في أبياتٍ تُنسب لعنترة (ت٢٢ ق.هـ) ويمدح فيها كسرى فيقول:

يا أيّها الملكُ الذي راحاتُهُ   قامتْ مقامَ الغيثِ في أزمانِه
يا قِبلةَ القُصّاد يا تاجَ العُلا   يا بدرَ هذا العصرِ في كيوانِهِ
يا مُخجِلاً نَوءَ السماءِ بجُودِه   يا مُنقِذَ المحزون مِن أحزانِهِ

وهي أبياتٌ لا تترك الخيار للناقد الحصيفٍ في أن يشكّ بنسبتها للشاعر:

- لموضوعها البعيد عن الحقائق التاريخية المتعلّقة بسيرة حياة عنترة.

- لروحها البعيدة عن شخصيّة عنترة الفارس الأنِف حتى في مديحه.
- للغتها البعيدة جدّاً عن لغة الجاهليّين، بل القريبة إلى لغة عصور الضعف والانحدار.
- لكثرة ما نُحل لهذا الشاعر خاصّةً من أخبارٍ وأشعار، حتّى اختلط حول حياته وشعره التاريخُ بالأسطورة.

إنّ المؤكّد أن استعمال اللفظ، مفرداً أو جمعاً، كان نادراً في الحِقبة الجاهليّة. ولكنّ الطريف أن الاسم الأصليّ للشاعر أعصُر بن سعد الذي عاش في القرن الرابع الميلاديّ، أي قبل الإسلام بما يقرب من قرنين، هو منبّه بن سعد بن قيس عيلان، ولُقّب كذلك -كما قيل- " لبيتٍ قاله تفرّد فيه بذكر (الأعصُر)" وهو:

أعُمَيرُ إنّ أباكِ شَيَّبَ رأسَهُ كَرُّ الليالي واختلافُ الأعصُرِ

وحقّاً لا نعثر على هذا اللفظ عند غيره من الشعراء الجاهليّين[1]. ثم لا نجد الجمع المشهور الآخر للّفظ، وهو لفظ (العصور)، إلاّ بعد الإسلام عند المتلمّس الضبعيّ (ت٤٣هـ) في قوله:

عرفتُ لأصحابِ النجائبِ حِدةً إذا عَرَفوا لي في العصور الأوائلِ

ولكنّ في لغة الحديث النبويّ ما يغنينا عن الرجوع إلى لغة الشعر الجاهليّ فيما يتعلّق بانتشار استعمال هذا اللفظ بمعنى الحِقبة أو الدهر؛ إذ لا نعثر عليه في الحديث إلاّ مرّتين: مرَّة في (صحيح مسلم)، ولكن على غير لسان الرسول ﷺ:

- سئل زيدٌ عن قوله ﷺ "وأهل بيتي": مَن أهلُ بيتِه؟ نساؤه؟ قال: لا، وأيمُ

(١) يشكّك طه حسين -فيما شكّك- بوجود هذا الشاعر، فيقول: فإذا لاحظنا أنّ "أعصر" هذا هو ابن سعد بن قيس عيلان بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ، رأينا أنّه -إن عاش- فقد عاش قبل الإسلام بعشرة قرونٍ على أقلّ تقدير!، انظر:
- حسين، طه. **في الأدب الجاهليّ**، القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠١م، ص: ١٥٦.

الله إنّ المرأةَ تكون مع الرجلِ العصرَ من الدهر، ثمّ يطلّقها فترجعُ إلى أبيها وقومِها... [1]

والثانية في رواية أحمد للحديث المشهور:

- عن حكيم بن معاوية البُهزيّ عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ رجلاً كان قبلكم رغَسَه اللهُ تبارك وتعالى مالاً وولداً حتى ذهب عصرٌ وجاء عصر، فلمّا حضرته الوفاة قال: أيْ بَنِيّ، أيَّ أبٍ كنتُ لكم؟ قالوا خيرَ أبٍ، قال: فهل أنتم مطيعيّ؟ قالوا: نعم. قال: انظروا إذا متُّ أن تُحَرّقوني حتى تدَعوني فحماً... [2]

وتنفرد هذه الرواية بعبارة (حتى ذهب عصرٌ وجاء عصر) بين رواياتٍ عديدةٍ أخرى للحديث -منها خمس رواياتٍ على الأقلّ في مُسنَد أحمد نفسه- ليس فيها هذه العبارة، ممّا يجعلنا غير واثقين تماماً من أنّه لفظٌ جرى حقاً على لسان الرسول ﷺ.

٢- الإنسان:

لا نستطيع أن ندّعي أنّ هذا اللفظ مختصٌّ بالقرآن، وقد تردّدتُ كثيراً في إدراجه بين الألفاظ القرآنيّة، ولكننا نستطيع أن نقول إنّه قرآنيٌّ بغلبة الاستعمال.

فعلى حين لا نجده في الشعر الجاهليّ أكثر من ثلاث مرّات، ثمّ ما يقارب هذا العدد في الحديث النبويّ الشريف، نجده يتكرّر في القرآن الكريم ٦٥ مرّة، وهي كثافةٌ غير عاديّةٍ تذكّرنا بكثافة اللفظ القرآنيّ الآخر (قُلْ)، ولا سيما في ضوء الحقيقة التي أتينا على ذكرها من قبل، وهي قلّة تكرار الألفاظ في كتاب الله تعالى بحيث إنّ ما يقرب من ثُلُثي ألفاظ القرآن الكريم لا يتكرّر أبداً، وهي خصيصةٌ لا يعرفها أيّ كتابٍ من كتب البشر فيما نعلم.

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٧٤، حديث رقم ٢٤٠٨.

(٢) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٣٣، ص٢١٦، حديث رقم ٢٠٠١٢.

ولا شكّ أنّ أهمّية الفرق بين عدد المرّات التي يرِد فيها اللفظ في القرآن وعددها في الشعر تتّضح لو قارنّا بينه وبين لفظ (الناس).

فهذا اللفظ الأخير يتكرّر ٢٤٢ مرّةً في القرآن، وهي أيضاً كثافةٌ غير عاديّة، ولكنّنا، مع ذلك، لم نُدْرجه في الألفاظ القرآنيّة، لأنه يتكرّر في الشعر الجاهليّ بهذه الكثافة نفسها تقريباً (استخدمه ٧١ شاعراً على الأقلّ، معظمهم أكثر من مرّة).

٣- خُسر:

يرد هذا اللفظ مرّتين في القرآن، ثمّ يحلّ محلّه في المواضع الأخرى اللفظان (خَسار) و (خُسران)، ولكنّنا لا نجد أبداً لفظنا المعتاد والمتردّد على ألسنتنا باستمرار (خسارة)!!

ويخلو الحديث الشريف تماماً، وكذلك الشعر الجاهليّ والإسلاميّ، من هذا اللفظ، وعلينا أن ننتظر حتى العصر العبّاسيّ لنعثر عليه لأوّل مرّةٍ في شعر ابن الروميّ (ت٢٨٣هـ):

أوْ لا فجُدْ ليْ بالكلامِ فإنّه رِبحٌ بلا خُسْرٍ هنالكَ فارتبِحْ

٤- آمَنوا:

رغم الكثافة غير العاديّة التي أحرزها استعمال هذا اللفظ مع مشتقّاته في القرآن، وهي تتكرّر فيه مئات المرّات، ينعدم وجود جذر هذا الفعل في الشعر الجاهليّ، فلا نعثر عليه أو على مشتقّاته هناك أبداً، لا لفظاً ولا معنىً.

والطريف أنّ أقرب ما نجده في الشعر الجاهليّ إلى هذا اللفظ الفعل المضارع (آمَنُ) بمعنى (أشعر بالأمان) وذلك في بيت تأبّط شرّاً (ت٨٣ ق.هـ) الذي سبق أن أوردناه في دراستنا لسورة (قريش):

تالله آمَنُ أنثى بعدما حَلَفَتْ أسماءُ باللهِ مِن عهدٍ وميثاقِ

ومن الواضح أن مشتقّات المصطلح الإسلاميّ الجديد (إيمان) أصبحت تملأ الساحة اللغويّة للمسلمين الأوائل منذ الشهور الأولى لتنزّل الرسالة على النبيّ ﷺ، بحيث أنّ إطلاق هذا المصطلح، هكذا مجرّداً من أيّ سياق، أصبح يكفي للدلالة على أنّه التصديق برسالة الإسلام.

٥- الصالحات:

اعتدنا في لغتنا اليوميّة أن نصِف بلفظ (صالح) شخصاً أو عملاً أو ظرفاً معيّناً، فنقول:

رجلٌ صالح،

وعملٌ صالح،

وعملةٌ صالحةٌ للتداول،

ووقتٌ صالحٌ للزيارة،

وبطاقةٌ صالحةٌ للدخول..

ولكنّنا لا نجمع هذا اللفظ قطّ، إلاّ أن يكون وصفاً لذكورٍ فنقول:

رجالٌ صالحون

أو لإناثٍ، فنقول:

نساءٌ صالحات

ثمّ لا بدّ من ذكر الموصوف قبله: (أعمالٌ)، فنحن لا نقول:

هو يعمل الصالحة، بل:

هو يعمل أعمالاً صالحة

هل اتّضح الآن الفارق بين الاستعمال القرآنيّ والاستعمال البشريّ؟

فكيف استعملها الشاعر الجاهليّ، وكيف جاءت في الحديث النبويّ؟

نجد اللفظ (الصالحات) في الشعر الجاهليّ مرةً واحدة، ولكنْ وصفاً للفظٍ آخر قبله، كما يجب أن نتوقّع، وهو اللفظ (فِعالٌ) وذلك في قول بشر الفزاريّ (ت؟):

فإنْ لا يكنْ جسمي طويلاً فإنّني   له بالفِعالِ الصالحاتِ وَصولُ

أمّا في الحديث الشريف فنعثر على لفظ (الصالحات) مرّاتٍ قليلة: إحداها في اقتباسٍ نبويٍّ من القرآن يبدو وكأنّه في سياق تفسير التعبير القرآنيّ ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ [الكهف: ٤٦، ومريم: ٧٦] وذلك في قوله ﷺ:

- استكثِروا من الباقيات الصالحات، قيل: وما هي يا رسولَ الله؟.. قال: التكبيرُ والتهليل والتسبيح والتحميد، ولا حولَ ولا قوّة إلاّ بالله[١]

وأخرى، ولعلّها أقرب الاستعمالات إلى القرآن الكريم، حين يأتي وصفاً مستقلاً لا يسبقه موصوف، وذلك في الحديث الشريف:

- كان رسول الله ﷺ إذا رأى ما يُحبّ قال: الحمدُ لله الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحات...[٢]

ورغم أنّ لفظ (الصالحات) هنا يحيلنا إلى اللفظ القرآنيّ الذي اتّكأ عليه الرسول ﷺ فإنّنا نرجّح أنّه لا يشير في هذا الموضع إلى عملٍ يُعمل، كما في المعنى القرآنيّ، وإنّما إلى (أشياءٍ) أو (نِعَمٍ) أنعم الله بها علينا فاستحقّ الثناءَ والحمدَ منّا.

ويأتي اللفظ في حديثين آخرين وصفاً للنساء، وليس للأعمال، وذلك في قوله ﷺ:

- الصالحاتُ للصالحين... [٣]
- أَنكِحوا الصالحين والصالحات... [٤]

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج١٨، ص٢٤١، حديث رقم ١١٧١٣.

(٢) القزويني، **سنن ابن ماجه**، مرجع سابق، ج٢، ص١٢٥٠، حديث رقم ٣٨٠٣.

(٣) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢٦، ص١٢٦، حديث رقم ١٦٢٠٦.

(٤) الدارمي، **سنن الدارمي**، مرجع سابق، ج٢، ص١٨٤، حديث رقم ٢١٨١.

وفضلاً عن هذا الاختلاف بين الاستعمال القرآنيّ والاستعمالات النبويّة والشعريّة واليوميّة العاديّة، إلى جانب النُدرةِ، رغم ذلك، في الاستعمالات النبويّة والشعريّة، نجد اللفظ يتكرّر في القرآن الكريم ٦٢ مرّة، منها ٦١ مرّة بمعنى الأعمال الصالحة، من غير ذكر الموصوف (الأعمال) كما أوضحنا، وإنّما يُذكر الفعل وحده (عملوا، أو: يعملون، أو: عمِلَ، أو: يَعمل)، ثمّ يرد مرةً واحدةً بمعنى النساء الصالحات، ومن غير ذكر الموصوف (النساء).

٦ - تواصَوا:

رغم أننا نعثر على هذا اللفظ مرّتين على الأقلّ في الشعر الجاهليّ، فمن اللافت للنظر أننا لا نجده أبداً، بمختلِف مشتقّاته، في الحديث الشريف.

حتى الشاعران اللذان نجده عندهما لا نعرف عنهما إلا القليل، ولا نعرف تاريخاً لوفاتهما. الأوّل هو المعطّل الهُذلي، حيث يقول:

تواصَوا بألاّ تقربنّ فأشعلتْ عليهمْ غَواشيها فضلّتْ وُصاتُها

والثاني هو يزيد بن سنان المُرّي، وقد قال:

رميتُهمُ بوجزةَ إذ تواصَوا ليرمُوا نحرَها كثَباً ونحْري

ويتكرّر اللفظ في القرآن الكريم، مع ذلك، ٥ مرّات.

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- والعصر:

هذا قسَمٌ قرآنيٌّ جديد، فقد أقسم تعالى، وفي أكثر من مكان، بمختلِف أجزاء النهار والليل، وهو نوعٌ من القسَم ليس للبشر أن يشاركوا القرآن فيه فيقسموا بما أقسم تعالى به، إذ لم يُجزِ الرسول ﷺ لنا الحَلفَ بغير الله، ومن هنا تأتي فَرادةُ هذا القسَم وقرآنيّتُه، بالإضافة إلى أنّ هذا القسَم أُفرِد بوحدةٍ لغويّةٍ كاملةٍ مستقلّة (آيةٍ) وهو أمرٌ لا تعرفه لغتنا العاديّة أو لغة الحديث النبويّ.

٢- إنّ الإنسانَ لَفي خُسْر:

يخرج القرآن الكريم بجواب القسم هذا عن المألوف بأنْ فصَله عن القسَم نفسِه وجعله في آيةٍ مستقلّةٍ تقتصر على جواب القسم، على حين أفرد للقسَم نفسِه آيةً بكاملها هي الآية الأولى، وهو بهذا، مرّةً أخرى، يقدّم لنا مفهوماً جديداً للوحدة اللغويّة الأساسيّة، ويخرج بنا عن تقاليد الوحدة القديمة، وهي الجملة.

٣- في خُسْر:

فضلاً عن تفرّد القرآن الكريم باللفظ (خُسر) دون الشعر الجاهليّ أو الحديث النبويّ، كما عرفنا، فإنّ سورة (العصر) تختصّ بهذا التركيب الذي يرتبط فيه اللفظ بأداة الجرّ (في). وهكذا جاء اللفظ (خُسر) بمعنى (خَسارة) وجاء التركيب (في خُسر) بمعنى (خاسر). ويرِد اللفظ مرةً واحدةً أخرى في القرآن، ولكن من دون هذه الأداة، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٩]

ولو تُرك أمر آية (العصر) لأساليبنا اللغويّة لقلنا في هذا المعنى:

لا بدّ للإنسان أن يخسر في النهاية، أو:

إنّ الإنسان خاسرٌ في النهاية، أو:

إنّ نهاية الإنسان هي الخسارة المؤكّدة..

ولكنّنا لن نقول أبداً (إنّه في خُسر). ولا نجد هذا الاستعمال أبداً في الحديث الشريف.

٤- إلاّ الذين آمنوا:

استثناءٌ غير تقليديٍّ تفاجئنا به السورة. فرغم عموميّة اللفظ (إنسان) الذي سبق هذا الاستثناء، وشمولِه لأكثر من فردٍ واحدٍ، يبقى لفظاً مفرد الدلالة في

طبيعته، على عكس ألفاظٍ أخرى لها عموميّته ولكن ليس لها طبيعته اللغويّة، مثل (الناس، القوم). نحن نقول:

هذا الإنسان

ولكن لا نقول:

هذا الناس، ولا:

هذا القوم

وقد نقول:

جاء الناس إلاّ المتأخّرين

ولكن لا نقول:

جاء الإنسان إلاّ المتأخّرين

وهكذا يستثني تعالى من المفرد وهو (الإنسان) جمعاً ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهو تقليدٌ لم يُسبَق إليه القرآن الكريم.

٥- عمِلوا الصالحات:

فضلاً عن جدّة الاستعمال القرآنيّ (الصالحات) كما رأينا، بإطلاق هذا الجمع على الأعمال الصالحة، وتفرّد القرآن بذلك، تُشكّل هذه الجملةُ تعبيراً جديداً لم تعرفه العربيّة قبل القرآن، بل ندر أن عرفته بعده، حتّى في الحديث الشريف، رغم تكرار وروده في القرآن الكريم ما لا يقلّ عن ٥٥ مرّة.

٦- ٧- تواصَوا بالحقّ/ تواصَوا بالصبر:

وهما صيغتان جديدتان على العربيّة، ولا نكاد نجدهما في لغتنا البشريّة بعد القرآن، ولا وجود لهما في لغة الحديث الشريف.

ثالثاً: السبائك اللغويّة

١- إنّ الإنسانَ لفي خُسْر:

هذه الصياغة القرآنيّة، التي تبدأ بالأداة المشبّهة بالفعل (إنّ) يليها اسمها الظاهر، وتنتهي بخبرٍ مؤلّفٍ من شبه جملةٍ، هو حرف الجرّ "في" مع مجروره المصدر، ومرتبطٍ باللام المؤكّدة أو المزحلقة، أصبحت سبيكةً تشير بوضوح، أينما وردت، إلى مصدرها القرآنيّ، فهي تتردّد في آياتٍ عدّة، منها:

- ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ١١٠]
- ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٨]
- ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [الحجّ: ٥٣]

٢- الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

يتردّد هذا التعبير بألفاظه نفسها في القرآن الكريم ٥١ مرّة، وهذا وحده كافٍ ليجعل منه سبيكةً شديدة التميّز، فضلاً عن تفرّده في صياغته النحويّة وعلاقاته اللغويّة.

٣- تواصَوا بالحقّ وتواصَوا بالصبر:

رغم كثافة استعمال اللفظين (الحقّ) و (الصبر) ومشتقّاتهما في القرآن الكريم كثافةً غير عاديّة، إذ يتكرّر الأوّل فيه (٢٢٧) مرّة، ويتكرّر الثاني، مع مشتقّاته، ١٠٣ مرّات، فإنّ هذا لم يكن كافياً ليجعل من هذه العبارة سبيكةً قرآنيّة، لولا التكرار المتوازن فيها: تواصَوا بالحقّ | تواصَوا بالصبر، والذي نجد له نظيراً قرآنيّاً آخر في قوله تعالى:

- ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد: ١٧]

فالتوازي الداخليّ في العبارة، من ناحية، والتوازي الخارجيّ، المتمثّل في وجود العبارة الأخرى الرديفة والموازية لها، من ناحيةٍ أخرى، إضافةً إلى الخصوصيّة القرآنيّة للفعل (تواصَوا) كما رأينا، من شأنه أن يؤسّس للعبارة لتكون سبيكةً قرآنيّةً متميّزةً في السورة.

رابعاً: مواقع منفتحة

١- والعصر:

هذا قَسَمٌ إلهيٌّ خاصٌّ لم يتّفق المفسّرون على معناه، وليس للمُقسَم به من الله أن يكون معروفاً لدينا أو واضحاً ومحدّداً، وهو الذي أقسم بما نعرف وبما لا نعرف:

- ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقّة: ٣٨ ـ ٣٩]

بل ربّما كان من دواعي الإثارة والتأثير أن يرتفع المُقسَم به، لجلالة مفهومه وعظمة طبيعته، إلى مستوىً فوق فهم البشر وإدراكهم.

وهكذا اختلف المفسّرون على معنى (العصر): أهو الصلاة المعروفة، أم هو وقتها، أو الحقبة من الحقب، أو الدهر كلّه، أو عصر النبيّ ﷺ وحده، لفضله بتجديد النبوّة فيه، أو ربّ العصر، أو المطر (من المُعْصِرات، وهي السُحب الماطرة)، أو العطيّة والمنحة، أو الملجأ..

وبقدر ما تزداد هذه التفسيرات يزداد اللفظ اقتراباً من اللغة القرآنيّة الطيفيّة المنفتحة ذات الألوان والأبعاد المتعدّدة.

٢- إنّ الإنسانَ لَفي خُسْر:

لم يكتف المفسّرون بالاختلاف على لفظ (الإنسان) هنا، أهو البشر عموماً، وهو الأرجح، أم هو إنسانٌ معيّن، كأبي جهلٍ مثلاً، بل اختلفوا أكثر على طبيعة (الخُسر) في الآية: أهو مجرّد الخسارة، أم هو الهَلكة، أو خسران أهله ومنزله في

الجنّة، أو النقص في الأجر، إذ ينقص عمره كلّ يوم فتنقص بذلك لديه فرصة الطاعة والإثابة عليها، أو هو دخول النار، أو العقوبة عامّةً، أو الشرّ مطلقاً..

ومرّةً أخرى تزداد القيمة التعبيريّة للآية بازدياد أطيافها وتقاطع معاني ألفاظها.

خامساً: جوامع الكَلِم

سبق أن أوضحنا أنّ ما نريد إلقاء الضوء عليه في هذا الجانب ليس ما سار على الألسنة وأصبح عند العرب بمثابة الحكمة والأمثال السائرة فحسب، بل ما نجد فيه من مقوّمات هذه الحِكم والأمثال، ممّا يرشّحه لأن يأخذ مكانه فيها أيضاً.

وبإمكاننا أن نجد في السورة ما لا يقلّ عن أربعةٍ من هذه التعبيرات، وهي:

١- إنّ الإنسان لفي خُسر:

ربما لا تكون هذه الآية من العبارات القرآنيّة التي سارت على الألسن لتكون بمثابة حكمةٍ أو مثلٍ نستشهد به من حينٍ لآخر، ولكن من الواضح أنها تملك مقوّمات العبارة السائرة التي يمكن أن تَختصِر في كلماتٍ أربع ما نريد أن نعلّق به على عديدٍ من المواقف التي تواجهنا في حياتنا اليوميّة: حين نرى إنساناً جشعاً همّه جمع المال والحفاظُ عليه، أو: حين نرى إلى موتٍ مفاجئٍ لإنسانٍ نال من الدنيا كلّ ما يحلم به المرء، أو حين نشهد مصرع طاغية، إلخ..

٢- الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

هذه عبارةٌ قرآنيّةٌ من السهل أن نختصر بها وصف إنسانٍ أردنا أن نعبّر في كلماتٍ عن مدى صلاحه وإيمانه وتقواه، ممّا تشير إليه عشرات الآيات المثيلة.

٣- وتواصَوا بالحقّ وتواصَوا بالصبر:

وهذه أيضاً من العبارات القرآنيّة التي تَختصر لنا الطريق في إطلاقها على من نريد أن نضفي عليهم صفات الاستقامة والعدالة والصبر والثبات.

٤- سورة العصر كلّها:

تقترب مرتبة هذه السورة من مرتبة السور الثلاث الأخيرة في القرآن الكريم (الإخلاص، والفلق، والناس) في ترديد المسلمين لها في أكثر من مناسبةٍ يومية، ولا سيما في اختتام الجلسات أو الاجتماعات أو اللقاءات الفرديّة.

وقد أخرج الطبرانيّ في الأوسط، والبيهقيّ في الشُعب، عن أبي مُزينة الدارميّ، قال:

- كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرّقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلّم أحدُهما على الآخر[1]

---

(١) انظر:

- الطبراني، سليمان بن أحمد. **المعجم الأوسط**، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، القاهرة: دار الحرمين، ط. ٢، ١٤١٥هـ، ج٥، ص٢١٥، حديث رقم ٥١٢٤.
- البيهقي، أحمد بن الحسين. **شعب الإيمان**، تحقيق: محمد بسيوني زغلول، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ، ج٦، ص٥٠١، حديث رقم ٩٠٥٧.

السورة الرابعة عشرة

التكاثُر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨ ﴾

هذه هي السورة الثالثة عشرة بالترتيب التراجعي لسور القرآن الكريم، وتمتاز السورة بغنىً غير عاديٍّ في المواقع الجديدة التي فاجأ بها النصّ القرآنيّ الأوائل من أهل العربيّة.

وسنرى أنّ في السورة التي يبلغ عدد كلماتها ٢٨ ما لايقلّ عن ٥٤ من هذه المواقع الجديدة، وسيتبيّن لنا بشكلٍ خاصّ مدى غنى السورة بالكلمات والتعبيرات المنفتحة، إذ يكاد هذا النوع من المواقع يغطّي مساحة السُورة بأكملها.

وممّا يميّز شخصيّة السورة أيضاً انفرادها بأربعة ألفاظٍ أو استعمالاتٍ لا تتكرّر في غيرها من السوَر: (زرتُم، المقابر، لَتَرَوُنّ، لتَرَوُنّها) وكذلك استقلالها بثمانية تراكيب وتعبيراتٍ تقتصر عليها وحدها وتكاد تغطّي السورة بأكملها: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، ﴿زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾، ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾، ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ﴾، ﴿عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾، ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾، ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾، ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ﴾.

أوّلاً: الألفاظ والمصطلحات

من المهمّ أن نذكّر دائماً بأنّنا في حديثنا عن الألفاظ القرآنيّة الجديدة لن نقتصر على تلك التي أوجدها القرآن ولم تكن موجودةً من قبل، فذلك النوع هو الأقلّ بين هذه الألفاظ.

وإنّما تشمل دراستُنا ألفاظاً عرفها العرب ولكنّ القرآن الكريم أعطاها معنىً جديداً، فأضحى كثيرٌ منها بمثابة مصطلحاتٍ بدأت قرآنيّةً خاصّةً ولكنّها ما لبثت أن دخلت قاموسنا اللغويّ اليوميّ، بحيث لم نعد قادرين، بمعايشتنا الطويلة والمستمرّة لها، على تمييزها بسهولةٍ عن الألفاظ الأخرى التي كانت تشكّل لغة العرب اليوميّة، الرسميّة والمحكيّة، قبل أن يطبعها القرآن ببصمات لغته الجديدة.

فماذا لدينا الآن من هذه الألفاظ في سورة (التكاثر)؟

١- التكاثر:

يمتاز هذا اللفظ بمعناه القرآنيّ الخاصّ، رغم أننا لا نعثر عليه، بهذا المعنى أو بغيره، عند شعراء الجاهليّة. وأوّل من نجده لديه هو الشاعر الإسلاميّ حسّان بن ثابت (ت٥٤هـ) حيث يقول:

وحَمْدانُ أحلاسُ الجيادِ لدى الوغى يمُوجون موجَ البحرِ عند التكاثُر

وواضحٌ، مع ذلك، اختلاف معناه في البيت، وهو الاجتماع، عن المعنى القرآنيّ، وهو التعداد والتفاخر وجمع المال وما يدخل تحت هذه المعاني، كما سوف نرى.

أمّا في الحديث الشريف فنادر الورود، ولم أجده إلاّ في حديثٍ واحدٍ من الواضح أنّ الرسول ﷺ قصد فيه تضمين المعنى القرآنيّ، ومع ذلك خلت معظم رواياته من هذا اللفظ، واقتصر وجوده على إحدى روايات أحمد:

- .. ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم التكاثر، وما أخشى عليكم الخطأ، ولكن أخشى عليكم العَمْد[1]

ويرِد في القرآن الكريم، في غير هذه السورة، مرةً واحدةً أخرى، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠]

والسياق الذي ورد به اللفظ في هذه الآية من شأنه أن يعيننا على فهم دلالاته في سورة (التكاثر).

٢- زرتم:

إنّه لفظٌ قرآنيٌّ جديدٌ بمعناه، وليس بلفظه: فلأوّل مرّة يأخذ في العربيّة معنى: دُفنتم. وربّما كان أقربَ استعمالات الجاهليّين إليه قولُ عنترة (ت٢٢ ق.هـ) -مع التذكير دائماً بالشكوك المحيطة بكثيرٍ من الأشعار المنسوبة إلى هذه الشخصيّة وقد تداخلت أخبارها التاريخيّة مع الأساطير-:

وكان أجلَّ الناسِ قَدْراً وقد غدا ... أجلَّ قتيلٍ زار أهلَ المقابرِ

فالفعل في القرآن يتعدّى إلى (المقابر) مباشرةً، وليس إلى أهل المقابر، فأخذ بذلك معنى الموت أو الدفن، وليس مجرّد الوصول أو الانضمام إلى الأموات هناك، فهو، بالمعنى الشعريّ الأخير، لا يتجاوز المعنى التقليديّ له، وهذا رغم أنّنا نرجّح -بهذا الطابع القرآنيّ الواضح في البيت- أنّه واحدٌ من الأبيات الكثيرة المنحولة لعنترة، وهو الذي استأثر بنصيبٍ من النحل لم يُصِبْه غيره من الشعراء، كما أكّدنا ونؤكّد دائماً.

---

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج١٣، ص٤٤٠، حديث رقم ٨٠٧٤.

ومن المهمّ، إضافةً إلى ذلك، أن نشير إلى أنّ اللفظين (زرتم) و (المقابر) لا يتكرّران في أيّ موضعٍ آخر من القرآن، فهما من خصوصيّات هذه السورة.

٣ إلى ٥- كلاّ [مكرّر ثلاث ٣ مرّات]:

هذا استعمالٌ قرآنيٌّ مختلفٌ للّفظ -كما سبق أن رأينا في سورة (الهُمزة)-.

إنه يتكرّر في القرآن ٣٣ مرة، وبصورةٍ لم يعهدها الشعر العربيّ من قبل، أو من بعد، ولم يعرفها كذلك الحديث الشريف، رغم تردّد اللفظ عدة مرّات في كلا الشعر والحديث الشريف ولكن بالاستخدام المعروف عند العرب لهذا اللفظ، أي بمعنى النفي أو تأكيد النفي، أو ردّاً لزعمٍ، أو نفياً لإثباتٍ يسبق هذا اللفظ أو يلحق به.

ولكنّ اللفظ في القرآن، وفي هذه السورة، يأتي للزجر، ولتغيير اتجاه المعنى نحو ناحيةٍ أخرى مختلفة، فكأنّه يقول: أَبَلَغَ بكم الأمرُ أن تذهبوا إلى القبور لتتفاخروا بأشراف موتاكم وأعدادهم أيضاً؟ أو ربّما أراد: أهكذا تستمرّون في التفاخر والتكاثر حتى تجدوا أنفسكم وقد أصبحتم من سكّان القبور؟ إذن فتهيّأوا للآتي، وستكتشفون قريباً عبث ما كنتم تفعلون، فتواجهون مصيركم المحتوم في الدار الآخرة.

ويتأكّد هذا المعنى القرآنيّ من جديدٍ بتكرار اللفظ في السورة ثلاث مرّات كما نرى.

٦ إلى ٨- تَعلمون [مكرّر ثلاث مرّات]:

يمتاز هذا الفعل، العاديّ بلفظه، بأنّه غير عاديٍّ باستعماله: فالفعل، في المرّات الثلاث، لم يتعدّ إلى مفعولٍ به، إنّه (تعلمون) فحسب.. أو ﴿تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ فأُلحق هنا بمفعولٍ مطلقٍ يؤكّده (علمَ) ولكن من غير أن يُلحق بـ(مفعولٌ به) على الإطلاق! فماذا سيعلمون يا تُرى علم اليقين؟

لقد منحه القرآن الكريم، بحذف مفعوله، قوّةً معنويّةً جديدة، الغرض منها المبالغة في التهويل والتحذير عن طريق إخفاء ما سوف يُعلَم لهم فيما بعد.

ولا شكّ أن تكرار الفعل ثلاث مرّات في السورة، مع ربطه في كلّ مرّة بالأداة (كلاّ)، في معناها الجديد أيضاً، وكذلك الربط بين الجملتين المتكرّرتين بالأداة (ثمّ)، منح ذلك التهويل جرعةً إضافيّةً من التجديد والإثارة.

٩- ١٠- لترَوُنّ/ لترَوُنّها:

رغم تكرار هذا اللفظ مرّتين في السورة فإنّه لا يعود فيتكرّر في القرآن الكريم خارجها، ولا وجود له كذلك -بهذه الصيغة- في الشعر العربيّ، لا قبل الإسلام ولا بعده. إنّه إذن من خصوصيّات سورة (التكاثر) أيضاً.

وربما يذهب الظنّ إلى أنّ سبب خلوّ الشعر العربيّ من هذا اللفظ هو عدم مناسبة الأوزان الشعريّة العربيّة الستة عشر لهذا البناء اللفظيّ الذي تتتالى فيه أربع حركاتٍ (لَتَرَوُ..).

وتوالي مثلِ هذا العدد من الحركات قليلٌ في العَروض العربيّ حقّاً، ولا أكاد أعرفه إلاّ في (مُتَعِلُنْ)، ولكنّ خلوّ الحديث الشريف هو أيضاً من هذه الصيغة، على نثريّته وسعة مساحته، ينفي هذا الافتراض.

١١ - الجحيم:

جذر هذا اللفظ معروفٌ في اللغة العربيّة، والجاحم هو المكان الشديد الحرّ، ونجد اللفظ مرّتين على الأقلّ في الشعر الجاهليّ، الأولى عند عمرو بن قُميئة (ت ٨٥ ق.هـ) في بيتٍ له يصف ترحاله في الحَرّ الشديد عندما تَقِيل كلّ المخلوقات، حتى حشرات الصحراء:

وهاجـرةٍ كــأُوارِ الجحيــمِ قطعْتُ إذا الجُندُبُ الجَونُ قالا

والثانية عند عنترة بن شدّاد (ت ٢٢ ق.هـ) يتغزّل:

كلّمـا ذُقـتُ بـارداً مَـن لماهـا خِلتُهُ فـي فمـي كنـار الجحيـمِ

ومرّةً أخرى أضع تحفّظاتي على صحة نسبة البيتين لصاحبيهما، لِما في استعمال اللفظ فيهما من أثرٍ واضحٍ للمعنى الإسلاميّ له (جهنّم)، ولإغراق ابن قُميئة في الزمن قبل الإسلام، إغراقاً يضفي الشكّ على حقيقة كثيرٍ من شعر تلك الفترة وشعرائها، ثمّ لِما في صورة عنترة خاصةً (تشبيه الريق البارد بنار الجحيم) من صناعةٍ وعمقٍ لا يتوافقا مع طبيعة الصورة في الشعر الجاهليّ وفطريّتها، ومن تجاوزٍ لا ينسجم مع عفّة الغزل الذي عرفناه لعنترة ولا مع فروسيّته ونبله وكرم نفسه.

ومع ذلك فمن المؤكّد أنّ القرآن الكريم قد أعطى هذا اللفظ معنىً جديداً حين جعل منه اسماً آخر من أسماء جهنّم فأطلقه عليها ٢٦ مرّة، وهو رقمٌ مرتفعٌ بالمقارنة مع الرقم الذي ناله الاسم الأصليّ (جهنّم) في القرآن وهو ٧٧ مرة، وبالمقارنة مع الرقم المتواضع جدّاً الذي يمكن أن يكون قد تكرّر به في الشعر الجاهليّ، هذا لو صحّت في النهاية نسبة البيتين للشاعرين المذكورين.

١٢- لتُسألُنّ:

لم يعرف الشعر الجاهليّ هذا الفعلَ أو مشتقّاته بهذا المعنى القرآنيّ الجديد، وهو المحاسبة والمساءلة. ورغم تكراره مع مشتقّاته بهذا المعنى في القرآن ما لا يقلّ عن ٢٢ مرّة فلا أثر لهذا الفعل أو مشتقّاته في الشعر الجاهليّ إلاّ بمعنى السؤال الحقيقيّ الموجّه من طرفٍ إلى آخر، بعيداً عن أيّ معنىً للمساءلة أو المحاسبة، كما في قولهم:

إنْ يسألِ القومُ عنّي أهلَ معرِفةٍ فـلا يُخبِّرُهـمْ عن ثابتٍ لاقِ

تأبّط شرّاً (ت ٨٥ ق.هـ)

واسألْ عنِ الأظعانِ أين سَرَتْ بها آبـاؤها ومتى يكونُ رجوعُـها

عنترة (ت ٢٢ ق.هـ)

١٣- لتُسأَلُنّ:

ليس المعنى الجديد في هذا الفعل هو وحده الذي يستوقفنا، بل البناء اللغويّ الجديد له أيضاً.

فأمر هذه الصيغة (لَتُفْعَلُنَّ) أمرٌ غريب؛ إذ لا وجود لها بهذا البناء، ولا بهذا المعنى، في الشعر الجاهليّ أو ما بعده. وكلّ ما نجده في هذا الشعر بيتٌ واحدٌ جاء الفعل فيه مبنيّاً للمعلوم، على حين جاء الفعل القرآنيّ مبنيّاً للمجهول، كما جاء هناك مخفّف النون، وجاء في القرآن مشدّد النون، فضلاً عن أنّه جاء في الشعر بمعنى السؤال الحقيقيّ، وجاء في القرآن بمعنى المحاسبة. والبيت هو للشاعر المخضرم عامر بن الطُفَيل (ت١١هـ) ويقول فيه:

[و] لَتَسْأَلَنْ أسماءُ وهي حَفِيَّةٌ　　　نُصَحاءَها: أَطُرِدتُ أم لم أُطرَدِ

ورغم أنّ اللفظ يتكرّر ثلاث مرّاتٍ في القرآن؛ فإنّنا لا نجد له أثراً في الحديث الشريف، إلاّ في معرض الاستشهاد بهذه السورة.

وربّما وجدنا الصيغة (لتَفعَلُنَّ) هنا أو هناك في تراثنا، الشعريّ والنثريّ، ولكن بمعنى الأمر وليس الإخبار، وهو ما ينسجم مع العرف النحويّ الخاصّ بهذا البناء.

إنّ للفعلين القرآنيّين (لتَرَوُنّ) و (لتُسألُنّ) طبيعةً معنويّةً خاصّةً تجعل من الصعب أن يصدرا من بشرٍ إلى آخر، ولا سيّما أنّهما ارتبطا معاً بعنصرَيْ تأكيدٍ (اللام ونون التوكيد الثقيلة) مع خلوّهما، رغم ذلك، من معنى الأمر، وهو أغرب ما في هذين الفعلين من جديد.

١٤- يومَئذٍ:

تردّدتُ كثيراً قبل أن أُدرج هذا اللفظ في هذا الباب. فقد عرفه الشعر الجاهليّ مرّةً واحدةً لا أكثر عند شاعرٍ هو أيضاً مغرقٌ في أعماق الحِقبة الجاهليّة وهو الشنفرى (ت ٧٠هـ) وذلك في البيت الذي يُنسب إليه:

فأنتِ البعلُ يومَئذٍ فقُومي بسَوطِكِ لا أبا لكِ فاضربيني

ولكنّ هذه النسبة، شبه المعدومة، ترتفع فجأةً في القرآن الكريم لنجد اللفظ يتكرّر فيه ٧٠ مرةً، منها مرّتان بإضافة (يوم) إلى ما قبلها، وجرِّها تِبعاً لذلك ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ [المعارج: ١١] ممّا لم يعرفه أيضاً الشعرُ الجاهليّ.

إنّ هذه الكثافة غير العاديّة تضطرّنا، شئنا أم أبينا، إلى تصنيفه بين الألفاظ القرآنيّة، حتى إنّ ورود هذا اللفظ في أيّة جملةٍ عاديّة يجعلنا نتوقّف لنتساءل قبل أن نتجاوزها: ما علاقة هذه الجملة بالقرآن؟

وما يزيدنا قناعةً بذلك أنّ استعمال الشعراء لهذا اللفظ، في فترة ما بعد نزول الوحي حتى نهاية العصر الأمويّ، لم يتجاوز ٤ مرّات، وكأنّما هو لفظٌ مطبوعٌ بالطابع القرآنيّ فلا يكاد يجري على لسان أحدٍ أو قلمه، وذلك برغم كثرة وروده في الحديث الشريف.

١٥- النعيم:

يرد هذا اللفظ مرّتين فحسب في الشعر الجاهليّ، ولكن الرقم يرتفع في الفترة الإسلامية ليتردّد ٤٧ مرةً على الأقلّ حتى نهاية العصر الأمويّ، وهذا من غير شكٍّ بتأثير الاستعمال القرآنيّ الجديد. إنّه يتكرّر في القرآن الكريم ١٧ مرة، كلّها في وصف الجنّة، وكأنّه اسمٌ آخر لها، إلاّ في هذه السورة، حيث أُطلق، كما نرى، على نعيم الدنيا دون الآخرة، فهو إذن خصوصيّةٌ أخرى من خصوصيّات السورة.

ومن الواضح أن التركيز القرآنيّ بشكلٍ عامٍّ على استعمال هذا اللفظ، بحيث ترك أثره بعد ذلك في الشعر العربيّ بمثل هذه الكثافة، ثمّ منْحَ القرآنِ له في هذه السورة خصوصيّةً جديدة بعدم وصفه أو تخصيصه بنعيم محدّد، خلافاً لاستعمال الشعراء الجاهليّين ومن بعدهم، هو ما يجعلنا نصنّفه بينَ الألفاظ القرآنيّة الجديدة.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

سندرس تحت هذا العنوان، كما اعتدنا، أيّ تركيبٍ جديد، أو صيغةٍ لغويّةٍ أو نحويّةٍ أو بيانيّةٍ جديدةٍ استحدثها القرآن الكريم في هذه السورة، مخالفاً بها التقاليد الأسلوبيّة العربيّة التي سبقت عصر الوحي والتنزيل. وقد استطعنا أن نحصي منها في هذه السورة اثنتي عشرة حالة:

١- حتى زرتم المقابر:

الجديد في هذا الاستعمال القرآنيّ، لو ذهبنا إلى أنّ معنى الآية: تفاخرتم حتى متّم ودُفنتم، أنّ الفعل جاء في صيغة الماضي (زرتم) وهو يعني المستقبل (ستزورون)، لأنّ المخاطَبين لم يموتوا بعد، وإلاّ لَما خاطبهم. لقد أطلق الماضي لغاية التأكيد والحتميّة، فكأنّه يقول لهم: إنّكم في حكم الأموات حتى إن لم تموتوا بعد، وهو من أكثر الأساليب البيانيّة شيوعاً في القرآن الكريم.

أمّا إن كان المقصود بالآية الزيارة الحقيقيّة للمقابر بقصد تَفاخرِ كلّ قبيلةٍ بأمواتها -كما تذهب بعض التفاسير- فلا شاهد لنا حينئذٍ في هذا التعبير، ولكنّنا نثبته هنا، لأنّنا لا نستطيع نفي الاحتمال الأول.

٢- زرتمُ المقابر:

في تعبير القرآن عن الموت بزيارة القبور، كما سبق أن أوضحنا، صورةٌ بيانيّةٌ جديدةٌ على الشعر العربيّ، فلم يقل: زرتم أهل المقابر، كما في البيت الذي يُنسب إلى عنترة، بل المقابر نفسها، فالزيارة هنا كنايةٌ عن الموت نفسه.

٣- ٤- ٥- كلاّ سوف/ ثمّ كلاّ/ كلاّ لو:

إنّ مجيء (كلاّ) في هذه الأشكال الثلاثة الجديدة يُدخِل في العربيّة تراكيب جديدةً لم تكن تعرفها من قبل. ففي ﴿كَلَّا سَوۡفَ﴾ زجرٌ وتحذيرٌ من العواقب، مع جمعٍ غير متوقَّع بين هاتين الأداتين (كلاّ) و (سوف). وفي ربطها بحرف

العطف (ثمّ) بعد ذلك ﴿ ثُمَّ كَلَّا ﴾ إضافةٌ لعنصرٍ جديدٍ من التخويف والمبالغة في التحذير، مع جمعٍ غير متوقَّع أيضاً بين الأداتين (ثمّ) و (كلاّ). وأخيراً نجد في إلحاق (كلاّ) بأداة الشرط (لو)، في الحالة الأخيرة، جمعاً آخر غير متوقّع بين اللفظين، وتمهيداً لمزيدٍ من التوضيح ووضع الناس أمام الحقائق التي من شأنها أن تُذهلهم لو كُشفت لهم وأتيح لأبصارهم أن تراها.

٦- لو تعلمون:

يصرّ معظم المفسّرين، إن لم يكن كلّهم، على أنّ جواب الشرط (لو) محذوفٌ هنا، وأنّ قوله تعالى ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ ليس جواباً لهذا الشرط، كما سوف نرى بعد قليل، فإذا كان الأمر كذلك، ونحن نخالفهم في هذا، فهو حذفٌ غير عاديٍّ لجواب الشرط.

وحذف جواب الشرط، على أيّة حال، هو أحد أهمّ الأساليب القرآنيّة على الإطلاق، وهذا ما جعلني أسمح لنفسي بإدراج هذا الموقع هنا رغم مخالفته، في رأيي، للحالات القرآنيّة العاديّة الأخرى التي يُحذف فيها جواب الشرط، وما أكثرها، من مثل قوله تعالى:

- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾ [التوبة: ١١٨]

- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦]

- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [يس: ٤٥-٤٦]

- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]

ويذهب كثيرٌ من النحويين إلى أن الفعل (لترَوُنّ) لا يمكن أن يكون جواباً للشرط (لو)، وإنّما هو جوابٌ لقَسَم مضمَر، والتقدير: أُقسمُ لتَرَوُنّ. وحُجّتهم في هذا أن الأصل في جواب (لو) أن يكون منفيّاً، أي لا يمكن أن يقع أو يتحقق، فالأداة (لو) -كما تعلّمنا- حرف امتناع لامتناع، أو، بتعبيرٍ أكثر وضوحاً: حرف امتناعِ وقوعِ شيءٍ لامتناع وقوع غيره، على حين أن دخول الكافرين النار ورؤيتَهم لها، بل رؤية المؤمنين لها أيضاً، ليس أمراً ممتنعاً وإنّما هو أمرٌ محقّقٌ وحتميّ، ولهذا يمتنع أن يكون الفعل (ترَوُنّ) جواباً للشرط.

نقول مثلاً: لو تعلم ما قاله عنك لغضبتَ منه، فإذن: لأنه لم يعلم بمقولته فلن يغضب منه، فامتنع وقوع غضبِه عليه لامتناع وقوع علمِه بما قال.

وأنا أرى أنّ من المهمّ الانتباه إلى الفارق الكبير بين الحالتين. إنّ رؤية الجحيم في السورة ليس هو الرؤية في الآخرة، إنّها دعوةٌ منه تعالى إلى التبصّر واستحضار صورة الجحيم عن طريق الاعتبار والتخيّل في الدنيا، قبل أن يروها رأي العين في الآخرة، فرؤيتها في الآخرة هي الأمر المحقّق، أمّا رؤيتهم لها في الدنيا فأمرٌ لا يقع ولن يتحقّق أبداً.

لقد سبق أن وعدتكم ألاّ أتحوّل بهذا البحث إلى كتابٍ في النحو، وأن أحافظ عليه قريباً من متناول أفهام الجميع، ولكنّني الآن أمام نقطةٍ شديدة الأهميّة، وأنا متأكّدٌ من أنّكم ستستمتعون بها معي في النهاية لو اعتصمتم بقليلٍ من الصبر وحُسنِ التمعّن في تفاصيلها، فما النحو إلاّ كلعبةٍ ذكيّةٍ نستمتع بممارستها وتحتاج منّا إلى القليل من الصبر والترقّب للوصول إلى كثيرٍ من المتعة والدهشة.

لاحظوا أننا قلنا في مثالنا: لو تعلمُ لغضبْتَ، هكذا مضارعاً فماضياً، وهذا ما جرى عليه التقليد النحويّ في جواب (لو)، أي أن يأتي جوابها ماضياً لا مضارعاً -هذا إذا كان الجواب جملةً فعليّة، فقد يكون أحياناً جملةً اسميّةً- ولا سيّما إذا ارتبط هذا الجواب باللام (التي نسمّيها عادةً اللام الرابطة لجواب الشرط)، كقول شاعر الحماسة:

لو كنتُ مِن مازنٍ لم تَستَبِحْ إبِلي   بنو اللقيطةِ مِن ذُهلِ بنِ شَيبانِ

لاحظوا أنّ الفعل المضارع (تستبح) هو هنا بمعنى الماضي، طبعاً، لدخول (لم) النافية عليه.

ولكنه في الآية، وخلافاً لكلّ الأعراف النحويّة، يأتي مضارعاً رغم ارتباطه باللام، وهذا سببٌ آخر يدفع بالنحويّين إلى إخراجه من دائرة الشرط، فعدّوه جواباً لقَسَم محذوف، أي قدّروه هكذا: أُقسِمُ لتَرَوُنّ، فأخرجوه بذلك من دائرة الإعجاز اللغويّ القرآنيّ، وحجبوا عنّا، من ثَمّ، ما في هذا الأسلوب الجديد من فرادةٍ وخصوصيّةٍ اقتصرت على القرآن وحده.

وفي القرآن الكريم العديد من الأمثلة على حذف جواب الشرط، وربّما جواب غير الشرط أيضاً، وكذلك على إحلال المضارع محلّ الماضي في هذا الجواب، كقوله تعالى، وقد جاء جواب الظرف (لمّا) -أو متعَلَّقُه- مضارعاً بمعنى الماضي:

- ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾[هود: ٧٤]

أي: جادلَنا في قوم لوط.

ومن الواضح أن النحويّين، بافتراضهم وجود جواب شرطٍ مقدّرٍ للأداة (لو)، ثم افتراضهم مرةً أخرى وجود قسَم مقدّرٍ جعلوا جوابَه (لتَرَوُنّ)، حاولوا أن يُرضوا أعرافهم النحوية، وينزّهوا القرآنَ، كما يرون، عن الخروج على هذه الأعراف، فاضطرّوا إلى تقديرٍ أو افتراضِ لفظين غير موجودين في الآية للخروج من هذا الإشكال، رغم اعترافهم دائماً بأنّ من الأفضل عدم اللجوء إلى التقدير إذا استقام الأمر بغيره.

ولكنّه، في الحقيقة، الشرف والتميّز والإعجاز المدهش للقرآن الكريم أن يخرج على تلك الأعراف من غير أن يُخلّ بالقواعد الأساسيّة للعربيّة، التي لو

خرج عنها لانتهى إلى لغةٍ أخرى لا علاقة لها بالعربيّة، وإنما هو إخصابٌ وإثراءٌ لهذه اللغة، وفتح أبوابٍ جديدةٍ أمامها للتطوّر والغنى والإبداع لم نحسن، للأسف، اكتشافها أو الاعتراف بها في القرآن، من أجل استثمارها في تطوير لغتنا وإغنائها، وهو هدفٌ أساسيٌّ من أهداف هذا البحث.

٧- ٨- علمَ اليقين/ عينَ اليقين:

هذان تعبيران لا نجدهما في غير القرآن الكريم، ولا في غير هذه السورة، ولا وجود لهما في الحديث الشريف، إلاّ أن يأتيا في سياق الحديث عن هذه السورة.

أمّا ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ فهو، كما يقول المفسّرون، علم القلب والعقل، وليس الرؤية البصرية، فيتبصّر ذو البصيرة النار وهو في الدنيا قبل انتقاله إلى الدار الآخرة -وهذا يؤيّد ما ذهبنا إليه في تفسير الشرط-. وأمّا ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ فهو الرؤية العينيّة يومَ القيامة حين يعاين الكفّار النار ويذوقونها، أو حين يراها المؤمنون كذلك بأعينهم ويتحقّقون من فظاعتها وهولها ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ ﴾ [مريم: ٧١] كما أخبر القرآن الكريم.

٩- لتَرَوُنّ الجحيم:

مرةً أخرى لو وضعنا هذه الجملة الصغيرة المكوّنة من كلمتين بين مئات الجمل الصغيرة الأخرى لاستطعنا تمييز قرآنيّتها:

- بفرادة لفظيها، كما أثبتنا.
- بصيغة (لتَفْعَلُنّ) المؤكّدة باللام والنون معاً، والموجّهة إلى الجماعة وليس إلى المفرد، والتي تدلّ على الإخبار وليس الإنشاء (أو الأمر).

وهي، بغضّ النظر عن هذه الخصوصيّة الهامّة، صيغةٌ نادرة الاستعمال في لغتنا العاديّة، حتّى في معناها الإنشائيّ العاديّ، وكذلك في لغة الحديث الشريف، ولكنّها تتردّد كثيراً في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى:

- ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤]

- ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق: ١٩]

١٠- ١١- ثم لترَوُنّها/ ثمّ لتُسألُنّ:

إنّ مجيء حرف العطف (ثمّ) قبل جملةٍ تأكيديّةٍ، كهاتين الجملتين، ابتدأ فعلاهما باللام المؤكِّدة وانتهيا بالنون المؤكّدةِ، أمرٌ غير عاديٍّ وغير مسبوقٍ في اللغة العربيّة، لا مع هذين الفعلين ولا مع غيرهما، فضلاً عمّا تمنحه لهما الأداة (ثُمّ) من قوّةٍ تأكيديّةٍ إضافيّةٍ سبق أن أحسسناها في أكثر من آية، ولا سيّما عندما يتكرّر بعدها اللفظ أو التعبير نفسُه الذي جاء قبلها، كما هو هنا، وكما في قوله تعالى:

- ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾ [النبأ: ٤ – ٥]

- ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٥ ﴾ [القيامة: ٣٤ – ٣٥]

ولا شكّ أنّنا عندما نقول محتجّين ومؤكِّدين: كلاّ ثم كلاّ، فإننا نفعل هذا متأثّرين بالأسلوب القرآنيّ الذي انفرد بهذا التعبير، ثم انطبعت به بعد ذلك ذاكرتنا اللغويّة اليوميّة.

١٢- النعيم:

يُسأل الإنسان أو يُحاسَب عادةً عن "فعلٍ" ما، هل فَعَله أم لم يفعله، أمّا هنا فالسؤال هو عن (النعيم) نفسه وهو ليس فعلاً أو حدَثاً، وإذن لا بدّ من فعلٍ أو ما هو بمعنى الفعل نقدّره قبل هذا اللفظ، فيكون المعنى آنئذٍ أنّه سيُسأل: هل شَكَر الله لِما أعطاه من النعيم، أو: هل أحسن استخدام هذا النعيم، أو: كيف حصل على هذا النعيم، وهذا يجعل من التعبير، مرةً أخرى، تعبيراً بيانيّاً جديداً وخاصّاً بالقرآن وحده.

ثالثاً: السبائك اللغويّة

حين نزل القرآن الكريم كانت السبائك الجديدة ثورةً حقيقيّةً في نسيج اللغة العربيّة أدهشت العرب، من غير أن يَعُوا تماماً ماذا يحدث، بل وجدوا أنفسهم عاجزين حتّى عن تقليد هذه السبائك وإحلالها محلّ سبائكهم التقليديّة القديمة، ولهذا ندر أن نجد في لغتنا، حتّى اليوم، آثار السبائك القرآنيّة الجديدة، إلاّ أن يكون تضميناً لها يشير بوضوحٍ إلى أصله القرآنيّ. فقد ظلّ معظمها، إن لم نقل كلّها، ممتنعاً على التقليد الحقيقيّ الذي يُذيبها في لغتنا بحيث لا نعود قادرين على التمييز بين السبيكة القرآنيّة وسبيكتنا البشريّة.

وهكذا اقتصر التأثير القرآنيّ في لغتنا غالباً على جانبٍ بسيطٍ من الألفاظ، والتراكيب، والتعبيرات، والعبارات السائرة أو (جوامع الكَلِم)، إضافةً إلى بعض التأثير للغته المنفتحة في الشعر العربيّ خاصّةً، وإن ظلّت صفة "الانفتاح"، كما عرّفناه في الجزء الأوّل من هذا البحث، خاصّةً بالقرآن الكريم وحده، ثمّ ببعض الأحاديث الشريفة.

ويبقى للسبائك القرآنيّة، مع كلّ تحليلاتنا ومحاولاتنا لوضع أصابعنا عليها، نكهتُها السماوية المميَّزة التي يعجز أيّ إنسانٍ عن تقليدها أو الوقوف على الأسرار البعيدة الغور لكيميائيّتها وتركيبها.

وما عملُنا الآن إلاّ محاولةٌ متواضعةٌ لكشف ما يمكن أن يكتشفه العقل البشريّ القاصر من أسرار هذه الكيمياء اللغويّة الإلهيّة المُحيِّرة.

وسنقف فيما يلي عند هذه السبائك الثماني، وهي تشمل في الحقيقة كلّ أجزاء السورة:

١- ألهاكمُ التكاثرُ. حتى زرتمُ المقابر:

لقد اجتمع في ألفاظ هاتين الآيتين وعلاقاتهما اللغويّة من عناصر التفرّد، التي درسناها في الألفاظ والعلاقات اللغويّة، ما يكفي ليجعل من العبارة التي تكوّنت منهما سبيكةً قرآنيّةً متميّزة.

ومن الواضح أنّ (حتّى) في مركز هذه السبيكة تشكّل محوراً أساساً لها، لأنها تربط، في معنىً واحدٍ على الأقلّ من معانيها المتعدّدة، بين المقدّمة: الانشغال بالتكاثر، والنتيجة: الموت والحساب، فتعطي هذه العبارة، ببنائها المميّز، والمتناظر، شكلَها القرآنيّ الخاصّ.

ولعلّ أقرب السبائك القرآنيّة إليها، في بنائها التشكيليّ العامّ دون البناء اللغويّ التفصيليّ الذي يستقلّ كلّياً بشخصيّته عن غيره، قوله تعالى:

- ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٢]

٢- ٣- كلاّ سوف تعلمون [مكرّر]:

إنّها من دون شكّ سبيكةٌ شديدة التميّز، بما اجتمع فيها من عناصر النفي جنباً إلى جنبٍ مع عناصر التأكيد في وقتٍ واحد.

إنّ افتتاح الآية بأداة النفي، أو الزجر، يوحي بأننا على وشك سماع المزيد من هذا النفي، ولكنّ أداة الاستقبال (سوف) تأتي بعدها مباشرةً لتفاجئنا بمعنى التأكيد والإصرار الذي تضمّنته، وبما يشكّل مفارقةً غير مألوفةٍ بين مطلع الجملة ونهايتها، ممّا يعطيها نكهةً قرآنيّةً عالية المذاق تمكّننا من اكتشاف قرآنيّتها حتى لو اختلطت بآلاف الجمل البشرية.

٤- كلاّ سوف تَعلَمون. ثمّ كلاّ سوف تَعلَمون:

العنصر الإضافيّ الجديد الذي يميّز هذه السبيكة عن سابقتها هو عنصر التكرار في بنائها العامّ. ويتمفصل هذا البناء عند الأداة (ثمّ) التي يلتقي عندها جناحا السبيكة المتكرّران.

وأقرب السبائك القرآنيّة إليها قوله تعالى:

- ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [النبأ: ٤ – ٥]

ومرّةً أخرى، من السهل، حتى على من كانت لديه ثقافةٌ قرآنيَّةٌ متواضعة، أن يميّز هذه السبيكة القرآنية بين آلاف العبارات البشريّة الأخرى، حتّى إن حملت تلك العباراتُ المعنى القرآنيَّ نفسَه.

٥- كلاّ لو تَعلَمون علمَ اليقين:

سواءٌ قبلنا بمذهب من قال إن أداة الشرط (لو) جاءت هنا بلا جواب شرطٍ ظاهر، أو قلنا إنّ الجواب سيأتي في (لتروُنّ)، فإنّ الآية لها خصائص السبيكة القرآنيّة المتفرّدة، بما فيها من علاقاتٍ لغويّةٍ مميّزة.

فأداة الزجر (كلاّ) التي تبدأ بها الآية، هي بجلاءٍ بدايةٌ غير تقليديّةٍ للجملة العربيّة. ثم يتلوها الشرط مباشرةً، وهو أيضاً وضعٌ لغويٌّ غير تقليديّ. ثم تأتي جملة فعل الشرط المكوَّنة من فعلٍ ومصدرٍ مشتقٍّ من هذا الفعل (تَعْلَمُونَ عِلْمَ)، وأخيراً تأتي الإضافة غير العاديّة حين أُلحق بهذا المصدر (عِلم) مصدرٌ في شبه معناه (اليقين)، ليكوّنا معاً تركيباً لغويّاً غير تقليديٍّ أيضاً (عِلْمَ ٱلْيَقِينِ).

٦- لَتَرَوُنَّ الجحيم:

إنّها سبيكةٌ أيضاً؛ رغم أنّنا سبق أن أدرجناها في الحديث عن الصيغ والعلاقات اللغويّة بوصفها تعبيراً قرآنيّاً، ولكنّ توفّر مقوّمات الجملة الكاملة فيها، وتعدّد عناصر هذه الجملة: (اللام الرابطة، الفعل، واو الفاعل، نون التوكيد، المفعول به) وما فيها من مقوّماتٍ لغويّةٍ خاصّةٍ سبق أن فصّلناها، يؤهّلها لأن تُدرَج أيضاً بين السبائك رغم أنّها تتألّف من لفظين لا أكثر.

٧- ثمّ لتَرَوُنّها عينَ اليقين:

وهذه الآية يتوفّر فيها أيضاً ما توفّر في الآية السابقة من عناصر لغويّةٍ خاصّةٍ بالقرآن، كما رأينا، بالإضافة إلى العنصر الجديد الآخر المتمثّل بافتتاحها بحرف العطف التأكيديّ (ثمّ)، وكذلك التركيب اللغويّ الفريد وغير التقليديّ للمفعول المطلق الذي انتهت به ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾.

٨- ثمّ لتُسألُنّ يومَئذٍ عن النعيم:

وها هي الصيغة القرآنيّة (لَتفعَلُنّ) تطبع من جديدٍ هذه الآية بطابعها، مبدوءةً أيضاً بأداة العطف التوكيديّة القرآنيّة (ثمّ).

ولا شكّ أنّ كثافة ورود اللفظ (يومَئذٍ) في القرآن الكريم -٦٨ مرة كما رأينا- إضافةً إلى مرّتين يأتي فيهما مجروراً بالإضافة (يومِئذٍ)، وكذلك كثافة استعمال اللفظ (نعيم) فيه أيضاً، يمنح السبيكة مزيداً من الخصوصيّة والقرآنيّة.

رابعاً: مواقع منفتحة

هذا الجزء من الدراسة يضعنا أمام المعاني العديدة التي اقترحها المفسّرون لعددٍ من الألفاظ والتعبيرات في السورة.

وبقدر ما تزداد هذه المعاني يزداد اللفظ أو التعبير اقتراباً من الحدود التي وضعناها لتعريف المواقع المنفتحة، واستحقاقاً لأن يكون ضمن الدائرة اللغويّة التي تمنحها مرونتُها وهلاميّتها قوَّة الاستمرار والعطاء على مرّ العصور وامتداد المسافات وتنوّع المفاهيم والثقافات.

وسنتوقّف في هذا الجانب اللغويّ الهامّ من سورة (التكاثر) عند الألفاظ والعبارات الآتية:

١- أَلْهاكُم:

اعتادت العرب أن ترفق هذا الفعل بحرف الجر (عن) لإظهار ما وقع الإلهاءُ عنه. يقول امرؤ القيس (ت٨٠ ق.هـ):

.... فألهيتُها عن ذي تمائمَ مُحْوِلِ

فإذا لم يُرفَق الفعل بهذه الأداة فقد عُني به مجرّد الالتهاء بالأشياء، وليس الالتهاء عن الأشياء، كما في قول عَبيد بن الأبرص (ت٢٥ ق.هـ):

وأنـتَ امـرؤٌ ألهـاكَ دَنٌّ وقَينـةٌ فتصبحُ مخموراً وتُمسي كذلكَ

ورغم أن اللفظ في الآية اتّجه إلى (الالتهاء عن)، فإنّ الأداة (عن) غير موجودةٍ بعده، ممّا يجعل منه فعلاً مفتوحاً لاحتمالاتٍ عديدةٍ من المعاني التي يمكن أن يتعدّى إليها: ألهاكم التكاثر عن الآخرة، وعن التفكير بالثواب والعقاب، والجنة والنار، وربّما عن الصلاة والعبادات وذكر الله وعمل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها..

ولو ظهرت (عن) وظهر ما بعدها، بطبيعة الحال، لانغلق الفعل ولم يبق أمام خيالنا أيُّ خيارٍ لاقتراح المزيد من المعاني والاحتمالات.

٢- التكاثر:

مرةً أخرى يأتي هذا اللفظ مفتوحاً لعدّة احتمالات في أنواع التكاثر، ولو أضيف إلى لفظٍ ما يحدّده لحُصر معناه فيما أضيف إليه.

أمّا وقد تجرّد من الإضافة فبإمكاننا الذهاب به الآن مذاهب كثيرة: التكاثر والتفاخر في الأموال، الأولاد، الأحساب، القبائل والعشائر، الرجال والأبطال، المعاش والتجارة، الرفاهية والتنعّم، إلخ..

وقد تعدّدت الآراء، نتيجةً لبقاء هذا اللفظ مفتوحاً، حتى في مناسبة نزول السورة:

فمِن قائلٍ إنها نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلانٍ أكثر من بني فلان، حتى ماتوا ضُلّالاً،

وقيل: نزلت في فخِذٍ من الأنصار، أو ربّما في حيّين من قريش تعادّوا وتكاثروا بأشرافهم في الجاهلية والإسلام، فغلب بنو عبدِ مُنافٍ الحيّ الآخر (بني سَهْم)، فتكاثروا بالأموات فكَثَرَتْهم سَهْمٌ، فخاطبهم تعالى في السورة: ألم تكتفوا بالتكاثر بأحيائكم فزرتم المقابر مفتخرين بأمواتكم أيضاً؟

وقيل: ظلّوا يتفاخرون، وكلَّ يومٍ يموت منهم من يموت، حتى صاروا كلّهم من أهل القبور.

وجاء في الحديث الشريف:

- ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ ﴾ قال: يقول ابن آدم: مالي مالي، وإنّما مالُك ما أكلتَ فأفنيت، أو لبستَ فأبليت، أو تصدَّقت فأمضيت[1]

وهكذا نجد أنّ قَطْعها عن الإضافة منَحها خصباً وأبعاداً في المعاني والتأويلات، وتقديراتٍ لمناسبة النزول ما كانت لتنالها لو أضيفت إلى كلمةٍ أخرى أو وُصِفت بوصفٍ بعدها.

ومن المهمّ الربط هنا بين اللفظين (ألهاكم) و (التكاثر)، لأنّ اجتماع لفظين مفتوحين في جملةٍ واحدةٍ من شأنه أن يضاعف أبعاد اللفظين معاً، والفرق بين حساب أبعاد كلّ لفظٍ منهما على حدة، وحساب أبعادهما مجتمعين، كالفرق بين قيمة كلّ من العددين (٢) و(٤) منفردين وقيمتهما معاً مجتمعين، أي (٤٢) أو على الأقلّ (٤×٢)! ألاحظتم الفرق؟

٣ - زُرتُم:

يتضح من حديثنا عن الأبعاد المعنوية للّفظين السابقين تعدّد الآراء في معنى الزيارة هنا أيضاً:

---

(١) النسائي، **المجتبى من السنن**، مرجع سابق، ج٦، ص٢٣٨، حديث رقم ٣٦١٣.

أهي زيارةٌ حقيقيّةٌ للقبور وهم أحياء، ليتفاخروا هناك بموتاهم؟

أم هي موتهم الذي انتهوا إليه بعد كلّ هذا التكاثر والتفاخر؟

أم هي الإقامة المؤقّتة لمن مات منهم ودفن في هذه القبور، لأنّه فيها كالضيف أوالزائر، إذ لن يلبث أن يُبعث ويعود إلى مسكنه الدائم الذي أُعِدّ له في الجنّة أو النار؟

أم هي كلّ ذلك معاً؟

أم غير ذلك أيضاً؟

أرأينا إلى اجتماع ثلاث كلماتٍ متوالية، كلٌّ منها ذات أبعادٍ متعدّدة، كم يمنح الجملة من الأطياف والألوان والاحتمالات؟

حتّى الأداة (حتّى) التي فصلت بين كلمتين من هذه الثلاث، اكتسبت، في خضمّ هذا الغنى والتعدّد، أكثر من معنىً.

فقد تكون بمعنى (إلى درجة) أي ألهاكم الحديث عن التكاثر إلى درجةٍ جعلتكم تزورون المقابر وتتفاخرون بموتاكم هناك.

أو بمعنى (لغاية) أي: ألهاكم التكاثر لغاية انتهاء حياتكم ووصولكم إلى المقابر ودفنِكم فيها.

٤- ٥- ٦- كلاّ [مكرّر ثلاث مرّات]:

إنّ جدّة استعمال هذا اللفظ، وتطويرَ القرآن الكريم لمعناه، واستخدامَه له في سياقاتٍ مختلفة، يمنحه قوّة اللفظ المنفتح.

وقد ذهبوا في تفسيره إلى أنّه الزجر هنا، أو النفيُ لما يأملونه في التفاخر، أو أنّه يحمل معنى (ألا) الاستفتاحيّة، أو معنى (حقّاً)، أو ما ذهبنا إليه من دورٍ لهذه الأداة يشبه دور إشارة المرور لأنّها تحوّل وجهة الكلام نحو سياقٍ جديد.

وكلّ هذه المعاني ملائمٌ لسياق السورة في المواضع الثلاثة التي ورد فيها هذا اللفظ، مع احتمال اختلافاتٍ طفيفةٍ في معنى كلٍّ منها تِبعاً لاختلاف سياقها، ولاختلاف تفسيرات الألفاظ قبلها أو بعدها، وكذلك تِبعاً لما سبقها أو تلاها من أدوات.

٧- ٨- تَعلَمون [مكرّر]:

إنّ حذف مفعول هذا الفعل، في المرّتين، تركَنا أمام احتمالاتٍ عديدةٍ لما سوف يعلمونه وما سوف نعلمه نحن جميعاً بني البشر.

يضاف إلى ذلك أن الفعلين تجرّدا من ذكر المخاطَب، أو المخاطِبين، ممّا أسهم في إضفاء المزيد من الغنى والاحتمالات في معاني كلا الفعلين.

من أجل ذلك نذهب في تفسير ما سيعلمونه، أو سنعلمه جميعاً، مذاهب شتّى:

إنّهم سيعلمون قريباً نتيجة هذا التفاخر، أو يعلمون مآل هذا الذي يتفاخرون به من متاعٍ وأموالٍ وأولاد، أو يعلمون النهاية ويذوقون الموت الذي ينتظرهم وينتظر كلاًّ منّا على المنعطَف، أو يعاينون الحساب الشديد، أو النار وعذاب الجحيم، أو..

وهكذا ينطلق الخيال مع تصوّراته العديدة لهذا الذي تنذرنا الآية باقتراب علمنا له.

ولا شكّ أن تكرار الفعل مرّتين مع أداة الاستقبال (سوف) تركنا أيضاً أمام احتمالاتٍ عدةٍ لمعنى هذا التكرار:

أهو لمجرّد التأكيد وتشديد الوعيد؟

أم أن مفعول الفعل الأوّل ليس هو نفسه بالضرورة مفعولَ الفعل الثاني؟

لقد ذهب المفسّرون في هذا مذاهب شتّى:

قالوا: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ

تَعۡلَمُونَ ﴾ في الآخرة إذا حلّ بكم العذاب. فالأولى في القبر، والثانية في الآخرة،

وقالوا: الأولى: إذا نزل بكم الموت وجاءتكم الرسل لتنزِع أرواحَكم، والثانية: إذا دخلتم قبورَكم وجاءكم مُنكَرٌ ونَكير،

وقالوا: الأولى أنّكم مبعوثون عند النشور، والثانية أنّكم معذَّبون يوم القيامة،

وقالوا: الأولى للكفّار، والثانية للمؤمنين،

وقالوا: هو مجرّد التأكيد والتغليظ..

ورُوي عن عليٍّ ﷺ: "ما زلنا نشكّ في عذاب القبر حتّى نزلت (ألهاكمُ التكاثرُ)".[1]

٩ - علمَ اليقين:

لقد انعكس اختلاف المفسّرين حول معاني الآيات الأربع الأولى من هذه السورة على معنى هذه الآية أيضا.

فما علمُ اليقين هنا؟

قد يكون الموتَ، لأنّ "الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا".[2] فالإنسان بعد الموت يرى من الحقائق ما كان عاجزاً عن رؤيته وهو حيّ،

وقد يكون البعثَ، حين يصحو البشر من رقدتهم ليجدوا أنفسهم وجهاً لوجهٍ أمام يوم الحساب،

---

(١) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. **إثبات عذاب القبر**، تحقيق: شرف محمود القضاة، عمان: دار الفرقان، ط.٢، ١٤٠٥هـ، ص١٣٢.

(٢) العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي. **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط. ٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٢، ص، ٣١٢، حديث رقم ٢٧٩٥.

وقد يكون يومَ تطايُر الصحف حين يعرف كلٌّ مصيرَه، في الجنّة أو في النار،

وقد يكون العِلمُ هنا بصيرةَ الإنسان في الدنيا لما ينتظره في الآخرة، حتى قبل أن يموت، كما رأينا، فيكون ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ على هذا استحضارَ صورة الآخرة وهم أحياء ومعرفتَها بالعلم من غير أن يروها، بمقابل ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ الذي يعني معاينة هذه الأمور يوم القيامة ورؤيتَها رأي العين.

١٠- الجحيم:

رغم معرفة العرب للفظ (الجحيم) قبل الإسلام، كما رأينا، فإنّ اللفظ الآن يشير إلى عالمٍ أخرويٍّ كاملٍ يحوي من أنواع العذاب وأشكال العقاب ما لا يتصوّره إنسانٌ وما لا يخطر على قلب بشر.

ومن السهل أن نتبيّن قيمة الأبعاد المتعدّدة لهذا اللفظ لو أحللنا محلّه لفظ (النار).

إنّ النار هي النار، أمّا الجحيم فيجمع بين النار والزمهرير، والعذاب المادّي والعذاب المعنويّ، والدرك الأسفل وما يسبقه من درجات، وكذلك كلّ ما ذُكر، أو ما يمكن أن يُتخيَّل، من أوصاف جهنّم في القرآن الكريم أو الحديث الشريف.

١١- عين اليقين:

شأن هذا التعبير شأن التعبير السابق ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ في اختلاف المفسّرين حول المقصود به.

وكأنّ في إضافة (عين) هنا إلى (اليقين) توجيهاً لدُقّة المعنى نحو اتّجاهٍ آخر، وهو الرؤية الحقيقيّة في الآخرة، عندما يقف الناس وجهاً لوجهٍ أمام مصائرهم وحسابهم، وجنّتهم أو نارهم.

١٢- ثم لتُسألُنّ يومئذٍ:

السؤال هنا ذو أوجهٍ متعدّدة: من سيَسأل؟ ومن سيُسأل؟ وعمّ سيُسأل؟ وكيف يُسأل؟ وماذا بعد السؤال؟ وماذا بعد الجواب؟

هذه الأسئلة كلّها تَطرح نفسها تلقائيّاً علينا ونحن نقرأ هذه الآية، فتثير في أذهاننا ما تثيره من حيرةٍ وحذرٍ وترقّبٍ وخوف.

إنّ السورة توجّهت إلى قوم معيّنين، وفي ظرفٍ معيّن، ومكانٍ محدّد، ولكنّ اللغة التي أُنزِلت فيها نقلتْها من الخاصّ إلى العامّ، ومن المحدود إلى المطلق، فجعلت كلاًّ منّا يستشعر الموقف حين يقرأها، وكأنّها أُنزلت الآن، ومن أجله، فينفتح أمامه عالمٌ لا نهاية له من التصوّرات للأحداث الغيبيّة.

١٣- النعيم:

أمّا النعيم فيحمل من المعاني في الآية كلَّ ما أنعم الله به على الإنسان من نِعم.

وقد ذكر المفسّرون من هذه النعم التي يُستدلّ عليها من السورة: الأمن والصحّة والوقت والإدراك بالحواسّ، كما تنصّ الآية ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦] وملاذّ الأكل والشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخَلْق، ولذّة النوم، والجاه، واللباس، والإسلام، والقرآن، ومحمّد ﷺ كما يؤكّد القرآن الكريم ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وتخفيف الشرائع ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحجّ: ٧٨]. ويزيد هذه المعاني وضوحاً عددٌ كبيرٌ من الأحاديث الشريفة التي وردت في تعريف (النعيم) منها:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لمّا نزلت هذه الآية ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال الناس: يا رسولَ الله، عن أيّ النعيم نُسأل، فإنّما هما

الأسودان [أي لا نملك إلاّ التمر والماء] والعدوُّ حاضرٌ، وسيوفُنا على عواتقنا؟ قال: **إنّ ذلك سيكون**[1].

- وعن أبي هريرة ﵁ قال رسول الله ﷺ: إنَّ أوّل ما يُسألُ عنه العبدُ يومَ القيامةِ من النعيم أن يقالَ له: ألمْ نُصِحَّ لك جسمك، ونرويك من الماء البارد؟[2].

خامساً: جوامع الكَلِم

لعلّ معظم عبارات هذه السورة لم يحتلّ مكانه بعد في قاموسنا اللغويّ اليوميّ، ومع ذلك سنرى أنّ أكثر هذه العبارات يحمل مقوّمات التعبير السائر الذي يمكن أن يَختصر في كلماتٍ قليلةٍ مواقفَ حياتيّةً كاملةً نحاول التعبير عنها عادةً بلغتنا البشريّة المترسّلة:

١- ألهاكم التكاثر:

هذه العبارة تلخّص في كلمتين درساً كاملاً يمكن أن يلقيه أحدنا على من شغلتهم الحياة الدنيا عن الآخرة، وقد نسُوا الموت والحساب والجنّة والنار.

٢- ألهاكُم التكاثر. حتى زرتمُ المقابر:

وفي اجتماع الآيتين في هذا التعبير يجتمع إلى الموقف الأول، وهو الانشغالِ بأمور الدنيا، موقفٌ إضافيٌّ آخر، فنردّد في أنفسنا هذه العبارة ونحن نشيّع بأنظارنا جنازة امرئٍ أهمّته الدنيا فجمع منها ما جمع، ثم ترك كلّ ذلك ومضى إلى نهايته المحتومة.

---

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، ج٥، ص٤٤٨، حديث رقم ٣٣٥٧.

(٢) المرجع السابق، ج٥، ص٤٤٨، حديث رقم ٣٣٥٨. وجاء الفعل (نرويك) هكذا بالياء، وكأنّ الجملة مستأنفة.

٣- كلاّ سوف تعلمون:

عندما تحاول أن تقنع أناساً بأنهم على خطأ، فيركبون رؤوسهم، ويصرّون على أنهم هم المصيبون رغم وضوح الخطأ لكلّ ذي بصيرة، فأبلغُ ردٍّ تَختصر به رأيك فيهم، ويأسك من إصلاحهم، وتأكُّدَك من ظهور الحقيقة في النهاية، قولُك لهم: كلاّ سوف تعلمون.

٤- ٥- علمَ اليقين/ عينَ اليقين:

هاتان العبارتان تختصران موقفين، كلٌّ في كلمتين:

الأوّل: تأكُّدُنا من وقوع أمرٍ من غير أن نراه بأعيننا (علم اليقين).

والثاني: تأكُّدُنا من وقوعه بعد رؤيتنا له بأعيننا (عينَ اليقين).

فلو حدث أن أخبرَنا أحدُهم بخبرٍ خطيرٍ ما زلنا في شكٍّ من وقوعه، فأبلغُ طريقةٍ وأقصرها للتأكّد من مدى اطّلاعه على الأمر بنفسه هي أن نسأله: أكان هذا علمَ اليقين؟ أم عين اليقين؟

٦- ثمّ لَتُسألُنّ يومَئذٍ عن النعيم:

وهي عبارةٌ يَحسُن بالإنسان أن يردّدها كلّما وجد نفسه في بحبوحةٍ من الرغد والسعادة، أو أحسّ بأن الدنيا قد أقبلت عليه، ففي ترديده لها ما يزجر شيطانَ نفسه إذا حاول أن يجرّ قدميه إلى الدنيا، وفيه ما يذكّره بالآخرة وما أعدّ لها من عمل.

- يروي مسلم عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلةٍ فإذا هو بأبي بكرٍ وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: وأنا، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا، فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: أين

فلان؟ قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء؛ إذ جاء الأنصاريّ فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحدٌ اليوم أكرمُ أضيافاً منّي. قال: فانطلق فجاءهم بعِذقٍ [أي عنقودٍ كاملٍ من التمر] فيه بُسرٌ وتمرٌ ورُطَب، فقال: كُلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: إيّاك والحلوب، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العِذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورؤوا قال رسول الله ﷺ لأبي بكرٍ وعمر: والذي نفسي بيده لتُسألُنّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أَخرجَكم من بيوتكم الجوعُ، ثم لم تَرجعوا حتى أصابكم هذا النعيم[1].

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٦٠٩، حديث رقم ٢٠٣٨.

السورة الخامسة عشرة

القارعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾

نحن الآن مع سورةٍ مختصّةٍ بالعذاب، وليس فيها ما يخفّف من وطأتها على نفوس الذين تتوجّه إليهم بالإنذار إلاّ آيتان: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ، فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾.

والسورة هي الرابعة عشرة بالترتيب التراجعي لسور القرآن، وهي مؤلّفةٌ من ٣٦ لفظاً ولكنّنا نستطيع أن نضع أيدينا فيها على ٥٤ موقعاً جديداً.

وتبرز الشخصيّة اللغويّة للسورة في خمسة ألفاظٍ استقلّت بها عن غيرها من السوَر، وهي: (الفَراش، المبثوث، المنفوش، هاوية، هِيَه) وكذلك خمسة تراكيب وتعبيرات تقتصر عليها وحدها، وهي: ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾، ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ﴾، ﴿الفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾، ﴿العِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾، ﴿ أُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾.

أوّلاً: الألفاظ والمصطلحات

١ إلى ٣- القارعة [٣ مرّات]:

قد يكون القاموس الجاهليّ عَرَف هذا اللفظ مرّتين، وعند شاعرين أخوين مغرِقين في القدم، حفل شعرهما، وكذلك الملحمة الشعبيّة التي وصلت إلينا عنهما، بالأساطير أكثر ممّا حفلا بالحقائق، وهما كُلَيب بن ربيعة (ت١٣٤ ق.هـ) والمهلهِل بن ربيعة (ت٩٤ ق.هـ). يقول كُلَيب:

كأنّهمُ النعـامُ غداةَ خافوا　　　بذي السلاّنِ قارعةَ التلاقي

ومع ذلك فإنّ من الواضح، مع الهالة الكبيرة من الشكوك التي تحيط بأشعارهما، اختلافَ معنى اللفظ لديهما، وهو الحدث الكبير كما هو واضحٌ في بيت كُليب، أو الخوف الشديد، عن المعنى الاصطلاحيّ الجديد له في القرآن، وهو القيامة، وكأنّما أعطِيت هذا الاسم لأنّها "تقرع القلوب بالفزع، وتقرع أعداءَ الله بالعذاب".

ويدعم شكوكنا في جاهليّة اللفظ أنّنا، رغم وروده ٥ مرّاتٍ في القرآن الكريم، ثلاثٌ منها في هذه السورة وحدها، لا نجد له أثراً في الحديث الشريف.

٤- المبثوث:

لا نعثر على هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ ولا في الحديث الشريف، ولا نجده في القرآن الكريم خارج هذه السورة.

وما يزيده خصوصيّةً استخدامُه الخاصّ في وصف الفَراش، وما يُكسِبه هذا السياق الجديد من معنىً مميَّز.

٥- المنفوش:

لفظٌ آخر لم يعرفه الشعر الجاهليّ ولا الحديث الشريف، لا بهذا المعنى ولا بغيره. ولا نجده في القرآن الكريم خارج هذه السورة.

٦- ٧- موازينُه [مكرّر]:

المرّة الوحيدة التي عرف بها الشعر الجاهليّ هذا اللفظ هي في بيتٍ سبق أن أوردناه ضمن أبياتٍ أخرى شكّكنا بصحّة نسبتها للحُصين بن حُمام الفزاريّ (ت١٠ ق.هـ). والبيت هو:

وخَفّ الموازينُ بالكافرين وزُلزِلتِ الأرضُ زِلزالَها

والواضح أنّ ألفاظاً وتعبيراتٍ وصوَراً مثل: خفّة الموازين، والكافرين، وزلزلت الأرض زلزالها، كلّها محضُ قرآنيّ، ممّا يُضْعف مصداقيّة هذا البيت وصلاحيته لإثبات وجود أو عدم وجود لفظ (الموازين) في الشعر الجاهليّ. ومع أهمّية هذه الشكوك فإنّ (الموازين) هنا لا تعني بطبيعة الحال تلك الأداة التجاريّة التي عرفناها في الدنيا، وإنّما هي أمرٌ غيبيّ قرّبه الله إلينا بمثل هذه الصورة الدنيويّة الحسّية.

٨- عِيشَة:

لا يَرد هذا اللفظ مطلقاً في الحديث الشريف؛ إذ يستعاض عنه هناك بلفظ (معيشة)، وإن أضحى اللفظ القرآنيّ مألوفاً جداً لنا اليوم. وإذا حدث أن كان العربيّ الأوّل قد عرف هذا اللفظ وكان مألوفاً لديه، كما هو حاله لدينا اليوم، فإنّ من المؤكّد أنّ ما لم يكن مألوفاً عنده هو إطلاق اللفظ على نمطٍ جديدٍ من الحياة لا علاقة له بحياتنا الدنيا.

إنها (عِيشة)، اللفظ المألوف الذي يصف حياتنا اليوميّة المعتادة، ولكنْ ما شأن هذه "العيشة" الأخرى بعد الموت؟ وكيف تكون؟ ومتى؟ وإلى متى؟ وهل هي "عيشةٌ" حقيقيّة، كما اصطلح البشر على معنى هذا اللفظ؟

حتى إن عَرَف العربيّ أنّها في الحياة الآخرة، فما يزال مفهوم هذه الحياة غامضاً لديه، فكيف يكون بعد الموت "عِيشةٌ" وكأنّها حقّاً لا تختلف عن عيشتنا الأرضيّة؟!

٩- راضية:

هذا استعمالٌ جديدٌ للصفة المشبّهة (راضية). فهي تَرِد لأوّل مرّة على صيغة اسم الفاعل، ولكنّها تدلّ على اسم المفعول.

إنها هنا ليست العيشةَ التي "تَرضَى" كما يمكن أن نفهمه من استعمال اللفظ في لغتنا، بل التي " تُرضي" فهي إذن (راضية) ولكن بمعنى (مُرضِية).

وقد يسمّي البلاغيّون هذا من باب المجاز؛ إذْ أُطلِقت صيغةُ اسم الفاعل على العيشة، على حين أنّ المراد هو صاحب العيشة، وهي إذن مجازٌ جديدٌ خاصٌّ بالقرآن وحده.

١٠- أمُّه:

لا جديد في هذا اللفظ القرآنيّ بوصفه لفظاً، ولكنّ الجديد هو في معانيه الاحتماليّة التي اقترحها المفسّرون له، وحيرتهم بين المعنى التقليديّ: الأمّ الحقيقيّة، ومعانٍ أخرى خاصّةٍ بهذه السورة: مثل: المسكن، والمأوى، وأمّ الرأس أو قمّته، ومكان السقوط، ومنها (مسقط رأسه)، والنهاية، وغيرها.

ورغم ورود اللفظ (أمّ) ٢٣ مرّةً في القرآن الكريم؛ تنفرد سورة (القارعة) بهذا المعنى، أو المعاني، الجديدة للّفظ دون باقي السوَر. ولا نجد له مثل هذا الاستعمال مطلقاً في الحديث النبويّ.

١١- هاويَة:

اختلف المفسّرون حول المعنى الدقيق والمحدّد لهذا اللفظ، ولكنّهم يتفقون جميعاً على أنّه اسمٌ آخر لجهنّم، أو لشيءٍ يتعلّق بها، لم يعرفه العرب قبل الإسلام، مثلما لم يعرفوا اسمها الآخر (الجحيم) الذي مرّ بنا في سورة (الهُمزة).

ولا نجد اللفظ في غير هذه السورة، ويخلو منه الحديث النبويّ إلاّ أن يرد في معرِض الحديث عن هذه الآية.

١٢- هِيَهْ:

هذه الهاء في نهاية الضمير حيّرت اللغويين، لأنّهم لم يجدوها إلاّ في القرآن، فلا نعثر على مثلها في الشعر الجاهليّ ولا في الحديث الشريف.

ولقد اختُصّت هذه السورة دون غيرها من السوَر باللفظ (هيَهْ)، ولكنّنا نجد هذا النوع الغريب من الهاء مع غير الضمير (هي) وفي أكثر من مكانٍ في القرآن الكريم، ولا سيّما في سورة (الحاقّة) التي تتكرّر فيها هذه الهاء ستّ مرّاتٍ خلال بضع آياتٍ شبه متتالية:

- ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [١٩-٢٠]... ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [٢٥-٢٩]

وقد اقترحوا لها اسم (هاء السَكت) فكأنّها استُخدمت لتُعِيننا على لفظ الياء المتحرّكة حين التوقّف أو السكوت عندها، لأنّ بعض العرب يسكّنون الياء في (هيْ)، فلا حاجة للهاء عندئذٍ، ولذلك أسقطها بعضهم من القراءة إذا وصلوا الآية بما بعدها، فقرأوا: (وما أدراكَ ما هيَ نارٌ...) لانعدام الحاجة إليها في حال عدم التوقّف عند (هي).

ولكن من المهمّ التذكير بأنّ آخرين أصرّوا على إثبات الهاء في الحالين: الوقف أو الوصل.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

١- القارعة:

ربما لن نستغرب كثيراً لو خرجت علينا الصحف اليوم بمقالةٍ افتتحها كاتبها بقوله: الفضاء. ما الفضاء؟ هل فكّرت يوماً في الأجرام التي تسبح فوقنا هناك في الفضاء؟

نعم لن نستغرب هذا كثيراً، اليوم، ولكن من المؤكّد أنّ أيّ عربيٍّ عاصر نزول الوحي سيستغرب أشدّ الاستغراب وهو يسمع لأوّل مرّةٍ في حياته مثل هذه الافتتاحيّة: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾.

لقد بدأت السورة بآيةٍ قصيرةٍ جداً، وانتهت الجملةُ، أو الوحدة اللغويّة، فيها نهايةً سريعةً جداً، بل انتهت قبل أن تنتهي.

إنّها آيةٌ مستقلّةٌ كاملة، ولكن ليس فيها إلاّ مبتدأ!! هكذا: لا خبرَ مذكورٌ لهذا المبتدأ، ولا صفة، ولا مضافٌ إليه، لا شيء إلاّ المبتدأ، وانتهت الآية!!

طبعاً ستتطلّب منّا قواعد النحو، البشريّ، أن نبحث عن خبرٍ لهذا المبتدأ، هكذا تعارف النحويّون: لا مبتدأ من غير خبر، ولهذا قدّروا لهذا المبتدأ القرآنيّ الغريب خبراً هو الآية التالية له، والتي تتضمّن هذا الاستفهام التحذيريّ: ما القارعة؟

وهكذا نجد أنفسنا أمام أوّل جملةٍ في تراثنا يكون خبر المبتدأ فيها سؤالاً!!

بل ذهبوا أبعد من ذلك حين قدّروا قبل لفظ (القارعة) -ليكون حلاًّ بديلاً- فعلاً ما محذوفاً مثل (ستأتي) ليكون هذا اللفظ فاعلاً له، أي: ستأتي القارعة، وبهذا نكون قد عثرنا على حلٍّ نحويٍّ للمشكلة، ولكنّنا نكون قد فقدنا، بهذه العمليّة القيصريّة، الجمالَ والإيحاءات والأطياف التي أحاطتنا بها جدّتها وتفرّدها.

وسواءٌ أخْضعنا الآية إلى قواعد النحويّين، أو حرّرناها من هذه القواعد فلم نحاول افتراض أيّ مقدَّرٍ قبلها أو بعدها، يظلّ استعمالها غريباً وجديداً على أذن العربيّ الأوّل: سواءٌ في اقتصار وحدةٍ لغويةٍ كاملةٍ على مبتدأ، أو في ابتداء وحدةٍ أدبيةٍ كاملة، هي السورة هنا، بجملةٍ غير عاديّةٍ اقتصرت على لفظٍ واحدٍ لا نعرف ما إذا كان: ١ – جزءاً من جملةٍ فعليّةٍ حُذف فعلُها، أو: ٢ – جزءاً من جملةٍ اسميّةٍ حُذف خبرها، أو: ٣ – جزءاً مفرداً استقلّ وحده بآية، أو: ٤ – شيئاً غير هذا وذاك لم تتّسع له قواعدنا النحويّة المحدودة التي عجزت عن الإحاطة باللغة السماويّة غير المحدودة.

٢- ما القارعة [الأولى]:

إذا أثارت هذه الجملة الاستفهاميّة التحذيريّة دهشة العربيّ الأوّل، لأنّها جاءت خبراً للمبتدأ الذي تكوّنت منه الآية الأولى؛ فلا بدّ أنّها فاجأته كذلك بأنها وحدةٌ لغويّةٌ كاملةٌ مستقلّة، رغم أنّها لا تعدو أن تكون خبراً لوحدةٍ لغويّةٍ سابقةٍ مستقلّةٍ أيضاً.

أمّا المفاجأة الأخرى التي تنتظر العربيّ الأوّل هنا فهي هذا الأسلوب التحذيريّ الجديد الذي يصطبغ بصبغة الاستفهام، مجرّد استفهام، ومن غير أيّ فعلٍ يسبقه أو يمهّد له، من مثل قولك: (عقوبتك؟ أتدري ما عقوبتك؟)، فقدّمت للاستفهام الثاني بالفعل (أتدري)، على حين خلت الجملة القرآنيّة الثانية من مثل هذا الفعل. إنّه أسلوبٌ لم نعهده، ولا نعرفه حتّى الآن، إلاّ في القرآن الكريم. ونجد في سورة (الحاقّة) نموذجاً آخر يطابق تماماً هذا النموذج:

- ﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ ﴾ [١-٣]

٣- ٤- ما القارعة [الأولى والثانية]:

من المعروف في أساليبنا العربيّة المعتادة أنّنا نستغني بالضمير عن تكرار اللفظ نفسه، فنقول مثلاً -مع حفاظنا هنا على بقيّة أجزاء الآية كما هي-: القارعة، ما هي؟ وما أدراك ما هي؟ كما حصل في نهاية السورة حقاً حين قال تعالى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ ﴾ فلم يقل: وما أدراك ما الهاوية. ولكنّ الآية، على عكس أعرافنا اللغويّة، تعيد اللفظ نفسه بدلاً من إحلال الضمير.

٥- ٦- وما أدراك [مكرّر]:

هذا تعبيرٌ قرآنيٌّ جديد سبق أن توقّفنا عنده في حديثنا عن قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴾ في سورة (الهُمزة). ولا وجود لهذا التعبير في الشعر الجاهليّ ولا الإسلاميّ، ولا في الحديث الشريف، رغم تردّده ١٣ مرة في القرآن الكريم.

٧- يومَ:

إنّه ظرفٌ عاديٌّ ومألوفٌ جدّاً لدينا، ولكنّ موقعه في السورة غير عاديّ.

فمجيئه في مطلع الآية، ومن غير أن يسبقه فعلٌ، أو ما يدلّ على فعلٍ أو حدثٍ يصلح أن نعلّقه به، بوصفه ظرفاً، جعل المفسّرين والنحويّين يحارونَ في تعليقه، ومن ثمّ في إعرابه:

أيعلّقونه بالقارعة؛ أي: تقرع الناسَ يوم يكونون كالفَراش..؟

أم على العكس؛ أي: يصبح الناس كالفَراش يومَ تقرعهم؟

أم نعلّقه بفعلٍ محذوف؛ أي: ستأتي (أو تحدث) القارعة يوم يكون الناس؟

أم نعلّقه بخبرٍ محذوفٍ لمبتدأ محذوف؛ أي: هي حاصلةٌ يوم يكون الناس؟

أم هو مفعولٌ به لفعلٍ محذوف (أي نعربه مفعولاً به منصوباً، وليس ظرفاً، وكأنّنا نقول: اُذكرِ اليومَ الذي يكون فيه الناس)؟

وهكذا تعدّدت الاتجاهات أمام النحويين وهم يقفون أمام هذا الموقع القرآنيّ الجديد والمحيّر لظرفٍ عاديٍّ غير جديد.

٨- يومَ يكون:

إنّ إضافة الفعل (يكون) إلى الظرف (يوم) تركيبٌ جديد لم يعرفه الشعر العربيّ قبل الإسلام، وربّما بعده أيضاً، ويخلو منه الحديث الشريف أيضاً.

والأغرب من ذلك ألاّ يتكرّر التركيب مرّةً أخرى في غير هذا الموضع من القرآن الكريم.

٩- الفَراشُ المبثوث:

هذا تعبيرٌ جديدٌ عن شكل التبعثر والفوضى الذي يأخذه الجراد أو البعوض أو مختلف أنواع الفَراش وهي تهيم في شتّى الاتجاهات.

وسنرى كيف استُخدمت هذه الصورة القرآنيّةُ الغريبة للضياع والفوضى؛ في بناء صورةٍ أخرى أشمل تصف حالة الناس يوم القيامة.

١٠- الناسُ كالفَراش المبثوث:

من المهمّ جدّاً لأيّ موقفٍ جديد، إذا أردنا أن نصفه لمن لم يعرفه من قبل، أن نقدّمه في صورةٍ جديدةٍ أيضاً كهذه، حتّى تتفتّق للسامع أبعادٌ خياليّةٌ مبتكَرةٌ غير تقليديّة، لأنّ الموقف نفسَه أيضاً غير تقليديٍّ ولا عاديّ.

وأيُّ شيءٍ أشدّ حاجةً لمثل هذه الصورة الجديدة من موقفٍ مخيفٍ كهذا تلفظ فيه القبورُ كلّ من عرفتهم الأرض من البشر، منذ آدم حتى يوم القيامة، فيُبعثون من الموت ليهيموا على وجوههم، ويتدافعوا في كلّ اتجاه، ويتداخل بعضهم في بعض، وهم لا يملكون لأنفسهم وجهةً، ولا يعرفون لهم هدفاً، فكأنّهم الفَراش، أو الحشرات الصغيرة التي تتطاير متزاحمةً حول النار في كلّ اتجاه، منتهيةً بعد ذلك إلى مصائرها المحتومة؟ إنّها واحدةٌ من مئات، وربّما آلاف الصور الجديدة التي أضافها القرآن الكريم إلى معجمنا البلاغيّ التقليديّ.

١١- العِهْنُ المنفوش:

وهذا تعبيرٌ قرآنيٌّ آخر لا نجده في الشعر الجاهليّ، أو بعده، ولا في الحديث الشريف، وكأنّما يصوّر تلك الكتل الملوّنة من حلوى السكّر المنفوش، أو ما يسمّيه عامّتنا (غزْل البنات)، أو أنواعُ الصوف الملوّن التي عرفها الناس في الجاهليّة.

وسيكون لهذا الاستعمال الجديد دوره الهامّ في بناء الصورة المخيفة التالية من صور يوم القيامة ممّا لم يعرف الإنسان مثيلاً له من قبل، ولن يعرفه في حياته من بعد.

١٢- الجبالُ كالعِهنِ المنفوش:

هل تصوّرت أبداً كيف يمكن أن تتفتّت الجبال أمام عينيك، فتتضخّم وتتباعد جزيئاتها وذرّاتها بحيث تتحول كالصوف المنتفش؟ إنها صورةٌ مخيفةٌ بقدر ما فيها

من مفارقةٍ غريبةٍ بين هول المنظر في صورة الجبال وهي تتناثر وتتفتّت، وبين ما قد يوحي به منظر الصوف المنفوش من دفءٍ وطُمأنينة، وكذلك المفارقة الغريبة الأخرى بين صلابة الجبال وثقلها ورسوخها وبين طراوة العهن وتطايره وخفّة وزنه!

ولكنّ أغرب ما في هذه الصورة تلك الحقيقة العلميّة التي تشير إليها. ورغم أنّنا أخذنا على أنفسنا في هذا الكتاب ألاّ نتعرّض لجوانب الإعجاز العلميّ، لعدم الاختصاص، فإنّه لا مناص بين الحين والآخر من إلمامةٍ سريعةٍ بهذا النوع من الإعجاز نأخذها عمّن عالجوا هذا الجانب، إذا كان فيها ما يوضّح الصور البلاغيّة المدروسة.

فكلّ جسمٍ في هذا الكون يمكن أن:

أ- ينكمش ويتقلّص إذا ازدادت كثافته وتقاربت جزَيئاتُه، كما يحصل للأجرام التي تبتلعها الثقوب السوداء في أعماق الكون.

ب- أو ينتفش إذا قلّت كثافته وتباعدت جزَيئاتُه، كما يمكن أن يحصل للجبال يوم القيامة.

هل سمعتم بالثقوب السوداء؟ إنها نجومٌ تَوَفّر لها من قوة الجاذبيّة ما يكفي لاجتذاب كل ما يقترب من مجالها من نجومٍ أو أجرام، وكلّما ابتلعت جَرماً جديداً امتصّت جاذبيّته فازدادت قوّة جاذبيّتها، وارتفعت، من ثمّ، كثافتها، وأصبحت أكثر قدرةً على ابتلاع المزيد ممّا حولها.

بل إنّ قوّة الجاذبيّة هذه تجعل أجزاء النجم نفسِه تتجاذب وتتقارب وتتداخل، فيصغر حجمه بشكلٍ هائل، وتزداد بهذا كتلةُ النجم كثافةً، وجاذبيّتُه قوّةً، حتى يكون وزنُ ما كان منه بحجم كرة التنس أضعافَ أضعافِ وزن الكرة الأرضية.

وهكذا تصل قوّة جاذبيّة هذا النوع من الأجرام درجةً تجعلها تبتلع الضوء الذي يسقط عليها، فلا تعكس هذا الضوء وتستحيل بذلك رؤيتنا لها، فسمّوها لذلك: الثقوب السوداء[1].

---

(١) راجع مصادر وكتب الإعجاز العلمي، ولا سيما كتاب "خَلقُ الكون بين العلم والإيمان"، انظر:
- الطائي، محمد باسل. **خَلقُ الكون بين العلم والإيمان**، بيروت: دار النفائس، ١٩٩٨م، ص٦٨ وما بعدها.

إنّ انتفاش الجبال يوم القيامة يمكن أن يكون، والله أعلم، مجرّد عمليّةٍ فيزيائيّةٍ معاكسةٍ لما يجري في "الثقب الأسود" من انكماشٍ وتقلّص.

وهكذا، فبمجرّد تناقص قوّة الجاذبيّة في الأرض، لسببٍ من الأسباب الغيبيّة، تبدأ جزيئاتُها بالتباعد، وكتلتُها بالنقصان، وحجمها بالتزايد، حتى يغدو شكل الجبال فيها كغزْل البنات أو الصوف المنفوش.

١٣- فأمّا مَن:

هذا ابتداءٌ منقطعٌ للجملة أو العبارة؛ غير معهودٍ قبل القرآن، ولا سيّما إذا انعدم قبل الجملة ذكرُ خيارين اعتدنا أن يبدأ المتحدّث بهما، كأن يقول: أمامنا الآن كتبٌ صغيرة وأخرى كبيرة، فأمّا الصغيرة.. أو يقول: أمامك طريقان: أمّا الطريق الأولى.. وأمّا الثانية..

ويتكرّر هذا الابتداء المنقطع في سورٍ عدّة، بحيث يصبح أسلوباً قرآنيّاً مميَّزاً، كقوله تعالى:

- ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقّة: ١٩]
- ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾ [الفجر: ١٥]
- ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى: ٩]

ولا نجد هذا الأسلوب المتميّز في الشعر العربيّ، لا قبل الإسلام ولا بعده، ولا وجود له في الحديث الشريف أيضاً.

إنّ أسلوب الحديث النبويّ في استعمال (فأمّا) لا يختلف عن أسلوبنا اليوم، إذ تأتي هذه الأداة دائماً بعد خيارين يسبقانها، فتقوم هي بدور التفصيل بينهما، ولهذا دُعيت تفصيليّة. ومن ذلك الحديثان الشريفان:

- .. هل تدرون ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: أصبح مَن عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فأمّا مَن قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمتِه فذلك

مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكواكب، وأمّا مَن قال: بنَوء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي ومؤمنٌ بالكواكب[1].

- الغزو غَزوان: فأمّا مَن ابتغى وجهَ الله وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وياسَرَ الشريك، واجتنب الفساد، كان نومُه ونُبْهُه أجراً كلُّه، وأمّا مَن غزا رياءً وسُمعةً، وعصى الإمام، وأفسدَ في الأرض، فإنّه لا يَرجِعُ بالكَفاف[2].

١٤- ثقُلتْ موازينُه:

هذا تعبيرٌ مجازيٌّ جديدٌ عن الربح أو الفوز أو النجاح. وقد يكون تعبيراً غير مجازيٍّ أيضاً لو كانت هناك موازين حقيقيّة، حتّى إن كانت مختلفةً عن الموازين التي نعرفها، وتعمل بغير الطرائق التي اعتدناها، وفي ظروفٍ تختلف كلّياً عن أية ظروفٍ أخرى عهدناها في عمليّات الوزن الدنيويّة.

ورغم تكرار هذا التعبير، أو لنقُلْ: الصورة، ثلاث مرّاتٍ في القرآن، يخلو الشعر الجاهليّ منه تماماً، وكذلك الحديث النبويّ الشريف، إلاّ أن يرِد ضمن سياقٍ متعلّق بذكره في القرآن.

١٥- فهو في عِيشةٍ راضية:

مرةً أخرى يستقلّ جواب الشرط بآيةٍ أخرى أو وحدةٍ مستقلّةٍ منفصلةٍ عن آية فعل الشرط، وهو أسلوبٌ يختصّ به القرآن وحده كما عرفنا.

١٦- عيشةٍ راضية:

لم يعبّر أحدٌ قبل القرآن، وربّما بعده أيضاً، عن معنى العيش الهنيّ، أو الحياة السعيدة، بهذا التعبير الخاصّ والمميَّز.

ويتكرّر التعبير مرّةً أخرى في سورة (الحاقّة). ولا وجود له في الحديث الشريف.

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٢٩٠، حديث رقم ٨١٠.

(٢) السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، ج٢، ص١٧، حديث رقم ٢٥١٥.

١٧- خفّت موازينُه:

يأتي هذا التعبير بمقابل التعبير السابق ﴿ ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾. وهو يتكرّر في القرآن حيثما يتكرّر التعبير الأول (ثلاث مرات).

إنه تعبيرٌ عن الخسارة والإخفاق والخيبة، أو هو، كما أسلفنا، تعبيرٌ عن موقفٍ حقيقيٍّ يوزن فيه عمل المرء في حياته، بغضّ النظر عن طبيعة الموازين والموزونات هناك واختلافها عمّا عهدناه في الحياة الدنيا.

١٨- فأمُّه هاوية:

تعبيرٌ قرآنيٌّ آخر من التعبيرات الشديدة الخصوصيّة التي لا يمكن أن نجدها إلاّ في القرآن الكريم[1].

وبغضّ النظر عن معنى (أمّه) في الآية، وقد اقترحوا له معاني عديدةً لأنّ التعبير جديدٌ كلّياً عليهم، ومن هذه المعاني: الأمّ الحقيقيّة، أو أمّ الرأس، أو المستقَرّ، أو المصير، أو المأوى والمسكن.. وبغضّ النظر أيضاً عن طبيعة استعمال اللفظ في هذا السياق: حقيقيٌّ هو أم مجازيّ، فإنّ ارتباطه بالمصطلح الجديد الآخر (الهاوية) يجعل من التركيب المتكوّن من اجتماعهما تركيباً قرآنيّاً متفوّقاً في جدّته وغرابته وتفرّده.

ولا يتكرّر التركيب، ولا اللفظان الجديدان، بالمعنى القرآنيّ الجديد، منفردَين أو مجتمعَين، مرّةً أخرى في القرآن الكريم.

---

(١) يلحّ النحويّون المحدثون على ضرورة تجريد المضاف من "ال" التعريف، فيفرض بعضهم أن يقال هنا: "التعبيرات شديدة الخصوصيّة" رغم أنّنا هنا في معرض الإضافة إلى الصفة وليس الاسم (شديدة)، وهو جائزٌ عند قدامى النحويّين، ورغم أنّ هذا النوع من الإضافة يتكرّر في الحديث الشريف، مع الصفة وغيرها، كما في الحديث الذي يرويه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك: "..فلما مضت الثلاث ليال، وكدت أن أحتقر عمله، قلتُ يا عبد الله، إنّه لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك ثلاث مرار: يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردتُ أن آوي إليك لأنظر ما عملُك، انظر:
- الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢٠، ص١٢٤، حديث رقم ١٢٦٩٧.

١٩- نارٌ حامية:

على عكس التعبير السابق، الذي أدهشَنا بالاحتمالات المتعدّدة من المعاني لكلٍّ من لفظيه، ولا سيّما الأوّل، نلاحظ في هذا التعبير بساطة لفظيه واعتيادنا لهما في لغتنا اليوميّة، وتجرّدهما من أيّة احتمالاتٍ مجازيّة، أو أيّة اختلافاتٍ حول معنى كلٍّ منهما.

ومع ذلك فهو تعبيرٌ قرآنيٌّ خاصّ، يتكرّر مرّتين في القرآن، ثمّ لا نجده، لا في الشعر ولا في النثر، حتى فترةٍ متأخّرةٍ من العصور. ويخلو منه تماماً الحديث النبويّ الشريف.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- القارعةُ. ما القارعة:

من الواضح أن هذا البناء اللغويّ، المركَّب من آيتين يتكرّر فيهما اللفظ نفسُه، مع إضافة أداة الاستفهام (ما) في مطلع الآية الثانية، أصبح سبيكةً قرآنيّةً شديدة الوضوح والتميّز، ولا سيّما أنّها تتكرّر هي نفسها في مطلع سورة (الحاقّة)، كما سبق أن رأينا.

٢- وما أدراك ما القارعة:

وهي سبيكةٌ قرآنيّةٌ أخرى تعتمد على التركيب القرآنيّ المميّز ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ ﴾ وتتكرّر بعده أداة الاستفهام (ما) للمرّة الثانية، يليها مبتدأ مؤخَّرٌ معرَّفٌ بـ "ال" (وهو القارعة هنا).

وتتكرّر هذه السبيكة نفسها في القرآن، وبالعناصر المذكورة تماماً، أربع مرّات، إحداها في سورة (الحاقّة).

٣- ٤- يوم يكون الناس كالـ/ وتكون الجبالُ كالـ:

وهي سبيكةٌ قرآنيّةٌ أخرى واضحة النكهة، تبدأ بالتركيب القرآني (يوم يكون) الذي لا يتكرّر أبداً في تراثنا، ولا في القرآن نفسه أيضاً - كما عرفنا - ويليه اسمٌ ظاهرٌ للفعل الناقص (يكون) وهو(الناس)، وتنتهي سبيكتنا هذه بأداة التشبيه (الكاف) التي يمكن أن نعدّها بمثابة خبرٍ للفعل الناقص، أي: يكون الناس مثلَ...

ومن الواضح أنّ أقرب السبائك القرآنيّة إليها هي الآيةُ التي تليها ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ ولكن هذه الأخيرة تخلو من الظرف (يوم) الذي يعطي السبيكة الأولى شحنةً إضافيّةً من التفرّد، وإن كانت الآية الأخرى تابعةً، نحويّاً، لذلك الظرف أيضاً، فالتقدير: يوم تكون الجبالُ كالعِهن.

٥- ٦- أمّا من ثقُلتْ موازينُه/ أمّا من خفّت موازينُه:

هاتان السبيكتان المتشابهتان يتكرّر كلٌّ منهما في القرآن -حرفيّاً تقريباً وبالألفاظ نفسها- ثلاث مرّات.

ويميّز شخصيّتهما، كما نلاحظ، ابتداؤهما بأداة الشرط التفصيلية (أمّا) تليها أداة شرطٍ ثانيةٌ (مَن) -يمكن أن نعدّها اسم موصولٍ، أي بمعنى الذي، لتجنّب توالي شرطين- ثمّ فعلٌ مع فاعله، والفاعل مضافٌ إلى ضمير الغائب العائد على اسم الموصول (مَن).

٧- وما أدراك ما هِيَهْ:

مرةً أخرى تُفتتح هذه السبيكة بالتركيب القرآنيّ المميَّز ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ ولكنّها تنتهي بالتركيب المميَّز الآخر ﴿مَا هِيَهْ ﴾ ليزيد هذا من خصوصيّتها.

رابعاً: مواقع منفتحة

١- القارعة:

يكتسب هذا اللفظ صفته الانفتاحيّة من أمرين:

الأول: موقعه الإعرابيّ:

فقيل: إنه مبتدأٌ خبره الآية التالية ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾،

وقيل إنه مرفوعٌ بإضمار فعلٍ قبله، والتقدير: ستأتي القارعة،

وقيل إنه للتحذير؛ أي: القارعة قادمةٌ، فيكون على هذا مبتدأً خبره محذوف.

وأنا أرجّح الرأي الأخير، وأرْجح منه أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي القارعة، أو إنها القارعة، فهذا يعطي اللفظ قوّةً تحذيريّةً أضخم، بما يحقّقه من عنصر السرعة والمفاجأة، وكأنه الصرخة التي يفاجئنا بها من يحذّرنا من أمرٍ سقط فوقنا بسرعةٍ ويوشك أن يقع على رؤوسنا، فلا وقت للكلام، ومن ثمّ، لا وقت للمبتدأ فيواجهنا بالخبر مباشرة.

إنّ هذا كفعلك مع من توشك أن تدهسه سيّارة، فتقول محذِّراً: السيّارة، فأنت لن تجد الوقت لتقول له جملةً كاملةً مثل: انتبه يا صديقي إلى نفسك إنّ السيّارة توشك أن تدهسك، فستكون السيّارة قد دهسته قبل أن تنتهي من إلقاء خطبتك.

وقد تنبّه سيد قطب في (ظلاله) إلى أهمّية الاستغناء عن الخبر في هذه الآية، وإن اتّجه إلى أن المحذوف هو الخبر وليس المبتدأ، وإلى أنّ الغاية من حذفه هو التركيز على جرْس (القارعة) وإيقاعها المرهوب، فقال:

"لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردةً كأنها قذيفة: "القارعة" بلا خبرٍ ولا صفة، لتُلقي بظلّها وجَرْسها الإيحاءَ المدوّي المرهوب"[1].

---

(١) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط١٠، ١٩٨٢م، ج٦، ص٣٩٦٠.

والأمر الثاني: جِدّة الاصطلاح. فقد عرف العرب جذر هذا اللفظ، وربّما عرفوا اللفظ نفسه أيضاً، كما رأينا، ولكنّ المعنى الجديد الذى اصطُلح له، بوصفه اسماً من أسماء يوم القيامة، منحه بُعداً، وربما أبعاداً معنويّةً إضافيّةً جديدة.

فلماذا كان يومُ القيامة قارعةً؟

ألأنّه يقرع القلوب بالفزع لهوله؟

أم لأنّه يقرع أعداءَ الله بالعذاب؟

أم لأنّه يقرع الآذان بما فيه من أحداثٍ وزلزلةٍ وضجيجٍ هائل؟

أم لأنّ العرب اعتادوا أن يسمّوا كلّ حادثةٍ عظيمةٍ من حوادث الدهر قارعةً؟

هذه المعاني كلّها واردةٌ ومحتمَلةٌ، وبها يكتسب اللفظ مزيداً من الإشعاع والقوّة والانفتاح.

٢- ٣- ما القارعة [مكرّر]:

إلى جانب ما أثبتناه للفظ (القارعة) من أبعادٍ إعرابيّةٍ ومعنويةٍ أغنته بالظلال والألوان، تأتي أداة الاستفهام (ما) لتضيف إلى هذه الأبعاد بعداً جديدا يفجّره التساؤل هنا:

هل هو تساؤلٌ تحذيريّ؟

أم تساؤلٌ تهويليٌّ وتضخيميّ يوحي بجلال الحدث وعظمته وشدّته؟

أم هو مجرّد تساؤلٍ حقيقيٍّ يترك للسامع أن يقدّر بنفسه ماذا يمكن أن تكون القارعة؟

والاحتمالات الثلاثة، وربّما غيرها أيضاً، مطروحةٌ وممكنة.

٤- يومَ يكون:

قد عرفنا المذاهب المتعدّدة التي اقتُرحت لتعليق الظرف (يوم). وبدهيٌّ أن تزداد بذلك تأويلات هذا الظرف، ومعه الفعل الناقص الذي أضيفَ إليه (يكون)، ومن ثمّ تزداد انفتاحيّته، بازدياد عدد هذه المذاهب.

٥- الناسُ كالفَراشِ المبثوث:

أيّة إيحاءاتٍ وطيوفٍ وأبعادٍ يمكن أن تستدعيها هذه الصورة البيانيّة الجديدة لحركة الناس وتدافعهم وتداخلهم وذهولهم يوم القيامة؟

إن أوجه الشبه الكثيرة بين الناس، وهم في هذه الساعة العظيمة، والفراش الهائم حول النار، تغني الصورةَ بالألوان والأبعاد.

فبين المشبّه والمشبّه به هنا أكثر من وجهٍ: الطيش والضياع - الانتشار في الأرض - ركوب بعضهم بعضاً - الكثرة التي لا غَناء فيها - الضعف والتذلّل - الإشراف على النار المحرقة مع عدم إرادة الاحتراق - المصير المحتوم..

٦- الجبالُ كالعِهنِ المنفوش:

ولنا أن نتخيّل هنا أيضاً الصورة غير العاديّة للجبال في ذلك اليوم غير العاديّ:

فالجبال التي يُضرب المثل بثباتها وثقلها، هي الآن متطايرةٌ ومتحوّلةٌ عن أماكنها بخفّة الفقاعات،

وربّما ظلّت على أحجامها، كما يرى الفرّاء، مع تبعثرها وتحوّلها من أماكنها بخفّةٍ كخفّة العِهن،

وربّما انتفشت، كما يرى آخرون، وتضاعف حجمها عشرات المرّات، بعد أن تفتّتت ذرّاتها وتباعدت جزَيئاتها.

وقد سبق أن نبّهنا إلى المفارقة الموحية العجيبة بين ثِقل الجبال وخفّة العهن، وصلابة الأولى وليونة الثاني، ووقار الأولى وهوان الثاني، وهي مفارقةٌ تضيف أبعاداً أخرى فوق الأبعاد التي تفجّرها أوجه الشبه المتعدّدة في الصورة.

ولاحظ أيضاً أنّ الصورة لم تقتصر على تشبيه الجبال بالصوف المنفوش، بل اعتمدت أيضاً على لفظ (العِهن) الذي يعني الصوف الملوّن، وليس الصوف العاديّ، وقد يفسّر هذا اختلافُ ألوان الجبال، كما ينصّ القرآن الكريم في آيةٍ أخرى، واختلافُ ألوانها لا بدّ أن يستتبع اختلافَ ألوان المادّة الفقاعيّة التي تحوّلت إليها.

٧- ٨- موازينُه [مكرّر]:

أثار هذا اللفظ جملةً من التأويلات عند المفسّرين وأهل اللغة:

فقيل إنه موازين حقيقيّة، لكن من نوعٍ خاصّ، ولكم أن تتخيّلوا ما شئتم أن تتخيّلوه من أشكالٍ لهذه الموازين،

وقيل إنّه ميزانٌ واحدٌ وعبّر عنه بصيغة الجمع (موازين)،

وقيل إنّما جُمع لاختلاف الموزونات، فلكلّ حادثةٍ ميزانٌ مختلف،

وقال عزّ الدين بن عبد السلام في (مجاز القرآن) إنها موازين حسنات المرء أو سيّئاته وليست موازين المرء نفسه، رغم إضافة اللفظ إلى الضمير العائد عليه هو، أي على المرء، فهو من قبيل المجاز،

وقيل إنّ الموازين هي الحُجج والدلائل،

وقيل هي جمع (موزون) وهو العمل الذي له وزنٌ وخطرٌ عند الله،

وقيل كذلك إنها بمعنى (وزْن)، يقول العرب: هل لك في درهمٍ بمِيزان درهمِك، أي بوزن درهمك،

وقال مجاهد: ليس ميزاناً، إنّما هو مثَلٌ ضُرب.

هذه المعاني الكثيرة المحتَمَلة للّفظ تجعله واحداً من أهمّ الألفاظ المنفتحة ذات الأبعاد المتعدّدة في السورة.

٩- عِيشَةٍ راضية:

لقد عرفنا للفظ (العيشة) معنىً دنيويّاً متداولاً ومعروفاً. ولم يتصوّر العربيّ أنّ الحياة هناك في الآخرة يمكن أن تكون (عيشةً) أيضاً، فقد يسمّيها (حياةً) أو (إقامةً) أو (خلوداً) لأنّ لفظ (عيشة) مرتبطٌ عنده بالأرض والحياة الدنيا.

إنّ هذا يثير لدينا من غير شكٍّ إيحاءاتٍ شتّى عن طبيعة تلك (العيشة) التي سنعيشها، ولكن في ظروفٍ مختلفة، وفي وضعٍ مختلفٍ كلّياً عما عهدناه من أنواع معيشة الدنيا.

فإذا أضفنا إلى هذا ما عرفناه من وضع لغويٍّ متفرّدٍ للّفظ (راضية) كما رأينا، بكلّ ما لديه من أبعادٍ واحتمالاتٍ لغويّةٍ وبيانيّةٍ مختلفة، كان لدينا في النهاية تعبيرٌ إيحائيٌّ جديدٌ يتمتّع بشحنةٍ قويّةٍ من الطيوف والألوان.

١٠- أمُّه هاوية:

عرفنا ما لهذا التعبير من جِدّة، وما حوله من إشكالاتٍ في تفسيره. وبقدر ما تزداد هذه الإشكالات يزداد التعبير إيحائيّةً وانفتاحاً.

فعز الدين بن عبد السلام يرى أنه من المجاز، وأنّ أصل المعنى: فأمُّ (رأسِه) هاويةٌ، وعلى ذلك يكون (هاوية) هنا اسماً لجهنّم، أي سيسقط في جهنّم على أمّ رأسه.

وقيل إنه من قولهم: (هوت أمُّه) إذا دعَوا على رجلٍ بالهَلَكة، لأنه إذا هوى وهَلك فقد هَوَت أمُّه حزناً عليه، فيكون اللفظ (هاوية) على ذلك اسم فاعلٍ، ويكون المعنى: أمّه ستهوي حزناً عليه. قال كعب بن سعد الغَنَويّ (ت٥ ق.هـ):

هَوَتْ أمُّهُ ما يَبعثُ الصبحُ غادياً ... وماذا يؤدّي الليلُ حين يؤوبُ

وقيل إنّ (الأمّ) في الآية هي المأوى، على التشبيه، لأنّ الأمّ مأوى الولد ومَفزعه، فالمعنى على ذلك أنّ مأواه الأخير هو الهاوية أو النار.

وإذا صحّت الرواية النبويّة التالية فسيكون فيها توضيحٌ كافٍ لهذا التعبير. جاء في الحديث الشريف:

- إذا قُبضت نفسُ العبد تلقّاه أهلُ الرحمة من عباد الله كما يَلقَون البشير في الدنيا، فيقبلون عليه ليسألوه، فيقول بعضُهم لبعض: أَنظِروا أخاكم حتّى يستريح؛ فإنّه كان في كرب، فيُقبلون عليه فيسألونه: ما فعَل فلان؟ ما فعلتْ فلانة؟ هل تزوّجت؟ فإذا سألوا عن الرجل قد مات قبله [أي سألوه عمّا إذا كان ذلك الرجل قد مات قبله، إذ لم يُقبِل عليهم بعد] قال لهم: إنه قد هلك [أي مات قبله]، فيقولون: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ذُهِب به إلى أمّه الهاوية، فبئست الأمّ و بئست المربّية[1].

١١- وما أدراكَ ما هِيَهْ:

هذه جملةٌ تساؤليّة، ولكنّ التساؤل فيها يحمل أكثر من وجه:

فقد يكون لإثارة الاستغراب والتساؤل،

وقد يكون للتفخيم والتهويل،

وقد يكون لإثارة الفزع والخوف ممّا سيأتي،

وقد يكون لإغناء عنصر المفاجأة، لأنه ينبّهنا إلى قرب مجيء الجواب ويهيّئنا لاستقباله: نارٌ حامية،

وقد يكون لكلّ ذلك جميعاً.

ومن ناحيةٍ أخرى يأتي اللفظ (هيَهْ) في النهاية ليضعنا أمام مزيدٍ من الاحتمالات ومزيدٍ من الأسئلة:

---

(١) المروزي، عبد الله بن المبارك. **الزهد**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ص١٤٩، حديث رقم ٤٤٣.

على ماذا يعود الضمير (هي):

على (أمّه)؟

أم على (هاوية)؟

أم على مجهولٍ مقدّرٍ مثل: العاقبة، أو: العقوبة، أو: النهاية، أو غيرها؟

أم هو إشارةٌ مسبقةٌ للنار الحامية التي سيأتي ذكرها بعد ذلك؟

خامساً: جوامع الكَلِم

١- وما أدراكَ ما:

هذا التعبير الذي لم يعرفه الشعر الجاهليّ، كما تأكّدنا خلال حديثنا عن سورة (الهُمَزة)، أصبح جزءاً من لغتنا اليوميّة؛ بحيث لا نميّز ونحن نردّده أنّنا نستخدم في الحقيقة تعبيراً قرآنيّاً.

بل ربّما التزمنا بكامل السبيكة القرآنيّة فقلنا: الامتحانات، وما أدراك ما الامتحانات، أو: الحرب، وما أدراك ما الحرب..

٢- ٣- فأمّا مَن ثَقُلت / خَفّت موازينُه:

كلتا هاتين العبارتين القرآنيّتين تصلح لأن تُطلق على عددٍ من المواقف اليوميّة.

فنقول مثلاً لمن عمل واجتهد من التلامذة لنشجّعه على المزيد من الاجتهاد: فأمّا من ثقُلت موازينه فالنجاح حليفه.

ونقول للمقصّر في عمله أو دراسته منذرين: وأمّا من خفّت موازينه فلن يكون من نصيبه إلاّ الخسارة.

٤- في عِيشةٍ راضية:

وهذه العبارة قد تطلَق على أية نتيجةٍ طيّبةٍ أو مكافأةٍ مُجزيةٍ ينالها أحدهم في نهاية عمله، أو نَعِده بأن ينالها، أو نصف حياة من استتبّ أمره ونجح في حياته فنقول: إنه الآن في عيشةٍ راضية.

٥- وما أدراكَ ما هيَهْ:

وهذا التعبير يشبه في استعماله التعبير رقم (١) مع تخصيصه بمسألةٍ غير واضحة المعالم للسامع بعد.

٦- نارٌ حامية:

بإمكاننا إطلاق هذه العبارة على أيّ موقفٍ مبالَغ فيه: فأسعار البائع الفلانيّ نارٌ حامية، ولسان فلانٍ من الصَحفييّن نارٌ حامية، وعقوبة كلّ من يخرج على النظام نارٌ حامية، وغيرها..

السورة السادسة عشرة

العادِيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ١١﴾

هذه هي السورة الخامسة عشرة بالترتيب التراجعي الذي اتّخذناه منهجاً في دراسة قصار السوَر. وقد نزلت هذه السورة بعد أن شقّ على الرسول ﷺ انقطاع خبر السَريّة التي أرسلها إلى العدوّ لشهرٍ أو أكثر، فأخبره الله خبرهم وما كان من أمر خيولهم. وهي تتكوّن من ٤٠ لفظاً ستتوقّف فيها عند ٥٦ موقعاً قرآنيّاً جديداً.

وللسورة نكهتها الخصوصيّة الحادّة والمميّزة، إذ تتكوّن ألفاظها الأربعون من خمس عشرة أداةً، وخمسةٍ وعشرين اسماً أو فعلاً. وبين هذه الأسماء والأفعال الخمسة والعشرين نجد أحد عشر لفظاً اختُصّت بها سُورة (العاديات) فلا تتكررّ في غيرها من السوَر، منها أربعة ألفاظٍ عرفها الشعر الجاهليّ من قبل، وهي (ضَبْحاً – قَدْحاً – أثَرْنَ – نَقْعا) وسبعة ألفاظٍ استخدمها القرآن الكريم، بمعناها الجديد، لأوّل مرّة، وهي: (العاديات، المُوْرِيات، المُغيرات، وسَطْن، جَمعاً، كَنود، حُصِّل). وفي السورة أحد عشر تعبيراً، وهو ما يشكّل معظم تعبيرات السورة، انفردت بها دون باقي السوَر، وهي: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠﴾.

أوّلاً: الألفاظ والمصطلحات

١- العاديات:

هذا اسمٌ جديدٌ للخيل أُخذ من (العَدْو) وهو تَباعُد الأرجل في سرعة المشي، وقد عرف العرب ذلك المصدر، ولكنّهم لم يعرفوا هذا المصطلح القرآنيّ الجديد للخيل. ويقتصر اللفظ على هذه السورة فلا يتكرّر في القرآن أبداً. ولا وجود للّفظ في الحديث الشريف.

٢- المُوْرِيات:

وهو مصطلحٌ آخر جديدٌ للخيل لم يعرفه العرب قبل القرآن، وهو من (أورى) أي قَدح واستخرج، لأنّ حوافر الخيل تقدح النار وهي تطأ الصخر والحصى. وتختصّ السورة بهذا اللفظ فلا يتكرّر في أيّة سورةٍ أخرى، ويخلو منه تماماً الحديث الشريف.

٣- المُغِيرات:

مصطلحٌ جديدٌ آخر للخيل، اشتُقّ من إغارتها على العدوّ ليلاً أو نهاراً. وهو، مرّةً أخرى، لفظٌ خاصٌّ بسورة (العاديات)، فلا يتكرّر في غيرها من السوَر، ولا وجود له في الحديث الشريف.

٤- وَسَطْنَ:

رغم ورود الاسم من هذا الفعل عشرات المرّات في الشعر الجاهليّ، وفي معانٍ مختلفة، فإنّنا لا نجد الفعل نفسه إلاّ مرّةً واحدةً في بيتٍ لعَبيد بن الأبرص (ت٢٥ ق.هـ) يقول فيه:

وعن أيَامِنِها الأطواءُ مُصعِدَةٌ　　　قد شارَفوا فَرَحَ الأوتادِ أو وَسَطوا

وفضلاً عن أنّ الشاعر قد استعمل الفعل هنا بغير المعنى القرآنيّ، فإنّ عدم ورود الفعل في الحديث الشريف مطلقاً يمنحنا المزيد من الثقة بخصوصيّته القرآنيّة، ولا سيّما أنّه لا يتكرّر في القرآن خارج هذه السورة.

٥- جَمْعاً:

تأتي خصوصيّة هذا اللفظ من المعنى الاصطلاحيّ الذي منحه له القرآن الكريم وأشار إليه عددٌ من المفسّرين، وهو (مزدلفة) الموقع المعروف في مِنىً قرب مكّة، وسُمّي كذلك لاجتماع الناس فيه. ويقتصر استعمال اللفظ بهذا المعنى على سورة (العاديات) رغم أنّه يتكرّر في القرآن، وبهذه الصيغة نفسها، في سورتين أخريين، ولكن بمعنىً مختلف.

لقد جاء مرّةً بمعنى الحشر، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ [الكهف: ٩٩]

وجاء في سورةٍ أخرى بمعنى المال والثروة، وهو في قوله تعالى:

- ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [القصص: ٧٨]

وبدهيٌّ أن نجده بعد ذلك في الأحاديث الشريفة التي تتحدّث عن الحجّ وتصف معالمه وأماكنه وطقوسه.

٦- كَنود:

لا يرد هذا اللفظ مطلقاً في الشعر الجاهليّ، كما يخلو منه الحديث الشريف، إلاّ حديثاً واحداً يشرح فيه الرسول ﷺ معنى اللفظ القرآنيّ فيقول:

- الكَنود، هو الذي يأكلُ وحدَه، ويمنعُ رِفدَه، ويَضرِبُ عبدَه[1].

واللفظ خاصٌّ بهذه السورة أيضاً، فلا يتكرّر في باقي السوَر.

٧- شهيد:

لا نجد هذا اللفظ مطلقاً فيما بين أيدينا من الشعر الجاهليّ، ومع ذلك يقفز استخدامه فجأةً ليتكرّر في القرآن الكريم، مفرداً أو جمعاً، ٥٦ مرّة.

---

(١) الطبراني، **المعجم الكبير**، مرجع سابق، ج٨، ص٢٤٥، حديث رقم ٧٩٥٨.

٨- بُعْثِرَ:

لا نعثر على هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ، ولا في الحديث النبويّ الشريف. ويتكرّر في القرآن مرّةً أخرى في سورة (الانفطار).

٩- حُصِّلَ:

ربّما استعمل العرب مصدر هذا الفعل، ولكنّ الفعل نفسه لا يَرد في الشعر الجاهليّ، في صيغته القرآنيّة خاصّةً، ولا بمعناه القرآنيّ، ولا وجود له في الحديث الشريف. ومرّةً أخرى لا يتكرّر الفعل ولا مشتقّاته في أي مكانٍ آخر من القرآن.

١٠- يومَئذٍ:

سبق أن تحدّثنا عن جدّة هذا اللفظ عند حديثنا عن لفظٍ مماثلٍ في سورة (التكاثر).

١١- خبيرٌ:

رغم أنّ هذا اللفظ يتكرّر في القرآن الكريم ٤٥ مرّةً، فإنّنا لا نعثر عليه مطلقاً في الشعر الجاهليّ، كما لا نعثر عليه في الحديث الشريف إلاّ في الأحاديث التي تحصي الأسماء الحسنى أو التي تتضمّن وصف الله تعالى، كما في الحديثين:

- .. قالت: لا، قال: لَتُخْبِرِنّي أو لَيُخبِرَنّي اللطيفُ الخبير[1].
- .. وإنّ اللطيفَ الخبيرَ أخبرَني أنّهما لن يفترقا حتّى يَرِدا عليّ الحوضَ[2].

والغريب أنّه حين يرِد في الحديث الشريف، في غير إطار وصف الله تعالى، فإنّما يأتي على ألسنة الصحابة وليس على لسان الرسول ﷺ، كقول عائشة رضي الله عنها: "..على الخبيرِ سقطْتَ". [3]

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٦٩، حديث رقم ١٠٣.

(٢) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج١٧، ص٢١١، حديث رقم ١١١٣١.

(٣) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص٢٧١، حديث رقم ٣٤٩.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

١- ٢- ٣- والعادياتِ ضَبحاً/ فالمُوْرياتِ قَدحاً/ فالمُغِيرات صبحاً:

بغضّ النظر عن جدّة ألفاظ هذه التعبيرات القرآنيّة الثلاثة، فإنّ اجتماع ألفاظها في تركيبٍ واحدٍ، وفي مثل هذه الصياغة النحويّة للقَسَم المجموع، والمتلوّ بالحال (ضَبْحاً، قَدْحاً)، أو ظرف الزمان (صُبحاً)، لم يعرفه تراثنا العربيّ لا قبل القرآن ولا بعده.

هل سمعنا حتّى الآن من يقول:

واللهِ غافراً لن أعود إلى ذلك؟ أو:

واللهِ أبداً سأتولّى أمرَ المسكين؟

٤- فالمُورِياتِ:

هذا عطفٌ جديدٌ على القسَم لم تعرفه العربيّة خارج القرآن الكريم. فإن أقسمْنا بشيءٍ وأتْبعناه بقسَمٍ آخر عطفنا اللاحق على السابق بالأداتين: (الواو) أو (ثمّ)، فنقول مثلاً:

أقسم بالله وبحرمة كتابه، أو:

أقسم بالله ثمّ بحرمة كتابه

ولا نقول:

أقسم بالله فحرمةِ كتابه

ورغم تكرّره في القرآن عدّة مرّات، كما في سوَر الذاريات والمرسَلات والنازعات، لم يحدث أن استخدم عربيٌّ حرف الفاء لمثل هذا النوع من العطف، فهو حرف عطفٍ يمكن أن يراد به الترتيب، كقولنا: أحرز المتسابقون المراكز الأولى: هشامٌ فخالدٌ فأحمد، وليس في الآيات هنا ما يشير إلى الترتيب في درجات المُقسَم بها. علماً بأنّ القرآن الكريم كثيراً ما يستخدم، في سياقاتٍ أخرى مشابهة،

أداة العطف (الواو) وليس (الفاء)، ومنه قوله تعالى:

- ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ ﴾ [الشمس: ١ – ٧]

- ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ ﴾ [الليل: ١ – ٣]

٥- فأَثَرْنَ:

من الغريب أن يستمرّ هذا العطف الغريب بالفاء لأربع آياتٍ على التوالي، ولكنّ الأغرب أن تَعطف الفاءُ هذه المرّة، في الآيتين الرابعة والخامسة، فعلاً ماضياً على اسم فاعلٍ أو صفةٍ مشبَّهةٍ (العاديات، والمُوريات، والمُغيرات)، لأنّ اسم الفاعل أو الصفة المشبَّهة يدلاّن عادةً على حاضرٍ أو مستقبلٍ وليس على ماضٍ. وهذا التداخل بين الأزمان يدخل في باب الالتفات، وقد تنبّه محيي الدين الدرويش إلى أهمّية هذا التنوّع الزمنيّ في السورة حين قال معلّقاً:

عطفُ الاسم على الفعل فيه سرٌّ بديع، فإنّ التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف، وهو أبلغ من التصوير والتجسيد بالأسماء المتناسقة، وكذلك التصوير بالمضارع بعد الماضي.[1]

٦- ٧- بهِ [مكرّر]:

الشيء غير العاديّ هنا هو عودة الضمير (الهاء) في الجارّ والمجرور (به)، في المرّتين، على غير مذكورٍ، وهذا ما حيّر اللغويّين والمفسّرين، فاقترح بعضهم إعادة الضمير على المكان الذي يثار فيه الغبار أو تتوسّطه الأحصنة، وهو محذوف، وأعاده بعضهم على الزمان الذي يقع فيه ذلك، وهو أيضاً محذوفٌ، وبالغ بعضهم فأعاده على اللفظ (صبحاً) وهذا أكثر غرابةً من إعادته على محذوفٍ، لما في ذلك من مفارقاتٍ نحويّةٍ غير معهودةٍ في لغتنا، فهو كقولك:

الزائر ليلاً فعكَّرَه

(١) الدرويش، **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، مرجع سابق، ج٨، ص٣٩٠.

وأنت تقصد تعكير الليل بالزيارة طبعاً.

٨- فوسَطْنَ جَمْعاً:

نحن هنا مرّةً أخرى مع تعبيرٍ غريبٍ لم تعرفه لغتنا العربية قبل القرآن أو بعده. قد نقول:

توسّطتْ جمعَهم، أو جموعَهم،

هكذا باستعمال الفعل (تَوسَّط) بدلاً من (وَسَطَ) مع إضافة (جمع) أو (جموع) إلى ضميرٍ ما، أيّ ضمير، على عكس ما في هذه الصيغة القرآنيّة المتفرّدة. وقارن بين استعمال الفعل هنا واستعماله في بيت عَبيد بن الأبرص الآنف الذكر.

٩ - حُبّ الخير:

يقتصر هذا التركيب على القرآن الكريم، فيَرد فيه مرّتين، ولا نجده في الشعر الجاهليّ ولا في الحديث الشريف. وتزداد خصوصيّته القرآنيّة إذا عرفنا أنّ معنى (الخير) هنا ليس المعنى التقليديّ الشائع الذي نعرفه، وإنّما هو (المال) أو (الدنيا)، وأنّ معنى اللفظ (حبّ) ليس هو بالضرورة المعنى المعروف له، بل هو أقرب إلى معنى (التملّك) أو (الاحتياز) بدليل قوله تعالى في الآية الأخرى التي ورد فيها هذا التركيب على لسان النبيّ سليمان عليه السلام:

- ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [ص: ٣٢]

فكأنّ سليمان عليه السلام أراد أن يقول: إنّ حبّي لتملّك الخيول ألهاني عن صلاة العصر حتّى غابت الشمس.

١٠- أفلا يَعْلم:

لا يتكرّر هذا التركيب في غير هذا الموضع من القرآن، ولا يعرفه الشعر

الجاهليّ ولا الحديث الشريف، فهو إذن، تركيبٌ قرآنيٌّ خاصٌّ بهذا الموضع وبهذه السورة[1].

ومن المفيد أن نوضّح هنا موقف النحو من الجزء الأوّل من هذا التركيب. إنّ اجتماع الأدوات الثلاث (همزة الاستفهام وفاء العطف ولا النافية) في لفظٍ واحد (أفَلا) أمرٌ حيّر النحويّين. فكيف لهم أن يعربوا الفاء حرف عطفٍ –ولا خيار أمامهم غيره– إذا كانت محصورةً بين حرفين آخرين: همزة الاستفهام و (لا) النافية، فليس هناك قبلها ما تعطف عليه ما بعدها؟ ولذلك قدّروا أن الهمزة استفهامٌ إنكاريٌّ وأنّ الفاء "للعطف على مقدّرٍ يقتضيه المقام" أي إنّ التقدير:

أ(يفعل ما يَفعل من القبائح) فلا يعلم، أي:

أيفعلُ كلّ ذلك ثمّ لا يعلم!

وهذا يعني أنّهم تكلّفوا تقدير جملةٍ كاملةٍ قبلها، مؤلّفةٍ من فعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ به، حتّى يتمكنوا من ترويضها لقواعدهم والخروج من هذا المأزِق النحويّ.

١١- يَعلَمُ:

هذا من الأفعال التي تتعدّى في لغتنا إلى مفعولين، أو إلى مفعولٍ واحدٍ على الأقلّ، ولا يظهر هنا أيٌّ منهما. وهذا النوع من الحذف من خصائص اللغة القرآنيّة، ولكنّنا نرى أنّ الفعل قد اكتسب هنا معنىً جديداً أقرب إلى (الاعتبار) أو (التذكّر) منه إلى العلم أو المعرفة، فلا حاجة إذن لتقدير المفعول الغائب انسجاماً

(١) أمّا اللفظ (أفَلا) فمن اللافت للنظر حقّاً وروده ٣ مرّات في الشعر الجاهليّ بالمقارنة مع ٣٨ مرّةً في القرآن، على حين يختفي تماماً من الشعر الإسلاميّ حتّى نهاية الفترة الأمويّة؛ أي لما يعادل قرناً ونصف القرن منذ بداية نزول الوحي عام ١٢ قبل الهجرة! إنّ هذا يدعونا إلى وضع أكثر من إشارة استفهام حول صحّة جاهليّة الأبيات الثلاثة التي ورد فيها اللفظ، مع ترجيح أسبقيّة القرآن إلى استعماله أيضاً.

مع تقاليدنا النحويّة، وإن ذهب النحويّون، لتلبية هذا الانسجام، إلى أنّ الجملة بعده قامت مقام المفعول، فيكون التقدير عندهم: أفلا يعلم الإنسانُ مقامَه ومصيره عند البعث والحساب؟ أو: أفلا يعلم أنّ الله خبيرٌ به وبعمله يوم القيامة؟ ولكنّ من يقول بهذا يتجاهل حقيقة ابتداء الآية الأخيرة بأداة التوكيد (إنّ) إذ يمنع وجود هذه الأداة تقدير الآية التي بعدها مفعولاً للفعل (يعلم) قبلها.

١٢- إذا:

موقع هذه الأداة حيّر النحويين أيضاً. إنّها ظرفٌ للزمان، وكلّ ظرفٍ يحتاج إلى حدَثٍ يتعلّق به، أو بتعبيرٍ أوضح: إلى حدثٍ يحدث فيه. فوظيفة الظرف هي أن يوضّح لنا الزمان أو المكان اللذين يقع فيهما فعلٌ أو حَدَثٌ، وهذا الحدث يسبق الظرف عادةً في الكلام، وربّما تأخّر عنه.

وقد يتبادر إلى الذهن لأوّل وهلةٍ أنّ (إذا) هنا متعلّقٌ بأقرب الأفعال إليه والذي يسبقه مباشرةً وهو الفعل (يَعلم)، ولكنّ حدث (العِلم) لن يقع (حين يُبعثَر ما في القبور) لأنّ الله يدعونا إلى أن (نَعلم) الآن، في الدنيا، لنتّعظ بهذا العلم قبل فوات الأوان، وليس بعد موتنا وانبعاثنا من القبور، إذ لن ينفعنا العلم عند ذلك شيئاً، وإذن لا يمكن تعليق (إذا) بهذا الفعل.

فإذا خطر لنا أن نعلّقه بأقرب فعلٍ بعده، وهو (بُعثِر)، أو الفعل الذي عُطِف عليه هذا الفعل (حُصِّل)، وجدنا أنّ ذلك مستحيلٌ أيضاً، لأنّ الفعل بعد الظرف هو دائماً مضافٌ إلى هذا الظرف، فهو إذن بمعنى: حين بعثرةِ محتويات القبور، أو: حين تحصيلِ مكنونات الصدور، فالمضاف إليه لا يعمل في المضاف قبله لأنّه ببساطة جزءٌ من هذا المضاف فهما بمثابة كلمةٍ واحدة، وكيف للكلمة أن تعمل في نفسها!؟

ولا يبقى أمامنا، فيما تبقّى من السورة، أيُّ لفظٍ يدلّ على حدثٍ نعلّق به هذا الظرف إلاّ اللفظ (خبير) وهو أمرٌ مستحيل، لأنّ ما بعد (إنّ) لا يعمل فيما قبلها،

حسب قواعد النحويّين أنفسهم، فضلاً عن أن وجود الجارّ والمجرور (بهم) ثمّ الظرف بعده (يومَئذٍ) قد أغنانا عن مثل هذا التأويل لأنّهما معاً يتعلّقان باللفظ (خبير). فكيف السبيل إلى حلّ هذا الإشكال؟

ليس أمامنا إلاّ منفذان للخروج من مثل هذا المأزق:

أ - أن نذهب مع (إذا) مذهبنا مع (كان) و (ما زال) وغيرها من الاستعمالات القرآنيّة التي تختلف عن استعمالاتنا العربيّة التقليديّة لبعض الأدوات، فنعدّها هنا بمثابة حرفٍ مصدريٍّ يؤوَّل مع ما بعده بمصدرٍ يمكن إعرابه مفعولاً به للفعل (يعلم) ويكون التقدير:

أفلا يعلم (أو يتصوّر) بعثرةَ ما في القبور، أو:

أفلا يتخيّل أو يستحضر يومَ بعثرةِ القبور

وبهذا التعليل نكون قد أوجدنا حلاًّ للإشكال الآخر الذي سبق أن واجهنا قبل قليل، فعثرنا في النهاية على مفعولٍ للفعل (يعلم).

ب- أن نفترض معنىً آخر للفعل (يعلم) غير المعنى التقليديّ، وهو أمرٌ من خصائص اللغة القرآنيّة كما عرفنا، كأن يكون بمعنى (يخشى) أو (يخاف) أو (يعتبر) وحينئذٍ يمكن تعليق (إذا) به، لأنّ الخشية أو الخوف أو الاعتبار، خلافاً للعلم، يمكن أن تقع في هذه الحياة وفي يوم القيامة على السواء.

١٣- بُعثِر ما في القبور:

هذه صورةٌ جديدةٌ على القاموس البلاغيّ عند العرب. فبعثرة بقايا الأجساد المتآكلة في القبور، فضلاً عن أنّها بحدّ ذاتها عمليّةٌ غريبةٌ تُحدث في الذهن صدمةً من نوعٍ غير معهود، هي أيضاً كنايةٌ عن يوم القيامة، أو بالأحرى عن الخطوات

الافتتاحيّة لهذا اليوم الرهيب، وهي أيضاً خطواتٌ كانت ما تزال بعيدةً عن تصوّر العربيّ الأوّل ومفهوماته للحياة ما بعد الموت.

١٤- حُصِّل ما في الصدور:

وهي صورةٌ أخرى جديدةٌ على العرب، تصف المرحلة التالية لبعثرة القبور، حين يوقَف الناس أمام حصائد أعمالهم في الدنيا، ما ظهر منها وما خفي، ليحاسَبوا عليها، ولتبدأ عمليّة "تحصيل ما في الصدور" أو بتعبيرنا الدنيويّ المباشر: كشف الحسابات السرّيّة، وهي أيضاً عمليّةٌ كانت، وربّما ما زالت، بعيدةً عن التصوّر البشريّ.

١٥- إنّ ربَّهم بهمْ يومَئذٍ لَخبير:

لو كانت هذه الآية جملةً بشريّةً لتوقّعنا أن تبدأ بحرفٍ يربطها بما قبلها، كأن يقال (فإنّ ربَّهم) أو (وإنّ ربَّهم). فإذا افترضنا أنّها حلّت محلّ مفعول الفعل (يعلم)، وهو الجسم المفقود الذي ما نزال نبحث عنه في السورة، توقّعنا أن تبدأ بالباء أو يكون بعدها (أنّ) -بفتح الهمزة- وليس (إنّ)، فتكون: (أنّ ربّهم)، أو هكذا:

ألا يعلمون بأن ربّهم خبيرٌ بهم

ولكنّها العلاقات اللغويّة الخاصّة بين الجمل التي تُميّز دائماً أسلوب القرآن الكريم.

١٦- ربَّهم/ بِهم:

مرةً أخرى نجد أنفسنا، في كلٍّ من اللفظين، مع ضميرٍ لا عائد له. نعم، من المفهوم أن الحديث هنا عن (الناس) الذين يُبعثون ويُحاسَبون يوم القيامة، ولكنّ هؤلاء (الناس) لم يُذكروا أبداً في السورة، وإنّما ذُكر لفظ (الإنسان) وهو مفرد:

نقول: هذا إنسان

ولا نقول: هؤلاء إنسان

ولقد أعيد على (الإنسان) في السورة حقّاً أكثر من ضميرٍ مفرد (وإنّه – وإنّه – يَعلم) ولكنّ الضمير ينقلب فجأةً من المفرد إلى الجمع هذه المرّة (هم) فلا يمكن إعادته على لفظ (الإنسان) المفرد بل على جمعٍ محذوفٍ يُفهم من هذا اللفظ الظاهر، وهذا نوعٌ من أنواع الالتفات النحويّ في القرآن، كما سبق أن أوضحنا في الجزء الأوّل.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

من الواضح أنّ التباساً يمكن أن يقع لنا هنا ونحن نحاول التمييز بين التركيب أو التعبير والسبيكة. فمعظم آيات السورة مركّبٌ من لفظين أو ثلاثة ألفاظ، وهذا أدعى لأن يكون الحديث عن الآيات في باب التراكيب أو التعابير لا السبائك، وقد سبق أن بيّنّا أنّ السبيكة أوسع من التركيب، ومع ذلك فإنّ اجتماع بعض هذه التراكيب أو التعابير أو الصيغ، وتواليها جنباً إلى جنبٍ، يجعل منها، وهي مجتمعة، سبائك لغويّةً خاصّةً بالقرآن الكريم، كما سوف يتبيّن لنا:

١- والعادياتِ ضَبْحاً. فالمُوْرياتِ قَدْحاً. فالمُغيراتِ صُبحاً:

إنّ اجتماع هذه الصيغ الجديدة الثلاث يحوّلها إلى سبيكةٍ قرآنيّةٍ طويلةٍ نستطيع تمييزها بسهولةٍ عن سبائكنا البشريّة، ولا سيّما أنّها، وهي هكذا مركّبة، تتكرّر في القرآن الكريم أكثر من مرّة، كما في قوله تعالى:

- ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴿١﴾ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾ ﴾ [الذاريات: ١ – ٣]
- ﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾ ﴾ [النازعات: ٣ – ٥]

ومن الواضح أن سبيكتنا في (العاديات) تكاد تتطابق صياغةً مع سبيكتَي (الذاريات) و (النازعات).

٢- فأَثَرْنَ به نقْعاً. فوسَطْنَ به جَمْعاً:

وهذه سبيكةٌ أخرى قامت على اجتماع صيغتين قرآنيّتين متميّزتين، وإن كنّا، خلافاً للسبيكة السابقة، لا نجد اجتماع مثل هاتين الصيغتين في أيّ مكانٍ آخر من القرآن الكريم.

٣- ٤- ٥- إنّ الإنسانَ لربّه لَكَنود/ وإنّه على ذلك لَشهيد/ وإنّه لحُبّ الخيرَ لَشديد:

هذه ثلاث سبائك قرآنيّةٍ متشابهةٍ في تركيبها، فهي تقوم على الأداة (إنّ) أوَّلا، ثمّ يليها اسمها، ويلي اسمَها شبهُ جملةٍ (جارٌّ ومجرور) متعلّقٌ بصفةٍ مشبّهةٍ هي الخبر، وهذا يأتي متأخّراً ومرتبطاً دائماً باللام المؤكِّدة، ويسمّي النحاة لام التوكيد هذه، عندما تتزحلق هكذا من المبتدأ أو الاسم لترتبط بعده بالخبر، اللامَ المزحلَقة.

وتتكرّر هذه السبيكة كثيراً في القرآن، ولكن من المهمّ أن نلاحظ اختلافها عن سبائك أخرى قريبةٍ منها ولكن ليست مثلها، كقوله تعالى:

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجّ: ٦٥]

فهذه الآية تكاد تطابق سبيكتنا لولا أنّها انتهت بخبرين لا خبرٍ واحد (رؤوفٌ رحيم). وكذلك قوله تعالى:

- ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣]

فالخبر في هذه الآية لم يُذكر صراحةً، كما في سبيكتنا، ثمّ إنّه إذا تمّ تقديره هنا فلا بدّ من تقديره قبل شبه الجملة وليس بعده، أي (لَموجودون في نعيم) وليس (في نعيمٍ لموجودون).

٦ – أفلا يَعلمُ إذا بُعثر:

هذه السبيكة هي إحدى السبائك التي لا تتكرّر في القرآن، ولا في غيره طبعاً، بما تتميّز به من اجتماع الأداة القرآنيّة (أفلا) مع الفعل المتميّز (يعلم) الذي اختفى مفعوله أو مفعولاه، وكذلك مع (إذا) الشرطيّة، أو الظرفيّة، المتميّزة أيضاً، والتي اختفى جوابها أو متعلَّقُها كما سبق أن رأينا.

٧ – ٨ – بُعثِرَ ما في القبور/ حُصِّلَ ما في الصدور:

خصوصيّة هذه السبيكة التي تكرّرت في آيتين متتاليتين تكمن في أمرٍ دقيقٍ للغاية أرجو أن أستطيع تقديمه للقارئ بالوضوح واليسر الكافيين.

إنّها تبدأ بفعلٍ مبنيٍّ للمجهول (بُعثِر، حُصِّل) وهو من الأفعال التي يركّز القرآن الكريم على استعمالها للاستغناء عن التصريح باسمه تعالى، فتكثر فيه مثل هذه الأفعال (يُؤذَن، يُدْخَل، يُؤتَى، يُنبَّأ، يُفْعَل، يُترَك، يُسقَون، لَيُنبَذَنّ، يُبَصَّرونهم، تُوعَدون، جُمِع، خُلِق، سُيِّرت، عُطِّلت، حُشِرت، طُمِسَت، فُرِجَت، نُسِفَت، كُوِّرت، سُعِّرت، أُزلِفت، أُقِّتت، أُجِّلت، مُدَّت، دُكَّت، مُلِئتْ، أُوحِيَ، أُغرِقوا..)، فيبقى الفاعل مجهولاً باللفظ، معلوماً بالسياق.

ثمّ يأتي نائب الفاعل (وكلّ نائب فاعلٍ في الإعراب هو مفعولٌ به في المعنى، كما نعرف، أحلّه النحويّون محلّ الفاعل فسمّوه نائبه، لينسجم التركيب النحويّ مع قواعدهم)، فنجده في الآيتين شِبه مجهولٍ أيضاً (ما) وهي أداةٌ كثيراً ما نعْربها (نكرةً تامّةً بمعنى: شيءٍ) –وما أقرب معنى "النكرة" إلى معنى "المجهول"– وقد يعربونها (اسم موصولٍ) وهذا أيضاً لا يبتعد كثيراً عن النكرة، ولا سيّما في مثل هذا السياق، لأنّه هنا يعني (الشيء) على أيّة حال، وهو لفظٌ مبهم، رغم أنّ النحاة يصنّفون أسماء الموصول بين المعارف. وهكذا تستغني العبارة القرآنيّة، بهذه الأداة الرماديّة، عن المفعول الحقيقيّ، المجهول أيضاً باللفظ –كما عرفنا– والمعلوم بالسياق، وهو الموتى أو بقاياهم في العبارة الأولى، والأعمال أو النوايا في العبارة الثانية.

ثمّ يأتي القسم الأخير من السبيكة وهو شبه جملةٍ مؤلَّفٌ من حرف الجرّ (في) يليه شبه نكرةٍ، أو بتعبيرٍ آخر: شبه مجهولٍ، رغم أنّه معرَّفٌ بال التعريف (القبور، الصدور) ولكنّ هذا التعريف ليس تعريفاً حقيقيّاً، فقبورُ مَن هي؟ وصدورُ مَن؟ ولو قارنّاه، في هذا السياق، بجملتنا البشريّة التي يمكن أن توازي في معناها هذه السبيكة، لتبيّن لنا الفرق.

قد يكون علينا أن نقول هنا، ليتّضح المعنى، شيئاً من هذا القبيل: قبور العالمين، أو قبور الأرض، وكذلك: صدور البشر، أو صدور المبعوثين من الموت، أي ستكون جملتنا على نحوٍ ممّا يلي:

إذا بَعثر اللهُ العظامَ من قبور الأرض كلّها،

واستخرج النوايا من صدور البشر جميعاً،

فلا مجهول ولا نكرة ولا أشباههما في جملتنا البشريّة، لأنّ الجملة القرآنيّة تصدر عن الله تعالى نفسه، على حين تروي جملتُنا عن الله ما يفعله أو يحكم به على العباد، فكان لا بدّ أن نستغني عن صيغ المجهول والتنكير إذا أردنا لجملتنا أن تكون بشريّةً وأن تكون مفهومةً للسامعين.

٨- إنّ ربَّهم بهم يومَئذٍ لَخبير:

تظهر خصوصيّة هذه السبيكة القرآنيّة واضحةً لو حاولنا أن نتصوّر الجمل البشريّة البديلة التي يمكن أن تعبّر عن معناها، ولن تخرج هذه الجمل كثيراً عن شيءٍ من هذا القبيل:

إنّ ربّهم خبيرٌ بهم في ذلك اليوم

إنّ الله خبيرٌ ذلك اليومَ بهم

إنّ الله سيكون خبيراً بهم في ذلك اليوم

والله سيكون عالماً بحقيقتهم آنذاك

لاحظ الفرق بين ترتيب الكلمات وطبيعتها في الآية، وبين ترتيبها وطبيعتها في جملنا البشريّة، فلا مجال لتشبيه تعبيرنا البشريّ، في صياغته العاديّة الوضعيّة، بالتعبير القرآني في سبيكته الإلهيّة المتميّزة.

رابعاً: المواقع المنفتحة

١- والعاديات:

يَسهل أن نتبيّن الجانب الانفتاحيّ في هذا اللفظ القرآنيّ لو أبدلناه بلفظ (الخيل) أو (الإبل) أو (الفرسان)، وهي ممّا ورد في شروح المفسّرين للّفظ، فكلٌّ من هذه الألفاظ الثلاثة سيقتصر على معناه المحدّد "المنغلق" والمحصور بشيءٍ واحد، على حين ينفتح اللفظ القرآنيّ على هذه المعاني جميعاً لأنّ الخيول والجِمال، بمن عليها من الفرسان، كلّها تعدو، أي: تتباعد أرجلها بسرعة مشيها في الحرب، فلفظ (العاديات) يمكن أن يشملها جميعاً.

وللّفظ جانبٌ انفتاحيٌّ آخر. فقد اختلفوا حول الخيل أو الإبل المقصودة في الآية: هل كانت يوم معركة بدرٍ، أم هي التي تُقلّ الحجّاج من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى مِنىً، أم كانت خيلاً لسَريَّةٍ بعث بها الرسول ﷺ للقتال، أم هي مطلق الخيول والجمال في مطلق هذه الأحوال؟ لقد وَجد كلٌّ من هذه التفسيرات من يذهب إليه ويؤيّده، فطبيعة اللفظ لا تغلق الباب أمام أيٍّ من هذه الوجوه.

٢- ضَبْحاً:

اختلاف الشرّاح على معنى هذا اللفظ ألقى بظلّه على معنى اللفظ السابق:

فذهب بعضهم إلى أنّ الضبح هو حمحمة الخيل،

وذهب بعضهم إلى أنّه صوتٌ يخرج من صدور الخيل ليس بصهيل،

وذهب آخرون إلى أنّه نَخير الخيل حين تُنحَر،

وقيل: بل إنّه تنفُّس الإبل أو تنفّس الخيول.

لكنّ ما يرجّح كفّة انفتاحيّةِ اللفظ هو الاختلاف على إعرابه. فذهب بعضهم إلى أنّه حال، وذهب آخرون إلى أنّه مصدرٌ في موضع الحال (والتقدير: ضابحاتٍ)، وذهبوا كذلك إلى إنّه مفعولٌ مطلق، أي إنّه مصدرٌ لفعلٍ محذوفٍ وجملة هذا الفعل المحذوف في موضع الحال، أي: والعادياتِ وهي تَضبح ضبحاً.

٣- فالمُوْرِيات:

هذا من أكثر الألفاظ القرآنيّة غنىً وتلوّناً وقابليّةً للتأويل. فقد قيل عن الموريات:

إنّها الخيل حين تُوْري أو تقدح النارَ بحوافرها،

وقيل: بل الخيل حين تثير الغبار،

وقيل: هي الإبل تنسف بمَناسمها الحصى، أو ربّما يضرب الحصى بعضُه بعضاً فتخرج منه النار،

وقيل: إيراؤها: أن تُهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوّهم، وفي هذا استعارةٌ تصريحيّةٌ لتشبيه الحرب بالنار المشتعلة،

وقيل: هم الرجال يمكرون في الحرب فيقدحون زناد أفكارهم، وفيه استعارةٌ أيضاً،

وقيل: هم المجاهدون حين يكثّرون نيرانهم في الحرب، ليُرهبوا أعداءهم،

وقيل: هي الألسُن، وفيه استعارة،

وقيل غير ذلك، حتّى قال الطبري: "ولم يضع الله دلالةً على أنّ المراد من ذلك بعضٌ دون بعض".

٤- قَدْحاً:

تستمدّ هذه الكلمة قوّتها الانفتاحيّة من المعاني الكثيرة السابقة التي اقترحوها للآية من خلال تعدّد معاني لفظ (الموريات)، فضلاً عن احتمالاتها الإعرابيّة المشابهة للّفظ (ضبحاً).

٥- فالمُغِيرات:

رغم أنّ المعنى الشائع للَفظ (الإغارة) هو الهجوم على الأعداء بغتةً، فإنّ المعنى الأصليّ له هو سرعة السير، ومن هنا اختلف المفسّرون حول المواقف التي تتحدّث عنها هذه الآيات. فقد تكون إغارةً على الأعداء في معركةٍ معيّنة، وقد تكون اندفاع الإبل في شعائر الحجّ، أو قد تكون اندفاعاً لمطلق الخيول أوالإبل.

٦- صُبحاً:

ذهب المفسّرون في (الصبح) هنا إلى أنّه الفجر، أو النهار مطلقاً، أو هو (العَلانيّة) فكأنّهم لعزّهم يُغِيرون نهاراً دون خوف انكشافهم، وتتسع معاني اللفظ لكلّ هذه المذاهب.

٧- فأَثَرْنَ (به):

يأتي الإشكال هنا، وكذلك الانفتاح، من إعادة الضمير (الهاء) على ما يُحتمل أن يعود إليه، واختلافهم حول هذا العائد، كما رأينا عند الحديث عن الصيغ والعلاقات اللغويّة. ويأتي كذلك من معنى حرف الجر (الباء) ومن مسألة تعليقه:

فقد يكون هذا الحرف لمجرّد التعدية؛ أي: أَثَرْنَ بالعَدْوِ نقعاً، إذا أعدنا (الهاء) على لفظ (العَدْو) المقدّر،

وقد يكون بمعنى (في) -وأكثر ما يتعدّى بالباء يمكن أن يتعدّى بفي- فيكون في هذه الحال للظرفيّة الزمانيّة، أي بمعنى ظرف الزمان، إذا كان التقدير: أثرن في وقت الصبح نقعاً،

أو يكون للظرفيّة المكانيّة، إذا كان التقدير: أثرن في ذلك المكان نقعاً،

وقد يكون للحاليّة، إذا كان التقدير: أثَرن كائنةً فيه -أي والخيل موجودةٌ فيه- نقعاً،

وقد يكون زائداً، إذا كان التقدير: فأثَرنه نقعاً، فيعود الضمير (الهاء) في هذه الحال على (النقع) نفسه، ويكون (نقعاً) تمييزاً أو حالاً من الضمير.

٨- فأثَرْنَ به نَقْعاً:

لنا أن نتصوّر الآن المعاني العديدة المقترحة لهذه الآية بعد أن عرفنا ملابسات ألفاظها وجزئيّاتها، المعنويّة والإعرابيّة، ولا سيّما إذا عرفنا كذلك أنّهم اقترحوا للّفظ (نقع) أكثر من معنىً واحد، مثل: غبار الحرب، والغبار مطلقاً، والصوت الشديد، والموقع ما بين المزدلِفة إلى مِنىً، وشقّ الجيوب.

٩- جَمْعاً:

تعدّدت تفسيرات هذا اللفظ أيضاً:

فقيل: إنّه يدلّ على المكان الذي هو بهذا الاسم، وهو مزدلِفة، وقد سُمّي كذلك لاجتماع الناس به في وقتٍ واحد،

وقيل: بل هو جموع المقاتلين في الحرب؛ أي توسّطت الخيولُ المعركةَ برُكبانها، وقيل: هو على هذا مفعولٌ به للفعل (وسَطَ)،

وقيل أيضاً: إنّه حالٌ من فاعل هذا الفعل، أي توسّطت الخيولُ أو الإبلُ الناسَ أو المكانَ مجتمعةً.

وهكذا يَغنَى اللفظ بتعدّد هذه الوجوه المعنويّة والإعرابيّة.

١٠- فوَسَطْنَ (به):

ينطبق على شبه الجملة (به) في هذا الموقع الانفتاحيّ كلّ ما سبق أن ذكرناه عن رديفه السابق في (فأثَرُنَ به).

١١- فوسَطْنَ به جَمْعاً:

وينطبق على هذا التعبير أيضاً ما ذكرناه عن مُوازيه في الآية السابقة ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعًا﴾.

١٢- (وإنّه) على ذلك لَشهيد:

الضمير في (إنّه) يحتمل أكثر من جسرٍ بينه وبين الكلمات من حوله.

فهناك جسرٌ يربطه باللفظ (ربِّه) في الآية السابقة، فيكون المعنى بذلك: أنّ ربّ الإنسان شهيدٌ على كُنوده وجحوده لخالقه،

ولكنّ هناك جسراً آخر يربطه بلفظ (الإنسان) فيكون المعنى أنّ الإنسان، بلسان حاله، هو الذي يشهد على نفسه بنكرانه لنعم الله عليه في أقواله وتصرّفاته، وهو ما توضّحه الآية ﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴾ [القيامة:١٤].

١٣- الخير:

تأتي القيمة الانفتاحيّة لهذا اللفظ من جانبين:

أ- عموميّته التي أكسبتْه إيّاها جِدّةُ استعماله، كما سبق أن رأينا في حديثنا عن الألفاظ والمصطلحات، فهو يعني كلَّ ما يحبّ الإنسان أن يمتلكه، إنّه المال والخيل والدنيا بشكلٍ عامّ.

ب- المفارقة المُلفتة بين اللفظ ومعناه، فهو من الألفاظ الإيجابيّة في اللغة، ومن يمكن أن يعترض على أيّ معنىً معروفٍ من معاني (الخير)؟ ولكنّه هنا، ورغم اقترانه بلفظ (حبّ) -وهو لفظٌ إيجابيٌّ أيضاً- حمل معنىً غير إيجابيّ، فهو معنىً مرتبطٌ بالبطر وفساد النفس والنكران.

١٤- حُصّل ما في الصدور:

من الواضح أنّ المفردات الثلاث التي يقوم عليها هذا التعبير، كما أسلفنا في حديثنا عن السبائك، تعميميّةٌ غائمة، فالفعل (حُصّل) مبنيٌّ على (مجهول) والأداة (ما) تكتسب عموميّتها من تنكيرها، لو أعربناها نكرةً تامّةً بمعنى (شيء)، فإن أعربناها اسم موصولٍ، وهو معرفة، فإنّها لا تفيدنا هنا بأكثر ممّا تفيده (ما) النكرة التامّة، وذلك أنّها وُصلت بما هو غائمٌ وتعميميٌّ أيضاً (مَا فِي ٱلصُّدُورِ)، فالذي في الصدور يمكن أن يدلّ على أشياء كثيرةٍ، منها النيّات، على اختلاف طبيعة تلك النيّات، وكذلك الأعمال، على اختلاف طبيعتها وأنواعها أيضاً. ثمّ إنّ الفعل (حُصِّل) نفسه قد يعني الحصول، وقد يعني الكشفَ والتبيين، وقد يعني التمييز بين ما في الصدور من خيرٍ أو شرّ.

١٥- إنّ ربَّـ(ـهُم) بـ(ـهِم):

إنّ إعادة الضمير إلى غير مذكورٍ هي من أظهر الوسائل التي يتوسّل بها القرآن الكريم لإضفاء الصيغة الانفتاحيّة على لغته. فضمير جماعة الغائبين (هم) تكرّر مرّتين في الآية رغم أنّه لا يعود على جمعٍ ظاهرٍ لنا في السورة. نعم إنّ لفظ (الإنسان) فيها سيساعدنا على تقدير هذا الجمع المحذوف، ولكن حتّى إن لم يظهر هذا اللفظ في السورة فإنّ السياق يوحي بأنّ الضمير (هم) إنّما يشير إلى هؤلاء الذين يُبعثون ويُبعثَرون من القبور، أو البشر الذين سيحاسبون في ذلك اليوم ويُحصّل ما في صدورهم من أعمالٍ اقترفوها أو نيّاتٍ صدرت أعمالهم عنها.

١٦- إنّ ربَّهم بهم يومَئذٍ لَخبير:

إنّ حذف الرابط اللغويّ الذي يربط هذه الجملة بما قبلها تركها عائمةً غير محدّدة الانتماء نحويّاً، ومن ثمّ معنويّاً.

فقد تكون جملةً استئنافيّةً انقطع الكلام قبلها، ثم استُؤنف من جديدٍ ليؤكّد

تعالى بها أنّ علمه بما في صدورهم قد سبق، في الواقع، انبعاثَهم والكشفَ عمّا في صدورهم من سرائر وأعمال. وقد تكون جملةً مكمِّلةً لما سبق من كلام، كما رأينا، وكأنّه تعالى يسألهم: ألا يعلمون أنّ ربّهم سيكون خبيراً بهم وبأعمالهم في ذلك اليوم، فهي في موقع المفعول، أو ربّما في موقع المفعولين، للفعل الذي سبق قبل آيتين (يعلم).

خامساً: جوامع الكَلِم

١- إنّ الإنسانَ لِربِّه لَكَنود:

يمكن إطلاق هذه العبارة القرآنيّة للتعليق على من بَطِر معيشته ولم يُحسن تقدير نعمة الله عليه، وكذلك على من ينكر الجميل ولا يبادل الإحسان بالإحسان.

٢- وإنّه على ذلك لَشهيد:

ويمكن إطلاق هذه العبارة على من ينطق لسانُ حاله عن نفسه من غير أن يدلي بأيّ حديث، أو على من نتوسّم فيه الشهادة على أمرٍ يهمّنا.

٣- وإنّه لِحُبّ الخيرِ لَشديد:

عبارةٌ يمكن أن تقال لمن عُرف بالجشع والطمع والسعي لنيل الدنيا من غير تذكّر الآخرة.

٤- وحُصِّل ما في الصدور:

هناك أكثر من حالة يمكن أن تصفها هذه العبارة: كأنْ نقولها لمن افتُضح أمره فجأةً، أو لمن انتهى لتوّه من امتحاناته، أو لمن تكشّفت نواياه نحونا، أو لمن انتزعنا منه اعترافاته.

٥- إنّ ربَّهم بهم يومَئذٍ لَخبير:

وهي عبارةٌ أخرى يمكن أن تُطلَق في أكثر من موقف: فلنا أن نقولها لمن نشكّ في أنّه ينطق بالحقيقة، أو نطلقها على من مات من غير أن نستطيع الحكم له أو عليه، فنترك أمره لله.

السورة السابعة عشرة

الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾

هذه السورة كانت عند نزولها بمثابة قنبلةٍ ضخمة، أو "زلزلةٍ" حقيقيِّة، تتفجّر في أفئدة العرب أو المسلمين الذين سمعوها لأوّل مرّة، ليس بسبب لغتها الجديدة فحسب، بل بسبب الصور والمعاني الهائلة التي تضمّنتها، والحدث العظيم الذي تتحدّث عنه، وقد كان حتّى ذلك الوقت بعيداً تماماً عن العقل العربيّ وثقافته الجاهليّة الوثنيّة، وهو يوم القيامة.

وترتيب السورة التراجعيّ في القرآن هو السادسة عشرة، وهي مكوّنةٌ من ٣٦ لفظاً وسنقف فيها عند ٥٣ موقعاً جديداً على العرب وعلى اللغة العربيّة، وظلّ كثيرٌ منها كذلك حتّى اليوم، بل ظلّ جزءٌ كبيرٌ من هذه المواقع مختصّاً بالسورة وحدها دون غيرها من السوَر، مكوِّنةً بذلك شخصيّتها اللغويّة المستقلّة، كالألفاظ: (زُلزلت، زِلزالَها، أثقالها، تُحدّث، أخبارها، يَصدُر، لِيُرَوا، يرَه) وكذلك التراكيب والتعبيرات والصور: (زُلزِلت زِلزالَها، أخرجت أثقالَها، قال.. ما لَها، تُحدّث أخبارَها، أوحَى لها، يَصدُر الناسُ أشتاتاً، ليُرَوا أعمالَهم، مثقال ذرّةٍ خيراً، مثقال ذرّةٍ شرّاً).

أوّلاً: الألفاظ والمصطلحات

في السورة ٧ أدوات و ٢٩ كلمةً، وبين هذه الكلمات ما لا يقلّ عن ١٢ كلمةً جديدةً في معناها، أو في لفظها، أو في لفظها ومعناها معاً:

١ - ٢ - زُلزِلَتْ/ زِلزالَها:

لا نعثر على هذين اللفظين أو مشتقّاتهما في الشعر الجاهليّ إلاّ في أبياتٍ سبق أن أكّدنا شكوكنا في جاهليّتها وفي نسبتها للحُصَين الفَزاريّ (ت١٠ ق.ه) لاعتمادها بشكلٍ كاملٍ تقريباً على ألفاظ سورة (الزلزلة)، ولانطلاقها بشكلٍ حَرْفيٍّ من المفهومات الدينيّة الإسلاميّة من ناحيةٍ أخرى، كما يتّضح من هذا البيت:

وخَفَّ الموازينُ بالكافرين　　　وزُلزِلَتِ الأرضُ زِلزالَها

ورغم أنّ مشتقّات الفعل (زلزل) تَتردّد في بقيّة السوَر ٤ مرّاتٍ أخرى فإنّ سورة (الزلزلة) تستقلّ بهذا الفعل المرتبط بتاء التأنيث، كما تستقلّ بمصدره المضاف إلى ضمير المفردة الغائبة (زِلزالها). وحين يتكرّر الفعل ثانيةً في سورة (البقرة) يأتي، هناك أيضاً، في صيغته المبنيّة للمجهول، وهي من الصيغ الفعليّة الأكثر استعمالاً في القرآن كما سبق أن مرّ بنا:

- ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٤]

ويندر ورود اللفظ في الحديث الشريف إلاّ أن يكون في سياق الآيات التي ورد فيها. وهو يأتي فيه على الأغلب بغير معنى الزلزلة الأرضيّة المعروفة، كما في قوله ﷺ:

- اللهمّ اهزمهم وزَلزِلْهم[١].
- فإذا رفعتم نعشَها فلا تزعزعوها ولا تزلزلوها[٢].

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٣، ص١٠٧٣، حديث رقم ٢٧٧٥.

(٢) المرجع السابق، ج٥، ص١٩٥٠، حديث رقم ٤٧٨٠.

٣- تُحدِّثُ:

حمل الفعل هنا معنىً مختلفاً عن المعنى الذي تعارف عليه العرب، فهو من الأفعال التي تتعدّى إلى مفعولين، وقد فقد هنا مفعوله الأول، ثمّ لم يتعدّ إلى مفعوله الثاني بحرف (الباء) أو بالحرف (عن)، وهو ما اعتدنا أن نفعله في لغتنا. نحن نقول مثلاً:

حدّثني بما جرى، و:

حدّثتُه بما في نفسي

سأحدّثكم عنه

وهذا شأنه في الحديث الشريف أيضاً، كقوله ﷺ:

- .. أمّا الذي رأيتُه يُشَقُّ شِدْقُه فكَذّابٌ يُحدِّثُ بالكَذبة[١].

- .. ولكنْ سأحدّثُكَ عن أشراطِها[٢].

ورغم أنّ اللفظ خاصٌّ بهذه السورة ولا يتكرّر في غيرها؛ فإنّ الصيغتين الأخريين له في القرآن تعدّت كلتاهما بالباء:

- ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ ﴾ [البقرة: ٧٦]

- ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١]

من أجل هذا كان لا بدّ من تقدير الفعل على أنّه بمعنى (تروي) أو (تحكي) فكلا هذين الفعلين يكتفي بمفعولٍ واحدٍ، ولا يتعدّى أيٌّ منهما بالباء.

(١) المرجع السابق، ج١، ص٤٦٥، حديث رقم ١٣٢٠.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص١٧٩٣، حديث رقم ٤٤٩٩.

٤- أَوحَى:

رغم ورود هذا الفعل مع مشتقّاته ٧٧ مرّةً في القرآن فإنّنا لا نجده في الشعر الجاهليّ إلاّ مرّةً واحدةً في بيتٍ يُنسب للشنفرى (ت٧٠ ق.ه) يقول فيه:

ونائحةٍ أُوحيتُ في الصُبحِ سَمْعَها فَرِيْـعَ فـؤادي واشمـأزَّ وأَنكَرا

ومن الواضح، مع ندرة اللفظ في هذا الشعر، اختلاف معناه القرآنيّ عن المعنى الجاهليّ، إذ يختصّ في معظم استعمالاته القرآنيّة بالاتّصال الإلهي مع البشر أو الأنبياء، وهو اتصالٌ من نوعٍ آخر غير الكلام المباشَر، ممّا توضّحه الآية:

- ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١]

وربّما أُطلق اللفظ على النصّ الموحَى نفسه، أي القرآن الكريم، كقوله تعالى:

- ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٥]

وتنفرد سورة (الزلزلة) بتعدّي هذا الفعل باللام، رغم أنّ الفعل يتكرّر في القرآن ٧٢ مرّةً أخرى تعدّى في ٦٦ منها بحرف الجرّ (إلى)، كما في قوله تعالى:

- ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القَصص: ٧]

وتعدّى بنفسه، من غير وسيط، في الحالات الستّ الأخرى.

٥- يَصْدُر:

الصدور بالمعنى الجاهليّ هو العودة من مصدر الماء بعد الشرب أو التزوّد منه، أمّا هنا فهو بمعنى خروج الناس من قبورهم، أو عودتِهم من الموت إلى الحياة، أو رجوعِهم إلى الله يوم الحساب، وهو معنىً جديدٌ منحه القرآن للفعل. ولا يتكرّر اللفظ في القرآن في غير هذه السورة.

٦- لِيُرَوا:

مع اختصاص سورة (الزلزلة) بهذا اللفظ؛ إذ لا يتكرّر بهذه الصيغة مرّةً أخرى في القرآن، يخلو الشعر العربيّ منه تماماً، قبل الإسلام وبعده، وكذلك الحديث الشريف. وهو من الحالات النادرة في القرآن التي يتعدّى فيها فعلُ الرؤية، البصريّ، إلى مفعولين مع مجيئه في صيغة المبنيّ للمجهول (الواو هنا هي بمقام المفعول الأول لهذا الفعل، أي نائب فاعل، و "أعمالَهم" مفعولٌ ثانٍ).

أمّا ما عرفه الشعر الجاهليّ من هذه الصيغة فممّا يقتصر تعدّيه على مفعولٍ واحدٍ، كما في هذه الأبيات:

في ليلةٍ لا يُرى بها أحدٌ — يَسعى علينا إلاّ كواكبُها

أُحيحة بن الجَلاح (ت١٢٩ ق.هـ)

ثمّ فينا للقِرى نارٌ يُرى — عندها للضَيفِ رُحْبٌ وسِعَةْ

الأَفْوَه الأَوْديّ (ت٥٤ ق.هـ)

ولو أنّ للموتِ شخصاً يُرى — لروّعتُهُ ولأَكثرْتُ رُعبَهْ

عنترة (ت٢٢ ق.هـ)

أمّا في الحديث الشريف فيتّخذ الفعل، في صيغته المبنيّة للمجهول، معنىً مختلفاً هو (ظنّ)، كما في العبارات النبويّة:

- .. أينَ أُراهُ السائلُ عن الساعة؟ قال ها أنا يا رسولَ الله..[1].
- .. فقال: ما هذا؟ فأُخبِر، فقال النبيّ ﷺ: آلبِرَّ تُرَونَ بهنّ؟ فترك الاعتكافَ ذلك الشهر[2].

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٣٣، حديث رقم ٥٩.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٧١٥، حديث رقم ١٩٢٨.

- .. أنّ جبريل كان يعارضني بالقرآنِ كلَّ سنةٍ، وإنّه عارضَني العامَ مرّتين، ولا أُراهُ إلاّ حضرَ أجَلي.[1]

٧- ٨- مِثقال [مكرّر]:

رغم ورود هذا اللفظ ٨ مرّاتٍ في القرآن، وهو دائماً بمعنى (وَزْن)، يختفي تماماً من الشعر الجاهليّ، ولكنّنا نجده وقد انتقل إلى الحديث الشريف أيضاً وبالاستعمال القرآنيّ نفسه.

٩- ١٠- ذَرّة [مكرّر]:

يتكرّر هذا اللفظ ٦ مرّاتٍ في القرآن، مرتبطاً دائماً باللفظ (مثقال)، ولا أثر له في الشعر الجاهليّ. وإنّما نعثر على اسم الجنس منه مرّةً واحدةً في بيتٍ لامرئ القيس (ت٨٠ ق.هـ) وهو فيه بمعنى صغار النمل:

مِنَ القاصراتِ الطَرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ   مِنَ الذَرِّ فوقَ الأَتْبِ منها لأَثّرا

١١- ١٢- يَرَه [مكرّر]:

الجديد في هذا اللفظ هو معناه بشكلٍ خاصّ. فهو يختلف عن المعنيين الوحيدين اللذين عرفهما العرب لهذا الفعل، وهما: الرؤية البصريّة، ثمّ الرؤية القلبيّة (أي الظنّ) كما رأينا في الأحاديث الشريفة السابقة. أمّا الرؤيا في هذه الآية فهي بمعنى تلقّي الحساب أو نَيل الجزاء، أي: فمَن عمِل شيئاً في الدنيا، خيراً أو شرّاً، يلقَ جزاءه، عقوبةً أو مكافأةً، في ذلك اليوم. وهذا المعنى القرآنيّ لم يعرفه الحديث الشريف أيضاً، إلاّ أن يقع في سياقٍ قرآنيّ.

والأغرب من هذا أنّه من بين ٣٢٦ مرّةً ورد فيها الفعل (رأى) مع مشتقّاته في القرآن؛ لا نجد هذا المعنى الأخير إلاّ في ثلاث حالاتٍ فحسب، والحالات الثلاث اجتمعت كلّها في هذه السورة الصغيرة، وهي الفعل (يُرَوا) والفعل المتكرّر (يَرَه).

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١٣٢٦، حديث رقم ٣٤٢٦.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

١- زِلزالَها:

هذا تعبيرٌ لم يعهده العرب في لغتهم، لا قبل الإسلام ولا بعده، فإضافة المفعول المطلق إلى فاعله وهو الضمير (ها) العائد على (الأرض) أمرٌ خارجٌ عن أعرافهم اللغويّة. من منّا يقول مثلاً:

طارتِ الطائرة طيرانها، أو:

ارتُكبتِ الجريمة ارتكابها، أو:

هُزَّت العمارةُ اهتزازها..

٢- وأخرَجتِ الأرضُ:

أعرافنا اللغويّة، مرّةً أخرى، لا تُكرّر الفاعلَ نفسه في جملتين متتاليتين كما وقع في هاتين الآيتين، بل تستغني عنه بالضمير. نحن نقول هنا:

- وأخرجت أثقالَها

هكذا من غير إعادة لفظ (الأرض) من جديد. إنّنا لا نقول مثلاً:

إذا جاء الامتحانُ وبدأ الامتحانُ، ولا:

أشرقتِ الشمسُ وأضاءت الشمسُ، ولا:

أُذيعَ الخبرُ وانتشر الخبر..

٣- أثقالَها:

هذه صورةٌ بيانيّةٌ جديدة، بل صورتان في صورةٍ واحدة لم يعرفهما العربيّ من قبل. فالأثقال هنا هي ما في الأرض من رميم الموتى من البشر والحيوانات، أمّا الأرض فهي كدابّةٍ ضخمةٍ تَحمل هذه الأثقال على ظهرها، أو في رحِمها، أو كسفينةٍ عملاقةٍ تحمل الأموات في جوفها، حتّى تكاد ينوء بها الحمل لثقلها.

٤- وأَخرجتِ الأرضُ (أثقالَها):

بالمقارنة مع الصورة الثابتة التي رأيناها في اللفظ (أثقالها)؛ لنا أن نتخيّل الآن ما أضاف اللفظ (أخرجت) إلى هذه الصورة من حركةٍ وحياة. هذه هي الأرض الآن تلفظ أحشاءها التي أُثقِلت بها، حِملاً إثر حِمل، بما حوته من أجيال البشر المتلاحقة التي عاشت عليها ثمّ دُفنت فيها منذ آدم عليه السلام حتّى يوم القيامة، وبما حمله هؤلاء البشر من ذنوبٍ وأعمالٍ أثقلت كواهلهم وملأت صحائفهم، وكذلك بما أخفته الأرض في باطنها من أحياءٍ أخرى، ومن عجائب وأسرارٍ لا يعلمها إلاّ الله، فأفصحت عنها في ذلك اليوم الرهيب، فوجاً إثر فوج، وولادةً إثر ولادة.

٥- وقال الإنسانُ:

لن نجد هذا التركيب القرآنيّ في أيٍّ من كتب تراثنا الأدبيّ، قبل الإسلام أو بعده، شعره أونثره، بل إنّه، فوق ذلك، اقتصر في القرآن على هذه السورة وحدها دون غيرها، ولكنّنا نجده في سورٍ أخرى في صيغة المضارع ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾.
ولصيغة الماضي هنا خصوصيّتها وخطورتها؛ وذلك بما تحمله من إخبارٍ تحذيريٍّ مقلِق، لأنّها تتحدّث عن المستقبل بصيغة الماضي بحيث تُشعرنا بأنّ هذا الحدث قد وقع علينا حقاً وكأنّنا نعيشه الآن، فلا فرصة أمامنا للمناورة أو الفرار منه.

ولا وجود لهذا التعبير في الحديث الشريف.

٦- يومَئذٍ [الأولى]:

من الأعراف اللغويّة للعربيّة أن يرتبط جواب الشرط، في مثل هذا السياق، بحرفٍ هو الفاء، وقد خلت الآية الكريمة من هذا الحرف. نحن نقول:

إذا اقترب الموعد فعند ذلك تهيّأ، أو: فتهيّأ عندها. ونقول:

إذا عزمتَ أمرك فحينئذٍ اتِّخذْ قرارك. ونقول:

إذا رأيتَه يسرق فعاقِبْه

٧ - تُحدّث أخبارَها:

في هذا التعبير الجديد صورةٌ جديدةٌ أيضاً على الخيال العربيّ لم يعرفها من قبل. وبغضّ النظر عمّا إذا كانت الأرض ستتحدّث بذاتها ذلك اليوم أم لا؛ أي بغضّ النظر عن كون هذا الكلام حقيقةً أو مجازاً، فإنّ مجرّد الحديث عن "كلام" يصدر عن الأرض من شأنه أن يثير مخيِّلة العربيّ الذي يسمع هذا المعنى الغريبَ لأوّل مرّة. وقد رُوي عن الرسول ﷺ قوله:

- تَحَفّظوا من الأرض فإنّها أمُّكم، وإنّه ليس مِن أحدٍ عاملٌ عليها خيراً أو شرًّا إلاّ وهي مُخْبِرةٌ به[1].

كما رُوي عنه ﷺ في شرح هذه الآية:

- قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: "يومَئذٍ تُحدِّثُ أخبارَها"، قال: أتدرون ما أخبارُها؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: فإنّ أخبارَها أن تشهدَ على كلِّ عبدٍ وأَمَةٍ بما عَمِلَ على ظَهرِها، تقول: عَمِل كذا وكذا يومَ كذا وكذا، فهذه أخبارُها[2].

والتعبير مختصٌّ بهذه السورة، فلا يتكرّر في غيرها، ولا نجده في الحديث الشريف، إلاّ أن يرِد في سياق التعليق على هذه السورة كما في الحديث أعلاه.

٨ - ربَّكَ:

بعد التحدّث عن غائبٍ يعود على الإنسان (هو) في الآية الثالثة؛ تتوقّع الأذن، التي تستسلم هنا عادةً لخَدَر العادة والاستمراريّة في لغتنا البشريّة، أن تكون الآيةُ هنا استمراراً وتكملةً للحديث في تلك الصيغة، كأن تكون مثلاً: بأنّ ربّه (ربّ الإنسان) أوحى لها، ولكن "الالتفات" القرآنيّ يوقظ الأذن من هذا "الاستسلام

(١) الطبرانيّ، **المعجم الكبير**، مرجع سابق، ج٥، ص٦٥، حديث رقم ٤٥٩٨.

(٢) البستي، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، مرجع سابق، ج١٦، ص٣٦٠، حديث رقم ٧٣٦٠.

الكسول" لتصحو على منعطفٍ لغويٍّ مفاجئٍ لم تكن تتوقّعه؛ حين يقفز بها، ومن غير أيّ إنذار، من الغائب ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلى المخاطب (ربَّكَ).

٩- أخبارَها بأنّ ربَّك:

لو خلا السياق هنا من اللفظ (أخبارها) فكان هكذا: تُحدّث.. بأنّ ربّك، لعاد التعبير إلى قواعده وأعرافه المعهودة في لغتنا البشريّة، ولكنّ دخول مفعولٍ جديدٍ بين الفعل (تُحدّث) ومفعوله الأصليّ، أو ما حلّ محلّ هذا المفعول الأصليّ وهو شبه الجملة ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾، جعل الصيغة غير عاديّة، أو نقلها بالأحرى من البشريّة إلى القرآنيّة.

١٠- أوحى لها:

ينطبق على هذا التعبير تحليلُنا للتعبير السابق ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾. إنّه خطابٌ إلهيٌّ موجّهٌ من الخالق في السماء إلى مخلوقٍ غير ناطقٍ ولا عاقل، وهل تَسمع الأرضُ وحي الله وكلامَه: ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾؟ فإن كان ذلك حقيقةً فهو معنىً عجيبٌ سيهزّ العربيّ الذي يسمع مثله لأوّل مرّة، أمّا إن كان مجرّد صورةٍ مجازيّةٍ فنّيّةٍ تمثّل الأرض وكأنّها مخلوقٌ حيٌّ يسمع ويرى، فهي أيضاً صورةٌ عجيبةٌ وجديدةٌ على الخيال العربيّ لم يسمع بمثلها من قبل.

١١- يومَئذٍ [الثانية]:

الغريب أنّ هذا هو ظرف الزمان الثالث الذي تقع فيه الزلزلة. فالأوّل (إذا) ظرفٌ شَرطيٌّ متعلّقٌ بجوابه، أي بجواب الشرط كما تعلّمنا في دروس النحو، وإذن فالظرف الثاني ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ ﴾ والثالث ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ﴾ ينضمّان إلى الأوّل ليشاركاه عمليّة التعلّق، وهكذا يمكن أن نصوغ العبارة بلغتنا على الشكل التالي:

يومَ تُزلزَل تلك الزلزلة؛ ستحدِّث الأرضُ بأخبارها، ويَصدر الناسُ منها أشتاتاً للحساب،

وهكذا لا نجد في عبارتنا البشريّة، كما نرى، مكاناً لأكثر من ظرفٍ واحد (يومَ). ولا شكّ أنّ في اجتماع الظروف الثلاثة على حدثٍ واحد يُضفي على هذا الحدث من التهويل والتعظيم ما لا يقوم بالتعبير عنه ظرفٌ بمفرده في لغتنا البشريّة.

١٢- يَصْدُرُ:

عرفنا في حديثنا عن ألفاظ السورة أنّ هذا الفعل قد اكتسب في الاستعمال القرآنيّ معنىً جديداً. وهذا المعنى جاء من خلال الصورة البيانيّة الجديدة التي فاجأ القرآن بها العرب، فالخروج من القبور بعد هذا الرقاد الطويل أشبه بعودة الشاربين من نبع الماء بعد الشبع والريّ. وإنّها في الواقع عدّة صورٍ في لفظٍ واحد:

أ- فالقبور هي النبع أو مكان الماء،

ب- والنوم الطويل، أو الموت، هو الماء،

ت- والمستيقظون من قبورهم هم العطاش الذين ارتووا من النوم/ الموت،

ث- والحساب والوقوف بين يدي الله هو المنزل أو المآل الذي ينتهون إليه عائدين من نبع الماء.

١٣- يَصدُرُ الناسُ أشتاتاً:

هذا تعبيرٌ قرآنيٌّ خاصّ، فضلاً عن أنّه مختصٌّ بهذه السورة وحدها، ولو أردنا التعبير عن المعنى نفسه بلغتنا لقلنا: يعود الناس متفرّقين، أو يرجعون فصائل، أو يرتدّون فِرقاً وجماعات. ولا وجود لهذا التعبير في الحديث الشريف.

١٤- ليُرَوا أعمالَهم:

عرفنا في حديثنا عن ألفاظ السورة كيف اكتسب الفعل (رأى) فيها معنىً جديداً لا يشاركه فيه، حتّى في القرآن، أيّ فعلٍ آخر أو اسم مشتقٍّ من جذره خارج هذه السورة. وهذا المعنى الجديد يقوم على أرضيّةٍ بيانيّةٍ اكتسب من خلالها هذه

الجدّة، فليست الأعمال هي التي سوف تُرى يومَ القيامة، وإنّما نتائجها وجزاؤها: إنْ خيراً فمكافأةً ونعيماً، وإن شرّاً فعقوبةً وناراً، وهي صورةٌ جديدةٌ في القاموس البلاغيّ العربيّ. ولا وجود للتعبير في الحديث الشريف.

١٥- ١٦- فمن يعمل/ ومن يعمل:

في كلا التعبيرين نوعٌ جديدٌ من الالتفات. فالصورة التي ترسمها لنا الآيات منذ مطلع السورة حتّى قوله تعالى: (ليروا) هي صورة أحداث يوم القيامة: الزلزلة، ثمّ النشور، ثمّ ذهول الإنسان لما يجري حوله، ثم حديث الأرض العجيب، ثمّ تقدُّم البشر جماعاتٍ نحو منصّة الحساب الرهيبة، لينظر كلّ إنسانٍ ما عمل في الدنيا (أعمالَهم)، وهذه الكلمة الأخيرة تعود بنا القهقرى إلى الحياة الدنيا، لأنّ المقصود طبعاً رؤيتهم لما (عملوه سابقاً) في حياتهم الأولى، ثمّ ماذا؟ إنّها الآن المحكمة الكبرى: فمن عمل خيراً في الدنيا نال اليوم خيراً، ومن عمل شراً نال اليوم شراً.

هل تنبّهتم إلى أنّني استعملت الفعل الماضي (عمِلَ) في المرّتين وليس المضارع (يعمل) الذي ورد في الآيتين؟ طبعاً لأنّ عمل الإنسان في الدنيا سيكون في ذلك اليوم في حكم الماضي، ولكنّ القرآن عبّر عن هذا الماضي، في المرّتين، بالمضارع (يعملْ)، فكان التفاتاً من الحاضر إلى الماضي، رغم استخدام صيغة المضارع (يعمل) للتعبير عن ذلك الماضي، وهو أعجب ما في هذه اللغة القرآنيّة.

١٧- ١٨- مثقالَ ذرّةٍ [مكرّر]:

هذا تعبيرٌ قرآنيٌّ خاصٌّ لا يشاركه فيه نثرٌ عربيٌّ أو شعرٌ، وقد تسرّب بعد ذلك بكثرةٍ إلى الحديث الشريف، كما سبق أن ذكرنا، رغم خلوّ الشعر الجاهليّ تماماً منه، ولكن يغلب في الحديث النبويّ إضافة (مثقال) إلى (حبّةِ خردل) أو (شعيرةٍ) أو (دينارٍ) بدلاً من (ذَرّة).

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- إذا زُلزِلَتِ الأرضُ زِلزالَها:

هذه سبيكةٌ لا أذكر أنّها تكرّرت في سورةٍ أخرى من القرآن، بَلْهَ كلامَ البشر. وتأتي خصوصيّتها من ترتيب كلماتها الذي كوّن لها إيقاعها النحويّ المتفرّد، ومن خصوصيّة استعمال الظرف الشَرطيّ (إذا) كما رأينا، ثمّ من هذه الإضافة الجديدة للمفعول المطلق (زِلزال) إلى الضمير العائد على الأرض (ها) وهي صاحبة الزلزلة، كما سبق أن بيّنّا أيضاً، والتي أكسبت المضاف معنى الهول والعظمة والضخامة، ممّا قد نعبّر عنه في لغتنا البشريّة بقولنا:

عندما تُزلزَل تلك الزلزلةَ العظيمة، أو:

عندما تُزَلزل زلزلةً عظيمة

٢- يومَئذٍ تُحدِّثُ أخبارَها بأنّ:

افتتاح هذه السبيكة بالظرف القرآنيّ الصارخ اللون (يومئذٍ)، ثمّ بناؤها اللفظيّ المتفرّد، والعلاقات اللغويّة الجديدة التي تَحدّثنا عنها بين الفعل (تُحدِّث) ومفعولِه (أخبارَها)، ثمّ الجملة غير العاديّة التي تلت هذا المفعول؛ وجاءت وكأنّها في موضع مفعولٍ ثانٍ ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ﴾ ، هذا كلّه يمنح السبيكة خصوصيّتها.

٣- يومَئذٍ يَصدُرُ الناسُ أشتاتاً ليُرَوا أعمالَهم:

مرّةً أخرى تبدأ هذه السبيكة بالظرف القرآني الخاصّ (يومئذ) ثمّ يتلوه التعبير القرآني الخاصّ أيضاً ﴿ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتًا﴾ وهذا يتلوه التعبير الخاصّ الآخر ﴿ لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ ذو اللفظين اللذين عرفنا تميّز طبيعة الأوّل منهما، بمعناه المجازيّ المتفرّد، كما عرفنا تميّز علاقته مع شريكه اللفظ الثاني. إنّ في هذا كلّه، فضلاً عن الإيقاع اللفظيّ للعبارة بمجملها (يومئذٍ يعمل العاملون أعمالاً ليُعملوا أعمالهم)، ما يكفي ليمنح السبيكة فَرادتَها واستقلاليّتها.

٤- فمن يعملْ مِثقالَ ذَرّةٍ خيراً يَرَه:

فضلاً عن بنائها اللغويّ والإيقاعيّ؛ تأتي خصوصيّة هذه السبيكة من خصوصيّة استعمال أجزائها (يعمل) و (مثقالَ) و (ذرّةٍ) و (يَرَه) كما مرّ بنا. ويضاف إلى ذلك الاستغناءُ بالضمير (الهاء) في (يَرَه) عن المفعول الحقيقيّ الذي يمكن أن يكون (المثقال) أو (الخير)، أو ربّما، كما اقترحنا، (الجزاء) الذي سيناله العامل لقاء ما عمله من خير.

٥- ومن يَعمَلْ مِثقالَ ذرّةٍ شرّاً يَرَه:

ينطبق على هذه السبيكة كلّ ما تحدّثنا به عن السبيكة السابقة.

رابعاً: اللغة المنفتحة

١- زُلزِلت الأرضُ زِلزالَها:

من خلال إدراكنا لتميّز يوم القيامة، واختلافه عن أيّ وصفٍ مطابقٍ لخيالنا أو أيّ حدثٍ معروفٍ لبني لبشر، نستطيع أن نقدّر أن الزلزلة هنا ليست من نوع الزلازل التي تشهدها الأرض من حينٍ إلى آخر. وقد قيل في هذه الزلزلة إنّها (النفخة الأولى)، وقيل أيضاً إنّها تتزلزل في هذه النفخة، ثمّ تتزلزل ثانيةً فتُخرِجُ موتاها، وذلك لقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ [النازعات: ٦-٧].

ويأتي المصدر(زِلزالها) نكرةً أو شبه نكرةٍ؛ إذ أضيفَ إلى فاعله؛ أي الضمير "ها" العائد على الأرض المتزلزلة نفسها، فهو، بإضافته إلى نفسه، كأنّه لم يُضَف، إذ لم يكتسب أيّ تعريفٍ بالإضافة؛ بحيث أعطى الآية كلّها، بهذا الغموض والتنكير، قوّةً احتماليّةً إضافيّةً في تصوّرنا لطبيعة تلك الزلزلة وما يُلمّ بالأرض من عظائم.

٢- أخرَجتِ الأرضُ أثقالَها:

هل لنا أن نتصوّر طبيعة "الأثقال" التي ستُفرزها الأرض من أحشائها يوم النشور: بَشر، حيوانات، جنّ، كنوز، نيران، حِمم، مدُن، حضارات، ما نعلم وما لا نعلم؟.. وهل لنا أن نتصوّر هذا "الإخراج" وكيف تتمّ عمليّته، وما هي مراحله، وأيَّ شكلٍ يأخذ؟ إنّ الأبواب مفتوحةٌ أمام خيالنا لما لا نهاية له من الصور والوقائع.

يسترسل خيالنا في هذا كلّه ونحن من جديدٍ أمام نكرةٍ، أو ما يشبه النكرة "أثقال"؛ إذ لا تعريف لهذا اللفظ إلاّ الإضافة إلى الضمير العائد إلى صاحبة هذه الأثقال: (الأرض)..

٣- وقال الإنسانُ ما لَها:

أمام هذا الخليط من المخلوقات المنبعثة من الموت، والأحداث التي يشيب لهولها الولدان، يفاجئنا هنا لفظ (الإنسان). فأيّ إنسانٍ هذا الذي يقف متسائلاً متعجّباً ممّا يجري (ما لها)؟ ولماذا أفرد القرآن هذا اللفظ (الإنسان) ولم يجمعه (الناس أو البشر مثلاً)؟ وممّ يتعجّب هذا الإنسان؟ تُرى: من زلزلة الأرض؟ أم من انبعاث الموتى منها أحياء؟ أم من نطقها وهي تدلي بأخبارها وأخبار من فيها؟ أم من كلّ ذلك معاً وأكثر؟

٤- تُحدّثُ أخبارَها:

عرفنا اختلاف المفسّرين حول طبيعة "حديث الأرض" هنا، هل هو حقيقيٌّ أم مجازيّ، رغم وجود أكثر من حديثٍ شريف في توضيح هذا "الحديث". فهل هي مُخبِرةٌ بأنّ الله أوحى لها بالكلام؟ أم مُخبِرةٌ بما أوحي لها بأن تتكلّم فيه وتُخبر به؟ وإذا كانت "مُخبِرةً" بما نعمله على ظهرها، كما جاء في الحديث، فبأيّ طريقةٍ يتمّ هذا الإخبار، وهل هو كلامٌ ككلام البشر؟ وبأيّة لغةٍ؟ وما طبيعة صوتها ودرجة

ضخامته؟ وأين يكون فمها ومن أين يصدر الكلام؟ واسأل نفسك بعد ذلك ما شئت من مثل هذه الأسئلة. وقيل في تفسير الآية:

إنّها تُحدّث أخبارها بوحي الله لها وإذنه لها،

وقيل: تحدّث أخبارها بما أخرجت من أثقال،

وقيل: تحدّث بقيام الساعة وأنّ الدنيا قد انقضت،

وقيل: تبيّن أخبارها بالرجفة والزلزلة وإخراج الموتى، وقيل غير ذلك.

٥ - بأنّ ربَّك أوحَى لها:

يلعب حرف (الباء) هنا دوراً كبيراً في تلوين معنى الآية وإغنائه بالاحتمالات:

فهل هو مجرّد حرف تعديةٍ لوصل الفعل قبله (تُحدّث) بمفعوله، أو بما حلّ محلّ هذا المفعول المحذوف، أي (تُحدِّث بأنّ)؟

أم هو حرفٌ سببيٌّ، أي أنّ الأرض تتحدث "بسبب" إيحاء الله لها بالتحدّث؟

أم هو تفسيريٌّ عملُه أن يصل بدلاً ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ بمُبْدَلٍ منه (أخبارَها)؛ أي: أخبارها التي تفسيرُها أنّ الله أوحى لها؟

أم هو حرف جرٍّ زائدٌ؛ وجملة (أنّ وما بعدها) بدلٌ من (أخبارَها)؛ أي: تحدّث أخبارها التي هي وحي الله لها؟

ثمّ إنّ الذهن يذهب بعيداً هنا مع اللفظ (أوحى):

فما علاقة الوحي بالخراب الذي يصيب الأرض يومذاك؟ وهل كان الوحي لها أمراً بزلزلتها؟

أم هو أمرٌ بأنْ تلفظ ما في رحمها من أجنّةٍ حملتْها أحقاباً تلو أحقاب؟

أم أمرٌ بأن تشهد على الإنسان فتنطق بما قدّم في حياته من عمل؟

وكلّها معانٍ تحتملها الألفاظ والصياغة الخاصّة لهذه الآية.

٦ – يَصدُرُ الناس:

لنا أن نتخيّل الآن عمليّة "صدور" الناس، وطبيعة هذا الصدور. فقد يكون صدوراً من القبور إلى سطح الأرض، وكيف تُراها تتمّ هذه العمليّة؟ وقد يكون صدوراً يتلو الانبعاث من القبور؛ حين يتوجّه الناس إلى حيث المحكمة الكبرى والنطق بالحكم الأعظم، وكيف تُراه يتمّ هذا التوجّه؟ وأين تُراها تتمّ هذه المحاكمة؟

ثمّ إنّ "الصدور" في اللغة هو العودة من الماء مع الارتواء أو التزوّد بما يلزم منه:

فماذا يحمل الموتى معهم من قبورهم؟

وهل كان مكثهم فيها ارتواءً وتزوّداً بشيءٍ ما؟ وما هذا الشيء؟

وهل كان ما يحملونه، بالأحرى، هو ما تزوّدوا به، لهم أو عليهم، من عملٍ في دنياهم قبل الموت؟

٧ – أشتاتاً:

هذه "الأشتات" تعبّر بنفسها عن اختلاف الأنواع والألوان والأشكال والأجناس والديانات والفِرق والدرجات التي يتوزّع بينها الناس، والاتّجاهات التي يتّجهون "مشتّتين" فيها يوم البعث ﴿ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾. إنّ المجال مفتوحٌ أمامنا بشكلٍ واسعٍ لنتخيّل ما وسِعنا من صورٍ وأشكالٍ لفصائلهم وجماعاتهم وفرقهم وهي تنبعث من القبور، ثمّ حين يساقون جميعاً، بهذه الكتل الهائلة، إلى ساحة المحكمة الفاصلة.

٨ – ليُرَوا أعمالَهم:

نحن من جديدٍ مع الفعل المبنيّ للمجهول، والبناء للمجهوليّة يعني فتح الطريق أمام خيالنا وتوقّده سعياً وراء اكتشاف هذا "المجهول". إنّ "رؤية الأعمال" هنا تتمّ بطريقةٍ غير محدّدةٍ لنا، ثمّ إنّها، كما رأينا، ليست الرؤية الحقيقيّة، وإنّما

هي المكافأة أو العقوبة، ولخيالنا أن يرسم الصور، مرّةً أخرى، لطبيعة هذه الرؤية، والأحكام الصادرة بكلٍّ من الموقوفين، وطريقة صدور هذه الأحكام، ثمّ طريقة تنفيذها.

وممّا قيل في شرح هذه الآية أنّهم يرون أعمالَهم رأي العين؛ فهي تُجسَّم لهم تماماً كما حدثت في الدنيا!

٩ - ١٠ - ذَرّة [مكرّر]:

من الواضح أن المقصود من هذا اللفظ هو (أصغر شيءٍ في الوجود) لأنّ الآية قصدت إلى التمثيل لأصغر عملٍ يعمله الإنسان في حياته. ومع ذلك ذهب المفسّرون في تفسيرها المادّي مذاهبَ شتّى:

فقالوا إنّ الذرّة هي أصغر النمل،

أو هي ما علق من التراب باليد إذا وضعتها عليه،

أو ما يُرى في شعاع الشمس من الهَباء،

أو دودةٌ حمراء لا وزن لها،

وفي الحديث الشريف "الذَرّة لا زِنَة لها".[1]

١١ - ١٢ - يَرَهْ [مكرّر]:

فضلاً عن المعاني الكثيرة المطروحة لهذا اللفظ، يظلّ المعنى النهائيّ الذي اقترحناه له مفتوحاً أيضاً لاحتمالاتٍ عدّة:

فهل ستكون "الرؤية"، في هذه الخطوة الأولى من إجراءات يوم القيامة والحساب، مجرّد "صدور حكمٍ" لصالح، أو لغير صالح، كلّ إنسان؟

---

(١) انظر:

- القرطبي، محمد بن أحمد. **تفسير القرطبي**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ط.)، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ج٢٠، ص١٥٠.

أم هي تنفيذ هذا الحكم مباشرةً من غير نطقٍ بهذا الحكم؟

أم هذا وذاك معاً؟

وكيف يتمّ النطق بالحكم؟

وكيف تتمّ خطوات تنفيذه؟

أم تُراها رؤيةً حقيقيّةً للأعمال، فيطّلع كلّ إنسانٍ على "كشف حسابه"، بطريقةٍ ما، أو ربّما -كما ذهب بعضهم- يرى أعماله تمثَّل أمامه كما وقعت فلا مجال أمامه للإنكار، وهذا قبل أن يساق إلى مصيره، مُكْرَماً أو مُهاناً؟!

ولقد قيل في معناه أيضاً: من يعمل مثقال ذرّةٍ من شرٍّ، مِن مؤمن، يرَ عقوبته في الدنيا، في نفسه وماله وولده وأهله، حتّى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شرّ، ومن يعمل مثقال ذرّةٍ من خيرٍ، مِن كافر، يرَ ثوابَه في الدنيا، في نفسه وماله وأهله وولده، حتّى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير.

وجاء في الحديث الشريف:

- بينا أبو بكرٍ يتغدّى [أي يتناول فطوره، وهو من الغداة، ولم يكن في عهده ﷺ وجبةٌ وسطى اسمها (الغداء)، وفي الجامع للسيوطي: كان ﷺ إذا تغدّى لم يتعشَّ، وإذا تعشّى لم يتغدَّ] مع رسول الله ﷺ إذ أُنزلت هذه الآية ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ فأمسك أبو بكرٍ [أي عن الطعام] وقال: يا رسولَ الله: أكلُّ ما عَمِلْنا من سوءٍ رأيناه؟! فقال: ما تَرَون [أي ما ترونه في هذه الدنيا] ممّا تكرهون فذاك ممّا تُجزَون، ويؤخَّر الخيرُ [أي ثوابه] لأهله في الآخرة[1].

(١) النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٨٠، حديث رقم: ٣٩٦٦.

خامساً: جوامع الكَلِم

١- إذا زُلزِلتِ الأرضُ زِلزالَها:

يمكن الاستشهاد بهذه الآية، أو بجزءٍ منها، عند حدوث كارثةٍ طبيعيّةٍ كبرى، أو وقوع حدثٍ سياسيٍّ أو عسكريٍّ أو اقتصاديٍّ أو اجتماعيٍّ ضخم، أو للتعبير عن ضيق القوم وتبرّمهم من شخصٍ دخل عليهم.

٢- وأخرجتِ الأرضُ أثقالَها:

قد تقال هذه الآية عند انكشاف شخصٍ على حقيقته، أو اكتشاف كنزٍ أو معدنٍ أو ثرواتٍ اقتصاديّةٍ كانت مختبئةً داخلَ الأرض.

٣- يومَئذٍ تحدّثُ أخبارَها:

هذه الآية قد تُستخدم في التهديد بعملٍ كبيرٍ، كأن تهدّد دولةٌ بلداً آخر بالحرب: (وعند ذلك ستختبرون قوّتنا وتعرفون أخبارنا) أو يهدّد متسابقٌ منافسه بيوم السباق (حين يظهر كلٌّ على حقيقته ويَعرف المتسابق الآخرُ خبره ويكتشف قوّته).

٤- يَصدُر الناسُ أشتاتاً:

قد تحزن لضلالة إنسان، أو تفاجأ بأخلاقِ زميل، فتفكّر في مدى تباعد أخلاق الناس، ومن ثمّ اختلاف مصائرهم في الآخرة، فتُعلّق بهذه الآية.

٥- فمن يعملْ مثقالَ ذرّةٍ خيراً يَرَهْ:

٦- ومن يعمَلْ مثقالَ ذرّةٍ شرّاً يَرَهْ:

كلتا الآيتين قد غدت سائرةً على ألسنتنا للتشجيع بالأولى على عمل الخير، مهما يكن صغيراً، وللتحذير بالثانية من عمل الشرّ مهما يكن تافهاً. قال ابن مسعود: "هذه أحكم آيةٍ في القرآن"، وكان ﷺ يسمّيها: "الآية الجامعة الفاذّة".[1]

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٢، ص٨٣٥، حديث رقم: ٢٢٤٢.

السورة الثامنة عشرة

البيّنة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨ ﴾

هذه هي السورة السادسة عشرة حسب الترتيب العكسيّ لسور القرآن الكريم، وهي تتكوّن من ٩٤ لفظاً سنتوقّف فيها عند ١١٣ موقعاً جديداً أضافه القرآن الكريم إلى معجمنا العربيّ بجانبيه: المحكيّ والمكتوب، لفظاً واصطلاحاً وصياغةً وعلاقةً لغويّةً وسبيكةً ولغةً منفتحةً وعباراتٍ سائرة.

وسيلاحظ القارئ أنّني أغفلت تماماً الحديث عن الصور البيانيّة في السورة، وليس ذلك لانعدام الصور فيها، وهي كثيرة، وإنّما لتحرّجي من تناول هذه الصور بالتحليل وهي صورٌ لأمورٍ غيبيّةٍ تدخل في جوهر العقيدة وتتأرجح بين الحقيقة والمجاز، فلا تكاد تدرك أين ينتهي فيها المجاز لتبدأ الحقيقة، ولا العكس.

ولا شكّ أنّ من أشقّ الأمور في العقيدة، وأخطرها على هذه العقيدة، أن تخوض في الغيبيّات "المنفتحة" على كلّ الاحتمالات، لتضع يدك قسراً على الحدود المتداخلة وغير المادّية لعناصر أبعد ما تكون عن إمكان تلمّسها بوسائلك الحسّية البشريّة المحدودة، من مثل "الصحف المطهّرة" و"الكتب القيّمة" و"مجيء البيّنة" و"إخلاص الدين لله" و دين "القيّمة" وجنّات "عدْن" و"جريان الأنهار تحت الجنّات" و"رضاهم عن الله".. من أجل ذلك كلّه فضّلت سلامة الخروج من معركة الحديث عن المجاز في السورة على الزجّ بنفسي في حقل ألغامٍ خطيرٍ كهذا.

وسنرى أنّ الشخصيّة اللغويّة لهذه السورة، التي تميّزها عن أيّة سورةٍ أخرى، تستند إلى كثرة الألفاظ الاصطلاحيّة الجديدة فيها والتي تصل إلى ١٢ لفظاً، كما تستند إلى عددٍ من الأدوات والألفاظ والتعابير الجديدة التي انفردت بها عن سائر السوَر، ومنها الأداة (لَمْ) التي جاءت بمعنى (لا) أو (لن)، واللفظان (منفكّين، وقيّمة) والتعبيرات (صُحفاً مطهّرة، تأتيهم البيّنة، دينُ القيّمة، كتبٌ قيّمة، شرُّ البريّة، خيرُ البريّة، خَشي ربَّه).

كما تختصّ السورة بالاستخدام الجديد والمتفرّد للتعبير النحوي (لم يكن.. منفكّين) وكذلك التوالي الغريب للأحوال المختلفة الثلاث (تجري.. خالدِين فيها.. رضي الله عنهم) كما سوف نرى.

أوّلاً: الألفاظ والمصطلحات

١– لم:

هذه من الأدوات العديدة التي يخرج القرآن الكريم في استعمالها على أعراف العربيّة، مثلها مثل (كان) التي رأينا كيف استعملها بمعنى (إنّ)، وكذلك (إنْ) التي استعملها القرآن بمعنى (ما النافية)، و (لمّا) التي استعملها بمعنى (إلاّ)، وقد اجتمع الاستعمالان الأخيران في قوله تعالى:

- ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزُخرُف: ٣٥]

فجاءت (إنْ) في الآية بمعنى (ما) وجاءت (لمّا) بمعنى (إلاّ)، أي: وما كلّ ذلك إلاّ متاع الحياة الدنيا.

وقد جاءت (لم) في السورة بمعنى (لا) أو (لن) أي: لن ينفكّوا؛ أي: هم سيستمرّون كذلك. ونُقل في سبب نزول الآية أنّ أهل الكتاب وعبدة الأصنام كانوا يقولون قبل مبعث النبيّ ﷺ: لا ننفكّ ممّا نحن عليه من دِيننا ولا نتركه حتّى يُبعثَ النبيّ الموعود الذي هو مكتوبٌ في التوراة والإنجيل، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولون، ثمّ قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني أنّهم كانوا يَعدّون مجيء الرسول إيذاناً باجتماع الكلمة والاتفاق على الحقّ، فلمّا جاء تفرّقوا عن الحقّ واستقرّوا في الكفر.

أرأيت كيف تغيّر استعمال الأداة بين كلام البشر حين قالوا (لا ننفكّ ممّا نحن عليه) وكلام الله تعالى: (لَمْ يَكُنِ .. مُنفَكِّينَ) فحلّت (لم) هنا محلّ (لا) هناك؟

ويختلف معنى (لم) في هذه السورة عن معناها في سورة (الإخلاص): ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فهي هناك أوسع زمناً وشمولاً؛ لأنّها بمعنى (لم ولا ولن) كلّها معاً؛ أي: إنّ الله لم ولا ولن يكون له كفواً أحدٌ. ولا شكّ أنّ الاستخدام القرآنيّ الخاص للفعل الناقص (يكون)، كما سبق أن رأينا خلال حديثنا عن المعاني الجديدة للأدوات القرآنيّة في الجزء الأوّل من هذه الدراسة، قد انعكس على معنى الأداة (لم) التي سبقت هذا الفعل في كلتا السورتين، فاكتسبتا بهذا التأثير معنييهما الجديدين.

٢- ٣- كفروا [مكرّر]:

عرفنا عند دراستنا لسورة (الكافرون) أنّ الفعل (كفر) قد اكتسب في القرآن معنىً جديداً لم يكن عليه في العصر الجاهليّ، إذ كان يعني آنذاك الجحود والنكران، وكذلك التغطية. لقد غدا الآن مصطلحاً يراد به كلّ من لم يؤمن بالله ورسالاته "فكَفَر" نِعمة التبليغ والهداية، أو "غُطِّيَ" قلبُه أو عقله عن معرفة الحقّ.

٤- ٥- ٦- الكتاب [مكرّر ٣ مرّات]:

لو استقْرَينا المرّات القليلة التي ورد فيها هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ لوجدناه هناك يحمل معنى (الرسالة) أو (الصحيفة)، وربّما (القَدَر) كذلك، كما نرى في هذه الأبيات:

هل عَرَفْتَ الديارَ عن أحقابِ ... دارساً آيُها كخطِّ الكتابِ

عمرو بن قُميئة (ت٨٥ ق.هـ)

ألا لا تفخَرَنْ أَسَدٌ علينا ... بيومٍ كان حَيْناً في الكتابِ

الخِرْنِق بنت بدر (ت٥٠ ق.هـ)

لِمَنْ دِمنةٌ أقْوَتْ بحَرَّة ضَرْغَدِ ... تَلوحُ كعنوانِ الكتابِ المجَدَّدِ

عَبيد بن الأبرص (ت٢٥ ق.هـ)

لِمَن طَللٌ مثلُ الكتابِ المنمَّقِ ... خَلا عهدُهُ بين الصُلَيْبِ فمُطْرِقِ

سَلامة بن جندل (ت٢٣ ق.هـ)

أأَجْرَمَ أم جَنَى أم لم تَخُطّوا ... له أَمْناً فيوجَدَ في الكتابِ

الطُفَيل الغُنَويّ (ت١٣ ق.هـ)

ومن الواضح أنّه جاء في معظم الأبيات بمعنى (رسالة) أو (صحيفة)، أمّا في بيت الخِرْنِق فهو بمعنى (القَدَر المكتوب). حتّى إن افترضنا معرفة الجاهليّين بالمعنى الذي نعرفه حاليّاً للكتاب، وهو مجموعة الأوراق أو الصحائف التي يضمّها غلافٌ واحد، فإنّ القرآن اصطلح بلفظ (الكتاب)، هنا وفي معظم مواضعه في القرآن، على أنّه الكتب السماويّة، وقد أُطلق في هذه السورة، وحيثما اقترن باللفظ (أهل)، أي (أهل الكتاب)، على التوراة والإنجيل دون غيرهما.

ولعلّ من المفيد أن نذكر هنا أن لفظ (الكتاب) لم يقتصر دائماً في القرآن على الكتب السماويّة، رغم أنّها نالت النصيب الأعظم من هذا اللفظ، بل اتخذ

فيه معاني عديدةً أخرى، منها المعنى الذي ورد في بيت الخِرْنِق، وهو القَدَر أو أيّ شيءٍ يُفرض على الإنسان، كقوله تعالى:

- ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: ١٤٥]

- ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣]

ومنها المعنى الذي ورد في بقيّة الأبيات التي استشهدنا بها، وهو الرسالة أو الصحيفة:

- ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ [النمل: ٢٨]

ومنها كذلك (عِلْم الله) أو (اللوح المحفوظ) حيث كُتِب كلُّ شيء من عِلمٍ أو قَدَر:

- ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢]

ومنها أيضاً (السجلّ) بغضّ النظر عن شكل هذا السجلّ أو حجمه أو طبيعته:

- ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣]

- ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف: ٤٩]

ومنها (العقد) أو (الاتّفاق المكتوب) الذي يكون بين السيّد والعبد:

- ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾ [النور: ٣٣]

ومنها أخيراً (الأحكام الإلهيّة) وهو المعنى الذي يحمله الجمع (كُتُبٌ) في هذه السورة، وكذلك في قوله تعالى:

- ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٢]

- ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٦]

٧- ٨- المشركين [مكرّر]:

بدهيٌّ أن يخلو الشعر الجاهليّ تماماً من هذا المصطلح القرآنيّ الجديد، وهو يتردّد كثيراً في كلٍّ من القرآن الكريم والحديث الشريف، ويُطلق عادةً على الوثنيّين من العرب من غير أهل الكتاب، ولهذا عُطف مرّتين في هذه السورة على (أهل الكتاب) للتفريق بينهما، ويتأكّد لنا هذا التفريق في قوله تعالى:

- ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۗ ﴾ [البقرة: ١٠٥]

٩- منفكّين:

ينفرد القرآن في كلّ تراثنا، شعراً ونثراً، باستعمال هذا اللفظ، وتنفرد هذه السورة به فلا يتكرّر في غيرها أبداً. والأغرب من ذلك ألاّ نعثر في القرآن على الفعل الناقص الذي اشتقّ منه في الأصل؛ أي (ما انفكّ)، في أيّة صيغةٍ من صيغه، رغم أنّ الجاهليّين كانوا يستخدمونه بكثرة وبمثل هذه الطرائق:

الناحرُ الكُومَ ما ينفكُّ يُطعِمُـها ... والواهـبُ المائـةَ الحمرا بِراعيْها

مُهلهِل بن ربيعة (ت٩٤ ق.هـ)

إذاً بَريتُكَ بَرْياً لا انجبـارَ لهُ ... إنّي رأيتُكَ لا تنفــكُّ تَبْريــني

ذو الإصبع العدوانيّ (ت٢١ ق.هـ)

الضامنون فما تنفكُّ خيلُـهمُ ... شُعْثَ النواصيْ عليها كلُّ مُشتهِرِ

زهير بن أبي سُلمى (ت١٣ ق.هـ)

١٠- ١١- البيّنة [مكرّر]:

رغم ورود هذا اللفظ ١٩ مرّةً في القرآن، فإنّه لم يُعرَّف إلاّ في هذه السورة، وفي المرّتين اللتين ورد فيهما. ولا وجود للّفظ في الشعر الجاهليّ.

١٢- رسولٌ:

وهو مصطلحٌ جديدٌ آخر من المصطلحات التي أوجدها القرآن في اللغة العربيّة، فالرسول الآن هو محمّدٌ ﷺ، وكذلك غيره من رسُل الله، أمّا اللفظ في العصر الجاهليّ فلم يكن يتجاوز معنى حامل النبأ أو البريد:

ألا أبلِغا عبدَ الضلالِ رسالةً   وقد يُبلغُ الأنباءَ عنكَ رسولُ

طَرَفة بن العبد (ت٦٠ ق.هـ)

بَلِّغ قبائلَ شتّى في محلِّهمُ   وقد يجيءُ رسولُ القومِ بالخَبَرِ

زهير بن أبي سُلمى (ت١٣ ق.هـ)

١٣- يتلو:

التلاوة غير القراءة، فلم يكن الرسول ﷺ قارئاً كما نعرف، بل كان يتلو عن ظهر قلبه ما أخذه عن جبريل عليه السلام.

وقالوا "إنّ التلاوة هي من (تلاه بالقرآن) أي (تبعه) فهي من (الاتّباع)، وسُمّي القارئ تالياً والقراءة تلاوةً؛ لأنّه يُتبِع بعضَ الكلام ببعض". وأنا أقول: بل هو مِن تتبّعِ الرسولِ ﷺ فيما كان يقرأه عليه (جبريل) فكان يتلوه، أي يتبعه، آيةً آيةً وكلمةً كلمةً وحرفاً حرفاً، ثمّ تلاه بالقراءة الصحابة الكرام، وتلاهم التابعون، ثمّ من تبعهم إلى هذا اليوم.

ومن المنتظر إذن ألاّ نعثر على هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ. والمرّة الوحيدة التي نصادفه فيها هي عند شاعرٍ لا نعرف عنه الكثير ولا عن تاريخ وفاته، وهو الحارث المِذحَجيّ، وأكاد لا أَشكُّ، بقليلٍ من النظر في لغة البيت، أنّ البيت منحولٌ إليه، وهو:

ونؤمنُ بالإنجيلِ والصُحُفِ التي   بها يهتدي مَن كان للوحيِ تاليا

كيف وقد جاءت قبل هذا البيت الأبياتُ الخمسة التالية ذات اللغة البسيطة واللّيّنة، والطابع الإسلاميّ الواضح، والتي تتضمّن ما لا يقلّ عن ١٤ لفظاً قرآنيّاً لم يعرفها الشعر الجاهليّ قبل نزول القرآن الكريم:

فلمّا أرادالله رُشْـدي وزُلْفتـي	أضاءَ سبيلَ الحقِّ لي وهَدانِيا
فألقيتُ عنّي الغَيَّ للرُشْدِ والهدى	ويمّمْتُ نُـوراً للحَنيفةِ باديا
وصِرتُ إلى عيسى بنِ مريمَ هاديـاً	رشيداً فسمّاني المسيحُ حَوارِيا
بَنِيَّ اتّقُوا اللهَ الذي هو ربُّكـمْ	بَراكـمْ له فيما بَـرا وبَرانِيا
فنعبدَهُ سبحانَـهُ دون غـيرِهِ	ونستدفعُ البلوى به والدواهيا

١٤- كتبٌ:

لقد ذهبوا عدّة مذاهب في تفسير هذه الصيغة الجمعيّة للفظ (الكتاب). وأنا أَميل إلى رأي من قال إنّه هنا بمعنى (الأحكام) أو التشريعات، أو ربّما النصوص أو السُّوَر، التي أنزلها الله على نبيّه ﷺ. ولكنّه على أيّة حالٍ لفظٌ جديدٌ بمعناه على اللغة العربيّة، مهما تعدّدت المذاهب في تفسيره، كما بيّنا في الحديث عن لفظ (الكتاب).

١٥- ١٦- قيّمة/ القيّمة:

لفظٌ آخر لا وجود له في الشعر الجاهليّ، وهو يتكرّر في هذه السورة مرّتين، ولا نجده بعد ذلك في أيّة سورةٍ أخرى. وعرف العرب في الجاهليّة مذكّر هذا اللفظ، ولكن بمعنىً مختلف وهو (المسؤول) أو (القائم على)، ومنه قول المرقِّش الأكبر (ت ٧٢ ق.هـ):

وقَدِّرْ تَرى شُمْطَ الرجالِ عِيالُها	لها قَيِّمٌ سَهْلُ الخليقةِ آنِسُ

ويخلو الحديث الشريف من هذا اللفظ، إلاّ أن يكون في صيغة التذكير أيضاً (قيّم) وبالمعنى الذي عرفه الشعر الجاهليّ.

١٧- أُوتُوا:

لم يستخدم الشعراء الجاهليّون هذا الفعل بالمعنى القرآنيّ الخاصّ (مُنِحوا) مطلقاً، وإنّما عرَفوا الفعل بمعنىً آخر هو (يُقصَد إليه) أو (يُلبّى أو يطاع). ويظهر المعنيان في هذين البيتين على التوالي:

مَثلاً يَضرِبه حُكّامُنا قولُهم: في بيتِه يُؤتَى الحَكَم

المثقَّب العبديّ (ت٣٦ ق.هـ)

وجدتُ أبي فيهمْ وجَدّي كليهما يُطاع ويؤتى أمرُه وهو محتبي

بَشامة المُرّيّ (ت١٤ ق.هـ)

١٨- ليَعبُدوا:

عرفنا عندما درسنا الفعل (نعبد) في سورة (الفاتحة) جِدّة استعمال هذا الفعل على العرب بمعناه القرآنيّ، وتبيّنّا الفرق بين العبادة بمعناها الجاهليّ والعبادة بالمعنى الإسلاميّ، وميّزنا بين العبادة (عبادة الله) والعبوديّة (استعباد السيّد لعبده).

١٩- مُخْلِصِين:

يقتصر استعمال جذر هذا اللفظ (أخلص) في الشعر الجاهليّ على معنى (صقل السيف وهذّبه) كما نتبيّن في البيتين التاليين في وصف السيوف:

إنّنا نَضرِبْ ببِيضٍ أُخلِصَتْ فلها مِن جَوهرِ العِتْقِ نِجارُ

الفَنْد الزمانيّ (ت٩٥ ق.هـ)

تَمَنّانيْ وأبيضَ مَشْرِفِياً أُشاحَ الصَدْرِ أُخْلِصَ بالصِقالِ

ذو الكَلْب الهُذَليّ (ت؟)

وما يزال اللفظ بعيداً عن استعمالاتنا اليوميّة، ولم أجده بهذا المعنى الجديد، وهو الإخلاص وصدق التوجّه، في غير القرآن، إلاّ أن يقع في سياقٍ أو اقتباسٍ قرآنيّ.

لقد جاء الإخلاص هنا، كما في معظم الاستعمالات القرآنيّة لهذا اللفظ، إخلاصاً لدِين الله وليس للهِ مباشرةً، فنحن نُخْلص الدِين لله؛ أي نجعل توجّهنا في عبادتنا وعقيدتنا خالصاً له وحده، وإذن فقد عَمِل عمَل فعلٍ متعدٍّ فأخذ مفعولاً به هو (الدين) على حين يكون في استعمالاتنا اليوميّة، وكذلك في الحديث الشريف، بمعنى (صادق) أو (نقيّ التوجّه)، فيعمل، إذا عمل، عمل الفعل اللازم فلا يحتاج إلى مفعولٍ به، ومنه قوله ﷺ:

- ما قال عبدٌ لا إله إلاّ الله قطّ، مُخْلِصاً، إلاّ فُتِحتْ له أبوابُ السماء حتّى تُفْضِيَ إلى العرش، ما اجتَنبَ الكبائر[1].

- من سألَ اللهَ الشهادةَ مُخلِصاً أعطاه الله أجْرَ شهيدٍ ولو ماتَ على فِراشِه ...[2]

ولا نجده في القرآن بهذا المعنى النبويّ؛ أي غير المتعدّي إلى مفعول، إلاّ في آيةٍ واحدةٍ هي قوله تعالى:

- ﴿ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَـكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٩]

٢٠- حُنَفاء:

اختلفوا كثيراً حول معنى هذا اللفظ، ولكنّه يبقى لفظاً قرآنيّاً جديداً بمعناه، أو جديداً لفظاً ومعنىً، على تعدّد المعاني التي اقترحوها له. ولم أجده إلاّ عند شاعرين جاهليّين: الأوّل مجهول الولادة والوفاة وهو الحارث المِذحجيّ، وقد شكّكت قبل قليلٍ في نسبة القصيدة إليه لوضوح إسلاميّتها، وفي تلك القصيدة نفسها نجد هذا البيت:

فألقيتُ عنّي الغَيَّ للرُشْدِ والهدى ويمّمْتُ نُـــوراً للحَنيفةِ بادِيـــا

والثاني هو الشاعر صخر الغيّ، وهو أيضاً ممّن لا نعرف تاريخ ولادتهم أو وفاتهم، ويُنسَب إليه هذا البيت الذي نجد الروح الإسلاميّة أيضاً واضحةً فيه:

---

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، ج٥، ص٥٧٥، حديث رقم ٣٥٩٠.

(٢) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٣٦، ص٤٢٥، حديث رقم ٢٢١١١.

كـأنّ تَواليَـــــهُ بالـمَــــلا   نَصــارى يُســاقَون لاقَــواحَنيفا

وأيّاً كانت حقيقة استعمال اللفظ، وبدء تاريخ استعماله، فإنّ القرآن قد منحه أبعاداً جديدةً لم يعرفها قبل الإسلام، حين أطلقه على كلّ الرسالات السماويّة التي تلت رسالة إبراهيم عليه السلام، ومنها رسالة الإسلام نفسه.

٢١- يُقيموا:

لا بدّ من التفريق بين "الإقامة"، وهي هنا المحافظة على فعل الشيء وأدائه، و"القيام" وهو النهوض، وقد ورد كلا المعنيين في القرآن، إلى جانب معانٍ أخرى غيرهما. ومعظم هذه المعاني كان غريباً على الشعر الجاهليّ؛ فاللفظ هنا يعني (المحافظة على الصلاة)، ولكنّه قد يعني الصلاة نفسها في آيةٍ أخرى:

- ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [التوبة: ١٠٨]

وقد يعني الثبات والاستمرار في مكانٍ آخر، كقوله تعالى:

- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم: ٢٥]

وقد يعني الوقوع أو الحدوث، كما في الآية:

- ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١]

أو قد يكون التوجيه والتسديد وإخلاص العمل، كالآية:

- ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم: ٣٠]

وقد يعني التطبيق والاتّباع، كما في قوله تعالى:

- ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]

أو يعني رفع البناء أو ترميمه في آيةٍ أخرى، كقوله تعالى:

- ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ [الكهف: ٧٧]

أمّا في الشعر الجاهليّ فلم أجد له إلاّ معنيين: الأول هو المُكث والبقاء، وهذا هو المعنى الشائع في لغتنا اليوم وقد استخدمه ذو الكلب الهُذَليّ (ت؟) في قوله:

أقَمْتُ بِرَيْدِها يوماً طويلاً ولم أُشْرِفْ بها مثلَ الخيالِ

والثاني لعنترة (ت٢٢ ق.هـ) وهو بمعنى الإحداث أو التأسيس، ويتردّد هذا المعنى في أكثر من بيتٍ عند الشاعر، ومنها قوله، إن صحّت لدينا نسبة الأبيات:

- سَلِيهِمْ يُخْبِروكِ بأنّ عَزمي أقامَ بربْعِ أعداكِ النواعي
- أقمتُ بصارمي سُوقَ المنايا ونِلْتُ بذابلي الرُتَبَ العَلِيّة
- أقمْنا بالذوابلِ سُوقَ حربٍ وصَيَّرْنا النفوسَ له مَتاعا

٢٢- الصلاة:

سبق أن تحدّثنا عن جدّة استعمال الفعل (صَلِّ) في سورة (الكوثر)، وهذا لفظ (الصلاة) وقد غدا الآن مصطلحاً قرآنيّاً يشير إلى الشعيرة الخاصّة التي يؤدّيها المسلمون خمس مرّاتٍ كلّ يوم.

٢٣- الزكاة:

وهو مصطلحٌ قرآنيٌّ آخر أُطلِق على أحد الأركان الخمسة للإسلام، وهو الركن الذي يقتضي من المسلم دفع نسبةٍ سنويّةٍ معيّنةٍ من ماله لأعمال البرّ والخير حتّى "يزكّي" ماله، أي: يطهّره وينقّيه من الدنس والحرام والاستئثار.

٢٤- ويُؤتُوا:

نرجع هنا إلى حديثنا قبل قليلٍ عن الفعل (أُوتوا) فكلا اللفظين قرآنيٌّ جديدٌ مشتقٌّ من الفعل (آتى) بمعنى (أعطى).

٢٥- جهنّم:

لا نجد هذا اللفظ إلاّ في بيتٍ واحدٍ يُنسب إلى الشاعر الجاهليّ نفسه الذي نُحلَ له من الشعر، كما أكّدنا دائماً، ما لم يُنحل لغيره، وهو عنترة. يقول البيت:

مـاءُ الحيـاةِ بذِلـّةٍ كجهنـّمٍ وجـهنّـمٌ بالعِـزِّ أطيبُ منـزلِ

وواضحٌ في البيت أثر مفهوم المصطلح الإسلاميّ لجهنّم، وهو مفهومٌ لم يكن معروفاً في الثقافة الجاهليّة، بل لم يتبلور في الثقافة الإسلاميّة إلاّ بعد أن تتالى نزول الآيات في الحديث عن الجحيم فتكرّر اللفظ فيها ٧٧ مرّة، عدا عن المرّات العديدة التي ورد فيها وصف جهنّم تحت أسماء أخرى.

٢٦- آمَنوا:

مصطلحٌ جديدٌ بمعنى (أسلموا) سبق أن وقفنا عنده في سورة (العصر).

٢٧- الصالحات:

سبق أن تحدّثنا في سورة (العصر) عن هذا اللفظ القرآنيّ الجديد وعن إطلاقه لأوّل مرّة، وبصيغة جمع المؤنّث هذه (صالحات وليس: صالحة)، لوصف أعمال الخير من غير الحاجة إلى أن يسبقه ذكر اللفظ (أعمال).

٢٨- جنّات:

كان معنى (الجنّة) في الجاهليّة يقتصر على جنّة الأرض؛ أي الحدائق والبساتين، وهو معنىً استخدمه القرآن أيضاً في آياتٍ أخرى، كقوله تعالى:

- ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ [البقرة: ٢٦٦]

- ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ [القلم: ١٧]

ولكنّ القرآن أعطى اللفظ معنىً جديداً لم يعرفه الجاهليّون، إنّه الآن جنّةٌ عَرضها السموات والأرض، وهي دار الخلد التي وعد الله بها عباده المتّقين.

٢٩- عَدْن:

وهو اسمٌ آخر للجنّة لم يعرفه الشعر الجاهليّ. واقترح المفسّرون له معاني عديدةً تأتي كلّها تحت أوصاف الجنّة.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

١- لم يكن الذين.. منفكّين:

اللفظ (منفكّين) مأخوذٌ من الفعل الناقص (ما انفكّ) أي (ما انقطع) أو (لم يتوقّف)، ولكنّ تحوُّل (ما) إلى (لم) في مطلع الآية، ثمّ مجيءَ اللفظ (يكُنْ) بعدها، اقتضى تحويله من فعلٍ إلى اسم، فخرجت الآية من كلّ ذلك بتركيبٍ نحويٍّ جديدٍ لم تعرفه العربيّة من قبل، ولا من بعد.

٢- ٣- أهل الكتابِ والمشركين [مكرّر]:

يتكرّر هذا التعبير القرآنيّ الجديد الذي يجمع بين ﴿ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ و﴿ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ مرّتين في السورة، ثمّ لا نجد هذا الارتباط بينهما في أيّة سورةٍ أخرى. والتعبير ﴿ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ مصطلحٌ جديد يطلقه القرآن على أتباع موسى والمسيح عليهما السلام فينسبهم إلى (الكتاب) المقدّس الذي لم تعرف الجزيرة العربيّة غيره كتاباً قبل نزول القرآن الكريم.

٤- منفكّين:

عرفنا في حديثنا عن ألفاظ السورة ومصطلحاتها أن اللفظ (منفكّين)، لا يتكرّر مرّةً أخرى خارج هذه السورة، لا هو ولا صيَغُه الفعليّة أو الاسميّة، ولكنّ هذا ليس كلَّ شيء.

فلم يحدث في العربيّة أبداً أن جُرِّد هذا الفعل، أو أيٌّ من صيَغه، من وظيفة إعماله عملَ الفعل الناقص، كما لم يحدث أن تحوّل من فعلٍ إلى اسمٍ وحافظ رغم ذلك على معناه الاصطلاحيّ (الانقطاع أو التوقّف عن فعل شيء) من مثل قولنا:

ما انفكّ ساهراً كلّ الليل، و:

ما ينفكّ يتساءل عن السبب.

وفي الأبيات التي استشهدنا بها سابقاً عن استعمال اللفظ عند الجاهليّين ما يغنينا عن الاستشهاد بغيرها. فمهلهِل بن ربيعة يقول: (ما ينفكُّ يُطعمُها) وذو الإصبع العدوانيّ يقول: (لا تنفكُّ تَبريني) وزهير يقول: (ما تنفكُّ خيلُهمُ شُعْثَ النواصي)، فيأخذ الفعل (انفكّ) عندهم باستمرار اسماً وخبراً، شأنه شأن أيّ فعلٍ ناقص.

أمّا في الآية فقد تجرّد من "فعليّته" وتحوّل إلى اسم فاعلٍ (أو صفةٍ مشبّهة) وهذا التحوّل يَحدث لأوّل مرّة، وكذلك لآخر مرّة، في لغتنا. ثمّ إنّه لم يعمل في الآية عمل فعله الناقص، فلم يأخذ اسماً ظاهراً أو خبراً، رغم أن مجيئه اسمَ فاعلٍ هنا لا يمنعه من أن يقوم بهذا العمل، تبعاً لقواعدنا النحويّة، وهذا أيضاً يحدث في لغتنا لأوّل مرّةٍ، ولآخر مرّة.

٥- تأتيَهمُ البيّنة:

كان تجاوُر هذين اللفظين جديداً على العربيّ الأوّل حين سمع الآية. والتعبير عن ظهور البرهان أو البيّنة باللفظ (تأتي) أمرٌ من المتوقّع أن يثير في ذهنه أكثر من تساؤل:

فكيف "تأتي" البيّنة؟

ومن أين تأتي؟

ومن يأتي بها؟

ومن السهل إدراك خصوصيّة هذا "التجاور" لو قارنّا بين السياق اللغويّ الذي احتوى اللفظ (بيّنة) في الآية؛ والسياق اللغويّ الذي يحتويه في الحديث الشريف عادةً؛ كما في النماذج النبويّة التالية:

- فقال لي رسولُ الله ﷺ: ألكَ بيّنة؟ قلتُ: لا..[1]
- البيّنةُ، وإلاّ حدٌّ في ظَهرِك[2]
- مَن قتل قتيلاً له عليه بيّنةٌ فله سَلَبُه[3]
- بَيِّنَتُكَ أو يمينُه[4]

ولا يتكرّر التركيب، بصيغته هذه، مرّةً أخرى في القرآن الكريم.

٦- رسولٌ من الله:

لا يتكرّر هذا التعبير مرّةً أخرى في القرآن الكريم، فهو خاصٌّ بهذه السورة وحدها، ونجد ما هو قريبٌ منه مثل: ﴿ رَسُولٌ مِّنْ عِنـدِ ٱللَّهِ ﴾ و ﴿ رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾، أو ما قد أصبح أكثر أُلفةً وسيراً على ألسنتنا: ﴿ ٱلرَّسُولُ ﴾ أو ﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾.

٧- صُحفاً مطهَّرة:

وهذا تعبيرٌ قرآنيٌّ آخر لا يتكرّر هو أيضاً في غير هذه السُورة، ولم يعرفه العربيّ قبل القرآن الكريم.

٨- كُتبٌ قيّمة:

تعبيرٌ آخر اقتصر استعماله على هذه السورة، ولم يعرفه العربيّ قبل نزول القرآن الكريم.

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٢، ص٨٥١، حديث رقم: ٢٢٨٥.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٩٤٩، حديث رقم: ٢٥٢٦.

(٣) المرجع السابق، ج٣، ص١١٤٤، حديث رقم: ٢٩٧٣.

(٤) المرجع السابق، ج٦، ص٢٤٥٨، حديث رقم: ٦٢٩٩.

٩- صُحفاً.. فيها كُتبٌ:

لا بدّ أنّ هذا التعبير قد استثار عقل العربيّ عندما سمعه لأوّل مرّة:

فكيف للكتب أن تكون "في" الصحف؟

وما طبيعة تلك الصحف التي تتضمّن في داخلها كتباً؟

وما تفسير هذه العلاقة الغريبة بين اللفظين؟

هذا بغضّ النظر عن معنى (كتب):

أهي التي نضعها على الأرفف اليوم؟

أم هي الكتب التي أطلقها العربيّ على رسائله؟

أو هي ما خطّته يده على العظام والجلود والحجارة والرمال؟

١٠- أُوتُوا الكتاب:

بدهيٌّ أن نحكم منذ الوهلة الأولى بجدّة هذا التعبير القرآنيّ، ما دام كلا لفظيه جديداً على العربيّ الأوّل: إمّا في معناه (الكتاب)، وإمّا في لفظه ومعناه (أُوتُوا) كما سبق أن عرفنا.

١١- مِن بَعدِ:

يقتضي منّا المقام التوقف هنيهةً عند هذا التركيب. فأنا لم أجده في الشعر الجاهليّ إلاّ مرّةً واحدة في بيتٍ يُنسب لشاعرٍ اسمه عمرو بن الأسود ولا نعرف عنه الكثير ونجهل تاريخ وفاته، وهو:

فنجوتُ من أرحامِهم مِن بعدِ ما   جاشت إليك النفسُ عندَ المَأزمِ

وبغضّ النظر عن وجود التركيب في الشعر الجاهليّ أو عدمه فإنّ زيادة (مِن) قبل (بعد) أمرٌ في غاية الندرة في لغتنا على مدى التاريخ وإلى الآن. إنّنا نقول:

زارني بعد أن زرتُه، و:

سمعت الخبر بعد أن نُشر في الصحف، و:

أشرقت الشمس بعد غيابٍ طويل.

والتركيب نادرٌ حتّى في الحديث الشريف؛ إذ لم أجده إلاّ مرّةً واحدةً في حديثٍ مشهورٍ جاء في رواية معظمهم (بعَد ما)[1] وجاء في رواية شُعبةَ وحده (مِن بعدِ ما)[2]:

- الحمد لله الذي أحيانا بعد ما/ مِن بَعدِ ما أماتَنا وإليه النشور

ثمّ إنّ من حقّنا أن نجعل منه تركيباً قرآنيّاً إذا أدركنا أنّ عدد مرّات استخدامه يقفز فجأةً من مرّةٍ واحدة في الشعر الجاهليّ، إذا صحّت نسبة البيت المذكور، إلى ١٣٥ مرّةً في القرآن الكريم! ولكنّ المفاجأة الحقيقيّة ما تزال تنتظرنا عند المنعطف:

إنّ في القرآن الكريم، كما نعلم، ١١٤ سورة، تتدرّج في ترتيبها من الأطول فالأقصر، مع عدم الالتزام دائماً بهذه القاعدة طبعاً. وتختلط في هذا الترتيب السوَرُ المكّيّة مع السوَر المدنيّة، ورغم أنّ معظم السور القصيرة، وهي تتركّز عادةً في الأجزاء الثلاثة الأخيرة من القرآن، هي سوَرٌ مكيّة، فهذا ليس قاعدةً أيضاً. فسورة (النصر) مثلاً، وهي مدنيّة، وكذلك سورتنا هذه (البيّنة)، وهي مدنيّةٌ أيضاً، نجدهما في الجزء الثلاثين، كما نجد سورة (الإنسان) وهي مدنيّة، في الجزء التاسع والعشرين.

ولكنّ المفاجأة هي أن التركيب القرآنيّ ﴿ مِنۢ بَعۡدِ ﴾ بأعداده الكبيرة (١٣٥ مرّة) يقتصر وجوده على النصف الأوّل من سوَر القرآن الكريم؛ أي إنّ استخدامه يبدأ من سورة (البقرة) ويمتدّ حتّى انتهاء سورة (الحديد) وهي السورة رقم (٥٧)

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٣٢٦، حديث رقم ٥٩٥٣.

(٢) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٤، ص٣٠٢، حديث رقم ١٨٧٠٨.

في القرآن، ثمّ يختفي في السور السبع والخمسين اللاحقة التي تشكّل النصف الأخير من سوَر القرآن الكريم، ولكن.. مع استثناءٍ واحد: سورة (البيّنة)..

في هذه السورة يظهر التركيب فجأةً، فيبدو منتصباً وحده في هذا السهل المنبسط الممتدّ لعشرات السوَر! فهل نستطيع أن نستنتج أمراً ما من هذا الوضع الحسابيّ الغريب؟

إنّ هذا التمايز الواضح بين الشخصيّتين اللغويّتين لنصفَي السوَر في القرآن الكريم دليلٌ آخر في وجه من ينفي حقيقة أنّ ترتيب سوَر القرآن توقيفيٌّ عن الله عزّ وجلّ، ويدّعي أنّ ترتيب السور هو ترتيبٌ وضعيٌّ من صنع الصحابة! وهل يتوقّع أحدنا أن يكون الصحابة قد أدركوا هذه الأرقام الإحصائيّة فقاموا بترتيب السوَر على أساسها؟ وهل أدركوا أيضاً سرّ استعمال الأداة (كان) وقد وردت في القرآن بمعنى (إنّ)، كما عرفنا في الجزء الأوّل، ما لا يقلّ عن ١٩٠ مرّةً؛ فأخّروا السوَر التي تتضمّنها فوضعوها في النصف الثاني من القرآن، بحيث خلت منها السوَر الستّ عشرة الكبار التي تشكّل النصف الأوّل من مجموع صفحات القرآن، مستثنين من ذلك سورة (النساء) وحدها، ثمّ لم يكتفوا بذلك، بل عمدوا إلى ترتيب السور في النصف الثاني، فجعلوا (كان) القرآنيّة العجيبة هذه تختفي لسبع سوَرٍ ثم تعود للظهور في سورةٍ واحدة، ثم تختفي لسبع سوَرٍ أخرى، ثمّ تعود للظهور في سورةٍ واحدة قبل أن تختفي من جديد لتظهر بعد ذلك في بعض السور القصيرة؟

إنّ الدراسات الحديثة ما تزال تقدّم لنا كلّ يومٍ المزيد من الأسرار والحقائق عن طبيعة النظام المحكم الذي قام عليه ترتيب سوَر القرآن الكريم.

١٢- جاءتهمُ البيّنة:

"مجيء" البيّنة هذا أمرٌ لن نتوقّع أن يكون تعبيراً مألوفاً لدى العربيّ الأوّل، مثله مثل التعبير الذي سبقه ﴿ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾، ولهذا لا نجده في الشعر الجاهليّ ولا في الحديث الشريف، ولا في أيّ مصدرٍ آخر من تراثنا.

١٣- إلاّ لِيَعبُدوا:

وهذا استخدامٌ آخر لأداة الجر (اللام) مختلفٌ عن استخدام العرب لها. فهي هنا ليست للتعليل، كما ذهب بعضهم؛ إذ ليس المعنى: لم يؤمروا إلاّ أن يعبدوا، فحلّت اللام بنفسها محل (أنْ) المصدريّة التي اعتدنا أن نقدّرها بعد اللام التعليلية. إننا نقول في لغتنا البشرية: أمرتك أن تختفي من وجهي، ولا نقول: أمرتك لتختفي من وجهي. وهكذا تأتي اللام هنا بمثابة حرفٍ مصدريٍّ بنفسها فتؤوَّل مع ما بعدها بمصدر، والتقدير: أُمروا بعبادة الله.

١٤- مُخْلِصين (له) الدين:

عرفنا في حديثنا عن ألفاظ السورة ومصطلحاتها كيف جاء اللفظ (مخلصين) في معنى مختلفٍ عن استعمالاتنا اليوميّة له، وكذلك عن استعمالات الشعراء الجاهليّين، والأهمّ من كلّ ذلك: عن الاستعمالات النبويّة له.

ولكنّه في هذا التعبير جاء متعدّياً، خلافاً لاستعمالاته القرآنيّة الأخرى التي أتى فيها لازماً لا يحتاج إلى مفعولٍ به. فقد تعدّى هنا إلى مفعولٍ به هو (الدِين) أي (أخلصنا له الدينَ). وإذن، فنحن في هذه السورة أمام استعمالٍ جديدٍ ومتفرّدٍ لهذا اللفظ يتجلّى في علاقاته المختلفة مع ما يجاوره من ألفاظ.

١٥- حُنفاءَ:

هذا اللفظ هو حالٌ ثانيةٌ تابعةٌ لصاحب الحال الأخرى التي سبقتها (مخلصين)، وهو ضمير الجماعة في الفعل (ليعبدوا). ويتوقّع أحدنا، بالملَكة الفطريّة التي شيّدتْها في نفوسنا تراكماتُ لغتنا البشريّة، أن تأتي الحال الثانية منسجمةً مع الإيقاع اللغويّ للحال الأولى، فما دامت الأولى قد أُلحِقَت بالتركيب ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فسوف نتوقّع، بتلقائيّتنا البشريّة الجاهزة، إلحاقَ تركيبٍ مُوازٍ بالحال الثانية أيضاً فتكون هكذا مثلاً:

مخلصين له الدّين حنفاءَ على هديه، أو:

مخلصين له الدّين حنفاء لشريعته، أو كما في الآية:

- ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ ﴾ [الحج: ٣١]

ولكنّ السبيكة تتوقف هذا التوقّف المفاجئ عند الحال من دون أن تفتح الباب لأيّة ملحقاتٍ كنّا نتوقّعها بعدها.

١٦- ويُقِيموا الصلاة:

من الواضح أنّ هذا التعبير عن المحافظة على أداء الصلاة جديدٌ كلّيّاً لم يعرفه اللسان العربيّ قبل القرآن، وقد أصبح من التعبيرات القرآنيّة الأكثر تداولاً.

١٧- ويُؤتُوا الزكاة:

تعبيرٌ آخر جديدٌ عن أداء فريضة الزكاة لم يعرفه العربيّ قبل نزول القرآن الكريم، وأصبح أيضاً، كرديفه أعلاه، من أكثر التعبيرات تردّداً في القرآن الكريم.

١٨- وذلك دينُ:

الإشارة إلى القريب باستخدام الاسم المخصّص للبعيد (ذلك)، والإشارة إلى المجموع الذي تتحدّث عنه الآية: عبادة الله وإخلاص الدين له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ باستخدام اسم الإشارة الخاصّ بالمفرد، أمرٌ كان لا بدّ أن يفاجىء العربيّ حين سمع الآية للمرّة الأولى. كان له مثلاً أن يتوقّع الآية، تبعاً لأعرافه اللغويّة، بهذا الشكل: "وهذه جميعا هي دين القيّمة" (هكذا باسم الإشارة القريب والمؤنّث معاً، فاسم الإشارة المؤنّث يشار به للمفرد والجمع معاً كما نعرف، فنقول: هذه شجرة، وهذه أشجار). وهي مفاجأةٌ ما تزال تحتفظ بفاعليّتها إلى اليوم لأنّها بعيدةٌ عن أعرافنا اللغويّة المستمرّة حتّى الآن.

١٩- دينُ القيّمة:

وهو تعبيرٌ جديدٌ آخر من التعبيرات القرآنيّة التي أسهمت في تكوين عنصر المفاجأة للعربيّ الأوّل. ومرّةً أخرى لا يتكرّر التعبير في غير هذه السورة، ولا وجود له في الحديث الشريف.

٢٠- إنّ الذين.. في نار:

هل يتوقّع أحدنا الآن أن يسمع مثل هذا الخبر:

"إنّ الناجحين بالشهادة الثانويّة في العام الدراسيّ القادم يحضّرون الدكتوراه الآن في جامعة أوكسفورد.."؟

طبعاً سنعلّق قائلين: ما معنى هذا؟ وكيف يدرسون الدكتوراه الآن وينالون الشهادة الثانويّة في العام القادم؟

ولكنّ للقرآن أسلوبه المختلف، فالزمن يتداخل فيه حتى يغدو الحاضر كالماضي، والمستقبل كالحاضر، فمن ارتكب في حقّ الله أمراً فكأنّما نال عقوبته وحسابه سلفاً قبل أن يصل إلى يوم الحساب الفعليّ، ومن يدري، فلعلّ هذه الدنيا كلّها أشبه بشريط (فيديو) مصوّرٍ وجاهزٍ في "اللوح المحفوظ"، ويعاد عرضه الآن بعد أن تمّ التمثيل الحقيقيّ والإخراج والتصوير في الماضي قبل أن تُخلق هذه الأرض؟ وهكذا تكون المكافآت والعقوبات معَدّةً سلفاً لأصحابها، وكأنّهم قد قاموا حقّاً بالأعمال التي استحقّوا عليها تلك المكافآت والعقوبات.

٢١- إنّ الذين كفروا:

تتردّد هذه الصيغة في القرآن الكريم ١٨ مرّةً، ولكنّها كانت مع ذلك جديدةً تماماً على أذن العربيّ حين سمعها لأوّل مرّة. ولا وجود لها في الحديث الشريف.

٢٢- إنّ الذين آمنوا:

تتردّد هذه العبارة ١٦ مرّةً في القرآن الكريم، وكانت مع ذلك جديدةً أيضاً على الأذن العربيّة الأولى. ولا وجود لها في الحديث الشريف.

٢٣- نارِ جهنّم:

لم يعرف العربيّ قبل القرآن هذا التعبير الذي يربط النار لأوّل مرّةٍ بمثل هذا المكان الغامض: جهنّم.

٢٤- خالدِين:

لو قال أحدنا: "إنّ الحضور في القاعة منتظرين" لسمع أحدَهم يصحّح له قائلاً: "منتظرون" وهو على حقٍّ؛ لأنّ من المفترض أنّ هذا اللفظ الأخير خبرٌ مرفوعٌ للأداة (إنّ). ولكنّ للقرآن مقاييسه وأعرافه اللغويّة والنحويّة المختلفة.

إنّ اللفظ (خالدين) في الآية ليس خبراً للأداة (إنّ) في مطلع الآية، وإنّما هو حالٌ عمل فيها ما هو مستكنٌّ في الخبر الحقيقيّ المقدّر مع شبه الجملة؛ أي: (موجودون في نار جهنّم) وتقدير الآية، في نظري البشريّ القاصر طبعاً، هو: "هم في نار جهنّم يعانون خالدين فيها" فالعامل في الحال (خالدين) هو الفعل المفهوم من الخبر، أي فعلٌ مقدَّرٌ، أي: (يعانون أو يُعذَّبون أو يُحرَقون خالدين فيها).

ونحن لسنا ملزمين، أوّلاً وأخيراً، بإيجاد حلٍّ نحويٍّ لظاهرة النصب الفريدة هذه في القرآن، والتي أفضنا في الحديث عنها أثناء شرح (فنّ الالتفات) في الجزء الأوّل، ويجب أن نعترف بأنّ هذه الظاهرة القرآنيّة المكثّفة ظلّت فوق قواعدنا البشريّة المتداولة حتّى الآن.

٢٥- خالدِين:

مرّةً أخرى نحن هنا مع حالةٍ مشابهةٍ لحالة ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾. فالمعنى المراد هو أنّهم سيكونون خالدين عندما يُزَجُّ بهم في نار جهنّم، لكنّه عبّر عن هذا المستقبل بصيغة الحاضر (خالدين) مُسقطاً منها أيّة أداةٍ قد تشير إلى المستقبل، كحرف السين مثلاً. وإلاّ لقال شيئاً من هذا القبيل:

في نار جهنّم سيخلدون فيها، أو:

في نار جهنّم التي يَخلدون فيها، أو:

في نار جهنّم وسيَخلدون فيها.

٢٦- خالدِين فيها:

إنّ تكرار أداة الجرّ (في) مرّتين: (فيـ - ـها) ثمّ (في - نار) أمرٌ يستوقفنا، كما استوقف العربيَّ الأوّل. لو كان الأمر لنا لكان علينا أن نقول: "إنّ الذين كفروا.. سيَخلدون في نار جهنّم" أو "هم في نار جهنّم خالدون" وانتهت المسألة. ولكن الآية تحمل أكثر من هذا المعنى البشريّ المبسّط. إنّ ذكر وجود هؤلاء ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ وحده يكفي لإثارة ذعرهم ورعبهم من هذا المصير، حتّى إن كان ذلك لدقيقةٍ أو ثانيةٍ واحدة يُعرضون فيها على النار، فكيف إذا عرفوا أنّهم، فضلاً عن ذلك الوجود أو العذاب بنارها، سيكونون فيها إلى الأبد؟! إنّ تكرار (في) يأتي لتدعيم الشخصيّة الزمنيّة التي ستستغرقها إقامتهم في النار، لتكون كأنّها جملةٌ جديدة كاملة الأركان.

إنّه أسلوبٌ قرآنيٌّ جديدٌ حقّاً على العربيّ، ولكنّ هذه الجدّة لم تأتِ عبثاً بل هَدفت إلى أن تحقّق معنىً أو تضيف إضافةً؛ ما كانت الجملة العاديّة لتستطيع تأديتها بأبعادها البشريّة المحدودة.

٢٧- خالدين فيها:

الغريب في هذا التعبير القرآنيّ الجديد على العرب أنّه يتكرّر في القرآن الكريم ٣٧ مرّةً (ومرّةً واحدةً أخرى بالتذكير: خالدين فيه)، ومع ذلك، ورغم أهمّيته في الفكر الإسلاميّ، وتشعّب الحالات التي يختصّ بها هذا الخلود، والتي تتوزّع عادةً بين الجنّة والنار، يخلو منه الحديث الشريف تماماً، إلاّ في مجال شرح هذا التعبير القرآني والتعليق عليه، ومن ذلك ما روي عن أبي سعيدٍ الخُدريّ ﵁:

- ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. [هود: ١٠٧] قال: هذه الآية قاضيةٌ على القرآن كلّه؛ أي: تحكم وتهيمن عليه. يقول: حيث كان في القرآن ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ تأتي عليه [أي ينطبق الاستثناء في هذه الآية عليه].[١]

---

(١) البيهقي، أحمد بن الحسين. **الأسماء والصفات**، تحقيق: عبد الله الحاشدي، جدة: مكتبة السوادي، ط١، ١٤١٣هـ، ج١، ص٤١٥، حديث رقم ٣٣٦.

٢٨- أولئك:

نحن ما نزال ضمن الآية (٦) والمعنى ما يزال مستمرّاً في التوسّع، وإذن تخيّلوا أنّكم أنتم الذين تصفون حال هؤلاء البائسين، فماذا تقولون عندما تصلون إلى هذه المرحلة من الحديث؟ ستقولون شيئاً من هذا القبيل:

إنّهم سيخلدون في نار جهنّم.. وهُم، أو:

وهؤلاء هُم، أو:

وإنّهم.. شرُّ البريّة

أترون كيف كان علينا الاستعانة في كلّ خياراتنا بحرف العطف (الواو) لربط نهاية الآية بمقدّمتها، على حين خلت الآية من هذا الرابط؟ إنّه الأسلوب القرآنيّ الذي سبقت لنا أمثلةٌ كثيرة منه.

٢٩- ٣٠- أولئكَ هم [مكرّر]:

رغم أنّ هذا التعبير يتكرّر في القرآن ٦٠ مرّةً، ويكون فيه اسم الإشارة (أولئك) دائماً مبتدأً فلا يسبقه ما يحوّله عن هذا الموقع النحويّ، فإنّنا لا نعثر على مثله في الشعر الجاهليّ أبداً، ولا نجده كذلك في الحديث الشريف، وإنّما يأتي فيه اسمُ الإشارة تابعاً لما قبله، كما هو في لغتنا أيضاً، كمجيئه اسماً للأداة (إنّ) في قول الرسول ﷺ:

- لا تكونَنَّ فتّاناً ولا مُختالاً ولا تاجراً، إلاّ تاجراً بالخير، فإنّ أولئك هم المسبوقون بالعمل[1]

٣١ - شرّ البرَيّة:

تعبيرٌ قرآنيٌّ آخر لا نجد له ولا لصنوه ﴿ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ أثراً في الشعر الجاهليّ. وربّما وجدناه في مجموعات الحديث الشريف ولكنّه يأتي غالباً على غير لسان الرسول ﷺ، كما في الرواية:

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢، ص٨٧، حديث رقم ٦٥٧.

- قال رجلٌ لرسول الله ﷺ يا خيرَ البرِيّة، فقال: ذلك إبراهيمُ خليلُ الرحمن[1]

ولا يتكرّر أيٌّ من التعبيرين في أيّ موضعٍ آخر من القرآن الكريم.

٣٢ - وعملوا الصالحات:

وهو تعبيرٌ قرآنيٌّ جديدٌ سبق أن تحدّثنا عنه في دراستنا لسورة (العصر).

٣٣ - أولئك:

لقد خالف اسمُ الإشارة هذا كلّ توقّعاتنا؛ إذ لم نعتدْ في لغتنا أن يبدأ خبر (إنّ) باسم إشارةٍ هو أيضاً مبتدأٌ في جملة الخبر. إنّنا لا نقول مثلاً:

إنّ الناجحَ في مشروعاته هذا يربح، ولا:

إنّ المجتهدَين اللذين تراهما أمامك هذان متفوّقان؟ ولا:

إنّ السحابتين المقبلتين باتّجاهنا هاتان ممطرتان؟

٣٤ - خيرُ البريّة:

ينطبق على هذا التعبير ما ذكرناه عن صنوه ﴿ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾.

٣٥ - جزاؤهم عند ربّهم:

نحن هنا من جديدٍ مع تعبيرٍ لا يربطه بما قبله أيّ رابطٍ لغويّ، وفي لغتنا البشريّة نتوقّع أن يقال هنا: وجزاؤهم، أو: وسيكون جزاؤهم.

٣٦ - جنّاتُ عَدْنٍ:

يتكرّر هذا التعبير في القرآن ١١ مرّة، وحيثما وُجد اللفظ (عَدْن) يسبقه دائماً اللفظ (جنّات) هكذا بالجمع، أمّا في الحديث الشريف فلا يكون هذا اللفظ إلاّ مفرداً (جنةَ عَدْنٍ) كما في قوله ﷺ:

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٣٩، حديث رقم ٢٣٦٩.

- قال لي: هذه جنّةُ عَدْنٍ وهذاكَ منزلُك.[1]
- وما بين القومِ وبين أن يَنظروا إلى ربِّهم إلاّ رداءُ الكِبْرِ على وجهِه في جنّةِ عَدْن.[2]

ولا وجود لهذا التعبير في الشعر الجاهليّ.

٣٧ – خالدِين فيها أبداً:

هذا أيضاً تعبيرٌ جديدٌ يتكرّر في القرآن ١٠ مرّاتٍ بحيث استقرّت هويّته القرآنيّة في أذهاننا.

٣٨ – رضي الله عنهم:

في لغتنا البشريّة تتقدّم مثلَ هذه الجملة الحاليّة عادةً أداةٌ لا بدّ منها عندنا وهي (قد)، هكذا مفردةً أو مقرونةً بواو الحال (وقد)، فنقول هنا: "خالدين فيها وقد رضي الله عنهم"، هذا شأن الجملة الحاليّة في العربيّة عندما تبدأ بفعلٍ ماضٍ، كالفعل (رضي) هنا، ولكنّ لغة القرآن لها دائماً أعرافها المختلفة وخصوصيّتها.

٣٩– رضي الله عنهم:

لا وجود لهذا التعبير طبعاً في الشعر الجاهليّ، ويتكرّر في القرآن ٤ مرّات مقترناً فيها جميعاً بجزئه الثاني ﴿ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾. وقد انتشر التعبير بعد ذلك بقوّةٍ في تراثنا المكتوب وعلى ألسنة الناس على السواء، وفي صيغه المختلفة، مفرداً ومثنّىً وجمعاً.

٤٠– ٤١– رضي عنهم/ ورضُوا عنه:

فوجئت حقّاً حين اكتشفت أن التعبير (رضي عن) تعبيرٌ قرآنيٌّ لم يعرفه العرب في الجاهليّة، بل إنّه ظلّ بعيداً عن معجمهم اليوميّ، إلاّ في السياق القرآني، حتى أواسط

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص١٧١٧، حديث رقم ٤٣٩٧.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص١٨٤٨، حديث رقم ٤٥٩٧.

الحقبة الأمويّة، فنجده أوّل ما نجده عند شاعرين توفّيا في الربع الأخير من القرن الهجريّ الأوّل وهما الحارث المخزوميّ (ت٨٠هـ) وعمر بن أبي ربيعة (ت٩٣هـ).

أمّا كيف استخدم الجاهليّون الفعل (رضي) فقد اقتصروا على تعديته بالباء (رضي بـ) أو تعديته بنفسه دون وسيط (رضي الشيء) ولم يقولوا أبداً (رضي عن)، كما نتبيّن من قولهم:

وقد طوّفتُ في الآفـــاقِ حتّى ... رضِيتُ مــن الغنيمـةِ بالإيابِ

امرؤ القيس (ت٨٠ ق.هـ)

لو كان قلبي معي ما اخترتُ غيرَكمُ ... ولا رَضِيتُ سواكمْ في الهوى بَدَلا[1]

رضِيتُ بحُبِّها طَوْعـاً وكَرْهـــاً ... فهـــل أَحظَـى بها قبلَ الحِمـامِ

عنترة (ت٢٢ ق.هـ)

أمّا في القرآن الكريم فهو إمّا أن يتعدّى بالباء وإمّا أن يتعدّى بـ (عن)، وربّما تعدّى إلى مفعوله بنفسه من غير وساطتهما، أو ربّما لم يتعدَّ مطلقاً، كما في هذه النماذج القرآنيّة:

- ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [التوبة: ٨٣]
- ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ [النمل: ١٩]
- ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]
- ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضُحى: ٥]

ومن الغريب أن يظلّ الحديث الشريف نائياً بشكلٍ كاملٍ عن هذا الاستخدام القرآنيّ الجديد للفعل، رغم تكراره في القرآن الكريم ١٣ مرّةً، فلا يخالف الحديث كثيراً لغة الشعر الجاهليّ؛ إذ يتعدّى الفعل فيه بالباء، أو بنفسه، أو لا يتعدّى أبداً، كما في الأحاديث:

(١) مع الشكِّ الكبير في نسبة البيت الأوّل له، لما في لغته من ليْنٍ ورقّةٍ لا تنسجم مع شخصيّة عنترة ولا لغته ولا مع لغة الشعر الجاهلي.

- .. رضِيْتُ باللهِ رَبّاً وبمحمّدٍ رسولاً وبالإسلامِ دِيناً[1]

- .. أنّ أعرابيّاً وهبَ للنبيّ ﷺ هِبةً فأثابهُ عليها، قال: رضِيتَ؟ قال: لا، قال: فزاده، قال: رضِيْتَ؟ قال: لا، قال: فزادَه، قال: رضِيتَ؟ قال: نعم.[2]

- .. فقيل لي: أرضِيتَ؟ فقلت: رضِيتُ ياربّ، رضِيتُ يا ربّ[3]

فإن عثرنا على هذا الاستخدام الجديد في الحديث الشريف ففي سياقٍ قرآنيٍّ واضح، كقوله ﷺ:

- .. فقُتلوا فقالوا: اللهمّ بلّغ نبيّنا ﷺ عنّا أنّا قد لقِيْناكَ فرضِينا عنكَ ورضِيتَ عنّا[4]

٤٢- ورَضُوا عنه:

بدهيٌّ ألاّ نستغرب رِضا الخالق على المخلوق، ولكن من حقّنا أن نتساءل، كما لا بدّ أن يكون قد تساءل العربيّ الأوّل: وكيف يصحّ للمخلوق أن يرضى "عن" الخالق؟ وهو سؤالٌ يستثيره فينا هذا التعبير القرآنيّ الغريب والمميَّز. وقد ذهب المفسّرون في تأويل رضا العبد على خالقه بأنّه شعوره الرائع عندما يظفر عنده بما لا عينٌ رأت ولا أذُنٌ سمعت، أو قالوا: إنّ رضاه هو ألاّ يكره ما يجري به قضاء الله، وقالوا غير ذلك.

٤٣- تَجري.. خالدين فيها.. رضي الله عنهم:

هذه حالةٌ فريدةٌ من توالي الأحوال لا أعرف ما يشبهها في تراثنا المكتوب.

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص٢٩٠، حديث رقم ٣٨٦.

(٢) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٤، ص٤٢٤، حديث رقم ٢٦٨٧.

(٣) المرجع السابق، ج٦، ص٣٥٣، حديث رقم ٣٨٠٦.

(٤) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٧، ص٦٥، حديث رقم ٣٩٥٢.

لقد جاءت هذه الأحوالُ الثلاث لتفصّل حال جملةٍ اسميّةٍ واحدةٍ هي ﴿ جَزَآؤُهُمْ .. جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾. ومع أنّها جميعاً تبعت جملةً واحدةً؛ فقد جاءت كلّ حالٍ منها في شكلٍ لغويٍّ مختلفٍ، ولزمنٍ مختلف، وعاد كلٌّ منها إلى صاحبٍ مختلفٍ:

فقوله: ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ حالٌ جاءت في شكل جملةٍ فعليّةٍ للزمن المستقبل (تجري) وصاحبها هو ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ –اللفظ (جنّات) معرفةٌ طبعاً لإضافته إلى (عدْن) وهي معرفةٌ فصحّ أن تكون الجملة التي تصفه حالاً له–.

وقوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ حالٌ جاءت في شكل اسم (صفةٍ مشبَّهة) يدلّ على الزمن الحاضر (الآن)، أمّا صاحبها فهو الضمير (هم) في (جزاؤهم) والعائد على لفظ (المؤمنون) الذين ذُكروا في الآية السابقة.

وقوله: ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ حالٌ جاءت في شكل جملةٍ فعليّةٍ للزمن الماضي (رضي) وقد حذفت الأداة (قد) قبل الفعل –كما عرفنا– وصاحبها هو الضمير نفسه العائد على (المؤمنون) أيضاً، أي (حالُهم مرضيٌّ عنهم)، ولكن يمكن أن يكون صاحبها هو الله سبحانه وتعالى أيضاً (أي: أدخلَهم الجنّةَ وهو راضٍ عنهم) كما كانوا هم أيضاً (راضين عنه).

٤٤– ذلك:

ينطبق على اسم الإشارة هذا ما انطبق على رديفه السابق في قوله تعالى ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾. إنها إشارةٌ باسم، اختصّ عادةً بالبعيد والمفرد، إلى ما هو قريبٌ، فقد ذُكر لتوّه، وإلى ما هو مجموعٌ: جنّات عدْن، والخلود فيها، ورضا الله عنهم، ورضاهم عنه.

٤٥– ذلك:

هنا أيضاً يتكرّر الأسلوب القرآنيّ في الاستغناء عن الرابط بين الجملتين رغم تتاليهما في آيةٍ واحدة، ولو كانت لغتَنا لقلنا: "وذلك (أو: وهذا) لمن خشي ربّه".

٤٦- خَشيَ ربَّه:

لم يعرف الجاهليّ طبعاً هذا التعبير القرآنيّ الخاصّ، وهو لا يتكرّر في القرآن في غير هذه الآية، رغم أنّ الفعل (خشي) يتكرّر فيه مع مشتقّاته ٤٨ مرّة.

ولا وجود لهذا التعبير في الحديث الشريف.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- لم يكنِ الذين كفروا.. منفكّين:

تحمل هذه السبيكة مقوّمات قرآنيّتها بشكلٍ خاصّ من خلال الوضع النحويّ الخاصّ والجديد للأداة (لم) التي تعني هنا (لن) كما سبق أن أوضحنا، وكذلك الطبيعة الجديدة لاسم الفاعل (منفكّين) بعد أن تجرّد من وظيفته التقليديّة التي كان عليها في لغتنا بعمله عمل الأفعال الناقصة (ما انفكّ)، فضلاً عن النظام الفريد الذي اتّخذته ألفاظ السبيكة، نتيجةً لهذا الوضع النحويّ الخاصّ، والعلاقات اللغويّة الجديدة التي نشأت فيما بينها.

٢- وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلاّ مِن بَعدِ ما:

أقرب السبائك القرآنيّة إلى هذه السبيكة؛ إذ لا أجد سبيكةً أخرى مطابقةً لها تماماً في القرآن، هي هذه الآية:

- ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ ﴾ [الشورى: ١٤]

السبيكة الأخيرة تخلو من التركيب القرآنيّ الهامّ ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾، ولكنّ السبيكتين كلتيهما لهما تفرّدهما بهذا الفعل الماضي المنفيّ الذي ابتدأتا به، وكذلك بهذا التركيب القرآني الجديد الذي اختُتمتا به ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا ﴾.

٣- وما أُمِروا إلاّ ليَعبُدوا الله:

هذه السبيكة تستمدّ خصوصيّتها من افتتاحها بصيغة المبنيّ للمجهول القرآنيّة الشائعة، مسبوقةً بالنفي، واختتامها بجملةٍ مرتبطةٍ باللام القرآنيّة المصدريّة التي تعني (أنْ) – كما رأينا – (لِيَعبُدوا)، والمسبوقة بأداة الاستثناء (إلاّ).

٤- مخلصين له الدينَ حُنَفاء:

عدا عن التركيب النحويّ الخاص الذي بُنيت عليه هذه السبيكة، ولا سيّما وضعُ الحال الأولى (مخلصِين) وعملُها عمل الفعل في اللفظ (الدين) الذي أصبح مفعولاً لها، وكذلك وضع الحال الثانية (حنفاء) التي تجرّدت من أيّة ملحقات – كما عرفنا – فإنّ ما ذكرناه سابقاً من خصوصيّة اللفظين (مخلصِين، وحنفاء) يضيف إلى خصوصيّها القرآنيّة بعداً أفقيّاً آخر.

٥- ويقيموا الصلاةَ ويُؤتوا الزكاة:

أقرب السبائك القرآنيّة إلى هذه السبيكة قوله تعالى:

- ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [التوبة: ٧١]

الفارق بين السبيكتين بسيطٌ جدّاً، ولكن تبقى لسبيكتنا، بشكلها المستقلّ عن أيّة سبيكةٍ قرآنيّةٍ أو بشريّةٍ أخرى، خصوصيّةُ اجتماعِ هذه الألفاظ القرآنيّة الأربع متجاورةً فيها، وهي كثيراً ما تتجاور في القرآن ولكنَ في صياغاتٍ مختلفة.

٦- وذلك دِينُ القيّمة:

تستمدّ هذه السبيكة خصوصيّتها من الاستعمال الخاصّ لاسم الإشارة (ذلك) –كما رأينا– ومن مجيء خبرِه بعده مباشرةً من غير أن يسبقه الضمير المنفصل (هو) الذي اعتادت لغتنا البشريّة إضافته في سياقٍ كهذا فنقول (ذلك هو دين القيّمة)، وأخيراً مجيء اللفظ الخاصّ والمؤنّث الذي أضيف إليه الخبر وهو (القيّمة).

ومن الواضح أنّ السبيكة القرآنيّة كانت ستصبح على لساننا البشريّ شيئاً من هذا القبيل (تلك هي حقيقة الدين القيّم عليكم).

٧- في نارِ جهنّم خالدِين فيها:

رغم كثرة السبائك التي توشك أن تطابق هذه السبيكة في القرآن؛ تظلّ لها خصوصيّتها في بنائها النحويّ. وأقرب السبائك القرآنيّة إليها قوله تعالى:

- ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ [التوبة: ٦٨]

- ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجنّ: ٢٣]

- ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ [الزُمَر: ٧٢]

٨- ٩- أولئك هم شرُّ البريّة/ أولئك هم خير البريّة:

هاتان السبيكتان، ببنائهما النحويّ الخاصّ، تقتصران على هذه السورة فلا تتكرّران في أيّ موضعٍ آخر من القرآن. وممّا يمنحهما خصوصيّةً إضافيّةً تلك التعبيرات القرآنيّة الجديدة المميّزة التي تتكوّنان منها ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ ﴾ و ﴿ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ و ﴿ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾.

١٠- الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

تتكرّر هذه السبيكة، وبشكلٍ حرفيٍّ، في ٤٧ آيةً من القرآن، وتستمدّ خصوصيَّتها من اجتماع خصوصيّة التركيبين ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ و ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، فضلاً عن البناء النحويّ العامّ للسبيكة.

١١- جزاؤهم عند ربّهم جنّاتُ عَدنٍ:

لا تتكرّر هذه السبيكة في أيّ موضعٍ آخر من القرآن، وتأتي خصوصيّتها من عدّة عناصر أسهمت جميعاً في تفرّدها:

أ- توجُّه معناها إلى المستقبل (سيكون جزاؤهم) رغم أنّها جاءت نحويّاً في صيغة الحاضر،

ب- الحال المحذوفة قبل الظرف (عند) والتقدير: "جزاؤهم، كائناً عند ربّهم، جنّاتُ عدْن"،

ت- وأخيراً التركيب القرآنيّ المميّز ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾.

١٢- جنّاتُ عَدنِ تجري مِن تحتِها الأنهار:

تتكرّر هذه السبيكة، وبألفاظها نفسها، مرّةً واحدةً أخرى في سورة (طه)، ولكن تقترب منها كثيراً سبائك قرآنيّةٌ شتّى، من مثل قوله تعالى:

- ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ [الكهف: ٣١]

- ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ﴾ [النحل: ٣١]

وعدا عن بنائها النحويّ الخاصّ والمميَّز تكتسب السبيكة قرآنيّتها بشكلٍ خاصٍّ من الطبيعة النحويّة للحال في الفعل (تجري)؛ إذ تكون الحال في لغتنا شيئاً من هذا القبيل:

جزاؤهم جنّات عدنٍ وفيها الأنهار تجري من تحتها، أو:

والأنهار تجري من تحتها

١٣- رضي الله عنهم ورضُوا عنه:

هذه سبيكةٌ أخرى تستمدّ تفرّدها من وضع الحال في الفعل (رضي) خاصّةً، فلغتنا البشريّة تقول في مثل هذا المقام:

وقد رضي الله، أو:

واللهُ راضٍ عنهم

وتستند السبيكة في تفرّدها أيضاً إلى الاستعمال القرآنيّ الخاصّ للفعل (رضي) -كما رأينا- في كلٍّ من الجزء الأوّل والجزء الثاني من السبيكة.

١٤- ذلك لمن خشيَ ربَّه:

تقوم خصوصيّة هذه السبيكة على بنائها النحويّ الخاصّ، وعلى الاستخدام المميّز للّفظ (ذلك)، وكذلك على تفرّد التعبير ﴿ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ أيضاً، كما سبق أن أوضحنا.

رابعاً: اللغة المنفتحة

١- منفكّين:

تعدّدت معاني هذا اللفظ عند المفسّرين نتيجةً لتخلّيه في الاستخدام القرآنيّ عن وظيفته النحويّة التقليديّة، ومن ثمّ انفتاحه على احتمالاتٍ متعدّدة:

فذهبوا إلى أنّ معناه هنا هو التوقّف والكفّ عن الأمر، وقيل: هو الانتهاء وبلوغ الغاية، وقيل: هو المبارحة والانتقال، وقيل: بل هو الزوال، وقيل: بل الموت والهلاك، وقيل غير ذلك.

٢- لم يكن الذين كفروا ... منفكّين:

إنّ المعنى القرآنيّ الجديد الذي اكتسبه كلٌّ من الأداة (لم) واللفظ (منفكّين) في هذه الصياغة، ثمّ تَحَرُّرَ هذا اللفظ الأخير من الارتباط بأيّ أداةٍ أو لفظٍ بعده؛ إذ لم تذكر الآية طبيعة هذا الانفكاك، وعمّ ينفكّون، أعطيا هذه السبيكة قوّةً طيفيّةً تفتح أبوابها على أكثر من معنىً. وهكذا ذهب المفسّرون في تفسيرها مذاهب شتّى:

فقالوا: لم يكونوا مفارقين لكفرهم ولا منتهين عنه،

وقالوا: لم يكونوا ليبلغوا نهاية أعمارهم فيموتوا حتّى تأتيهم البيّنة،

وقالوا: لم يكونوا تاركين صفة محمّدٍ ﷺ حتّى بُعِث، فلمّا بُعث حسدوه وجحدوه،

وقالوا: لم يكونوا معَذَّبين ولا هالكين إلاّ بعد قيام الحجّة عليهم،

وقالوا: إنّهم لم يكونوا منتهين عن شركهم حتّى أتاهم محمّد ﷺ،

وقالوا: إنّها حكايةٌ لما كان يقوله أهلُ الكتاب والمشركون من أنّهم لا يفارقون دينهم حتّى يُبعث النبيّ الموعود، فلمّا بُعث تفرّقوا، كما حكاه الله عنهم بعد ذلك،

وقالوا: لم يكونوا تاركين لصفة محمّدٍ ﷺ في كتابهم من أنّه نبيٌّ؛ حتّى ظهر، فلمّا ظهر تفرّقوا واختلفوا،

وقالوا أخيراً: إنّ هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً.

٣- البيّنة:

وتِبعاً لهذا الاختلاف يتأرجح معنى (البيّنة) بين معانٍ عدّة:

فهي القرآن عند بعضهم،

وهي الرسول ﷺ عند آخرين، كما تُبيّن الآية بعدها،

وهي البيان الذي في كتبهم من أنّه نبيٌّ مرسلٌ عند غيرهم.

٤- صُحفاً مطهَّرة:

اختُلف حول حقيقة هذه الصحف نتيجةً للسياق غير العاديّ الذي جاءت فيه، ولا سيّما الحديث عن وجود "كتبٍ قيّمةٍ" في هذه الصحف، كما تنصّ الآية التي بعدها. وهكذا قالوا:

إنّ الصحف هي القرآن،

وقالوا: إنّها التي عند الله في أمّ الكتاب،

وقيل: هي الكتب،

وقيل: هي اللوح المحفوظ.

٥- كتبٌ قيّمة:

ولأنّهم ذهبوا في (الصحف) مذاهب شتّى كان بدهيّاً أن يفعلوا ذلك مع (الكتب القيّمة) التي تحتويها هذه الصحف:

فهي القرآن حيناً، وقد جعله كتباً لأنّه يشتمل على أنواعٍ من البيان،

أو هي الكتب السماويّة كلّها،

أو هي المكتوبات علينا من فرائض وأقدارٍ ومصائر،

أو هي سور القرآن وآياته فكلّ سورةٍ منه كتابٌ قويم،

أو هي الأحكام والشرائع التي تضمّنها القرآن وبها يتبيّن الحقّ من الباطل،

أو هي غير ذلك.

٦- وما تفرَّق الذين أوتوا الكتابَ:

لقد تبيّن لنا كيف اختلف المفسّرون في معاني "تفرّق" نتيجةً لاختلافهم في تأويل الآية الأولى من هذه السورة، فانعكس اختلافهم على هذه الآية، ومنحها أبعاداً معنويّةً جديدةً متباينة.

٧- إلاّ مِن بَعدِ ما جاءتهمُ البيّنة:

ولقد تبيّن لنا كيف تفرّق المفسّرون، للأسباب نفسها، في تأويل هذه "البيّنة". ثمّ قالوا: إنّ (البيّنة) الثانية في السورة غير الأولى، فالثانية جاءت على ألسنة أنبيائهم فتفرّقوا بعدهم مع وجود تلك البيّنة، أمّا الأولى فهي الرسول ﷺ أو القرآن، فتفرّقوا في موقفهم منه وحكمهم عليه.

٨- مخلِصين له الدين:

إنّ الاستخدام الجديد الذي استنّه القرآن لهذا اللفظ، كما عرفنا، جعله مفتوحاً على أكثر من اتّجاه:

فهم جاعلون دينهم خالصاً له سبحانه بغضّ النظر عن أيّ دينٍ آخر، أو:

هم جاعلون أنفسهم خالصةً له تعالى، أو:

جاعلون عبادتهم خالصةً له وحده.

هذا إلى جانب اتّساع معنى (الإخلاص) وحقيقته في هذا السياق من الآية.

٩- حُنفاء:

تعدّدت آراء المفسّرين في معنى هذا اللفظ؛ نتيجةً لاختلافهم حول حقيقة جذره في اللغة من ناحية، ولانقطاعه عن الوصف أو الإضافة من ناحية ثانية. فلو قال: حنفاء في صلاتنا، أو: حنفاء العقيدة، أو: حنفاء مستقيمين، لساعدنا هذا على اقتراح معنىً محدّدٍ للّفظ، ولكنّ هذا كان من شأنه أن يَحْرِمنا في الوقت نفسه من الشحنة الإيحائيّة الغنيّة بالمعاني التي يدّخرها هذا اللفظ. وهكذا تعدّدت الآراء في تأويله، فقالوا:

أصل الحَنَف في اللغة هو المَيل؛ أي مائلون إلى الإسلام، وقالوا:

الحنيف في اللغة هو المستقيم، وقد سَمَّوا معوجَّ الرِجل (أحنفَ) تفاؤلاً، كما قيل للأعمى (أبو بصير)، وقالوا:

الحنيف هو المائل عن جانبَي الإفراط والتفريط إلى الوسط والاعتدال، وقالوا:

هو المَائل إلى الخير عامّةً، أمّا المائل إلى الشرّ فهو المُلحِد، وقالوا:

هو من كان على دين إبراهيم، وقالوا:

هو من آمن بجميع الرسُل ولم يستثنِ أحداً منهم، وقالوا:

هو من يستقبل القبلة بصلاته، وقالوا:

هو من اختتن وحجّ وحرّم الزواج من المَحارم،

وقيل غير ذلك.

١٠- دِينُ القيّمة:

تعدّدت معاني هذه العبارة بقدر ما اختلفوا على معنى اللفظ القرآنيّ الجديد (القيّمة)، وكذلك على طبيعة علاقته مع اللفظ الذي قبله، وهكذا وجدنا أنفسنا أمام احتمالاتٍ عديدة:

فقيل: هو دين الملّة المستقيمة، أي إنّ (القيّمة) صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ،

وقيل: (القيّمة) جمع القيّم، أي هو دين القيّمين على الحقّ،

وقيل: هو من إضافة الشيء إلى نفسه أو موصوفه، أي: الدين القيّمة، فالدِين هو القيّمة،

وقيل: دخلت الهاء للمدح والمبالغة،

وقيل: هو دِين الأمّة القائمة بالحقّ،

وقيل غير ذلك.

١١- ١٢- البرِيّة:

تكمن الطبيعة الانفتاحيّة لهذا اللفظ في اختلافهم على أصل جذره من ناحية، وفي اتّساع معناه من ناحيةٍ ثانية.

فقد قيل: إنْ أُخِذ اللفظ من (البَراء) وهو التراب، لم تدخل الملائكةُ تحته -إذ لم تُخلَق من ترابٍ كالإنسان-، وإن أُخِذ من (بريت القلم) أي قدّرته، دخلَت،

وقيل: هو كقوله لليهود: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي على عالَمِي زمانكم،

وقيل: قد يشمل من كانوا أيّام الرسول ﷺ وقد يشمل من كان قبله وبعده أيضاً،

وقيل غير ذلك.

١٣- جنّاتُ عَدْنٍ:

لم يستطع أحدٌ من اللغويّين والمفسّرين أن يقطع رأياً في معنى (عَدْن) ومن ثمّ في حقيقة ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ ﴾:

فقيل: هي من (عَدَنَ بالمكان يَعدِن) أي أقام، ومنه المَعْدِن،

وقيل: معدِن الشيء: مركزه ومستقرّه،

وقيل: هي بُطنان الجنّات، أي أوسطها وأفضلها،

وقيل: العدْن هو الخلود، وجنّاتُ عدْنٍ: جنّاتُ خلود.

١٤- تجري مِن تحتِها الأنهار:

انفتاح العبارة هنا يأتي من اللفظ (تحتِها) خاصّةً:

قالوا: إنْ أريدَ بالجَنّات الأشجارُ الملتفّة فجريان الماء تحتها مفهوم،

وإن أريدَ بها الأشجارُ مع الأرض فالجريان هو تحت جزءٍ منها فقط وهو الأشجار،

وربّما كان الجريان تحت الأرض أيضاً،

وربّما كان الجريان غير الجريان الذي نعرف،

أو كانت الأنهار غير الأنهار،

أو كانت الأشجار غير الأشجار، والأرض غير الأرض،

وقيل غير ذلك.

وقال الرسول ﷺ: "أنهارُ الجَنَّةِ تَخرجُ من تحتِ تلالِ، أو من تحتِ جبال المسك."[١]

---

(١) البستي، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، مرجع سابق، ج١٦، ص٤٢٣، حديث رقم ٧٤٠٨.

١٥ – ورَضُوا عنه:

سبق أن تحدّثنا عن المعاني المتعدّدة التي يمكن أن يحتملها هذا التركيب المثير عند العربيّ الأوّل، وستظلّ تفسيراتنا البشريّة في النهاية عاجزةً عن الإحاطة بطبيعة هذا الرضا.

١٦ – ذلك لمن خشيَ ربَّه:

يتركّز سرّ انفتاح معنى هذه الآية في اللفظ (ذلك):

فهو قد يشير إلى جنّات عدْن،

وقد يشير إلى الخلود في هذه الجنّات،

أو قد يشير إلى "رضا الله عنهم ورضاهم عنه"،

أو ربّما إلى أشياء أخرى أيضاً.

خامساً: جوامعُ الكَلِم

١– حتى تأتيَهمُ البيّنة:

هذا التعبير القرآنيّ يمكن أن يسدّ فراغاتٍ كثيرةً في لغتنا المحكيّة والمكتوبة، فنتمثّل به أمام من ادّعى على إنسانٍ بجرمٍ أو دَينٍ وهو لا يملك ما يُثبت ادّعاءه، أو يمكن أن نوجّهه إلى من لا يصدّق شيئاً إلاّ أن يراه بعينه.

٢– فيها كُتُبٌ قيّمة:

أضحت هذه العبارة في لغتنا عنواناً لكثيرٍ من المكتبات الخاصّة، ومكتبات المساجد بشكلٍ خاصّ، ولمصادر المعلومات بشكلٍ عامّ.

٣- مخلصين له الدينَ حُنفاء:

عدا عن دخول هذه العبارة في عدة مظاهر من عباداتنا (في تكبيرات العيد وتسبيحاتنا مثلاً) فمن الممكن أن يكون لها مكانٌ في أحاديثنا العاديّة اليوميّة أيضاً، كأن يقال: لن ننال النصر حتّى نكون ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

٤- أولئك هم شرُّ البرَيّة:

قد تطلَق هذه العبارة القرآنيّة على أيّة مجموعةٍ شرّيرةٍ من الناس، أو أفرادٍ عاثوا في الأرض فساداً.

٥- الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

يوصف بهذه العبارة، وهي من أكثر العبارات تكراراً في القرآن الكريم، من نتوسّم فيهم خيراً من الناس، لما نرى من عباداتهم وأخلاقهم وحسن تعاملهم مع الآخرين.

٦- أولئك هم خيرُ البريّة:

وفي هذه العبارة ما يعيننا على التعبير عن إعجابنا بأيّة مجموعةٍ من الناس، أو أفرادٍ منهم، حملوا على أكتافهم هموم الناس، واتّقوا الله في سرّهم وعلنهم، وأخلصوا أنفسهم لله وللعباد.

٧- جنّاتُ عَدْنٍ تجري مِن تحتِها الأنهار:

تُطلق هذه العبارة القرآنيّة عادةً في معرِض الحثّ على العمل الصالح وترغيب الناس بما ينتظرهم من الأجر والثواب عند الله، أو ربّما في معرض وصف مكانٍ جميلٍ يزخر بالمياه والخضرة والحياة.

٨- رضي الله عنهم:

وقد سَرت هذه العبارة على ألسنة المسلمين فألحقوها بأيّ اسمٍ يُذكر للصحابة الكرام أو تابعيهم.

السورة التاسعة عشرة

سورة القدر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

هذه هي السورة الثامنة عشرة في الترتيب التراجعي لسور القرآن الكريم، وهي تتألّف من ٣٠ كلمةً فيها ما لا يقلّ عن ٤٥ موقعاً جديداً أضافه القرآن الكريم إلى حياتنا اللغويّة بعد الإسلام.

وتأتي الخصوصيّة اللغويّة للسورة من اسمها المتفرّد الذي يتكرّر فيها ثلاث مرّاتٍ من غير أن نعثر عليه في أيّة سورةٍ أخرى بهذا المعنى، أو المعاني، التي ورد بها هنا. وتأتي الخصوصيّة كذلك من التعبيرات التي تختصّ بها هذه السورة، على صِغرها، فلا تتكرّر في أيّ مكانٍ آخر من القرآن، مثل: ﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، ﴿أَلْفِ شَهْرٍ﴾، ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾، ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾، ﴿مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

كما تختصّ السورة بعلاقاتٍ نحويّةٍ متشابكةٍ لم تعرف لها مثيلاً أيّة سورةٍ أخرى، ولا سيّما الآيتان الأخيرتان منها، كما سوف نرى.

أوّلاً: الألفاظ والمصطلحات

١- إنّا:

هذا اللفظ مكوّنٌ من (إنّ) التأكيديّة وضمير جمع المتكلّمين (نا)، فهو إذن، (إنّنا) مع حَذْف إحدى نونَي (إنّ) لاجتماع ثلاث نونات في اللفظ، ولأنّ هذه النون زائدةٌ في الأصل.

والجديد هنا أنّ اللفظ، وهو خاصٌّ بجمع المتكلّمين كما ذكرنا، جاء للتعبير عن الواحد الأحد، منزِّل هذا الكتاب، وهو استخدامٌ لم يعرفه الشعر الجاهليّ، فيما بين أيدينا من نصوصه على الأقلّ، إذ اقتصر استخدامه فيه على مجموع "المتكلّمين" دون "المتكلّم" الفرد، كقولهم مفتخرين بأقوامهم:

إنّا لَنُرخِصُ يومَ الرَوعِ أنفُسَنا ... ولو نُسامُ بها في الأمْنِ أُغلِينا

المرقّش الأكبر (ت٧٢ ق.ه)

إنّا إذا حَمِيَ الوغى نَرْوي القَنا ... ونَعِفُّ عند تَقاسُــــمِ الأنفالِ

عنترة (ت٢٢ ق.ه)

والبيت الوحيد الذي عثرت عليه هناك ممّا قد يثير بعض التساؤل عندنا هو بيتٌ آخر للمرقِّش الأكبر:

إنّا مُحَيُّوكِ يا سَلمى فحَيّينـا ... وإنْ سَقَيتِ كرامَ الناسِ فاسقِينا

فاللفظ (إنّا) في البيت قد يعني المرقّش وحده، ولكنّه قد يعني أيضاً المرقّش ومن معه، وهو أسلوبٌ اعتاد الغزِلون أن يحموا أنفسهم به من أيّة تبعةٍ فيُخفوا شخصهم تحت مظلّة ضمير الجماعة وهم يحيّون أو يتحدّثون إلى من يحبّون.

وبدهيٌّ أن نرى الملوك والقوّاد بعد ذلك يلجأون إلى هذا الأسلوب، ليعبّروا عن أنفسهم بضمير الجماعة في خطابهم لشعوبهم: (نحن فلانٌ بن فلان، أصدرنا أوامرنا..). وربّما كان هذا نابعاً من حقيقة أنّهم يمثّلون دولةً أو حكومةً أو شعباً، فاقتضى السياق استخدام ضمير الجماعة.

ومن المهمّ التذكير من جديدٍ بأنّ هذا الأسلوب الإلهيّ في استخدام ضمير جماعة المتكلّمين للتعبير عن الذات الإلهيّة قد اختصّ به القرآن الكريم وحده دون بقيّة الكتب السماويّة التي بين أيدينا.

٢- ٣- ٤- القَدْر [مكرّر ٣ مرّات]

رغم اختلاف المفسّرين حول المعنى المحدّد لهذا اللفظ؛ فإنّه يبقى، في معظم معانيه، اصطلاحاً قرآنيّاً لم يعرفه الجاهليّ من قبل. ولكنّنا نجده في الشعر الجاهليّ بالمعاني التقليديّة التي عرفها العرب لهذا اللفظ قبل القرآن، ومنها معنى (المكانة) كما في بيتَي عنترة:

ولولا سيّدٌ فينا مُطاعٌ ... عظيمُ القَدْرِ مرتفعُ العِمادِ
حللتِ من السعادةِ في ... مكانٍ رفيعِ القَدْرِ منقطِعِ القرينِ

لقد سبق أن حدّدنا موقفنا من كثيرٍ من الأشعار المنسوبة إلى هذا الشاعر، إذ غلبت في سيرته وأشعاره الأسطورةُ على الحقيقة. وممّا يغذّي شكوكنا هنا أنّ لفظ (القَدَر) -بفتح الدال- لا نجده في الحقبة الجاهليّة إلاّ عند عنترة أيضاً! وذلك في قوله:

يا عَبْلُ يَهْنِئْكِ ما يأتيكِ مِن نِعَمٍ ... إذا رماني على أعدائكِ القَدَرُ

ولا وجود لهذا اللفظ، بهذا المعنى، في الحديث الشريف.

٥- تَنَزَّلُ:

أصل هذا الفعل (تتنزّل) وحُذفت التاء للتخفيف من اجتماع التاءين، كما يذهب الصرفيّون، ولكنّنا لا نعثر على مثل هذا "التخفيف" للّفظ في الشعر الجاهليّ، وإنّما نجده هناك فعلاً ماضياً بلفظه العاديّ، كقول امرئ القيس (ت٨٠ ق.هـ):

ولِلسَوطِ فيها مجالٌ كما ... تَنَزَّلَ ذو بَرَدٍ مُنهمِرْ

ولا وجود للّفظ في الحديث الشريف.

٦- الملائكة:

لا نعثر على هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ، ونجد مفرداً له، ولكن مع قطع الألِف فيه وتحويلها إلى همزة، وذلك في بيتٍ واحدٍ يُنسب إلى علقمة الفحل (ت٢٠ ق.هـ) ويقول فيه:

ولستَ لإِنسيٍّ ولكنْ لِمَلأكٍ تَنَزَّلَ مِن جَوِّ السماءِ يَصُوبُ

ويكثر ورود اللفظ بعد ذلك في الحديث الشريف، شأنه شأن أيّ لفظٍ قرآنيٍّ جديد يشكّل أساساً في العقيدة الإسلاميّة كالصلاة والزكاة والصوم والحجّ والجنّ والشياطين.

٧- الرُّوح:

اقترحوا لهذا اللفظ معاني عديدةً، كما سوف نرى في حديثنا عن المواقع المنفتحة، وجميع هذه المعاني لا يربطها بالمعنى الجاهليّ أيّ رابطٍ، وهو المعنى البشريّ الحاليّ نفسه لهذا اللفظ: أي الجزء غير المنظور من الجسد الحيّ، كما في قول عنترة:

أحبُّكِ يا ظَلومُ فأنتِ عندي مكانَ الرُّوح في جَسَدِ الجبانِ

٨- بإذْن:

المعنى الشائع في لغتنا لهذا اللفظ، قديماً وحديثاً، هو السماح بالشيء، كبيراً كان أو صغيراً. ولكنّ اللفظ في القرآن يقترن دائماً بمعنى القوّة والسلطة، فلا يُستخدَم، بسبب هذا الاقتران، مع الأمور العاديّة أو الصغيرة، بل اختصّ بالأمور الكبيرة التي تحتاج إلى القوّة لتنفيذها، فكأنّه، بهذا النوع من الاستخدام، اكتسب معنىً إضافيّاً جديداً ليس في لغتنا العاديّة وهو "الإعانة على الشيء" ويشمل هذا كلّ المرّات الـ ٣٩ التي تكرّر بها هذا الاسم في القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى:

- ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ﴾ [البقرة: ١٠٢]

- ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]
- ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]
- ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]
- ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٤٩]

والغريب أنّ اللفظ يتجرّد، في القرآن نفسه، من هذا المعنى الإضافيّ عندما يأتي في صيغة الفعل، كما يتبيّن لنا في معظم الآيات التي ورد فيها مع مشتقّاته، ومنها قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٢٣]
- ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣]
- ﴿ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٩]
- ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور: ٦٢]

٩- أمْر:

هذا اللفظ حيّر المفسّرين في موقعه الإعرابيّ، ومن ثمّ في معناه. فإن كان تقدير السياق هكذا "هي سلامٌ من كلّ أمر" فمعنى (أمر) هنا هو (شيء)، أي (أمانٌ من كلّ شيء) وهذا المعنى للّفظ سبق أن عرفه الشعر الجاهليّ، أمّا إذا كان التقدير: "تَنزّل مِن كلّ أمر" فيكون معنى اللفظ (الحُكم) أو (مشيئة الله) أو (القدَر) الذي يقدّره الله، فتنْزل الملائكة بالأحكام والأقدار الصادرة منه تعالى، وهو معنىً لا نجده في الشعر الجاهليّ إلا في بيتٍ واحدٍ يُنسب، مرّةً أخرى، لصديقنا عنترة، وهو:

إذا كان أمرُ اللهِ أمراً يُقَدّر فكيف يَفِرُّ المرءُ منه ويَحْذَرُ

ولا أظنّني في حاجةٍ إلى التدليل على نَحل البيت لعنترة، فوضوح الصبغة الإسلاميّة فيه غنيٌّ عن البيان.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

١- ٢- أنزلناه:

من المهمّ، حتّى نتبيّن طبيعة المفاجأة في هذه الكلمة، أن نضع أنفسنا مكان ذلك العربيّ الذي سمع السورة ساعة تنزُّلها. لا شكّ أنّه سيَسأل: من هذا، أو من هؤلاء، الذين أَنزَلوا؟ ولماذا لم يُذكروا قبل الفعل؟ وكيف يبدأ الكلام بضميرٍ، بل بضميرين، وليس قبلهما ما يعودان إليه؟

ثمّ يلي التساؤل اللاحق باحثاً عن شأن الضمير الثاني أيضاً: ما هذا الذي أنزلو(ه)؟ ولماذا لا نعثر عليه أيضاً قبل الفعل؟

٣- إنّا أنزلناه:

هذه السورة ليست آخر سورةٍ نزلت من القرآن الكريم، بل ليست من أواخر السوَر النازلة، فهي مكّية، وهذا يعني أنّها من أوائل السوَر التي تنزّلت على الرسول (ص)، وإذن فالوقت ما يزال مبكّراً جدّاً على اكتمال نزوله، ومع هذا فالفعل الماضي (أنزلنا)، وقد سبقته أداة التأكيد والقطع (إنّ)، لا يترك للعربيّ الأوّل مفرّاً من التساؤل والاستغراب: كيف تتحدّث الآية عن "شيءٍ" أو "كتابٍ" بطريقةٍ توحي لنا وكأنّه نزل كلّه (أنزلناه)؟ ثمّ إنّ الضمير المذكّر (هُ) يُفترَض أن يعود على (الكتاب) أو (القرآن) ولكنّ الناس لم يروا من هذا الكتاب بعدُ إلاّ "بضع سوَرٍ" أو "آياتٍ" فكان من المتوقَّع عندهم أن يكون اللفظ "أنزلناها" -هكذا بالتأنيث- على الأقلّ، أي بإعادة الضمير على السوَر أو الآيات، ولكنّ التعبير القرآنيّ، ربّما من باب الالتفات أيضاً، أحلّ الكلّ محلّ الجزء، وكأنّ القرآن يُعدّ منذ هذه اللحظة في حكم النازل والمكتمل.

وربّما كانت هذه النكتة اللغويّة دليلنا إلى ما ذهبوا إليه من أنّ النزول نزولان: متأخّر، وهو نزول القرآن إلى الرسول ﷺ، ومتقدّم، وهو نزوله في ليلة القدْر من

رمضان، ومرّةً واحدة، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. ونزوله المكتمل هذا يتماشى مع سياق الآية هنا، فإذا كان الأمر كذلك فإنّ هذا النوع من النزول سيكون أكثر إثارةً واستغراباً عند العربيّ؛ لأنّ مفهومه يفوق بكثيرٍ حدودَ عقله وأبعاد خياله.

٤- ٥- ٦- ليلة القَدْر [مكرّر ٣ مرّات]:

تكرّر هذا التعبير، الذي يسمعه العربيّ للمرّة الأولى، ثلاث مرّاتٍ في هذه السورة الصغيرة، ولكنّه ظلّ، مع ذلك، موضع تساؤلٍ ومطارحاتٍ لا تتوقّف إلى اليوم: ما طبيعة هذه الليلة العجيبة التي وُصفت بهذا الوصف؟ وما ﴿ٱلْقَدْرِ﴾ هنا؟ ومن أيّ معنىً اشتُقّ؟ ولماذا تكون هذه الأحداث الخطيرة في الليل وليس في النهار؟

وسنقف عند بعض المعاني التي اقترحوها للفظ ﴿ٱلْقَدْرِ﴾ أثناء دراستنا للمواقع المنفتحة في السورة.

ولا شكّ أنّ العربيّ الجاهليّ، وربّما غير الجاهليّ أيضاً، سيحار في أمر هذه الليلة التي "ستأتي أحداثها" فهو لم يتعوّد إضافة الليلة، حين تكون هكذا مطلقةً، إلاّ مرتبطةً بحدثٍ سبق أن وقع، كقولنا: (ليلة الإسراء والمعراج) و (ليلة الهرير) و (ليلة الهجوم)، وكقول الشاعرين الجاهليّين:

ومِنّا حُماةُ الجيشِ ليلـةَ أقبلَـتْ　　　إيادٌ يُزَجّيها الهُمـــامُ المُحـرّقُ

عياض الضبّي (ت؟؟)

نجوتُ منها نَجائي مِن بَجيلةَ إذْ　　　أَلقَيتُ ليلةَ خَبْتِ الرَهطِ أرْواقي

ليلةَ صاحوا وأغرَوا بي سِراعَهُمُ　　　بالعَيكتينِ لدى مَعْدى ابنِ بَرّاقِ

تأبّط شرّاً (ت٨٥ ق.هـ)

صحيحٌ أنّ الحديث في مقدّمة السورة كان عن أمرٍ قد تمّ وسبق حدوثه: ﴿أَنزَلْنَهُ﴾ ، ولكنّه يتحوّل بعد ذلك إلى حديثٍ عن ملائكةٍ وروحٍ "ستتنزّل"

في تلك الليلة، وعن سلامٍ وطمأنينةٍ يمتدّان مع امتداد الليلة حتّى مطلع الفجر، وهكذا جمعت الليلةُ هنا بين ما مضى (أَنزَلۡنَٰهُ) وما يأتي (تَنَزَّلُ) وهذا من ألطف غرائب السورة.

٧- ليلةُ القَدْرِ خيرٌ:

تتوقّع آذاننا، لو جرّدناها من تأثير أُلفتِنا لسماع هذه السورة، أن يجري الكلام هكذا:

وما أدراك ما ليلة القدر! إنّها ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر،

أو ربّما: إنّها خيرٌ من ألف شهر.

لقد أسقطنا، في قراءتنا التوقّعيّة، لفظ (ٱلۡقَدۡرِ)، أو عبارة (لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ) كلّها، ما دامت قد ذُكرَت آنفاً مرّتين، واستعضنا عنها بالضمير (ها) في (إنّها)، وذلك حتّى تستجيب العبارة إلى تقاليدنا اللغويّة وتوقّعاتنا التي كوّنتها استخداماتنا البشريّة على مدى السنين.

ثمّ إنّنا أضفنا من عندنا، في الجملتين كلتيهما، الأداة (إنّ)؛ وذلك لنربط الآية بما قبلها، وقد فعلنا ذلك أيضاً استجابةً لتوقّعاتنا اللغويّة نفسها التي تعوّدت أن تربط الجملة اللاحقة بالجملة السابقة بمثل هذا الرابط اللغويّ أو غيره. وهذا يُبرز لنا بعض جوانب الفجوة الكبيرة التي تفصل بين لغتنا ولغة القرآن.

٨- وما أدراكَ ما:

سبق أن عرفنا، عند دراستنا لسورة (الهُمَزة)، اقتصار استعمال هذا التركيب على القرآن وحده؛ وعلى مدى فترةٍ امتدّت حتّى مجيء ابن الروميّ (ت ٢٨٣هـ)، وتأكّدنا من عدم وروده في الشعر الجاهليّ أو الحديث الشريف، إلاّ أن يأتي بمعنى الاستفهام الحقيقيّ كقولنا:

وما أدراك بأنّه وصلَ من السفر؟

وليس بمعنى التهويل والاستعظام كما هو في جميع المرّات الثلاث عشرة التي ورد بها في القرآن الكريم.

ولكنّ اللافت والمهمّ، مرّةً أخرى، هو اقتصار استعمال هذا التركيب على الجزءين الأخيرين من القرآن (٢٩ و ٣٠) بدءاً من السورة ٦٩ (الحاقّة) وانتهاءً بالسورة ١٠٤ (الهُمزة) مع خلوّ السوَر الثماني والستّين الأولى تماماً من هذا التركيب، وهي تشكّل أكثر من تسعين بالمائة من حجم القرآن الكريم!

إنّها وثيقةٌ أخرى تضاف إلى مِلفّ الحقيقة التوقيفيّة الإلهيّة للترتيب الحاليّ لسوَر القرآن الكريم، وإلى حقيقة وجود "شخصيةٍ لغويّةٍ" لكلّ سورةٍ تمنع اختلاط آياتها بآيات السوَر الأخرى.

٩- ألف شهر:

كيف يمكن أن يتلقّى العربيّ الأوّل هذا التعبير الذي يحصي الزمن بالشهور؟ لا غرابة لو سمعنا من يقول:

ألف عام

أو ربّما من يقول:

ألف يوم،

وكذلك لا غرابة لو قيل:

عشرة أشهر، أو:

عشر سنين،

ولكن من حقّنا أن نستغرب لو قيل:

ألف شهر،

إنّ العلاقة بين اللفظ (شهر) والرقم (ألف) لم تتعوّدها لغة العربيّ الأوّل، ولم تعرفها لغة الحديث الشريف، ولا لغتنا اليوم أيضاً، إلاّ من خلال هذه السورة.

١٠- تَنَزَّلُ:

من جديدٍ يأتي رأس هذه الآية مجرَّداً من أيّ رابطٍ لغويٍّ يربط الآية بما قبلها. لقد كانت لغتنا البشريّة تتوقّع أن يقال:

ففيها تتنزّل،

أو: وفيها تتنزّل،

أو: إذ تتنزّل فيها،

أو: لأنّ الملائكة تتنزّل فيها..

١١- تَنَزَّلُ الملائكة:

إنّها صورةٌ ستفاجئ العربيّ الذي لم يتعوّد أن يرى ممّا ينزل من السماء غير الأمطار والصواعق. ولكنّ أهمّ ما في الصورة ذلك الشكل "الجماعيّ" الذي أخذته، فليس ملاكاً واحداً هو الذي يتنزّل من السماء بل "ملائكةٌ" أو ربّما أفواجٌ متتاليةٌ منها، بما تحمله صيغة اللفظ (تَتَنَزَّل)، رغم تخفيفه من إحدى التاءين، من معنى التدرّج والتتابع والاستمرار، وهو ما لا يحمله مثلاً رديفُه الآخر (تَنْزِل).

١٢- تَنَزَّلُ.. والروحُ:

ستزداد الصورة على خيال العربيّ الأوّل غرابةً وتعقيداً بهذه الإضافة الجديدة (الروح) وهو "يرافق" الملائكة في تنزّلها، ولا سيّما بما يحمله هذا اللفظ من معنىً، أو بالأحرى من معانٍ جديدةٍ لم يعرفها العربيّ من قبل، فيترك المجال واسعاً أمام خياله لتَصوُّر المشهد المثير والغريب تماماً عن ثقافته وحدود خياله.

١٣- بإذنِ ربِّهم:

لا يعرف الشعر الجاهليّ هذا التعبير القرآنيّ الجديد، وهو يتكرّر في القرآن ثلاث مرّاتٍ أخرى خارج هذه السورة.

١٤- مِن كلِّ أمْر:

لا نجد هذا التعبير في الشعر الجاهليّ، ولا يتكرّر في غير هذه السورة، ولا وجود له في الحديث الشريف.

١٥- سلامٌ:

الجديد في الآية هنا أنّنا لو حاولنا الإمساك بمقاليد المعنى فيها للتعبير عنه بطريقتنا البشريّة التقليديّة لبدأناها هكذا:

وهي سلامٌ، أو: وإنّها سلامٌ، أو: ويسودها سلامٌ،

فلا نبتدئ الجملة بنكرةٍ، من ناحية، ولا نترك الآية هكذا مجرّدةً من أيّ رابطٍ لغويٍّ يربطها بالآية قبلها، من ناحيةٍ أخرى.

١٦- سَلامٌ:

لا بدّ هنا من تصحيح لمقالنا في النقطة السابقة، فالحقّ أنّنا لو عبّرنا بلغتنا عن معنى (سلام) في الآيةً لقلنا: وهي سليمة، أو: وهي أمينة، أو: وهي مأمونة، أو: وأنتم سالمون.

هكذا باستعمال صفةٍ مشبّهة، أو ما يدخل في بابها من مشتقّات، وليس باستعمال الاسم أو المصدر (سلام) كما وقع في الآية. إنّه استعمالٌ خاصٌّ بالقرآن الكريم وحده.

١٧- سَلامٌ هي:

لقد ابتدأت الجملة هنا بخبرٍ نكرةٍ حُذف مبتدأه (والتقدير: هي سلامٌ) فيكون الضمير المتأخّر "هي" مبتدأً ثانياً خبره محذوفٌ، وهكذا يكون عندنا مبتدآن وخبران، ويكون تقدير الكلام على هذا:

هي سلامٌ من كلّ أمرٍ –أو من كلّ شرّ–، وهي أيضاً مستمرّةٌ حتّى مطلع الفجر.

هذا ما ذهب إليه بعض المفسّرين، وهو أمرٌ لا ندّعي أنّه غير معروفٍ في لغتنا العاديّة، ولكنّنا، في الوقت نفسه، لا ندّعي أنّه أمرٌ مألوفٌ في هذه اللغة، وما نستطيع ادّعاءه هو أنّه لا يأتي عادةً، إن أتى، هكذا في وسط الكلام، وإنّما نبدأ به الحديث فنقول مثلاً:

عجيبٌ أمرُكَ يا فلان.

مع ملاحظة أنّنا بدأنا جملتنا البشريّة بصفةٍ: (عجيبٌ)، وهو أمرٌ عاديّ، وبدأت الآية باسمٍ، وليس بصفة: (سلامٌ) وهو أمرٌ غير عاديّ في لغتنا.

١٨- مِن كلِّ أمرٍ سلامٌ:

ليس من الغريب أن يتقدّم الجارّ والمجرور على ما يتعلّقان به في لغتنا العاديّة. نحن نقول مثلاً: من بيتك خرجنا، ولكنّ الغريب أن يأتي هذا المتعلَّق به مصدراً بحيث نقول لنعبّر عن المعنى نفسه: مِن بيتك خروجٌ. والأغرب من هذا وذاك أن نتوقّف في وسط هذه العبارة فنأخذ نفَساً عميقاً بعد اللفظ (بيتك): من بيتك. خروجٌ.

إنّ هذا ما وقع في السورة حقّاً فجاءت الجملة موزّعةً بين آيتين، هكذا: مِن كلّ أمرٍ. سلامٌ.

ولو أردنا اتّباع طريقتنا البشريّة التقليديّة في التعبير عن هذا المعنى نفسه لقلنا: هي سلامٌ مِن كلّ أمر، أو بالأحرى: هي سليمةٌ أو آمنةٌ من كلّ أمر.

١٩- سَلامٌ هي:

نحن لم نعتد، في الأصل، أن نقول في لغتنا:

هي دراسةٌ، أو: دراسةٌ هي حتى آخر العام، ولا:

هو امتحانٌ، أو: امتحانٌ هو حتّى نهاية الأسبوع، ولا:

هو بيعٌ، أو: بيعٌ هو حتّى إغلاق المخزن،

إنّه الأسلوب القرآنيّ المميّز، الذي ربّما ترك آثاره في لغتنا بعد ذلك أيضاً، ولكنّه من غير شكّ كان من شأنه أن يفاجئ العربيّ الأوّل، وهو يسمعه يتنزّل عليه لأوّل مرّة.

٢٠- مطلَع الفجر:

لم أجد هذا التعبير في الشعر الجاهليّ مطلقاً، ولكنّني أجد صيغةً فعليّةً له في بيتٍ واحدٍ يُنسب، ومرّةً أخرى، لشاعرنا الأسطوريّ عنترة:

يَعِيبون لَوني بالسَوادِ جَهالَةً ولولا سوادُ الليلِ ما طَلَعَ الفجْرُ

ولم أجد التعبير في الحديث الشريف إلاّ مرّةً واحدةً، ولكن اللفظ جاء في الآية اسم زمان ﴿مَطْلَعِ﴾، أي (وقتَ طلوع الفجر)، على حين يأتي في الحديث مصدراً، وهو بمعنى (مثل طلوع الفجر)، وذلك في قوله ﷺ:

- إنّ اللهَ تعالى لم يُحرِّمْ حُرمةً إلاّ وقد عَلِمَ أنّه سيُطْلِعُها منكم مَطْلَعَ الفجر، ألا وإنّي مُمْسِكٌ بحُجَزِكم أنْ تَهافَتوا في النار كما يتهافتُ الفَراشُ والذباب[1]

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- إنّا أنزلناه:

هذه سبيكةٌ خاصّةٌ بالقرآن الكريم، وهي تتكرّر فيه كلّ مرّةٍ بعناصرها الأساسيّة نفسها:

أ- إنّا،

ب- الفعل الماضي مع فاعله الذي يأتي ضميراً للمتكلّمين عائداً على غير مذكور،

ت- ضمير الغائب (الهاء) العائد على غير مذكورٍ غالباً.

---

(١) المتقي الهندي، علي بن حسام الدين. **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩م، ج١١، ص٥٤٣، حديث رقم ٣١٩٢١.

ومن السبائك القرآنيّة الأخرى؛ الشبيهة بهذه السبيكة: ﴿ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ ...، إِنَّا جَعَلْنَٰهُ ...، إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ... ﴾.

٢- وما أدراكَ ما ليلةُ القَدْر:

عرفنا قبل قليلٍ تفرُّدَ القرآن بالتعبير ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾، وهو يشكّل هنا مع ما يتلوه سبيكةً متميّزة، فتأتي بعده (ما) الاستفهاميّة، هكذا على الأقلّ أعربها النحويّون؛ وإن كنت لا أرى فيها معنى الاستفهام، وإنّما هو معنىً خاصٌّ بهذا التركيب القرآنيّ أقرب إلى معنى التعظيم والتفخيم، فتكون على ذلك: (ما) التعظيميّة، شأنها شأن (ما) التعجّبيّة. ومثلها قوله تعالى:

- ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾ [المرسَلات: ١٤]
- ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ [الانفطار: ١٧]

وهي بهذا البناء الإيقاعيّ المتميّز لألفاظها (وما أعملَك ما عملُ العامل) مختلفةٌ قليلاً عن سبيكةٍ أخرى قريبةٍ منها ولا تتطابق معها، إذ لا تنتهي مثلها بمضافَين بل باسمٍ مفردٍ، معرفةٍ أو نكرة (وما أعملَك ما عامل/ عاملون/ العامل)، كمثل قوله تعالى:

- ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ [المطفّفين: ٨]
- ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ [المطفّفين: ١٩]
- ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴾ [الطارق: ٢]

٣- تَنَزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذنِ ربِّهم:

تكتسب هذه السبيكة خصوصيّتها من بنائها النحويّ، مع اجتماع تعبيرين قرآنيّين مميَزين فيها ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ، بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾.

٤- بإذنِ ربِّهم مِن كلِّ أمْر:

لا شكّ أنّ تركيب هذه السبيكة، بكلّ ما مرّ بنا من ملابساتها اللغويّة حتّى الآن، وما سوف يمرّ بنا في الحديث عن اللغة المنفتحة للسورة بعد ذلك، فضلاً عن بنائها النحويّ الخاصّ، يجعل منها إحدى السبائك القرآنيّة المتفرّدة، ليس في تراثنا الجاهلي والإسلاميّ فحسب، بل في القرآن نفسه أيضاً، لأنّها لا تتكرّر في غير هذه السورة.

٥- سلامٌ هي حتّى مطلَعِ الفجر:

يمتدّ التأثير اللغوي للسبيكة السابقة إلى هذه السبيكة أيضاً، نتيجةً لتداخلهما وتباين أقوال النحويّين والمفسّرين في تخريج علاقاتهما اللغويّة والنحويّة، فضلاً عن خصوصيّة هذه الآية بابتدائها بنكرةٍ (سلام) واختتامها بالتعبير القرآنيّ الجديد ﴿مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾.

رابعاً: مواقع منفتحة

١- أنزلناه:

عرفنا كيف كان لهذا اللفظ أكثر من مَنفذٍ ننفذ منه إليه، أو يَنفذ منه إلينا، وهذا ما جعل المفسّرين يفهمونه بأكثر من طريقةٍ، ومن ثمّ يمنحونه أبعاداً تأويليّةً ولغويّةً عدّة يجعله على رأس قائمة العبارات المنفتحة، فقالوا في معانيه:

أي: إنّنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدْر،

وقالوا: بل نَزل به جبريل جملةً واحدةً في ليلة القدْر؛ من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا،

وقالوا: أملاه جبريل على السَفَرة؛ أي الملائكة الكَتَبة، في السماء الدنيا، ثمّ كان جبريل ينزّله على النبيّ نجوماً نجوماً، أي جزءاً جزءاً، على حسب الحاجة.

٢- ليلة القَدْر:

تباينت أقوال المفسّرين، وبشكلٍ غير عادي، في طبيعة هذه الليلة ووصفِها وتاريخها وما يجري فيها، وهذا يشير إلى غناها الانفتاحيّ وطاقتها المتفوّقة في إثارة خيالنا وتفكيرنا. فقالوا في وقتها وتاريخها، مستندين أحياناً إلى بعض الأحاديث النبويّة:

إنّها من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر،

وقالوا: إنّها في العشر الأواخر في كلّ وترٍ من ليالي رمضان،

وقالوا: هي في الليالي الستّ، من ليالي الوتر، كلّها،

وقالوا: إنّها ليلة السابع والعشرين منه،

وقالوا: هي في الليلة الأولى، أو السابعة عشرة، أو التاسعة عشرة، أو الحادية والعشرين، أو الثالثة والعشرين، أو الخامسة والعشرين،

وقالوا: هي في كلّ رمضان،

وقيل: هي في الأشفاع من الليالي،

وقيل: إنّها إذا كانت في يومٍ في هذه السنة كانت في العام المقبل في يومٍ آخر،

وقيل: إنّه تعالى قسّم ليالي رمضان على كلمات هذه السورة (٣٠ كلمة)، فلمّا بلغ الكلمة السابعة والعشرين أشار إليها فقال: هي،

وقالوا: إنّها رُفِعت، وإنّها إنّما وقعت مرّةً واحدةً ثمّ لا تتكرّر.

كما قالوا في أصل تسميتها وفيما يقع فيها من أعمال:

سُمّيت كذلك لأنّ للطاعات فيها قَدْراً عظيماً وثواباً جزيلاً،

وقالوا: سُمّيت كذلك لعظيم قدرها وعلوّ شرفها،

وقالوا: ليلة القدْر، أي ليلة التقدير، لأنّه تعالى يقدّر ويقضي فيها ما يشاء من أمره للسنة المقبلة؛ لقوله في آيةٍ أخرى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤]،

وقالوا: سُمّيت كذلك لأنّ من لم يكن له قَدْرٌ ولا خطرٌ يصير في هذه الليلة ذا قدْرٍ إذا أحياها،

وقالوا: إنّ (القدْر) هو الضِّيق، وقد سُمّيت كذلك، لأنّ الأرض تضيق في هذه الليلة بالملائكة لكثرتها، ويشتقّ من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾ أي ضُيِّق،

وقيل: بل لأنّ الله أنزل فيها كتاباً ذا قَدْرٍ، على رسولٍ ذي قَدْر، على أمّةٍ ذات قَدْر،

وقيل: لأنّه ينزل فيها ملائكةٌ ذوو قَدْرٍ وخطر،

وقيل: لأنّه تعالى يُنزل فيها أقداراً كثيرةً من الخير والبركة والمغفرة.

وقد قال الرسول ﷺ في وصفها:

- إنّ أمارةَ ليلةِ القَدْر أنّها صافيةٌ بَلْجَةٌ كأنّ فيها قمراً ساطعاً، ساكنةٌ ساجيةٌ لا بَرْدَ فيها ولا حَرّ، ولا يَحِلُّ لكوكبٍ أن يُرمى به فيها حتّى تُصبِح، وإنّ أمارتَها أنّ الشمسَ صَبيحتَها تَخرُجُ مستويةً ليس لها شُعاعٌ مثلَ القمرِ ليلةَ البدر[١]

٣- ألفِ شهر:

تناقل المفسّرون أكثر من قولٍ في تفسير هذه العبارة، وهم يحاولون الوصول إلى حلّ لغزها، فلماذا: ألف شهر؟

قالوا: إنّ العمل في ليلة القدْر خيرٌ من العمل في ألف شهرٍ ليس فيها ليلة القدْر،

وقالوا: أراد بألف شهر: جميع الدهر، لأنّ العرب تذْكر (الألف) في التكثير

---

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٥، ص٣٢٤، حديث رقم ٢٢٨١٧.

والمبالغة، ومنه قوله تعالى في سورة (البقرة) [الآية: ٩٦]: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ يعني جميع الدهر،

وقالوا: كان العابد فيما مضى لا يُسمّى كذلك حتّى يعبدَ الله ألف شهرٍ؛ وذلك ٨٣ سنةً و ٤ أشهر،

وقيل إنّ النبيّ ﷺ رأى أعمار أمّته قصيرةً، فخاف ألاّ يبلغوا في العمل مثل ما بلغ غيرُهم، فأعطاه الله ليلة القدْر وجعلها خيراً من ألف شهرٍ عند بقيّة الأمم،

وقيل: كان مُلكُ سليمان ٥٠٠ شهرٍ ومُلكُ ذي القَرنَين ٥٠٠ شهرٍ فصار مُلكُهما ألف شهر، فجعل الله العمل في هذه الليلة خيراً من مُلكهما،

وقيل: إنّ الرسول ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاحَ في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك واستكثروه، فنزلت الآية مطَمئنةً لهم،

وقيل: هو رقمٌ يرمز إلى متوسّط عمر الإنسان، فالليلة خيرٌ من كلّ عمره.

٤- الروح:

تباينت أقوال المفسّرين في تعريف (الروح) في هذه السورة. ويقف وراء هذا التباين عطف الكلمة على (الملائكة) بما يوحي أنّها شيءٌ مختلفٌ ومنفصلٌ عنها، وكذلك الاستخدام الجديد للكلمة والمخالف لأعراف العرب فيها كما رأينا. ومن هنا طرحوا لها، ومن ثمّ للسياق الذي وردت فيه، مثل هذه المعاني:

أنّها جبريل، وهو رأي الجمهور؛ أي تتنزّل الملائكة ومعهم جبريل. ووجهُ ذكرِه، بعد دخوله في الملائكة، التعظيم له والتشريف لشأنه،

أو أنّها صنفٌ من الملائكة هم أشرفهم وحَفَظةٌ على سائرهم، وأنّ الملائكة لا يرونهم؛ كما لا نرى نحن الملائكة،

أو أنّها جندٌ من جنود الله من غير الملائكة، وهي التي في سورة (النبأ): ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾ [الآية: ٣٨]،

أو أنّها صنفٌ من خلق الله يأكلون الطعام ولهم أيدٍ وأرجلٌ، وليسوا ملائكة،

أو هي الرحمة، ودليله قوله تعالى في سورة (النحل): ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [الآية: ٢].

٥- تَنَزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها:

على ضوء التعريفات المتعدّدة للفظ (الروح) يستطيع المرء الآن أن يطلق لخياله العنان، ليتمثّل صوراً عديدةً فوق أن تُحصى؛ لهذا المشهد العجيب من التواصل بين السماء والأرض، ومنها ما يصفه لنا الرسول ﷺ في الحديث:

- إذا كان ليلةُ القَدْر نزل جبريلُ عليه السلام في كَبْكَبةٍ (جماعةٍ) من الملائكة يُصلّون على كلّ عبدٍ قائمٍ أو قاعدٍ يذكر الله عزّ وجلّ[1]

٦- مِن كلِّ أمْر:

مع تعدّد الآراء في تعليق الجارّ والمجرور ﴿مِّن كُلِّ﴾، وتعدّدها في شرح معنى الأداة (مِن) تتعدّد الاتجاهات في تفسير هذه العبارة:

فيمكن تعليق الجارّ والمجرور بالخبر (سلامٌ) الذي تأخّر عنهما وحُذف مبتدأه، أي: هي سلامٌ من كلّ أمر،

ويمكن تعليقهما بصفةٍ محذوفةٍ لمفعولٍ مطلقٍ محذوفٍ يُفهم من الفعل (تنَزّل) أي: تنَزَّلُ تَنزُّلاً صادراً من كلّ أمرٍ إلهيّ،

ويمكن أن تكون (مِن) هنا بمعنى (بسبب) أي: من أجل كلّ أمرٍ من الأمور التي قضى الله بها في تلك السنة،

أو أن تكون (مِن) بمعنى (اللام) أي: لكلّ أمر،

أو تكون بمعنى (الباء) أي: بكلّ أمرٍ أمَره الله في شأن العباد.

---

(١) البيهقي، **شعب الإيمان**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٤٣، حديث رقم ٣٧١٧.

٧- سلامٌ هي حتّى مطلَعَ الفجر:

توسّع المفسّرون في فهم (السلام) هنا، انطلاقاً من توسّعهم في إعراب اللفظ من ناحية: أهو خبرٌ للضمير (هي) المتأخّر بعده، والتقدير: هي سلامٌ حتّى الفجر؟ أم هو خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي سلامٌ من كلّ أمر، وكذلك انطلاقاً من حقيقة (السلام) هنا وطبيعته، من ناحيةٍ ثانية، ثم تِبعاً لإعراب (حتّى): هل تتعلّق بـ(سلام) أم تتعلّق بـ(تنَزَّل) أي: تستمرّ الملائكة في النزول حتّى مطلع الفجر، من ناحيةٍ ثالثة، ولهذا قالوا:

هي سلامةٌ وأمانٌ مِن أن يؤثّر خلالها شيطانٌ في مؤمنٍ أو مؤمنة، وقالوا:

هي ليلةٌ سالمة أمينةٌ لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذىً، وقالوا:

هو تسليم الملائكة على أهل المساجد حين تغيب الشمس حتّى يطلع الفجر، وقالوا:

هو تسليم الملائكة بعضهم على بعض، وقالوا:

سلامٌ على أولياء الله وأهل طاعته، وقالوا:

في تلك الليلة تُصفَّد مَرَدة الشياطين وتُغَلُّ عفاريتُ الجِنّ، وتُفتح أبوابُ السماء كلُّها، ويَقبل اللهُ التوبة لكلّ تائب، وقالوا:

لا يَقضي الله فيها إلاّ السلامة، أمّا في بقيّة الليالي فالسلامة وغيرها، وقالوا:

لا يَنفذ فيها سحر ساحر، وقالوا:

سلامٌ هي: أي خيرٌ هي..

خامساً: جوامعُ الكَلِم

١- ليلة القَدْر:

لقد أضحى هذا التعبير جزءاً من حياتنا الشعبيّة يتردّد على ألسنتنا في مناسباتٍ مختلفة:

فمن أصابه حظٌّ كبير فلا بدّ أنّ أمّه قد "دعَت له" في ليلة القَدْر،

ومن فَتحت له الدنيا أبوابها فلا بدّ أن يكون قد أصاب ليلة القدر،

ومن سهر العشر الأواخر من ليالي رمضان قانتاً متعبّداً فهو مترقّبٌ ليلة القدر..

٢- وما أدراكَ ما:

دخل هذا التركيب أيضاً معجمنا التعبيريّ بعد نزول القرآن:

فإذا أردنا تحذير أحدهم من إنسانٍ قلنا: هل سمعت بفلان؟ وما أدراك ما فلان،

وإذا أردنا التهويل في وصف أمرٍ قلنا: ألم تسمع بما حدث؟ وما أدراك ما حدث..

٣- بإذنِ ربِّهم:

رغم عدم وجود هذا التعبير في الشعر الجاهليّ، كما عرفنا، غدا اليوم تعبير (بإذن ربّك) يحتلّ زوايا عديدةً في لغتنا، جنباً إلى جنبٍ مع التعبير القرآنيّ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ والتعبير القرآنيّ الآخر ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٤- سلامٌ هي حتّى مطلَعَ الفجر:

كثيراً ما نتّكئ على هذا التعبير القرآنيّ حين نريد وصف ليلةٍ طويلةٍ وطيّبة، أو حين نتمنّى امتداد تلك الليلة وما كان فيها.

سورة العَلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (١٩) ﴾

هذه هي السورة التاسعة عشرة في الترتيب التراجعي الذي اتّخذناه منهجاً في دراسة السوَر. وهي تتألّف من ٧٢ لفظاً وتحتوي على ما لا يقلّ عن ١٢٥ موقعاً لغويّاً وفكريّاً وخياليّاً جديداً أضافها القرآن الكريم إلى لغة العرب.

وإلى ذلك، يميّز السورةَ عن غيرها احتشادُ ما لم يحتشد في غيرها من السور التي درسناها حتّى الآن؛ من عناصر الألفاظ والتراكيب والتعبيرات والعلاقات اللغويّة الجديدة التي تنفرد بها دون غيرها من السوَر، ويصل عددها إلى ٢٨ موقعاً.

إنّ فيها ممّا لا يتكرّر في السوَر الأخرى خمسةَ ألفاظٍ مفردةٍ هي: (عَلَق، الأكرم، الرُجعى، لنسفعاً، الزبانية)، إلى جانب ٢٣ تركيباً أو تعبيراً تختصّ بها وحدها دون سائر السوَر، وهي: (اِقرأ باسم، اِقرأ وربُّكَ، وربُّكَ الأكرم، عَلّم بالقلم، عَلَّم الإنسانَ، ما لم يعلم، إنّ الإنسانَ لَيَطغى، أنْ رآه، إلى ربِّكَ الرُجعى،

يَنهى عبداً، عبداً إذا صلّى، أرأيتَ إنْ كان، على الهُدى، أمرَ بالتقوى، أنّ اللهَ يَرى، كلاّ لئن، لئن لم يَنتهِ، لنَسفعاً بالناصية، ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئة، فلْيَدْعُ ناديَه، سندعُ الزبانية، كلاّ لا، واسجُدْ واقترِبْ).

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- اِقرأ:

هذا الفعل، شأنه شأن الفعل القرآنيّ الآخر (قل)، هو بمثابة عدّة مواقع قرآنيّةٍ جديدةٍ تجمّعت في لفظٍ واحد.

أ- إنّه أوّلاً بدايةٌ غير عاديّةٍ للحديث، أيّاً كان نوع هذا الحديث؛ إذ لم نعتدْ أن نبدأ كلامنا بهذا الفعل مباشرةً من غير أن يسبقه لفظٌ أو ألفاظٌ عدّة، إلاّ أن يكون سؤالاً يُطرح في كتابٍ تعليميٍّ أو في امتحانٍ (اقرأ النصّ التالي) أو ما شابه ذلك. هل هو أمرٌ عاديٌّ، مثلاً، لرسالة، أو خطبة، أو قصيدة، أو رواية، أو مقالة، أن تبدأ بمثل هذا الفعل؟

ب- ثمّ إنّ القائل، الذي يَأمر بالقراءة، غير مذكور، طبعاً هذه المسألة لم تعد تشكّل لدينا اليوم، نحن المسلمين، أيّة مشكلة، فكلّنا يعرف أنّ الله تعالى هو الآمر، ولكنّ الجاهليّ الذي سمعه لأوّل مرّة سيواجه سؤالاً حقيقيّاً وهو يحاول اكتشاف طبيعة الآمر المختفي وراء الفعل.

ت- وللسبب نفسه لا بدّ للسامع أن يتساءل بعد ذلك أيضاً: ومن المخاطَب المجهول أو المختفي الذي يُؤمر بالقراءة من غير أن يتمّ ذكره أو تحديده؟

ث- ومرّةً ثالثةً سيتساءل السامع بعد ذلك: وماذا يقرأ؟ أين المفعول به، أو ما يمكن أن يحلّ محلّ المفعول به؟

جـ- فكيف لو عرفنا أنّ اللفظ لم يُستعمل في الشعر الجاهلي بهذا المعنى القرآنيّ، وقد استعمله العرب آنذاك بمعنى (الحَمْل)، كقول عمرو بن كلثوم (ت٣٩ ق.هـ):

ذِراعَيْ عَيْطَلٍ أَدْماءَ بِكْرٍ   هَجانِ اللونِ لم تَقْرَأْ جَنينا

أي (لم تَحمِل). ويمتّ المعنى الجاهليّ بصلةٍ إلى الاستعمال القرآنيّ الآخر لهذا الجذر وهو (القُرْء) وقد جاء بمعنى (الطُهر من الحيض)، وهو من (أَقْرَأتِ المرأة) إذا حاضت ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ثمّ عرف العرب الفعل بعد ذلك بمعنى (إلقاء السلام) كما في قول شُريح بن حوّاس (ت؟):

اِقرأْ على عَمْرِو السلامَ وقُلْ لهُ   ما بالكرامةِ والهَـــوانِ خَفـــاءُ

لقد استقلّت سورة (العلق) بمرّتين من أصل ثلاث مرّاتٍ تكرّر فيها هذا الفعل في القرآن، ولكن ما يميّزه في هذه السورة أنّه، في المرّتين، لم يتعدّ إلى مفعولٍ به، على حين تعدّى إليه في الحالة الثالثة، وكذلك في جميع اشتقاقاته الاثني عشر التي وردت في القرآن، ومنها قوله تعالى:

- ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]
- ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٨]
- ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤]
- ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ ﴾ [المزّمّل: ٢٠]

ويختلف وضع الفعل (اقرأ) هنا عن وضع الفعل (قل) في مطالع السور الأخرى، بأنّ هذا الافتتاح المتفرّد للسورة يقتصر عليها وحدها، فلا يتكرّر في غيرها من السوَر.

٢- علَق:

لم أجد هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ إلاّ بمعنى (الدم):

تَمشــي بهــا أَدَمٌ كأنّ رِحالَهــا   عَلَقٌ هُرِيْقَ على مُتونِ صَوارِ

النابغة الذبيانيّ (ت١٨ ق.هـ)

تَركنــاهُ يَخِــــرُّ على يديــــهِ   يَمُجُّ عليهــما عَلَقَ الوَتيـــنِ

عبد مُناف الهُذَليّ (ت؟)

وهو بعيدٌ عن المعنى القرآنيّ الذي يقتصر، في مواقعه الستّة، على وصف مرحلة الخَلق التي تلي مرحلة النطفة:

- ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحجّ: ٥]
- ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ [المؤمنون: ١٤]

وتنفرد السورة باسم الجنس هذا، رغم أنّ اللفظ يتكرّر في القرآن ٥ مرّاتٍ أخرى ولكن في صيغة المفرد (علَقَة).

٣- القلم:

من السهل علينا اليوم أن نفهم معنى لفظ (القلم)، وربّما كان من السهل على العربيّ الأوّل أن يفهمه أيضاً، ولا سيّما أنّنا نجد اللفظ مرّةً واحدةً على الأقلّ في الشعر الجاهليّ عند المرقِّش الأكبر (ت٧٢ ق.هـ):

الدّارُ قَفْرٌ والرّســـومُ كما   رَقَّشَ في ظَهْــرِ الأديمِ قَلَــمْ

ولكن سيكون من الصعب على ذلك العربيّ، وعلينا نحن اليوم على السواء، إدراك المعنى الحقيقيّ لهذا "القلم الإلهيّ" وكيف تمّ تعليمُنا به، وهل هو قلمٌ حقيقيٌّ أم مجازيّ؟ إنّه ولا شكّ لفظٌ قرآنيّ الاستعمال، وظلّ، بهذا المعنى، مختصّاً بالقرآن حتّى الآن. وربّما كان اللفظ المشابه الآخر، والوحيد في القرآن، المذكور

في سورة (القلم)؛ هو نفسه هذا القلم الإلهيّ؛ بحيث نجده تعالى يُقسم به، ويقسم بما يكتبه أيضاً:

- ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: ١]

٤ إلى ٦- كلاّ [مكرّر ٣ مرّات]:

سبق أن تحدّثنا مطوّلاً في سورة (الهُمَزة) عن تفرّد الاستعمال القرآنيّ لهذا اللفظ واختلافه عن استعمالات العرب. لقد اقتصر عندهم على معنى النفي أو تأكيد النفي، ولم يعرفوه بمعنى الإثبات أو التحذير أو النهي؛ كما هو في الاستعمالات القرآنيّة الثلاثة التي وردت في هذه السورة.

٧- الرُّجعَى:

لم يعرف الشعر الجاهليّ هذا اللفظ، ولم يعرفه الحديث الشريف كذلك إلاّ في سياق التعليق على هذا اللفظ، ثمّ إنّه يقتصر على هذه السورة وحدها دون باقي سوَر القرآن الكريم.

٨- التقوى:

يرد هذا اللفظ مع مشتقّاته في القرآن الكريم ٢٦١ مرّةً، ثمّ لا نجده في الشعر الجاهليّ إلاّ مرّةً واحدةً عند زهير بن أبي سُلمى (ت١٣ ق.هـ) حيث يقول:

ومِن ضريبته التقوَى ويَعصِمُهُ مِن سَيِّءِ العَثَراتِ اللهُ والرَّحِمُ

ومن حقّنا أن نبدي شكّنا الصريح في نسبة هذا البيت إلى زهير، ليس لانفراده بهذا اللفظ فحسب، على كثرة استعماله القرآنيّ، بل لما في البيت من الروح الإسلاميّة الواضحة، ولما يتضمّنه من الألفاظ القرآنيّة الأخرى مثل (يعصم) و (الرحِم).

٩- كَذَّب:

سبق أن أوضحنا في دراستنا لسورة (الماعون) أنّ للقرآن الكريم استعماله الخاصّ لهذا الفعل الذي يختلف به عن استعمال الشعراء الجاهليّين. لقد كان عندهم دائماً بمعنى (كَذَبَ) عكس (صَدَقَ)، أمّا في القرآن الكريم فيأتي بمعنىً مختلفٍ وهو: الرفض وعدم الإيمان أو التصديق. وهو يتعدّى فيه بالباء حين يكون التكذيب لغير الأشخاص (كالدين والرسالة)، ويتعدّى بنفسه حين يكون التكذيب للشخصيّات (كالرسل أو الملائكة).

أمّا في هذه السورة فلم يتعدّ الفعل لا بنفسه ولا بالباء، وهذا يجعله منفتحاً لشتّى أنواع التكذيب.

١٠- تَولَّى:

المعنى الخاصّ لهذا الفعل في القرآن مختلفٌ عن المعنى الذي عرفه الشعر الجاهليّ. لقد عرفه الجاهليّون بمعنى: هرب، أو انهزم، أو ابتعد، كما في الأبيات:

سائِل بِنا حِجْراً وأجْنادَهُ ... يومَ تَوَلَّى جَمْعُهُ الجافِلُ

عَبيد بن الأبرص (ت٢٥ ق.هـ)

شَككْتُ فؤادَهُ لمّا تولّى ... بصدرِ مُثَقَّفٍ ماضي السِّنانِ

عنترة (ت٢٢ ق.هـ)

تَوَلَّى بنو زَيّانَ عنّا بفضلِهِم ... وودَّ شَريكٌ لو نَسيرُ فنَبعُدُ

عُروة بن الورد (ت٣ ق.هـ)

ولكنّه يأتي في القرآن غالباً بمعنى (كفر أو رفض الإسلام) كما هو هنا، أو قد يأتي بمعنى (أعرَض أو انصرف) كما في قوله تعالى:

- ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي ﴾ [الأعراف: ٧٩]
- ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴾ [عَبس: ١ - ٢]

وربّما استخدمه القرآن بالمعنى نفسه الذي عرفه الشعر الجاهليّ، كقوله تعالى:

- ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ ﴾ [البقرة: ٢٤٦]

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ [آل عِمران: ١٥٥]

أمّا في الحديث الشريف فيَرِد بمعنى (اتّخذ وليّاً) حيناً، وهو معنىً قرآنيٌّ أيضاً، وبمعنى (انصرف) حيناً آخر، كما في قوله (ص):

- .. ومَن تولَّى غيرَ مَواليِه فعليه مِثلُ ذلك [١]

- إنّ العبدَ إذا وُضعَ في قبرِه وتَولّى عنه أصحابُه ..[٢]

١١- لَنَسفعاً:

هذا لفظٌ لا يتكرّر، هو أو أيٌّ من مشتقّاته، في غير هذه السورة، وهو لفظٌ قرآنيٌّ بمعنى (الضرب) أو (الجذب) أو (التعذيب) لم يعرفه الشعر الجاهليّ، كما لم يعرفه الحديث النبويّ مطلقاً.

وممّا يزيده خصوصيّةً مجيء نون التوكيد الخفيفة فيه بصورة (ألِفٍ)، ممّا لم يعرفه الشعر الجاهليّ ولا الحديث الشريف، ولا تراثنا اللغويّ حتّى الآن.

١٢- ١٣- ناصِيَة [مكرّر]:

لم أجد هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ، سواءٌ بالمعنى الحرفيّ المجرّد (شَعر الجبهة) أو بالمعنى القرآنيّ المجازيّ (صاحب الناصية).

١٤- الزبانية:

لا وجود لهذا اللفظ في الشعر الجاهليّ، وأوّل بيتٍ في تراثنا الشعريّ تضمّن هذا اللفظ هو لعبد الله بن الزِّبَعْرَى (ت١٥هـ) يقول فيه:

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٣، ص١١٥٧، حديث رقم ٣٠٠١.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٤٦٢، حديث رقم ١٣٠٨.

مَطاعيمُ في القُصوَى مَطاعينُ في الوغَى زَبانِيَةٌ غُلْبٌ عِظامٌ حُلومُـها

ولا نجده في الحديث الشريف، إلاّ في سياقٍ قرآنيٍّ يتعلّق بهذه السورة، ولا يتكرّر في القرآن، ولا أيٌّ من مشتقّاته.

١٥- واسجُد:

من الطريف حقّاً ألاّ نجد هذا اللفظ، أو أيّاً من اشتقاقاته، عند الشعراء الجاهليّين، ثمّ نجده ثلاث مرّاتٍ عند شاعرنا الأسطورة: عنترة (ت٢٢ ق.هـ)، وذلك في ثلاثة أبياتٍ نحتفظ، كالعادة، بشكّنا في صحّة نسبتها إليه:

بصارم حيثُما جَرَّدْتُهُ سَجَدَتْ لهُ جَبابِرةُ الأَعجام والعَرَبِ

سَجَدَتْ تُعَظِّمُ رَبَّها فتمايَلَتْ لِجَلالِـــها أربابُنا العُظَمـــاءُ

شَمْسٌ إذا طَلَعَتْ سَجَدْتُ جَلالةً لِجَمالِها، وجَلا الظَلامَ طُلوعُها

ومن الواضح لكلّ ذي نظرةٍ أدبيّةٍ نقديّة، ومن خلال روح الأبيات الثلاثة وصياغتها وألفاظها ومعانيها، أنّ أيّاً منها لا يمكن أن ينتمي إلى فترة ما قبل نزول القرآن الكريم، بل إنّها تتأخّر، كما أرجّح، حتّى عن العصر الأمويّ والعصر العبّاسيّ (الأوّل) على الأقلّ.

١٦- واقتَرِبْ:

يتكرّر ذكر هذا الفعل في القرآن، بصيغه المختلفة، خمس مرّاتٍ، وباستثناء هذه الآية، فإنّ جميع الآيات الأربع الأخرى يحمل فيها الفعل معنىً زمنيّاً، من مثل قوله تعالى:

- ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]

- ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١]

والمعنى الآخر الذي يحمله هذا الفعل عادةً في استعمالاتنا البشريّة، إضافةً إلى المعنى الزمانيّ، هو المعنى المكانيّ، ولكنّه في الآية ينفرد بمعنىً ليس بالزمانيّ

ولا المكانيّ، في أرجح الأقوال، إنّه الاقتراب الروحيّ من الله من خلال السجود له والخضوع إليه والاستسلام لمشيئته.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

١- اِقرأ باسمِ:

إنّ تعدّي الفعل (اقرأ) بالباء مع حذف مفعوله حالةٌ لغويّةٌ نادرةٌ لا أعرفها تكرّرت في تراثنا، ولا في القرآن الكريم نفسه. ففي الحالة الوحيدة الأخرى التي استخدم بها القرآن الفعل (اِقرأ) خارج هذه السورة تعدّى الفعل إلى مفعوله بنفسه، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤]

أمّا في الحديث الشريف فيتعدّى الفعل بالباء في حالةٍ معيّنةٍ واحدة: إذا كان هذا الفعل مختصّاً بقراءة القرآن الكريم دون غيره، وهذا، على أيّة حال، يخالف بوضوح الاستعمال القرآنيّ، كما في الأحاديث:

- .. يا مُعاذُ، أَفَتّانٌ أنت؟ اِقرأ بسورةِ كذا وسورةِ كذا[1]

- .. اِقرأ بهما كلّما نِمتَ وقُمتَ[2]

ويتّضح لنا الخلاف بين الاستعمالين القرآنيّ والنبويّ حين يتعدّى الفعل بالباء؛ لو حاولنا حذف حرف الجرّ بعدهما؛ إذ نستطيع أن نقول في الأحاديث أعلاه: اقرأ سورة كذا، واقرأهما، من غير أن يصيب المعنى في الأحاديث الثلاثة أيّ خلل، ولكنّنا لا نستطيع أن نفعل هذا مع الآية القرآنيّة من غير إخلالٍ بالمعنى، لأنّها ستصبح: اقرأ اسمَ ربّك، وليس ذلك هو المقصود بالآية.

---

(١) البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**، مرجع سابق، ج٣، ص٨٥، حديث رقم ٤٨٧٩.

(٢) النسائي، **المجتبى من السنن**، مرجع سابق، ج٨، ص٢٥٣، حديث رقم ٥٤٣٧.

٢- باسمِ ربِّك:

الغريب في هذا التعبير أنّه، على خصوصيّته القرآنيّة الشديدة، يتكرّر، هكذا بإضافة (اسم) إلى (ربّ)، ٩ مرّات في القرآن، ولكنْ ليس قبل السورة رقم ٥٥ (الرحمن)، فاستعماله يقتصر على الأجزاء الأربعة الأخيرة من القرآن؛ وتخلو الأجزاء الستّة والعشرون الأولى منه تماماً. ولا نجد التعبير في الشعر الجاهليّ، ولا في الحديث النبويّ.

ولكنّ الأغرب من ذلك أنّ اللفظ (اسم) كتب في حالاته التسع كلّها بالألف، هكذا: (بِاسْم)، فإذا أضيف إلى لفظ (الله) على مدى الأجزاء الثلاثين جميعاً –ومنها مَطالع السوَر (المجموع ١١٥ مرّةً)– فإنّه يُكتب دائماً بغير ألفٍ (بِسْم):

- ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ١ – ٢]
- ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ [هود: ٤١]
- ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [النمل: ٣٠]

وإلى جانب ذلك؛ فإنّ هذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي لا يُضمَر فيه الفعل العامل بالجارّ والمجرور: (بِاسْمِ)، بل يظهر متقدّماً عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ﴾. فالفعل يختفي عادةً قبل التسمية فيقدّرونه بقولهم: ابدأ بِاسْم، أو: افعلْ بِاسْم. ويفسّر الزمخشريّ ظهور الفعل في هذه الآية وتقدّمه على التسمية بأنّها أوّل آيةٍ نزلت من القرآن فكان تقديم الأمر بالقراءة فيها أهمّ. وقد فصّل ابن هشام الأنصاريّ القول في ذلك عند حديثه عن (التقدير والمقدّر) في مصنّفه (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب).(١)

أمّا إضافة (اسم) إلى (ربّ) ثمّ إضافة (ربّ) إلى الضمير (الكاف) بدلاً من أن يقال (بسم الله) أو (باسم الربّ) فلعلّه أريد به والله أعلم، في هذه المرحلة الأوّليّة

---

(١) ابن هشام الأنصاريّ، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، مرجع سابق، ص٨٠٠.

جدّاً من التكليف بالرسالة، أن يكون المرسِل أكثر وضوحاً وتحديداً أمام المرسَل إليه وأمام من سيبلّغهم الرسالة بعد ذلك، لأنّ في لفظ (الرب) معنىً محدّداً هو السيادة المطلقة والامتلاك الكلّيّ، وهذا لا يتّضح في لفظ (الله) وحده. ثمّ إنّ في إضافة اللفظ (ربّ) إلى الضمير الكاف العائد على الرسول ﷺ مزيداً من التعريف لطبيعة المرسِل، ومزيداً من الحميميّة في التعبير عن قربه إلى نبيّه المرسَل.

٣- خَلَق:

ورد الفعل (خلق) في صيغِه المختلفة (١٨٤) مرّةً في القرآن، تعدّى فيها جميعاً إلاّ في هذه الآية من سورة (العلق) وفي آيتين أُخريين هما:

- ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣٨]
- ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [الأعلى: ٢]

ولا يتعدّى الفعل في القرآن إذا سبقه اسمٌ موصولٌ، وهو، خلافاً لما في الآيات الثلاث، أمرٌ بدهيٌّ، لأنّ الاسم الموصول هو بمثابة مفعولٍ به في المعنى، كما يمكن أن نتحقّق من قوله تعالى:

- ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة: ١٨]
- ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴾ [النحل: ٨١]
- ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]
- ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدّثر: ١١]

ومن السهل أن نلاحظ أنّ أسماء الموصول التي سبقت الفعل (خلق) في الآيات الأربع (ممّن - ممّا - بِما - ومَن) قامت مقام مفعولٍ به متقدّمٍ لهذا الفعل. ولا نجد الفعل بالاستعمال القرآني في الشعر الجاهليّ.

٤- خَلَق. خَلَق:

تستقلّ السورة بهذه الصياغة المتفرّدة في تراثنا، وفي القرآن الكريم، حين يتوالى فيها الفعلُ نفسه مرّتين من غير فاصل، رغم ورود الفعلين في آيتين منفصلتين.

٥- خَلَقَ الإنسان:

لو سمعت سيّداً يقول لخادمه: اُذكر فضل سيّدك عليك، لأنّه هو ... فكيف تتوقّع أن تكون تتمّة حديث السيّد مع خادمه؟ أهكذا:

الذي منح الناس بيوتاً وطعاماً وأموالاً؟ أم هكذا:

الذي منحك بيتاً وطعاماً ومالاً؟

لا شكّ أنّنا سنتوقّع الخيار الثاني، لأنّ الحديث توجّه منذ البداية إلى شخصٍ مفردٍ يخاطبه: اُذكر .. سيّدك .. عليك ..، ولكنّه تعالى، وهو يخاطب نبيّه الكريمَ لأوّل مرّة، انتقل فجأةً من مخاطبته شخصيّاً: اِقرأْ .. ربِّك .. إلى حديثٍ عامٍّ عن الناس جميعاً: خَلقَ الإنسانَ .. وهو من الالتفات القرآنيّ الذي لم تعتدْه الأذن العربيّة من قبل، كما بيّنّا في الجزء الأوّل عند حديثنا عن فنّ الالتفات في القرآن الكريم.

٦- خَلَق الإنسانَ مِن عَلَق:

سيُواجه العربيَّ الأوّل الذي سمع هذه الآية مفاجأتان:

الأولى: الإثارة الخياليّة الكامنة في الصورة الجديدة التي شبّه فيها القرآن التكوين الأوّل للإنسان، وهو ما يزال في الساعات الأولى من تشكّله في رحِم أمّه، بعلَقة الدم المتخثّر.

والثانية: الإثارة الفكريّة التي ستُحْدثها الصورة في ذهنه وهي تشرح له لأوّل مرّةٍ، وفي تقريرٍ طبّيٍّ إلهيٍّ سابقٍ لعصره، تسلسُلَ خَلْقه العجيب، حين كان في

الأصل مجرّد "علقةٍ" صغيرة الشأن، في مكانٍ قليل الشأن، ثمّ تخلّقت هذه العلقة، بقدرة قادرٍ عظيم قويّ، لتكون جنيناً، ثمّ ما يلبث هذا الجنين الضعيف أن يخرج إلى الوجود ليكوِن إنساناً قويّاً سويّاً.

٧- اقرأ وربُّك:

للمرّة الثانية يتكرّر هذا الفعل في السورة، ومرّةً أخرى يَلزم الفعلُ فاعله فلا يتعدّى إلى مفعولٍ به، وهي حالةٌ مختصّةٌ بالقرآن، كما رأينا، بل مختصّةٌ بهذه السورة وحدها فلا تتكرّر في غيرها.

٨- اِقرأ وربُّك:

ومرّةً أخرى، تنفرد السورة بهذا التعبير القرآنيّ فلا يتكرّر في مكانٍ آخر، ولا نجده في تراثنا العربيّ قبل الإسلام أو بعده، ويخلو منه تماماً الحديث الشريف.

٩- وربُّكَ الأكرم:

لو أردنا أن نُلحق بالمبتدأ خبراً هو في حقيقته صفةٌ نريد أن ننسبها إليه لقلنا على سبيل المثال:

هذا المنظرُ رائعٌ، أو:

تلك القبّة عاليةٌ، أو:

ذلك الرجلُ كريمٌ

أمّا لو اخترنا أن نخبِر عن هذه الأشياء باسم تفضيلٍ معرّفٍ (بال) لنفضّله بذلك على غيره من أشباهه فسوف نقول:

هذا المنظرُ هو الأروعُ (بين المناظر)

تلك القُبَّةُ هي الأعلى (بين القِباب)

ذلك الرجلُ هو الأكرمُ (بين الرجال)

فإن استغنينا عن الضمير (هو أو هي) في وسط الجملة، فقلنا:

هذا المنظرُ الأروعُ

تلك القبّةُ الأعلى

ذلك الرجلُ الأكرمُ

لذهب الذهن بشكلٍ تلقائيٍّ إلى تغيير إعرابِ ما كان خبراً في الجمل الأولى (الأروع، الأعلى، الأكرم)، ليصبح في الصيغة الجديدة صفةً للخبر وليس الخبر نفسَه، فتكون أسماء الإشارة (هذا، تلك، ذلك) هي المبتدأ، ويصبح ما بعدها (المنظر، القُبّة، الرجل) خبراً لها، أمّا ما يلحق بالخبر فلن يعدو أكثر من صفةٍ لهذا الخبر، وهو أقرب ما يكون لقولنا:

هذا منظرٌ رائعٌ

تلك قُبّةٌ عاليةٌ

ذلك رجلٌ كريمٌ

ولكنّ الآية -خلافاً لطرائق تعبيرنا- استغنت عن الضمير (هو) فلم تقل (وربُّكَ هو الأكرم)، ومع ذلك ظلّ الوصف (الأكرمُ) فيها خبراً للمبتدأ (ربُّ) وليس صفةً له، ولو جعلناه صفةً لظلّ المبتدأ (ربُّك) يبحث عن خبرٍ وهذا غير جائز.

١٠- وربُّكَ الأكرم:

يأتي استعمال اسم التفضيل، الذي يكون على وزن (أفعل) عادةً، في سياق الحديث عن مجموعة أشياءٍ أو أفرادٍ يتفوّق أحدهم في أمرٍ ما على سائرهم، فنقول مثلاً:

التلاميذ أذكياءٌ ورياضٌ هو الأذكى

القصص جميلةٌ وتلك القصّة هي الأجمل

ولكنّ اللفظ (الأكرم) في الآية لم يقترن بأفرادٍ آخرين وردوا في السياق، فهو اسمٌ استُخدم لتفضيل (ربّك) على مفضَّلاتٍ أو مفضَّلين لم يُذكروا أبداً مع مَن فُضِّل عليهم، وهذا من غير شكّ سيوقد خيال العربيّ الذي سمع الآية حال تنزّلها، ويتركه في تفكّرٍ وتدبّرٍ عميقين.

١١- الأكرم الذي عَلَّم:

إنّ في مجيء لفظ (الأكرم) قبل الآية ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ مفارقةً غير متوقّعةٍ للسامع الذي يسمع السورة لأوّل مرّة. فبعد (الكرَم) نتوقّع أن يكون التفضيل فيما اعتاده الناس من أنواع الكرم: الهدايا، المال، الطعام، الكساء، الراحلة، المسكن، ولكنّ العطاء هنا يأتي مختلفاً تماماً عن كلّ التوقعات، ومن نوعٍ لم يكن العرب أصلاً، ليظنّوا أنّه يدخل في باب الكرم: التعليم بالقلم! وفي هذا ما يكفي من إحداث عنصر الجدّة والمفاجأة في نفس العربيّ الأوّل.

أمّا لو ذهبنا إلى أنّ معنى الآيتين هو: أنّ الله هو أكرم من علّم بالقلم، فسوف نكون أمام مفاجأةٍ من نوعٍ آخر. فنحن عندما نفضّل إنساناً على غيره في صفةٍ من الصفات أو مهنةٍ من المهن فإنّنا نقول شيئاً من هذا القبيل:

هذا أفضلُ مَن عَلّم الحساب، أو:

جارُنا أكثرُ مَن يُؤتمَن على سرٍّ، أو:

موظَّفُكم أنجحُ مَن كَتب الرسائل..

ولا نقول:

هذا الأفضلُ الذي علّم الحساب، أو:

جارُنا الأكثرُ الذي يُؤتمَن على سرٍّ، أو:

موظَّفُكم الأنجحُ الذي كَتب الرسائل

ولكنّ السورة تقول:

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤﴾..

فتبيّن الفرق، حيثما نقّلت نظرك، بين لغتنا ولغة القرآن الكريم.

١٢- عَلّم:

لم يعتد العرب في الماضي أن يستعملوا الفعل (عَلّم) من غير تعديته إلى مفعولين، فقالوا:

مَن علّمني حرفاً كنتُ له عبداً

أُعلِّمُه الرمايةَ كلَّ يومٍ

وقد علَّمتُهُ نَظْمَ القوافي

ورغم أنّ الفعل قد تعدّى إلى مفعولين حقّاً في الآية الخامسة ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ فإنّه، ولأسبابٍ عديدةٍ؛ ربّما كان أحدها تكراره مرّتين، لم يحصل في الآية الرابعة على أيّ مفعولٍ به، رغم أنّه تعدّى إلى لفظ (القلم) بحرف الباء: (بالقلم)، فخرج بهذا عن الاستعمال المألوف لدى العربيّ الأوّل.

وقد غدا استعمال الفعل من غير تعديةٍ مألوفاً لدينا اليوم، ولكن إذا استُخدم في سياق (ممارسة مهنة التعليم) فنحن نقول:

عَلَّمتُ في الجامعة، و:

يعلّم باللغتين الإنجليزيّة والعربيّة، و:

علَّمني على ضوء الشمعة..

١٣- عَلَّمَ بالقلم:

نقول عادةً: (كتبتُ بالقلم)، ولم يقل أحدٌ، لا في الماضي ولا في الحاضر: (علَّمتُ بالقلم) وهو استعمالٌ ما يزال حتّى اليوم مختصّاً بالقرآن الكريم وحده، فلا

يخبر أحدنا عن نفسه بقوله: أنا أعلّم بالقلم، رغم أنّ شيوع القلم واستخداماته قد أصبحت اليوم أكثر من أن تُحصى، على خلاف ما كان عليه الأمر في فترة نزول الوحي حين كان العرب لا يكادون يعرفون شيئاً اسمه القلم أو الكتابة.

١٤- عَلَّم الإنسان:

إذا افترضنا أنّ الفعل (علّم) الثاني هو بدلٌ من الفعل (علّم) الأوّل، كما تذهب أقرب التفسيرات إلى المنطق، فبدهيٌّ أن نتوقع أن يكون التعبير، لو أخذنا بتقاليدنا اللغويّة البشريّة، على الشكل التالي:

الذي علّم الإنسانَ بالقلم، علّمه ما لم يعلم

هل لاحظتم الفرق بين التعبير القرآنيّ والتعبير البشري؟ وهل لاحظتم كيف داخلتُ بين العبارتين القرآنيّتين والعبارتين البشريّتين، تقديماً وتأخيراً وحذفاً، حتّى ظهرتا في شكلهما الجديد بعيداً عن الشكل اللغويّ المألوف؟ طبعاً أهمّ ما يلفتنا في هذا التغيير هو تعدية الفعل الأوّل في جملتنا البشريّة إلى مفعوله بشكلٍ صريح (علّم الإنسان) وإضمار مفعول الثاني بتحويله إلى ضميرٍ للغائب (علّمه)، وهو العكس تماماً لما جاءت عليه العبارة القرآنيّة، إذ اختفى فيها مفعول الفعل الأوّل، أو بالأحرى مفعولاه، وظهر مفعولا الفعل الثاني.

وبدهيٌّ ألاّ نجد هذا التعبير في الحديث الشريف.

١٥- عَلّم الإنسان:

إنّه تعبيرٌ فريدٌ لا نجده، ولا ينبغي أن نجده، إلاّ في القرآن الكريم. والمطلوب أن نضع أنفسنا الآن مكان العربيّ الأوّل الذي ربّما عرف أوصافاً كثيرةً لله: فهو الذي يخلق، ويرزق، ويقدّر الأقدار، ويُهلك، ويحيي، ويميت، ولكن "أن يُعلِّم" فهذا كان ما يزال بعيداً عن تصوّر الجاهليّ.

١٦- ما لم يَعلم:

هذا التركيب لم يعرفه الشعر الجاهليّ، ولا الحديث الشريف، ثمّ إنّ استعماله، إلى ذلك، يقتصر على هذه السورة، فلا يتكرّر في غيرها من السوَر.

١٧ إلى ١٩- كلاّ إنّ، كلاّ لئن، كلاّ لا:

من بين ٣٣ حالةً استخدم فيها القرآن الكريم الأداة (كلاّ)؛ يتكرّر التركيب ﴿كَلَّآ إِنَّ﴾ ١١ مرَّة، والتركيب (كلاّ لا) مرّتين، أمّا التركيب ﴿كَلَّا لَئِن﴾ فيقتصر على هذه السورة وحدها. وينحصر استعمال التراكيب الثلاثة بالقرآن فلا نجد أيًّا منها في تراثنا الجاهليّ أو الإسلاميّ، لا شعراً ولا نثراً، ولا وجود لها في الحديث الشريف أيضاً.

٢٠- لَيَطغَى:

اعتادت العرب أن تقول:

إنّه لَيَقْرِيْ الضيفَ، و:

إنّني لأعلمُ أنّك قادمٌ، و:

إنّي لأخشى عليكم الغوائل،

فتُزحلِق "لام التوكيد" هذه من اسم (إنّ) "التوكيديّة" إلى خبرها لتجنّب اجتماع توكيدين، فإذا جاء الخبر فعلاً، وهو مضارعٌ عادةً، فإنّه لا يكتفي بنفسه إذ لا بدّ له من ملحقاتٍ تلحق به، كالفاعل والمفعول به أو ما يقوم مقامهما، وهذا شأن العرب دائماً مع الفعل المرتبط باللام المزحلقة إذا كان مبنيّاً للمعلوم، كما في الجمل الثلاث المذكورة، وكما في الأبيات:

إنّي لأَصْـــــرِمُ مَن يُصارمُني ... وأُجِدُّ وَصْلَ مَنِ ابتغَى وَصْلي

امرؤ القيس (ت٨٠ ق.هـ)

إنّي لأَعلَمُ أنّ حتْفي في التي أخشَى، لدى الشُّربِ القليلِ المُنزِفِ

الشَّنفرَى (ت٧٠ ق.هـ)

وإنّيْ لأَخْزَى أنْ تُرَى بيَ بِطْنةٌ وجاراتُ بيتيْ طاوياتٌ ونُحَّفُ

حاتم الطائيّ (ت٤٦ ق.هـ)

إنّي لأعجَبُ كيف يَنظُرُ صورتيْ يــومَ القتــالِ مُبــارزٌ ويعيشُ

عنترة (ت٢٢ ق.هـ)

وإنّي لآتي الأرضَ ما ليَ حاجةٌ ســواكِ ولا دَينٌ بها أنا طالِبُ

الأخضر الفَزاريّ (ت؟ ق.هـ)

وهكذا في الحديث الشريف أيضاً:

- وإنّه ليَسمعُ خَفْقَ نِعالِهم [1]

- إنّهم لَيَدْعون له ولداً، وإنّه لَيُعافيهِم ويَرزُقُهم[2]

أمّا الفعل (يَطغى) في الآية فقد تجرّد من هذه الملحقات واكتفى بنفسه مستغنياً عنها، بحيث نستطيع أن نتوقف عنده من غير أن نشعر بضرورة وجود كلام بعده. ولو حاولنا ذلك مع الأمثلة التي أوردناها أعلاه فسنجد أنّنا لا نستطيع التوقّف فيها عند الفعل المرتبط باللام لأنّ المعنى لا يتمّ بغير الكلام الذي يليه. وحاول مثلاً أن تقول مع حاتم الطائيّ (وإنّي لأَخزَى) ثمّ تتوقّف عن الكلام، أو أن تقول مع عنترة: (إنّي لأعجب) ثمّ تكتفي بذلك!

٢١- إنّ الإنسانَ لَيَطغَى:

هذا تعبيرٌ قرآنيٌّ جديد أشبه بالحكمة أو المثل السائر، وهو خاصٌّ بهذه السورة فلا يتكرّر في القرآن، ولا وجود له في تراثنا، ولا في الحديث الشريف.

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق حديث رقم ٣٥٥٨

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٢٦٢، حديث رقم ٥٧٤٨.

٢٢- أنْ رآه:

التقدير هنا طبعاً: (لَيَطغى لأن رآه، أو: لأنّه رآه، أو: لأنّه رأى نفسه)، فهناك (لامٌ) تعليليّةٌ مقدَّرةٌ محذوفةٌ في الآية، ولا أعرف قبل القرآن، ولا بعده، مَن حَذف لام التعليل الجارّة قبل (أنْ) المصدرية فقال مثلاً:

سَلّمتَ نفسَك أنْ عرفتَ أنّك مقبوضٌ عليك لا محالة

٢٣- رآه:

هذا استعمالٌ قرآنيٌّ فريدٌ ومختصٌّ بهذه السورة وحدها. فالفعل (رأى) هنا بمعنى (ظنّ)، وأباحت العرب لنفسها أن تُسند هذا النوع من الأفعال، التي سمّوها (قلبيّة) -أي (عقليّة) وهي بعكس شبيهتها الأخرى (الحسّية) أي (البصريّة)-، إلى ضمائر المتكلّم أو المخاطَب، فقالوا: رأيتُني عاجزاً، أي: رأيتُ نفسي، بمعنى (ظننتُ نفسي)، وقالوا: متى تُراكَ خارجاً؟ بمعنى (تظنّ نفسَك) ولكنّهم، فيما وجدتُ، لم يُسندوا هذه الأفعال إلى ضمائر الغائب، كما حدث في الآية حين جاء الفاعل المستتر (وتقديره: هو) هو نفسه المفعول به (ضمير الغائب: الهاء)؛ أي: (ظنّ الإنسانُ نفسَه).

حتى ابن خالويه، النحويّ الكبير الذي أباح ذلك، لم يستطع أن يأتي، حين أراد أن يمثّل له، إلاّ بأمثلةٍ استخرجها من الآية نفسها، فربأ بنفسه عن أن يأتي بأمثلةٍ من عنده، فقال: "فإذا ثنّيتَ هذا الحرف قلت: إنّ الإنسانين لَيَطْغَيان أن رَأَياهما استَغنيا، وإنّ الأناسِيّ لَيَطغَون أن رأَوهم استَغنَوا، وإنَّكِ لَتَطْغَينَ أن رأيتِكِ استَغنيتِ .."[١]

أمّا الزمخشريّ فحين أراد أن يمثّل من كلام العرب على ما جاء في الآية لم يجد من الأمثلة إلاّ ما أُسنِد إلى ضمير المتكلّم والظاهر، وليس إلى الضمير المستتر والغائب كما هو في الآية، فقال: "والعرب تطرح (النفْس) مِن هذا الجنس

(١) عن الدرويش، **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، مرجع سابق، ج٨، ص٣٦٣.

فتقول: رأيتُني وظننتُني وحسبتُني، فقوله ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ من هذا الباب"[1] والحقّ أنّ مثال الزمخشريّ لا علاقة له بهذا الباب.

٢٤- إنّ إلى ربِّكَ:

نحن نتوقّع، إذا قيل لنا: إنّك لَتطغى إذا رأيتَ نفسك قد أصبحت غنيّاً، أن تكون تتمّة الكلام هكذا:

إذن، فاعلم أنّك راجعٌ إلى ربّك عمّا قريب،

أو تكون على الأقلّ: فاعلم أنّك راجعٌ..

أو على أقلّ الأقلّ: فإنّك راجعٌ..

فترتبط الجملة القرآنيّة السابقة بالجملة الجوابيّة اللاحقة، برابطٍ لغويٍّ هو حرف الفاء: (فإنّ إلى ربّك الرّجعى)، أو بالفاء مع فعلٍ يساعدها: (فاعلم أنّ إلى ربِّك الرّجعى)، أو بهما معاً وبالأداة (إذن) التوضيحيّة المنبِّهة (إذن فاعلم أنّ..). ولكنّ السياق القرآنيّ خلا من أيٍّ من هذه الروابط أو غيرها من الروابط البديلة، وهي ظاهرةٌ من الظواهر القرآنيّة كما عرفنا في سوَرٍ سابقة.

٢٥- إنّ الإنسان.. إنّ إلى ربِّكَ:

هنا أيضاً التفاتٌ قرآنيّ تحوّل فيه الخطاب من صيغة الغائب (هو): ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ إلى صيغة المخاطَب (أنتَ): ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾، رغم أنّ محور الحديث ظلّ هو نفسه لم يتغيّر في كلتا الصيغتين: طغيان الإنسان حين يَغنى وتذكيره بحتميّة رجوعه إلى خالقه ومواجهة الحساب هناك.

---

(١) فخر الدين الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج١١، ص٢٢٠.

٢٦- أنْ رآه.. إنّ إلى ربِّك:

وهذا التفاتٌ قرآنيٌّ آخر من صيغة الغائب: (رآه: رأى نفسه) إلى صيغة المخاطب: (ربِّك)، ولو تركنا الأمر إلى لغتنا البشريّة لقلنا -متابعةً لصيغة الغائب التي بدأ بها الكلام-: (إنّ إلى ربّه الرُّجعى).

٢٧- إلى ربِّكَ الرُّجعَى:

هذا النوع من تقديم الخبر وتأخير المبتدأ، مع إطلاق المبتدأ وعدم حصره في شخصٍ أو جماعةٍ أو نوع، أمرٌ تختصّ به لغة القرآن الكريم. فإطلاق لفظ (الرُّجعى) هنا ليشمل كلّ شيء، وعدم تخصيصه، بإضافته إلى اسم آخر مثلاً، كأن نقول: رُجعاك، أو: رُجعانا، أو: رُجعى البشر، خصيصةٌ لغويّةٌ كثيراً ما تتكرّر في مثل هذا النوع من الجمل القرآنيّة التي يتقدّم فيها ما حقّه التأخير، كما في الآيتين التاليتين اللتين نجدهما في سورةٍ صغيرةٍ واحدة:

- ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة: ١٢]
- ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ [القيامة: ٣٠]

٢٨- أرأيتَ .. عبداً:

وهذا التفاتٌ آخر تحوّل فيه الخطاب من صيغة المخاطَب (أنتَ، أي الرسول): (أرأيتَ) إلى صيغة الغائب (هو): (عبداً، أي الرسول أيضاً) رغم أنّ محور الحديث ما يزال واحداً بعينه لم يتغيّر وهو شخص الرسول (ص)، ومن غير هذا الالتفات كنّا نتوقّع أن يكون شكل العبارة هكذا:

أرأيتَ أيّها النبيّ ذلك الذي ينهاكَ إذا صلّيتَ

٢٩- ينهَى. عبداً:

لقد انتهت الآية الأولى عند الفعل (يَنهَى) فتوقّفنا بعده، ثم استُؤنف الحديث في الآية التالية التي بدأت بمفعول ذلك الفعل، وهو فصلٌ غريبٌ وشديدٌ بين

الفعل ومفعوله بجعلهما في وحدتين لغويّتين منفصلتين، وقد أضحى هذا النوع من الفصل ظاهرةً لغويّةً قرآنيّةً واضحة.

٣٠- يَنهى عبداً:

(التجريد) أو (الإطلاق) هو من خصائص التعبير القرآنيّ. فكما أطلق تعالى لفظ (الرُّجْعَى) فلم تُضَف إلى مضافٍ يخصّصها بشخصٍ أو هيئةٍ أو نوعٍ، كذلك أطلق بالتنكير هنا اللفظ (عبداً)، فلم يقل: (العبد) أو (عَبْدَ الله) أو (النبيّ)، ولم يحدّده بقوله مثلاً: (ينهاكَ)، كما سبق أن ذكرنا، رغم أنّ الحديث جاء خطاباً للرسول (ص)، وقد كان (أبو جهلٍ) يؤذيه ويحاول أن يمنعه من الصلاة.

وفي هذا التنكير أو (الإطلاق)، تفخيمٌ لشأن النبيّ (ص)، كما يقول المفسّرون، لأنّه، مع التنكير، معرَّفٌ، ونظيرُه تلك الكنايةُ في الفعل (أنزلناه) من سورة (القَدْر)، حيث حُمِل الضميرُ على القرآن ولم يَسبِق له ذكرٌ، لمكانة القرآن الكريم.

٣١ إلى ٣٣- أرأيتَ [مكرّر ٣ مرّات]:

إنّها حالاتٌ غريبةٌ مختلفةٌ ثلاثٌ لكلمةٍ واحدةٍ في السورة نفسها. فقد استخدم العرب الفعل (أرأيتَ) بمعنى (أخبِرْني)، بحيث يأخذ عندهم مفعولين يغلب أن يكون الثاني منهما جملةً استفهاميّةً، كقول ضمرة النهشليّ (ت؟ ق.هـ):

أرأيتَ إنْ صرخَتْ بِليلٍ هامَتِيْ ... وخرجتُ منها باليـــاً أثوابي
هل تَخْمِشَنْ إِبِليْ عليّ وجوهَها ... أمْ تَعْصِبَنَّ رؤوسَهـــا بسِلابِ

أي أخبِرْني إن كانت إبلي ستخمش وجوهَها حزناً عليّ إذا قُتلتُ وصرختْ هامتي فوق قبري[1] فالمفعول الأوّل هو، في المعنى، اللفظ (هامَتي)، أي: (أرأيتَ هامتي لو صرختْ) والمفعول الثاني هو الجملة الاستفهاميّة (هل تخمِشَنْ إبِلي).

(١) هي طائرٌ خياليٌّ اعتقد الجاهليّون أنّه يحوم حول قبر القتيل صائحاً (اسقُوني) حتّى يؤخذ بثأره.

ولكنّ الفعل في السورة تقلّب في مواضعه الثلاثة، وبشكلٍ مخالفٍ تماماً للتقاليد اللغويّة العربيّة، بين حالاتٍ ثلاث:

أ- الفعل الأوّل: حُذف مفعوله الثاني، ولكن ذُكر مفعوله الأوّل وهو (الذي): ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى ﴾.

ب - الثاني: حُذف مفعولاه الأوّل والثاني ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ ..﴾ فلم يظهر أيٌّ منهما في الآية.

ت - الثالث: على عكس الحالة الأولى، حُذف مفعوله الأوّل ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ .. ﴾ واكتُفِي بذكر الثاني، أو ما يحلّ محلّه، وهو الجملة الاستفهاميّة ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾.

ومع تميّز الاستعمال القرآنيّ أصلاً عن الاستعمالات الجاهليّة المحدودة لهذا التركيب، كما سبق أن رأينا في سورة (الماعون)، نجده وقد اختلفت استعمالاته أيضاً في كلّ مرّةٍ من المرّات الثلاث التي يتكرّر بها في هذه السورة.

لقد تعدّى في الأولى صراحةً إلى المفعول به (الذي) فجاء فيها بمعنى: أتُميّز، أو: أأدركتَ؟ على حين لم يتعدّ في الثانية ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾، إلاّ أنّه جاء مع ذلك بالمعنى الأوّل نفسه تقريباً، ولكن مع تأكيد النفي؛ إذ لم يكن في الواقع على هدى. أمّا في الحالة الثالثة ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ فجاء أقرب في تركيبه إلى الحالة الثانية، إنّه لم يتعدّ إلى مفعولٍ به، ولكنّه دعّم تأكيد الإثبات هذه المرّة، وليس تأكيد النفي كما في الحالة الثانية، لأنّ أبا جهلٍ كذّب حقّاً وتولّى.

٣٤- عبداً إذا صلّى:

هذا تعبيرٌ خاصٌّ بالقرآن الكريم، بل خاصٌّ بهذه السورة وحدها فلا يتكرّر في بقيّة السوَر.

٣٥- ٣٦- إنْ كان، إنْ كَذَّب:

الأداة (إنْ) في هذين الموقعين تشير إلى الماضي، وليس إلى المستقبل كما هي الحال في بيت النهشليّ الذي أوردناه قبل قليل، فالشاعر يتساءل هناك عمّا يحدث بعد موته (أرأيتَ إنْ صرختْ هامتي)، أي لو حدث أن صرخت الهامة بعد موتي. فلو أرادت العرب الزمن الماضي لم تُلحِق الفعل (أرأيتَ) بالأداة (إنْ)، وهذا ما يفعله النابغة الذبياني (ت١٨ ق.هـ) حيث يقول:

أرأيتَ يومَ عُكاظَ حينَ لَقِيْتَني تحتَ العَجاجِ فما شَقَقْتَ غُباري

أي (أتذْكُر ما حدث ذلك اليوم؟) وهكذا نرى أنّ معنى (إنْ) في الآيتين هنا لا يختلف كثيراً، في بُعده الزمنيّ، عن معنى (إذْ) الظرفيّة التي تشير عادةً إلى الزمن الماضي كما في قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ [الكهف: ٦٣]

وهو إذن، استعمالٌ جديدٌ لهذه الأداة لم يعرفه الشعر العربيّ قبل الإسلام. وحين حاول الإمام الفخر الرازي الخروج بتفسيرٍ لهذا المأزق اللغويّ وقع، رحمه الله، في مأزقٍ لغويٍّ آخر حين فسّر (كان) في الآية الأولى بمعنى (صار) فقال:

"يقول الله تعالى: يا محمّد، أرأيتَ إنْ كان هذا الكافر، ولم يقُل (لو كان)، إشارةً إلى المستقبل، كأنّه يقول: أرأيتَ إنْ صار على الهدى واشتغل بأمرِ نفْسه أمَا كان يليق به ذلك إذ هو رجلٌ عاقلٌ ذو ثروة"[(١)]

فتغدو الآية، بهذا المعنى المقترح، أقرب إلى امتداح أبي جهلٍ منها إلى مهاجمته والتشنيع عليه كما هو الأمر في أصل الآية.

٣٧- على الهدى:

تنفرد سورة (العلَق) بهذا التعبير المتفرّد الذي لم يعرفه الشعر الجاهليّ من قبل، ولم تعرفه أيٌّ من سوَر القرآن الكريم الأخرى. وربّما وجدنا التعبير في بعض الآيات ولكن من غير (الـ) التعريف، كقوله تعالى:

(١) فخر الدين الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج١١، ص٢٢٢.

- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥، ولقمان: ٥]

أمّا قوله تعالى:

- ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ ﴾ [الأنعام: ٣٥]

فشأنه مختلفٌ عن شأن آية (العلَق) لأنّ الأداة (على) فيه جاءت للتعدية لا أكثر، فهي متعلّقةٌ بفعلِ (جمَعَهم) وليس بالاسم المقدّر خبراً للأداة (كان) كما في آيتنا هنا، أي: (إن كان هو كائناً على الهدى). إنّنا نستطيع مثلاً أن نُحِلّ اسم المفعول (مهتدياً) محلّ شبه الجملة ﴿ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ في آية (العلَق) فنقول: (أرأيتَ إن كان مهتدياً) وكذلك في آيتي (البقرة ولقمان) فنقول: (أولئك مهتدون)، ولكنّنا لا نستطيع أن نفعل ذلك مع آية (الأنعام) وإلاّ لأصبحت (لَجمَعَهم مهتدين)، وليس هو المعنى المراد بالآية، وإنّما تعني (لجمَعَهم ليكونوا في اجتماعهم مهتدين) هكذا في المستقبل وليس في الحاضر (الآن) كما هي الحال في الآيات الثلاث.

٣٨- أمرَ بالتقوى:

هذا التعبير خاصٌّ بسورة (العلق) فلا يتكرّر في غيرها من السوَر، وبدهيٌّ ألاّ نجده في الشعر الجاهلي الذي يخلو أصلاً من اللفظ القرآنيّ (التقوى) كما بيّنّا. ولا وجود للتعبير في الحديث الشريف.

٣٩- كَذَّب وتولّى:

رغم أنّ هذا التعبير يتكرّر في القرآن ثلاث مرّاتٍ؛ فإنّه يقتصر على القرآن وحده، ولا نجده في تراثنا العربيّ قبل الإسلام ولا بعده. ولا أثر للتعبير في الحديث الشريف إلاّ في معرض الحديث عن الآية.

٤٠- ألم يَعلمْ بأنّ:

لا وجود لهذا التعبير في الشعر الجاهليّ. ولكنّ تعدّي الفعل (يَعلم) بالباء حالةٌ تكاد تختصّ بها هذه السورة. ففي ٣٨٣ حالةً من أصل ٣٨٥ من الحالات

التي يتكرّر فيها هذا الفعل مع مشتقّاته في القرآن؛ تعدّى دائماً بنفسه من غير الاستعانة بالباء، كما في هذه الآيات:

- ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [البقرة: ٧٧]

- ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩]

- ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ٤١]

- ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨]

ويُشارك هذه السورةَ في تعدّي الفعل بالباء موقعٌ واحدٌ آخر في القرآن، وذلك قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى ﴾ [يس: ٢٦ – ٢٧]

وفي لغتنا اليوميّة؛ يغلب أن يتعدّى الفعل بالباء لو كان الحديث عن الماضي، ويتجرّد منها لو كان الحديث عن المستقبل، فنقول عن الماضي مثلاً:

هل علمتَ بما حدث؟ ولكنّنا نقول عن المستقبل:

هل تعلم ما يمكن أن يحدث، ولا نقول:

هل تعلم بماذا سيحدث؟ إلاّ أن يكون الفعل هنا بمعنى (تتنبّأ).

وفي آيتَي سورة (يس) ينحصر العلم في الزمن الماضي دون الحاضر أو المستقبل كما هو واضح: ﴿ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى ﴾، فالغفران قد وقع ويتمنّى لو أنّ قومه يعلمون بوقوعه. وهكذا في آية سورة (العلق) فالعلم برؤية الله لا بدّ أن يكون سابقاً، ومن ثمّ يصبح الكفر، مع وجود هذا العلم وسبْقِه، سبباً في التشنيع على أبي جهلٍ وعمله.

وللنحويّين وجهات نظرٍ مخالفةٌ لرأينا حول زيادة الباء في مفعول (علم)، وهم يكتفون بالتفريق بين ما يتعدّى من مشتقّات هذا الفعل إلى مفعولٍ واحدٍ

وما يتعدّى إلى مفعولين، فيرجّحون اطّراد زيادة الباء في النوع الأوّل وندرتها في الثاني. أمّا القرآن الكريم فلم يفرّق بين هذين النوعين في تعامله مع الفعل وأسقط الباء في كلتا الحالين، كما هو ظاهرٌ في الآيات التي استشهدنا بها.

٤١- يَرى:

استعمالٌ قرآنيٌّ خاصّ، لقد جرى العرف اللغويّ على أن يتعدّى فعل الرؤية إلى مفعولٍ واحدٍ على الأقلّ، وربّما إلى مفعولين إن كان قلبيّاً -أي بمعنى (ظنّ)- كما سبق أن رأينا، ولكنّ الفعل لم يتعدّ في هذه الآية إلى أيّ مفعول. ورغم أنّه يتكرّر مع مشتقّاته في القرآن مئات المرّات، وتعدّى في معظمها، بطريقةٍ أو بأخرى، إلى مفعول، فإنّه التزم بفاعله ولم يتعدّ إلى أيّ مفعولٍ، أو ما يقوم مقامه، في أربع آياتٍ فحسب، منها هذه الآية.

٤٢- أنّ اللهَ يَرى:

تعبيرٌ قرآنيٌّ خاصّ. وبدهيٌّ ألاّ نجد عند الجاهليّين كثيراً من صفات الله تعالى، رغم أنّ لفظ الجلالة يرِد في أشعارهم ما لا يقلّ عن (٢٥٣) مرّةً، ولكنّ بعض هذه الأشعار تتحدّث عن "رؤية" الله تعالى، كما في قول الفَنْد الزّمانيّ (ت٩٥ ق.ه):

قــد رآنـــا اللهُ أَوْلَى منكـــمُ بالـيــدِ العُليــا ولله الخِيـــارْ

ومع ذلك، فإنّ التعبير القرآنيّ يطلق رؤية الله تعالى؛ إذ لم يخصّصها بتعدية الفعل إلى مفعولٍ محدِّد ما، كما رأينا، ممّا جعل التعبير مميَّزاً وخاصّاً بالقرآن الكريم.

٤٣- لم ينتهِ:

يميّز هذا الفعلَ هنا أيضاً إطلاقيّتُه، فهو لم يتعدَّ، كما أَلِفناه، إلى ما هو مطلوبٌ أن يُنتَهَى عنه، وقد اعتادت العرب أن تُعدّيه دائماً بحرف الجرّ (عن)، كما في قول الأسود بن يَعْفُرَ النهشليّ (ت٢٣ ق.ه):

لا يَنتهُون الدَّهر عن مولىً لنا ....

ولكنّ القرآن الكريم يخالف هذا العرف اللغوي في ١٤ موضعاً على الأقلّ من مختلف السوَر، ومنها هذه السورة.

٤٤- لئنْ لم ينتهِ:

يتعدّد ورود التركيب ﴿ لَئِن لَّمْ ﴾ في الشعر الجاهليّ، ولكنّنا لا نجد فيه، ولا فيما بعده من الشعر، هذا التعبير الزجريّ ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ رغم وروده ٦ مرّاتٍ في القرآن الكريم بصيغٍ مختلفة، منها قوله تعالى:

- ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦]

- ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يس: ١٨]

ولا وجود لهذا التعبير في الحديث النبويّ.

٤٥ – لنَسفَعاً:

هذه حالةٌ أخرى من حالات (إطلاق الفعل) في السورة، ورغم ذكر موضع السّفع بعد ذلك، وهو الناصية، الذي قد يرمز إلى المسفوع نفسه، فإنّ خلوّ الآية من ذكر المسفوع يمنحها خصوصيّةً تميّزها عن لغتنا العاديّة.

٤٦- لنسْفَعاً:

هذا تفرّدٌ إملائيٌّ – لغويّ، إذ حلّت الألِف محلّ نون التوكيد في آخر الفعل، ولا يتكرّر هذا في القرآن، ولا نجده في الشعر الجاهليّ، وإن أورد ابن النحّاس في كتابه (إعراب القرآن) شطراً لشاعرٍ لم يذكر اسمه [الشاهد ١٧٣] ولكن من الواضح أنّه يعود إلى الحقبة الإسلاميّة كما يمكن أن نتبيّن بسهولة:

.... ولا تَحمَدِ الشّيطانَ واللهَ فاحمَدا

ورغم أنّ للشعر ضروراته، وهي قاعدةٌ عريضةٌ تُدخِل تحت مظلّتها الكثير من المخالفات اللغوية التي ارتكبها الشعراء مستمتعين بهذه الحصانة الدبلوماسيّة الخاصّة، فإنّ النثر كان بعيداً دائماً عن مثل هذه الامتيازات.

ومن المهمّ الإشارة إلى أنّ نون التوكيد قد ظهرت لفظاً في القراءة القرآنيّة للفعل (لَنسفَعاً) فقرأناها هكذا (لَنسفعن) على حين اختفى لفظها كلّياً من الفعل الذي استشهد به النحّاس، فالحالتان مختلفتان إذن، ولا سيّما أنّ الفعل في الآية جاء مضارعاً، أمّا شاهد النحّاس فهو بصيغة الأمر.

٤٧- أنّ اللهَ يَرى.. لنَسفَعاً:

هذا التفاتٌ آخر في السورة انتقل فيه الخطاب فجأةً من الغائب (هو) في قوله تعالى ﴿ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ إلى المتكلّم (نحن) في قوله (لنسفعن) رغم أن الفاعل في كلا الفعلين عائد على الله تعالى.

٤٨- بالناصية:

إذا كان الفعل (سَفع) بمعنى (لطم) أو (وَسم) أو (سَوّد) أو (أَذَلّ)، كما تذهب معظم التفسيرات، فيتوقّع المرء أن يتعدّى إلى مفعوله بنفسه، شأن هذه الأفعال كلّها، فيقول: (لَنسفعنْ ناصيته). ولكنّ الفعل اكتسب هنا خصوصيّةً قرآنيّةً أخرى بتعدّيه إلى مفعوله بحرف الباء، بغضّ النظر عن وظيفة هذه الباء هنا.

٤٩- لَنسفَعاً بالناصية:

تختصّ السورة بهذا التعبير فلا يتكرّر في غيرها من السوَر. وهو، إلى ذلك، تعبيرٌ لم يعرفه شعر العرب ولا نثرهم، لا قبل القرآن ولا بعده، ولم يعرفه الحديث النبويّ أيضاً.

٥٠- بالناصية. ناصيةٍ:

رغم أنّ المدرسة الكوفيّة في النحو لم تُجِز إبدال النكرة من المعرفة إلاّ بشرط وصفها، لأنّ الوصف أو الإضافة يخفّفان من تنكيرها، كقولنا:

عدتُ من المدرسةِ مدرسةِ الخياطة

ورغم أنّ المدرسة البصريّة قد أجازت ذلك النوع من البدل من دون أيّ شرطٍ، فإنّ الشواهد على لجوء العرب لهذا النوع من البدل، خارج القرآن الكريم، عزيزةٌ نادرة، وأندر منها أن يكون المبدَل منه مجروراً لفظاً كما جاء هنا (بالناصية) ولكن منصوباً محلاًّ، كما عرفنا، لأنّه كان في موقع المفعول به قبل زيادة الباء (لَنَسفعنْ ناصيته).

ولكن ما يهمّنا أوّلاً في هذه العبارة، ويجعلنا نضمّها إلى الصيغ اللغويّة الجديدة، هو ذلك الانفصال اللغويّ التامّ بين البدل والمبدل منه بمجيء كلٍّ منهما في آيةٍ مستقلّة.

٥١- ناصيةٍ كاذبةٍ:

هذه الصورة القرآنيّة الجديدة التي تَنسب الكذب إلى الناصية (أي شعر الجبهة) بدلاً من صاحب الناصية (وهو أبو جهل) لا بدّ أنّها قد فاجأت العربيَّ الأوّل، فلم يعرف الشعرُ ولا النثر مثل هذه الصورة، لا قبل القرآن ولا بعده، ثمّ إنّها تقتصر على سورة (العلق) فلا تتكرّر في القرآن، ولا وجود لها في الحديث الشريف.

٥٢- ناصيةٍ .. خاطئةٍ:

وهي صورةٌ مجازيّةٌ جديدةٌ أخرى متفرّعةٌ عن الصورة السابقة، فالخاطئ هو صاحب الناصية وليس الناصية نفسها.

٥٣- ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئة:

تعبيرٌ قرآنيٌّ فريدٌ ومميّز، عن الخطيئة والكذب والجهل، لا نجد مثله أو ما هو قريبٌ منه في الشعر الجاهليّ، ولا بعد ذلك في أيٍّ من صفحات شعرنا أو نثرنا العربيّ، ولا نجده أيضاً في الحديث الشريف.

٥٤- فلْيَدْعُ ناديَه:

فضلاً عن اختصاص سورة (العلق) بهذا التعبير؛ إذ لا يتكرّر في أيٍّ من السوَر الأخرى، فإنّه تعبيرٌ خاصٌّ بالقرآن الكريم، ولا نجده في أيّة صفحةٍ من صفحات تراثنا الشعريّ أو النثريّ قبل الإسلام أو بعده، ولا في الحديث الشريف.

٥٥- فلْيَدْعُ ناديَه. سَندْعُ الزَبانِيَة:

من الواضح أنّ الرابط اللغويّ الذي اعتادت لغتنا البشريّة أن تستخدمه بين مثل هاتين الجملتين مفقودٌ هنا. إنّنا نقول:

فلتُحضِرْ محاميَكَ وسنحضر محاميَنا، أو:

ألقوا أنتم بأسلحتكم وسنلقي نحن بأسلحتنا،

ولا نقول:

فلْتحْضِرْ محاميَك سنُحْضِرُ محاميَنا، ولا:

ألقوا بأسلحتكم سنلقي بأسلحتنا،

إلاّ إذا أردنا أن نحضر محاميَنا قبل أن يُحضر محاميَه، أو أن نُلقي بأسلحتنا قبل أن يُلقوا هم بأسلحتهم، وليس هو المراد. وهكذا نرى الآيَةَ اللاحقة وقد فقدت الرابطَ المعتاد الذي يربطها بالآية السابقة، ولو تُرك الأمر للغتنا لقلنا:

فليدعُ هو ناديَه، وسندعو نحن الزبانية، أو:

وسندعو الزبانية

ومهما تعدّدت أمامنا الخيارات فلن نتخلّى عن حرف عطفٍ يربط بين الجملتين على أقلّ تقدير.

٥٦- سَنَدْعُ الزَّبانِيَة:

وهذه مفاجأةٌ إملائيّةٌ - لغويّةٌ أخرى في السورة، إذ لم يُكتفَ بحذف الواو لفظاً، كما اعتدنا أن نفعل في قراءتنا في مثل هذا السياق -بسبب التقاء ساكنين: الواو والألف- فنلفظها هنا هكذا: (سَنَدْعُزْ)، بل حُذفت كتابةً أيضاً، وهي ظاهرةٌ إملائيّةٌ شائعةٌ في القرآن الكريم، كما سبق أن فصّلنا القول في الجزء الأوّل، وإن كنّا لا نرى أيّة علاقةٍ لحذف الواو هنا بقضيّة التقاء الساكنين؛ بدليل حذف الياء أيضاً في مواضع قرآنيّةٍ أخرى لا يلتقي فيها ساكنان، كما بيّنّا، من مثل قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف: ٦٤]

- ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦]

٥٧- سَنَدْعُ الزَّبانيَة:

من الواضح أنّ العرب لم يعرفوا مثل هذا التعبير القرآنيّ المثير، لا قبل الإسلام ولا بعده، كما لم يعرفه الحديث النبويّ الشريف. وهو، إلى ذلك، تعبيرٌ خاصٌّ بهذه السورة فلا يتكرّر في غيرها من السوَر.

٥٨- فلْيَدْعُ ناديَه.. سندْعُ الزبانيَه:

هذا نوعٌ جديدٌ من الالتفات القرآنيّ، فقد اختُصِر الزمن في الآيتين، وتداخلت الحياة الدنيا بالحياة الآخرة، فحالما يُطلب من الغائب (المفترض أنّه أبو جهلٍ) أن يدعو ناديه في الدّنيا ليمنعه من الله، لو استطاع، يلتفت الحديث فجأةً من الدنيا إلى الآخرة حيث المتكلّم بصيغة الجماعة، وهو ربّ العالمين، يعلن عليه الحُكم ويدعو زبانية جهنّم الغِلاظ، ليبدأوا تعذيبهم له، وهو لمّا يزل في الحياة الدنيا لم يفارقها.

٥٩- فلْيَدْعُ.. سندْعُ.. كلاّ لا تُطِعْه:

هذا من أغرب أنواع الالتفات في القرآن، إن لم يكن أغربها، على الإطلاق. فقد تنقّل الحديث بسرعةٍ عجيبةٍ، وعبر ثلاث آياتٍ قصيرةٍ متوالية، من صيغة الطلب والغائب (فلْيَدْعُ)، إلى صيغة الإخبار والمتكلّم/ المتكلّمين (سندْعُ)، إلى صيغة الطلب والمخاطَب ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ وهو تنقّلٌ سريع الإيقاع، وربّما كانت هذه السرعة من أكثر الأساليب القرآنيّة تأثيراً في نفوس أولئك العرب الذين عايشوا تنزّل السوَر في أيّام الوحي الأولى وأحسّوا في هذا التلفّت اللغويّ السريع إيقاعاً يتجاوز بكثيرٍ إيقاع حياتهم الصحراويّة المتراخية، وكأنّه ينذرهم، بهذا الإيقاع العسكريّ الحادّ، بانتهاء أيّام الاسترخاء والكسل، ويهيّئهم لاستقبال حقبةٍ حضاريّةٍ ذات إيقاعٍ متسارع، لتُحقق في عقدين من السنين ما لم، ولن تحقّقه حضارات البشر على مدى عقودٍ طويلة.

٦٠- واسجُد:

من خصائص هذا الفعل، إلى جانب المعنى الاصطلاحيّ القرآنيّ الجديد الذي يحمله، أن يتعدّى دائماً باللام مرتبطةً بمن يكون السجود له، ومن ذلك قوله تعالى:

- ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ [الإسراء: ٦١]
- ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [الرعد: ١٥]
- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤]

وقد يستغني الفعل عن التَعدية إذا كان سياق الآية يوضّح طبيعة السجود ويَرمز إلى من يُسجَد له، بحيث يحاط الفعل بقرائن للسجود كالركوع والعبادة، كقوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [الحجّ: ٧٧]
- ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]

ولكن الفعل في هذه السورة لم يرتبط بسياقٍ يمهّد له، رغم الحديث عن الصلاة في أواسط السورة ﴿ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾، فقد ظهر الفعل (اُسجُد) أمامنا فجأةً بعد تنقّل الحديث بين موضوعاتٍ شتّى، حتّى انتهى إلى العقوبة التي تنتظر أبا جهلٍ، وإلى الطلب من الرسول ﷺ عدم التساهل معه أو الاستجابة له، ومع ذلك تفاجئنا العودة إلى الحديث عن الصلاة، ويفاجئنا مجيء الفعل من غير تعديةٍ على الإطلاق، وبإلحاقه بفعلٍ آخر لا يرتبط به، من حيث المعنى، ارتباطاً واضحاً ومألوفاً لدينا: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾.

٦١ – واقترِبْ:

لقد استقلّ هذا الفعل عن نظائره بمعنىً جديدٍ لا هو بالزمانيّ ولا بالمكانيّ، كما أسلفنا، ولكنّه استقلّ عنها أيضاً بعدم التعدية إلى غيره.

لقد اعتدنا في استعمالاتنا العاديّة لهذا لفعل أن يتعدّى بحرفَي الجرّ (من) أو (إلى)، ولا سيّما حين نستخدمه للمكان، فنقول:

اقترب القطار من المحطّة، أو:

اقترِب بمقعدك منّي.

وكنّا نتوقّع أن يتلو الفعلَ، حتّى في معناه القرآنيّ الجديد هذا، ما يتعدّى إليه، كأن يكون: (واقترِبْ منّي) أو: (واقترِب إلى الله) ولكنّه تجاوز أعرافنا اللغويّة المعتادة بتجرّده تماماً ممّا يمكن أن يتعدّى إليه.

٦٢– واسجُد واقترِبْ:

لا يتكرّر هذا التعبير في أيّ مكانٍ آخر من القرآن، فهو خاصٌّ بهذه السورة، وهو إلى ذلك خاصٌّ بالقرآن الكريم وحده، فلا نعثر عليه في تراثنا الجاهليّ أو الإسلاميّ، الشعريّ أو النثريّ، حتّى هذا اليوم. ولا وجود له في الحديث الشريف.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- اِقرأ باسمَ ربِّكَ الذي خَلق:

عرفنا سابقاً خصوصيّة استعمال كلٍّ من التعبير ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ ﴾ والتعبير ﴿ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ والتعبير ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾، ولا شكّ أنّ اجتماع هذه الخصوصيّات الثلاث في سبيكةٍ لغويّةٍ واحدةٍ سيجعل منها سبيكةً متفرّدةً خاصّةً بالقرآن الكريم، وربّما خاصّةً بهذه السورة وحدها. ولو عبّرنا عن هذا المعنى القرآنيّ بلساننا لقلنا شيئاً من هذا القبيل:

هيّا واقرأ الكتاب يا محمّد وابدأ بذكر اسم الله الذي خلقك وبني البشر.

٢- خَلَق. خَلَق الإنسانَ مِن عَلَق:

ولو أردنا التعبير بلغتنا الإنسانيّة عن المعنى القرآنيّ لهذه السبيكة اللغويّة الجديدة لقلنا مثلاً:

خلقكَ وخَلق الناس، أو البشر كلّهم، من جُرمٍ صغيرٍ بشكل علقة

٣- اِقرأ وربُّكَ الأكرم:

رغم احتمال هذه السبيكة، بتركيبها الفريد، لأكثر من معنىً؛ فإنّ لغتنا البشريّة يمكن أن تعبّر عن أحد هذه المعاني بشيءٍ قريبٍ من قولنا:

اِقرأ الكتاب يا محمّد واطمئنّ إلى أنّ ربّك هو أكرم من في الوجود

٤- الأكرمُ. الذي عَلَّم بالقلم:

إنّ اجتماع الاستعمال المتفرّد للّفظ (الأكرم)، كما سبق أن رأينا، مع الاستعمال المتفرّد للفعل (علّم)، الذي تجرّد من أيّ مفعولٍ اعتدنا أن يتعدّى إليه، منح هذه السبيكة القرآنيّة خصوصيّةً تميّزها بوضوحٍ عن لغتنا اليوميّة التي كان يمكن أن تعبّر عن هذا المعنى بمثل قولنا:

إنّ ربّك، وهو أكرم ما في الوجود، هو الذي علّم النّاس بقلمه، أو بإرادته أو بعِلمه.

٥- علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلم:

التعبير البشريّ البديل عن هذه السبيكة القرآنيّة، المؤلّفة من تعبيرين قرآنيّين مميّزين، سيكون شيئاً من قَبيل:

لقد علّم النّاس علماً لم يَعلموه من قبل

٦- كلاّ إنّ الإنسانَ لَيَطغَى:

بدهيٌّ أن الاستخدام القرآنيّ المتفرّد للّفظ (كلاّ)، كما مرّ بنا، وللتركيب اللغويّ ﴿ كَلَّآ إِنَّ ﴾، والوضع اللغويّ للفعل (ليطغى)، من شأن ذلك كلّه أن يضفي على هذه السبيكة اللغويّة، ببنائها النحويّ المتفرّد، إلى جانب إيقاعها اللفظيّ، خصوصيّتها القرآنيّة المميّزة.

٧- لَيَطغَى. أن رآهُ استَغنَى:

سنعبّر عن هذا المعنى القرآني، لو انطلقنا من لغتنا البشريّة، هكذا، أو شيئاً قريباً منه:

إذا أصبح الإنسان غنيّاً سيَطغى، أو يَتكبّر، في تعامله مع الناس

٨- إنّ إلى ربِّكَ الرُجعى:

وسنعبّر عن هذا المعنى القرآنيّ بشيءٍ من هذا القبيل:

إنّكم لا بدّ راجعون إلى ربّكم في النهاية

٩- أرأيتَ الذي يَنهى. عبداً إذا صلّى:

إنّ الاستخدام القرآني المميّز للفعل (أرأيتَ) في هذه السبيكة، ثمّ المعنى القرآنيّ الجديد الذي اكتسبته فيها الأداة (إذا)، كما رأينا، وكذلك الفصل بين الفعل

(يَنهى) ومفعوله (عبداً) ليكونا في آيتين لا آيةٍ واحدة، مع تنكير هذا اللفظ الأخير، كلّ ذلك، إضافةً إلى بنية إيقاعها اللفظيّ، من شأنه أن يمنح السبيكة شخصيّتها القرآنيّة المميَّزة.

١٠- أرأيتَ إنْ كان على الهدى:

بناء هذه السبيكة، بكلّ مفرداتها ومواقع هذه المفردات وعلاقاتها الواحدة مع الأخرى، بناءٌ متفرّدٌ وخاصٌّ بالقرآن الكريم، ولو أردنا أن نصوغها بلغتنا التقليديّة لكانت شيئاً من هذا القبيل:

ما قولك، أو ما رأيك، أو ماذا لو ثبَت لك أنّ هذا العبد كان على حقٍّ؟

١١- أرأيتَ إنْ كَذَّب وتولّى. ألم يعلمْ:

إنّ خصوصيّة استعمال كلٍّ من التركيب (أرأيت) والأداة (إنْ) والفعلين (كذّب) و (تولّى)، وكذلك خصوصيّة العلاقة اللغويّة بين الآيتين في هذه السبيكة، وخصوصيّة إيقاعها اللفظيّ، تمنحها فرادةً تستقلّ بها عن سبائكنا البشريّة، وربّما عن السبائك القرآنيّة الأخرى أيضاً.

١٢- كلاّ لئن لم ينتهِ لنَسْفَعاً:

الخصوصيّات العديدة التي تتمتّع بها ألفاظ هذه السبيكة وتراكيبها، ولا سيّما ﴿كَلَّا لَئِن﴾ و ﴿يَنتَهِ﴾ و ﴿لَنَسْفَعًا﴾، فضلاً عن طبيعة العلاقات النحويّة بين هذه العناصر الثلاثة، تمنح السبيكة خصوصيّتها القرآنيّة المميّزة.

١٣- بالناصيةِ. ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئة:

بدهيٌّ أنّ إبدال النكرة من المعرفة في هذه السبيكة، كما أوضحنا سابقاً، والفصل بينهما في آيتين، ثمّ التعبير عن المذكّر (الإنسان الذي يكذّب ويتولّى) بالمؤنّث (ناصية) مع وصف هذه الناصية بصفتين مؤنّثتين أخريين ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾، يجعل منها سبيكةً خاصّةً بالقرآن، فضلاً عن تفرّد السورة بهذه السبيكة دون بقيّة السوَر.

١٤- فلْيَدْعُ ناديَهُ. سنَدْعُ الزبانيَه:

هذه الصيغة القرآنيّة الفريدة، وهي الأمر في الآية الأولى، والردّ على عاقبة هذا الأمر في الثانية: (هو يدعو أزلامه لينصروه ونحن سندعو زبانية جهنّم)، من غير أيّ رابطٍ لغويٍّ بين الآيتين، كما رأينا، إلى جانب تعريف من سيستنجد به الكافر من أزلامٍ ومناصرين، بإضافته إلى الهاء (ناديَه)، والاكتفاء بتعريف (الزبانية) بال التعريف من غير إسنادها إلى ضميرٍ أو اسمٍ يوضّح صاحب هؤلاء الزبانية أو صفتهم أو مكانهم (زبانيتنا، أو: زبانية جهنّم، مثلاً)، كلّ ذلك يجعل منها سبيكةً قرآنيّةً لها خصوصيّتها وتفرّدها.

١٥- كلاّ لا تُطِعْهُ واسجُد واقتربْ:

اجتمع في هذه السبيكة عددٌ من الخصائص القرآنيّة، اللفظيّة والتركيبيّة والتعبيريّة، كالاستعمال الخاصّ للّفظ (كلاّ) ووجود التركيب ﴿كَلَّا لَا﴾ والتعبير ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾، ممّا يجعل منها سبيكةً خاصّةً بالقرآن وحده، وربّما بهذه السورة دون غيرها من السوَر.

رابعاً: اللغة المنفتحة

١- اِقرأ:

إنّ عدم تعدّي هذا الفعل إلى مفعولٍ محدّدٍ من شأنه أن يمنحه ظلالاً غنيّةً بالمعاني، وأن يفتح الباب أمامنا على عدّة احتمالاتٍ لطبيعة هذا المفعول:

فقد يكون أمراً بقراءة القرآن، رغم أنّ القرآن لم يكن قد تنزّل منه بعد، عند نزول الآية، إلاّ هذه الكلمة،

وقد يكون أمراً للرسول بأن يذكر الله، رغم أنّ ردّ الرسول ﷺ حين سمع هذا اللفظ، بقوله: (ما أنا بقارئ) يضعف هذا الاحتمال، إذ لا يعقل أن يرفض ﷺ ذكر الله، كما يرى الرّازي،

وربّما كان أمراً بالتسمية قبل القراءة؛ أي اقرأ ما أُنزل إليك من القرآن مفتتحاً باسم ربّك، وهو أن تذكر التسمية في ابتداء كلّ سورةٍ، كما يرى القرطبيّ في تفسيره،

أو لعلّه أراد: (كن قارئاً بعد أن كنتَ أمّياً لا تقرأ) فيتحوّل الرسول ﷺ بمعجزةٍ من الله، بعد نزول هذه الآية، إلى قارئ.[1]

٢- باسمِ ربّك:

لو كانت الآية هكذا: (ابدأ بسم الله) لما كان هناك متّسعٌ للمناورة في تقدير المعنى المقصود، ولكنّ الابتداء بالفعل (اِقرأ) أعطى شبه الجملة (باسْمِ)، وبشكلٍ أخصّ حرف الباء فيها، عدّة احتمالات:

فربّما كان المعنى هو حقّاً (ابدأ القراءة بذكر اسمه تعالى)،

أو ربّما كان المعنى (ابدأ القراءة مستعيناً به)،

أو ربّما كان (ابدأ القراءة من أجله)،

أو ربّما (ابدأ رسالتك متحدّثاً باسمه ورسولاً منه إلى بني البشر).

وما يزال المقام مفتوحاً لمعانٍ كثيرةٍ أخرى يحملها لنا المستقبل والأجيال المتلاحقة من المفسّرين والعلماء، من غير أن يكون لأحدٍ الادّعاءُ بالتوصّل إلى تفسيرٍ نهائيّ.

---

(١) من المهم أن أشير هنا إلى أنّ هذا المعنى الأخير هو رأيٌ من عندي، ولا أجد بين المفسّرين من قال به. وهو تحرّزٌ منّي أمام القارئ حتّى يكون على بيّنةٍ من أصل هذا الرأي، وسيجد بطبيعة الحال آراءً عديدةً أخرى لي مبثوثةً في هذا البحث، وأنا أصرّ على أنّ القرآن كان وسيظلّ مفتوحاً أمام العصور لينهل المفسّرون منه المزيد من المعاني على اختلاف الأزمنة والأمكنة، على ألاّ تتناقض في هذه المعاني الآيةُ مع الآية، ولا تتعارض مع ما صحّ من السنّة النبويّة الشريفة، ولا مع المنطق اللغويّ، ولا مع روح الإسلام بعامّة.

٣- الذي خَلَق:

إنّ تجريد هذا الفعل من مفعوله منحه أبعاداً لم يكن ليصل إليها فيما لو ذُكر المفعول. وهكذا ذهب المفسّرون في تأويله مذاهب شتّى:

فقالوا: ربّما لا يُقدَّر له مفعولٌ فهو بمعنى: الذي حصل منه الخلق، إذ لا خالق سواه،

وقالوا: ربّما يقدَّر له مفعول، أي: خَلق كلّ شيء،

وقالوا: ربّما كان مبهَماً ولكن فسّره الفعل المشابه الذي تلاه وأُبدل منه، وذلك تفخيماً لخلق الإنسان.

٤- عَلَق:

اقترح المفسّرون عديداً من المعاني لهذا اللفظ، ويعطينا ذلك التعدّد فكرةً عن غنى اللفظ وانفتاحه لاحتمالاتٍ عديدة:

فهو دويبةٌ في الماء تمتصّ الدم، شبّه بها شكل المخلوق الإنسانيّ أوّل الحمل،

وهو أيضاً الطين الذي يعلق باليد، شبّه به شكل التصاق هذا المخلوق الصغير برحم المرأة،

وهو الدم الجامد أو الغليظ، فإن جرى وسال فهو (المسفوح)، شبّه به الشكل الأوّل للمخلوق،

وهو الدم عامّةً، أو هو الدم الشديد الحمرة، شبّه به لون المخلوق،

وهو الخصومة أو المحبّة الملازمتان للمرء فلا تفارقانه، شبّه بهما علوق المخلوق بجدار الرحم،

وهو كلّ ما عَلِق بشيء.

٥- اِقرأ وربُّك:

لنا أن نتوقّع، وقد تكرّر الفعل (اِقرأ) مرّةً ثانية خلال ثلاث آيات، أن يكون هذا التكرار توضيحاً لما لبس علينا من حقيقة القراءة التي افتُتحت السورة بفعلها، فيقال مع الفعل الثاني مثلاً:

اِقرأ آيات ربّك، أو:

اِقرأ كتابنا على الناس، أو:

اِقرأ وردّد خلف جبريل ما يتلوه عليك، أو:

اِقرأ الآن بقدرة الله بعد أن كنتَ أمّياً،

ولكنّنا نفاجأ بأنّ الفعل الثاني قد خلا أيضاً من التعدّي إلى أيّ شيءٍ يمكن أن يجيب عن تساؤلاتنا، فليس أمامنا إلاّ جملةٌ جديدةٌ مبدوءةٌ بواو الحاليّة أو الاستئنافيّة، ولا يمتّ معناها بتحديدٍ كافٍ إلى معنى القراءة: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾.

فهل الكرم هنا هو تعريفٌ آخر لله تعالى الذي يخاطب رسوله لأوّل مرّة، حتّى يكون الرسول ﷺ على بيّنةٍ كافيةٍ من طبيعة خالقه، وصفات هذا الخالق؟

أم هو الكرم الذي تجسّد باختياره تعالى لمحمّدٍ ﷺ دون غيره نبيّاً ورسولاً منه إلى العالمين؟

أم هو الكرم الذي أُسبغ عليه لتوّه وقد غدا فجأةً يقرأ ويكتب بعد أن كان أمّياً؟

أم هو الكرم المتمثّل في تجاوزه تعالى عن جهل عباده فلم يعجّل بعقوبتهم على جحودهم وهو الذي ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾؟

أم هو كلّ هذا وذاك، إلى جانب ما خفي عنّا من أسبابٍ لذكر الكرم في هذا المقام؟

ثمّ اختلفوا في موضع (الأكرم) من الإعراب، فزاد ذلك من فرص المعاني المحتملة:

فهل إعرابها صفةٌ للّفظ (ربُّ) ثمّ تأتي جملة ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ خبراً لذلك اللفظ؟

أم هي خبرٌ له، و (الذي) خبرٌ ثانٍ، أو صفةٌ ثانيةٌ له؟

وهل جملة ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ جملةٌ حاليّةٌ؛ أي: (اقرأ مستعيناً بكرم ربّك)؟

أم هي جملةٌ استئنافيّةٌ، أي: (اقرأ، ثمّ إنّ ربّك هو الكريم على خلقه بأن علّمهم)؟

وبين هذه الاحتمالات جميعاً تتوقّد الكلمة بسعتها، وتَغنى بانفتاحها أمام عقول البشر المختلفة، وعلى مدى العصور المتوالية.

٦- عَلَّمَ بالقلم:

ما يزال المفسّرون على غير رأيٍ واحدٍ في تفسير (القلم) وكذلك (التعليم بالقلم). ومن حقّهم أن يتساءلوا، ومن حقّنا اليوم أن نطرح على أنفسنا مثل هذه الأسئلة ونحن نقرأ الآية:

أيّ قلمٍ هذا القلم، وما نوعه من الأقلام؟

ولماذا اختار تعالى (القلم) للحديث عن التعليم وليس القرطاس أو الكتاب أو القراءة أو الكتابة أو الشرح أو التنزيل أو الوحي أو الإلهام؟

وهل هو القلم الذي ورد في الحديث: "أوّل ما خلق الله: القلم، فقال له: اُكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة، فهو عنده في الذكر فوق عرشه"؟[1]

أم هو قلم الملائكة الذي يحصون به أنفاسنا وأعمالنا، والذين قال تعالى فيهم: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]

أم هو القلم العاديّ في يد البشر يتعلّمون به ما شاء الله لهم أن يتعلّموه، تأكيداً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، ج٥، ص٤٢٤، حديث رقم ٣٣١٩.

وهل جاء ذكر القلم هنا من أجل إظهار الفرق الإعجازيّ بين ما يقع للبشر من تعليم بالقلم، وما وقع للرسول ﷺ من تعليمٍ إلهيٍّ فوريّ للقراءة، ومن غير الحاجة إِلى هذا القلم؟

أم هو إِنباءٌ ربّانيٌّ مسبَقٌ عن الثورة العلميّة والحضاريّة التي تنتظر الجزيرة العربيّة والعالم كلّه قريباً، عقب اكتمال نزول القرآن الكريم؟

وهل كان الجمع الغريب بين (الخَلق من عَلَق) و (التعليم بالقلم) إظهاراً وتوضيحاً (للكرم) الربّاني الذي نقل الإنسان هذه النقلة الهائلة من الدرْك الأسفل للمخلوقات (العلَق) إلى المستوى العلميّ الرفيع بالقراءة والكتابة ليَعلم الإنسانُ ما لم يكن ليَعلمه من غير فضل الله عليه وكرمه؟

أو هو كلّ ذلك معاً، وأمورٌ أخرى تُركت للاّحقين يستدركون بها على السابقين من العلماء والمفكّرين والمفسّرين؟

٧- عَلّم.. عَلّم:

هذان فعلان متشابهان يتعدّيان عادةً إلى مفعولين. أمّا الأوّل فلم يلحقه أيٌّ من هذين المفعولين، وهذا يجعل الاحتمالات مفتوحةً أمام القارئ لفهم طبيعة التعليم وفحواه، وكذلك حقيقة المتعلّم ومن هو. وأمّا الثاني فقد ذُكر مفعوله الأوّل (الإنسان) وهذا قد يلقي أمامنا ضوءاً عن المتعلّم الذي كنّا ما نزال نبحث عن حقيقته بعد قراءتنا لفعل التعليم الأوّل. ولكن حين يأتي المفعول الثاني مع ملحقاته ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ نقف من جديدٍ أمام لائحةٍ طويلةٍ من التوقّعات التي أوحت لنا بها الأداة (ما) هنا -سواءٌ أكانت اسم موصولٍ أم نكرةً تامّةً بمعنى (شيء)-:

فهل المقصود من تعليم الإنسان هو ما علّمه تعالى لآدم حيث قال في سورة (البقرة): ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [٣١]؟

أو هو تعليم الإنسان عامّةً لما يكتشفه كلّ يومٍ من المعارف والعلوم؟

أو هو إرساله الرسل لتعليم البشر ما يجب أن يعرفوه عن خالقهم وهدايتهم إلى الصراط المستقيم؟

أو هو تعليم نبيّه القراءة بعد أن كان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب؟

فلو قال مثلاً: علّم الإنسان القراءةَ أو الكتابة أو اللغات أو الحكمة أو العلوم المختلفة، لكان التعبير مقتصراً على واحدٍ من هذه الأشياء فلا يتعدّاه إلى غيره، ولكن الآية اختُتمت بأجمل وأخصب طريقة: ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

٨- ٩- الإنسان [مكرّر]:

إنّ لفظ (الإنسان) قد نقل المعنى من المحلّية الضيّقة إلى الشموليّة. وفي أوّل رسالةٍ يحملها جبريل من الله إلى رسوله تذهب توقّعاتنا البشريّة، وضمن هذا السياق للآيات، إلى أن يكون الخطاب موجّها إلى الرسول ﷺ بشكلٍ مباشر، هكذا: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ -كما قال له تعالى بعد ذلك في الآية ١٣ من سورة (النساء)- ولكنّه المنهج الربّاني في مخاطبة البشر بهذه الشموليّة المنفتحة على الزمان والمكان والموضوع:

فالتعليم الآن ليس للرسول ﷺ وحده، بل لكلّ الناس،

وليس لزمنه وحده، بل لكلّ الأزمان،

ولن يقتصر على البقعة التي نزل فيها الوحي بل سيشمل قريباً العالم كلّه.

وينطبق هذا أيضاً على لفظ (الإنسان) الذي سيتلو في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾.

١٠- ما لم يَعلم:

عرفنا قبل قليلٍ ما في هذا التعبير من إطلاقيّةٍ تستوعب مختلف المعارف الإنسانيّة على تنوّعها.

١١ إلى ١٣- كلاّ [مكرّر ٣ مرّات]:

وعرفنا في دراستنا لسورة (الهُمَزة) الاحتمالات الكثيرة التي تحتملها هذه الأداة في استعمالاتها القرآنيّة الجديدة، وما يدور حول معانيها من ظلالٍ وألوانٍ تغني العبارات القرآنيّة التي تتضمّنها.

١٤- يَنهَى عبداً:

التنكير وسيلةٌ أساسيّةٌ من وسائل التعبير إذا أردنا أن نمنح لغتنا نوافذ جديدةً من الانفتاح. وباللفظ النكرة (عبداً) نال المعنى استحقاقاتٍ احتماليّةً إضافيّةً ما كان له أن ينالها لو جاء معرّفاً. فالعبد هنا، بتنكيره، لم يعد قاصراً على النبيّ ﷺ وهو يتعرّض إلى الأذى من أبي جهلٍ الذي عاهد نفسه فقال: "لئن رأيتُ محمّداً يصلّي عند الكعبة لأطأنّ على عُنقِه"[١]. بل أضحى حالةً إنسانيّةً عامّةً يمكن أن تتعامل مع أيّ واقعةٍ أخرى مشابهة، أو موازيةٍ لها، على مدى الزمان والمكان.

١٥ إلى ١٧- أرأيتَ الذي، أرأيتَ إن كان، أرأيتَ إنْ كَذّبَ:

عرفنا كيف حُذف المفعول الثاني للفعل (أرأيت) الأوّل، والمفعولان معاً للفعل الثاني، والمفعول الأوّل للفعل الثالث. وهذا الحذف المتوالي للمفعولات يشير إلى هندسةٍ لغويّةٍ جديدةٍ لبناء الجملة أدخلها القرآن على التركيب العربيّ التقليديّ (أرأيت). والبناء الجديد من شأنه أن يمنح الجمل الثلاث آفاقاً إضافيّةً غير محدودةٍ من المعاني، وهي تتأرجح بين الاستفهام والاستنكار والتعجّب والتذكير والتقريع والتحذير والترغيب والترهيب والدعوة إلى الاعتبار، وهذه معانٍ لم يكن ليحملها البناء العربيّ القديم لجملة (أرأيت) لو جرّدناه من هذه الهندسة اللغويّة الجديدة.

ولو كان لنا، على سبيل المثال، أن نقدّر الجزء المحذوف الذي يتمّم الجملة الأولى منها، لقُلنا بعد عبارة ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾:

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٩٦، حديث رقم ٤٦٧٥.

فكيف يأمن هذا الناهي عقابَ الله الذي ينتظره؟ أو:

فهل يظنّ هذا الناهي أنّه قادرٌ على تنفيذ تهديده للرسول ﷺ؟ أو:

فهلاّ نهى الناسَ عن الشرّ والكفر بدلاً من أن ينهاهم عن الخير والعبادة والصلاة!

أو غير ذلك من التقديرات الكثيرة المحتملة.

١٨- كَذَّب:

عرفنا في حديثنا عن هذا الفعل كيف أنّ تجريده من المفعول به قد أكسبه أيضاً قوّةً انفتاحيّةً تجعل التكذيب هنا لا يقتصر على الأنبياء، بل يشمل رسالتهم وما أتوا به من هدايةٍ ودعوةٍ إلى الله وتوحيده.

١٩- بأنّ اللهَ يَرى:

جاءت زيادة الباء في مفعول (يعلم) هنا، كما تبيّنا، خروجاً على الاستعمال القرآنيّ العامّ لهذا الفعل، وعلى الاستعمال التقليديّ في لغتنا اليوميّة أيضاً. ولو أضفنا الظلال الجديدة، التي اكتسبها الفعل بزيادة الباء بعده، إلى المعنى المتّسع والعامّ الذي اكتسبه الفعل (يرى)، بتجريده من التعدية، حين لم يقل مثلاً (يراه) أو (يرى كلّ شيءٍ)، بل تركه مفتوحاً لاحتمالاتٍ لا نهاية لها، لأدركنا قيمة هاتين الظاهرتين اللغويّتين في إغناء التعبير وانفتاحه على أكثر من اتّجاه.

لقد تجاوز الفعل هنا، بزيادة الباء بعده، المعنى العاديّ له، وهو (العلم بأنّ الله قادرٌ على رؤية كل شيء) إلى معنىً أكثر عمقاً ورسوخاً وهو (الإيمان والاعتقاد بهذه الرؤية) فضلاً عن العلم بها، وربّما كانت إرادة هذا المعنى الإضافي الذي اكتسبه الفعل هي وراء زيادة الباء بعده، فكأنّه أراد به: ألم (يؤمن) بقدرة الله على رؤيته وعلى رؤية كلّ شيءٍ في هذا الوجود؟

٢٠- لئن لم يَنتهِ:

تنشأ الخاصّية الانفتاحيّة للفعل (ينتهِ) هنا من حذف ما كان يمكن أن يتعدّى إليه. وكان من شأن وجود المتعدَّى بعده أن يحدّ من تفاعل الفعل مع الخيال، أما الآن فنستطيع، في غياب المتعدَّى إليه، أن نستحضر شتّى أنواع المحظورات والمنهيّات عنها لنملأ هذا الفراغ النحويّ في رؤوسنا، بدلاً من الاكتفاء بواحدٍ منها فيما لو قال مثلاً:

لئن لم ينته عن فعله، أو:

لئن لم ينته عن أذاه، أو:

لئن لم ينته عن منعه من الصلاة..

٢١- لَنسفَعَنْ بالناصية:

هنا أيضاً يتجرّد الفعل (نسفع) من مفعوله، ويتخلّى الاسم (الناصية) عن تعريفه بالإضافة. ومن السهل أن نلاحظ الفرق بين العبارة القرآنيّة وقولنا:

لنسفعنّه بناصيته، أو:

لنسفعنّ ناصيته

لقد خرجت الجملة، بحذف كلا المفعول والمضاف إليه، من حيّز الفرد الضيّق إلى فضاء المجموع، فلم يعد التهديد مقتصراً على شخصٍ واحدٍ في حادثةٍ واحدةٍ في زمنٍ واحد، بل يستغرق كلَّ عاصٍ على هذه الأرض، في أيّةٍ معصيةٍ تُرتكب في حقِّ الله، وفي أيّ زمانٍ أو مكانٍ أو ظرف.

ولا شكّ أن اختيار الفعل (نسفع) لتحديد العقوبة المنتظرة أضفى على تلك العقوبة ظلالاً قاتمةً، فلهذا الفعل عند العرب معانٍ عدّةٌ كلّها يصبّ في محيط التنكيل والعذاب وسوء المصير:

فهو يعني القبض والجذب الشديد،

ويعني أيضاً الضرب واللطم،

ويعني أيضاً تغيير الشمس والحرارة للوجه إلى السواد.

٢٢- ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئة:

عرفنا أن المقصود بالناصية هنا هو صاحب الناصية، وهم مجازٌ بلاغيٌّ من باب إطلاق الجزء على الكلّ، كما يصطلح البلاغيّون، وقد جاء اللفظ هنا "بدلاً" من اللفظ (الناصية) قبله.

ونحن نعرف أنّ البدل يأتي عادةً لتأكيد المبدل منه أو توضيحه أو تحديده، ولو كان البدل هنا معرفةً كالمبدَل منه، كما هي العادة، فجاءت الآية هكذا: (ناصية أبي جهلٍ)، أو: (ناصية المعتدي عليك، أو المؤذي لك) لكان البدل ملبّياً للحاجة التقليديّة إليه، ولكنّه جاء هنا نكرةً موصوفةً بنكرتين متتاليتين ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾، وهذه النكرات الثلاث لا تؤدّي الدور المطلوب من البدل، ولكنّها تؤدّي دوراً آخر شبيهاً بالدور الذي قام به في الموقع السابق حرمانُ الفعل (نسفع) من مفعوله، وتجريد المضاف (الناصية) من المضاف إليه، فنرى هذا الجزء وقد تخلّى عن أن يكون منحصراً في شخصيّة أبي جهل، فتعدّاه إلى كلّ ذي ناصيةٍ؛ أي إنسانٍ، عاصٍ وظالمٍ في هذا الوجود، بغضّ النظر عن زمانه ومكانه ونوع عصيانه وطبيعة ظلمه.

٢٣- الزبانِيَة:

رغم ارتباط هذا اللفظ بال التعريف، فقد جاء أقرب إلى النكرة منه إلى المعرفة. إنّ في جِدّة اللفظ وغرابته على العربيّ الأوّل، كما رأينا، وكذلك تجريده من الإضافة أو الوصف، إذ لم يقل: (زبانية جهنّم) أو: (زبانيتنا) أو: (الزبانية من الملائكة الغلاظ الشّداد) بحيث يصبح هؤلاء المجهولون أكثر تحديداً ووضوحاً،

كلّ ذلك من شأنه أن يمنح اللفظ أطيافاً وأبعاداً خياليةً، لا يمكن أن يسمح بها اللفظ العاديّ أو التقليديّ أو المعرّف تعريفاً حقيقيّاً.

٢٤- واسجُدْ:

قد يكون هذا اللفظ إشارةً مجازيّةً إلى الصلاة نفسها، فهو تشجيعٌ من الله لرسوله على المضيّ في طريقه، والاستمرار في صلاته، والثقة بنصر الله وحمايته، فيكون التعبير بهذا قد استعاض عن الكلّ بالجزء. ولكن ربّما كان استعمال اللفظ حقيقيّاً لا مجازيّاً، فهو يشير إلى السجود نفسه، سجود التلاوة، كما يرى بعضهم، أو أيّ سجود، فيكون السجود على هذا تعبيراً من الرسول ﷺ عن شكره لربّه والاقتراب منه، وهو ما يفسّره الحديث الشريف "أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجد."[(١)]

ولا شكّ أنّ تجرّد الفعل من ذكر الرسول ﷺ صراحةً سيمنحه قوّة انفتاحيّةً إضافيّةً، بحيث يشعر المسلم وهو يقرأه بأنّه موجّهٌ إليه شخصيّاً، وإلى كلّ من آذاه الناس وحاولوا أن يصرفوه عن دينه وعبادته وإيمانه.

٢٥- واقترَب:

ما نوع الاقتراب المراد من هذا اللفظ يا ترى؟ إنّ العلاقة بين اللفظ (اسجد) واللفظ (اقترب) غير واضحة، ولو كانت الآية هكذا مثلاً:

واسجد حتّى تقترب، أو هكذا:

واسجد مقترباً منّي

لتحدّدت تلك العلاقة، ولكنّها تُركت هكذا مفتوحةً لنفهمها بأكثر من طريقة:

فقد يكون اقتراباً إلى الله بالسجود أو الصلاة،

أو قد يكون اقتراباً بشتّى أنواع العبادات، والتفكّر، والثقة بالله، والتوكّل عليه،

أو يكون "سجود التلاوة" الذي يُسَنّ في هذا الموضع من السُّورة،

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص٣٥٠، حديث رقم ٤٨٢.

أو قد يكون حثَّه ﷺ على الاقتراب من الهدف الذي أرسل من أجله للدعوة إلى دين الله،

أو اقتراباً من الناس لتبشيرهم بدين الله ودعوتهم إلى عبادته وتوحيده،

أو قد يكون سجوداً من الرسول ﷺ في صلاته، يليه التفاتٌ قرآنيّ إلى أبي جهلٍ وتبشيره بالاقتراب من النار، كما ذهب بعضهم،

أو كلّ ذلك معاً، مع ما قد يوحي به هذا اللفظ لقارئيه في المستقبل من ظلالٍ وصورٍ وأفكار.

خامساً: جوامع الكَلِم

١- اقرأ:

هذا لفظٌ واحد، هو أوّل كلمةٍ حملها جبريل عليه السلام من الله تعالى إلى رسوله ﷺ وقد غدت بهذا رمزاً في حياتنا اللغويّة والثقافيّة نطلقها عنواناً لمؤسّساتنا الثقافيّة والعلميّة والإعلاميّة، فكأنّها رمزٌ لرسالة الإسلام، نشير بها إلى القيمة التي منحها هذا الدين للثقافة والعلم والتفكير.

٢- خَلَق الإنسانَ مِن عَلَق:

وهذه آيةٌ يمكن أن تعبّر بكلماتها القليلة الأربع عن حقارة الإنسان الذي يتجبّر ويتكبّر حين يصل إلى القوّة أو السلطة أو المال، متناسياً أنّه لم يكن أكثر من علَقةٍ ابتدأ بها وجودُه مثلما ابتدأ وجودُ أيّ مخلوقٍ حيٍّ على وجه الأرض.

٣- عَلَّم الإنسانَ ما لم يَعْلم:

كلّما تقدّم العلم خطوةً إلى الأمام، وتمكّن الإنسان من كشف المزيد من الأسرار التي أودعها الله في هذه الطبيعة من حولنا، عنّت لنا هذه الآية، وانطلق بها لساننا مسبّحاً الله على عظمته، ومعترفاً بنعمه وفضله، وعلمه الذي وسع كلّ شيء.

٤- إنّ الإنسانَ لَيطغَى:

هذه آيةٌ نستطيع أن نختصر بها مشهداً كاملاً لرجلٍ آتاه الله مالاً أو سلطاناً فنسي فضل الله عليه، وعتا عن أمر ربّه، وعاث في الأرض ظلماً ومعصيةً وفساداً.

٥- إنّ إلى ربِّكَ الرُجْعَى:

وهي آيةٌ تذكيريّة نطلقها ونحن نعظ أنفسنا أو نعظ غيرنا حين نواجه مغريات الحياة أو شدائدها، فنردّدها مطامنين من جموحنا، أو مهدّئين من روعنا، أو معتبرين بنهايتنا الحتميّة المنتظرة.

٦- ألم يعلم بأنّ اللهَ يَرى:

كثيراً ما نبحث عن مثل هذه الآية لتنقذنا ونحن نبحث عن العبارة المناسبة للإعلان عن غضبنا واحتجاجنا، وربما عن إشفاقنا، على شخصٍ نسي، وهو يعيث فساداً وعلوّاً في الأرض، أنّ له ربّا يراقبه ويحاسبه على ما يرتكبه في حقّه وحقّ العباد.

٧- الزبانِية:

أصبح هذا اللفظ جزءاً من قاموسنا السياسيّ، فغدونا نطلقه على رجال الأمن أو الشُّرَط من أعوان كلّ سلطةٍ أساءت استعمال قوّتها وانحرفت عن الصراط، فظلمت العباد وأفسدت البلاد.

السورة الحادية والعشرون

سورة التين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

هذه هي السورة العشرون في الترتيب التراجعيّ الذي اتّبعناه في دراسة سوَر القرآن الكريم، وهي، مع الفاتحة، الحادية والعشرون والأخيرة بين قصار السوَر المدروسة.

تتألّف السورة من ٣٤ لفظاً، وسنقف في هذه الألفاظ، وفيما يربطها بعضها ببعضٍ من علاقاتٍ لغويّةٍ ونحويّةٍ وبلاغيّة، وما أضافته إلى اللّغة العربيّة من مصطلحاتٍ وتراكيب وسبائك ومعانٍ وصور، عند ما لا يقلّ عن ٥٩ موقعاً جديداً أضافتها إلى حياتنا اللغويّة.

وتستقلّ السّورة عن غيرها من سور القرآن الكريم بما لا يقلّ عن ١٣ موقعاً لغويّاً، هذا إذا استثنينا السبائك التي لا نجد بين أيدينا الوسائل التقنيّة التي تمكّننا من إحصاء كثيرٍ منها وتوثيق تكراره أو عدم تكراره في القرآن، ممّا يؤكّد للسّورة، شأن سائر السّوَر، شخصيّتها اللغويّة الـمميَّزة.

وتتوزّع المواقع اللغويّة الخاصّة بالسورة بين ستّة ألفاظ: (التّين، سينين، الأمين، تقويم، سافلين، يكذّبك) وستّة تعبيرات: (والتّين والزّيتون، البلد الأمين، أحسن تقويم، أسفل سافلين، فما يكذّبك بعدُ، يكذِّبكَ بالدّين).

وسندرس المواقع الجديدة، كما انتهجنا، تحت خمسة عناوين، هي: الألفاظ والمصطلحات، والصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة، والسبائك اللغويّة، والمواقع المنفتحة، وجوامع الكلِم.

أوّلاً: الألفاظ والمصطلحات:

١ إلى ٤- التّين والزّيتون وطور سينين:

لا نستطيع أن نتحدّث عن هذه الألفاظ الأربعة منفصلةً، رغم أنّ لكلٍّ منها قصّته ووضعه المخالف لبقيّة الألفاظ. وربّما لا يجد القارئ غرابةً في تصنيفنا للّفظين الأخيرين (طور، وسينين) بين الألفاظ الجديدة في القرآن، ولكنّني أتوقّع أن يمطّ شفتيه ويُحدّ عينيه وهو ينظر إلى اللفظين الأوّلين (التّين، والزّيتون) وقد أدرجناهما بين الألفاظ الجديدة!

والحقّ أنّ العرب قد عرفوا هذين اللفظين، وعرفوا الثّمرتين، فأكلوا التّين، واستخدموا زيت الزّيتون واصطبغوا بصباغه وأضاؤوا مصابيحهم منه وداووا مرضاهم به. ولكنّ المفسّرين اتّجهوا في تفسيرهما اتّجاهاتٍ قد تفاجئنا جميعاً، وسنلمّ بتفاصيلها عند حديثنا عن المواقع المنفتحة في السورة، وحسبنا أن نذكر هنا أنّهم رأوا فيهما، وفي اللفظين الآخَرين، اصطلاحاتٍ ورموزاً لأشخاصٍ أو مواقع أو أحداثٍ تاريخيّةٍ تغطّي مساحةً كبيرةً من تاريخ النبوّة والأنبياء في منطقة الشّرق الأوسط.

وكان أحدث ما قدّمه المفسّرون من تأويلاتٍ لهذه الألفاظ هو ما ذهب إليه الإمام محمّد عبده (ت١٩٠٥م) في تفسيره لجزء (عمّ)، حيث وقف عند هذه الألفاظ وقال ما خلاصته:

"إنّ الله يذكّرنا بأربعة فصولٍ من كتاب الإنسان الطّويل:

(فالتّين) إشارةٌ إلى عهد الإنسان الأوّل (آدم) فإنّه كان وزوجته (في الجنّة) يخصفان عليهما من ورق التّين..

و(الزّيتون) إشارةٌ إلى عهد نوحٍ حين أرسل طيراً (من سفينته) فرجع إليه يحمل (البشرى) غصناً من شجر الزيتّون..

و﴿طُورِ سِينِينَ﴾ حيث (الجبل الذي كلّم الله موسى عليه) إشارةٌ إلى عهد الشريعة الموسويّة وظهور نور التّوحيد في العالم بعدما تدنّست جوانب الأرض بالوثنيّة..

ثمّ منّ الله على البشر ببداية تاريخٍ ينسخ جميع تلك التّواريخ، وهو عهد ظهور النّور المحمّديّ من مكّة المكرّمة ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾.(١)

وفضلاً عن ذلك فإنّ لفظ (الطُّور) ولفظ (سينين) هما من الألفاظ التي لم يعرفها الشعر العربيّ، أو على الأقلّ ما بين أيدينا من هذا الشعر. صحيحٌ أنّنا نجد لفظ (الطّور) مرّةً واحدةً عند الشاعر العربيّ اليهوديّ السموأل بن عادياء (ت٦٤ ق.هـ)، ولكنّنا، مرّةً أخرى، نشكّ، وربّما أكثر من مجرّد شكّ، في صحّة نسبة الأبيات إليه؛ لما فيها من روحٍ وألفاظٍ إسلاميّةٍ ومسيحيّةٍ تخالف ما عند اليهود من عقائد، إذ لا يؤمنون بالمسيح عليه السلام الذي يصفه السموأل بـ (مسيحنا)، ولما فيها كذلك ممّا يخالف ثقافة الجاهليّة، من رقّة الأسلوب وليونة الألفاظ، كما يمكن أن يتبيّن القارئ العاديّ لها، بَلْهَ الناقدَ الممحّص:

ألسْنا بني الطُّور المقدّس والّذي	تَدخْدَخَ للجبّـــار يومَ الزلازلِ
ومِن هيبةِ الرّحمـــن دُكَّ تَزلزُلاً	فشرّفَه الباري على كلّ طـائلِ
وناجى عليه عبــدَه وكليمَـــهُ	فقدَّسَنا للــربِّ يــومَ التُّباهلِ
وفي آخرِ الأيّامِ جــاء مسيحُنا	فأهدى بني الدّنيا سلامَ التّكاملِ

وعلى حين يتكرّر اللفظ (طور) عشر مرّاتٍ في القرآن الكريم فإنّ اللفظ (سينين) يقتصر على هذه السورة فلا يتكرّر في غيرها، ولا نجده في الشعر

(١) عبده، محمد. **تفسير القرآن الكريم "جزء عم"**، القاهرة: مطبعة مصر، ط٣، ١٣٤١هـ، ص١١٩.

الجاهليّ، ولا في الحديث الشريف. ثمّ إنّ السورة تختصّ وحدها بلفظ (التّين) دون لفظ (الزّيتون) الذي يتكرّر في أربعة مواضع أخرى من القرآن.

٥- الأمين:

رغم تكرار هذا اللفظ ١٤ مرّةً في القرآن فإنّ سورة (التّين) هي وحدها التي استُخدمَ فيها بمعنى اسم الفاعل (آمِن) أو بمعنى اسم المفعول (مأمون) رغم أنّه جاء على صيغة الصفة المشبّهة (فعيل).

لقد كان العرب، حتّى نزول السورة، يقولون (فلانٌ أمين) و (بلدٌ آمنٌ أو مأمون) ولا يُقال (بلدٌ أمين)، كما قالوا (سيفٌ أمينٌ) أي قويٌّ وقاطع. ويتبيّن لنا بعض هذه المعاني من خلال الاستعمالات الأخرى للّفظ في القرآن الكريم، وكذلك من خلال الاستخدام المكثّف له في أشعارهم قبل الإسلام، كما في هذه الأبيات:

أميناً على ســرِّ النّســاءِ وربّما   أكــونُ على الأســرارِ غيرَ أمينِ

زهير بن جناب الكلبيّ (ت٦٤ ق.هـ)

عَجِلْتُــمْ علينا حِجّتين عليكـمُ   وما يشــأ الرحمنُ يَعقِدْ ويُطلِقِ

هو الكاسرُ العظمَ الأمينُ وما يشأْ   مِــنَ الأمـرِ يجمعْ بينهُ ويفرِّقِ

سلامة بن جَندل (ت٣٢ ق.هـ)

وَدَعــا بمُحكَمَةٍ أميــنٍ سَكُّها   مِــــن نَسْــجِ داودٍ أبي سَلّامِ

الأسود بن يَعفُر النّهشليّ (ت٢٣ ق.هـ)

فاستُخدم اللفظ في بيت الكلبيّ لوصف الشاعر لنفسه بأنّه أمينٌ على أسرار النّساء، وفي بيت ابن جندل لوصف الإله القويّ، وفي بيت النهشليّ لوصف نسج الدرع المتين، فهو أمينٌ أي دقيقٌ ومُحْكَم، فلم يتجاوز اللفظ في الاستعمالات الثلاثة معنى الصفة المشبَّهة.

أمّا في الحديث الشّريف فهو، على تكراره الكثير، لا يتعدّى أيضاً المعنى المعروف له عند العرب، كما يمكن أن نلاحظ في الأحاديث التالية:

- ألا تأمنوني وأنا أمينُ مَن في السّماء، يأتيني خبرُ السّماءِ صباحاً ومساءً؟[1]

- لكلّ أمّةٍ أمينٌ وأمينُ هذه الأمّةِ أبو عُبَيدةَ بنُ الجرّاح[2]

- لأَبعَثَنَّ إليكم رجلاً حَقَّ أمينٍ حَقَّ أمين[3]

- الصّائمُ المتطوّعُ أمينُ نفسِه، إنْ شاءَ صامَ وإنْ شاءَ أفطَر[4]

٦- تقويم:

هذا لفظٌ خاصٌّ بهذه السورة وحدها، وهو، إلى ذلك، يحمل معنىً لم يعرفه العرب له قبل القرآن، على ندرة استعمالهم لهذا اللفظ، إذ لا نجده في الشّعر الجاهليّ إلاّ مرّةً واحدةً عند علقمة الفحل (ت٢٠ ق.هـ) وقد استخدمه بالمعنى اللغويّ المجرّد له، وهو الاستقامة، أي عكس الانحناء أو الانعطاف، كما يتّضح لنا من سياق البيت، وهو يصف فيه مِقبض القوس (العجْس):

وفي الشّمالِ مِنَ الشّريان مُطعَمُهُ   كَبْداءُ في عَجْسِها عَطْفٌ وتقويمُ

أمّا اللّفظ القرآنيّ فهو يحمل أبعاداً أخرى تخرج به إلى آفاقٍ غير محدودةٍ من المعاني، كما سوف نفصّل القول عند حديثنا عن المواقع المنفتحة.

ولا وجود للّفظ في الحديث الشّريف.

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٢، ص٧٤١، حديث رقم ١٠٦٤.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص١٥٩٢، حديث رقم ٤١٢١.

(٣) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٨٢، حديث رقم ٢٤٢٠.

(٤) البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**، مرجع سابق، ج٤، ص٢٧٦، حديث رقم ٨١٣٣.

٧- رددناه:

لم أعثر على هذا اللفظ فيما بين أيدينا من الشعر الجاهليّ، واستعماله في هذه الآية يمكن أن ينفتح، كما سوف نرى، على عدّة معانٍ، خلافاً لاستعماله في المرّة الوحيدة الأخرى التي تكرّر بها في القرآن، وهي قوله تعالى:

- ﴿ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [القَصص: ١٣]

أي (أرجعناه). وفي الحديث الشّريف لا يتجاوز اللفظ المعنى المعروف له، أو معنى الإجابة عن السؤال أو الكلام، كما نتبيّن في الأحاديث الآتية:

- .. إنّ اللهَ قبض أرواحَكم حين شاء، وردَّها عليكم حين شاء[1]
- .. فقالتِ الأنصارُ: رَددْنا على رسولِ اللهِ رأيَه[2]
- .. إنّما منَعني أنْ أرُدَّ عليكَ أنّي كنتُ أصلّي[3]

مَن سمعَ رجلاً يَنشُدُ ضالّةً في المسجدِ فلْيَقُلْ: لا رَدَّها اللهُ عليكَ[4]

٨- سافلين:

تختصّ سورة (العلق) بهذا الجمع الغريب فلا يتكرّر في غيرها من السوَر، ولا نجده كذلك في تراثنا الشعريّ الجاهليّ. وموضع الغرابة فيه أنّه ليس جمعاً للّفظ (أسفل) الذي سبقه، فهذا الأخير يُجمع على (أسافل) مثل (أفضل وأفاضل) و (أكرم وأكارم)، ولا يبقى إلاّ أن يكون جمعاً للّفظ (سافل) وهو لفظٌ لم يعرفه الشعر الجاهليّ كذلك، ونحن نجمعه اليوم على (سَفَلَة) وليس على (سافلين).

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٢١٤، حديث رقم ٥٧٠.

(٢) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٩٩، حديث رقم ١٤٧٨٧.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٤٠٧، حديث رقم ١١٥٩.

(٤) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص٣٩٧، حديث رقم ٥٦٨.

إنّه إذن، ليس من الجموع القياسيّة العاديّة، وهو أيضاً من الألفاظ التي يستقلّ بها القرآن الكريم، كما تستقلّ به هذه السورة.

ولا يَرِد اللفظ في الحديث الشريف إلاّ في معرض الإشارة إلى هذه الآية.

٩- آمنوا:

عرفنا في سورة (العصر) ثمّ في سورة (البيّنة) جدّة هذا الاصطلاح واقتصاره على القرآن الكريم الذي فرّق به بين من اتّبع الرسول ﷺ ومن نكص عن دعوته.

١٠- الصالحات:

كما عرفنا في السورتين المذكورتين الاستعمال القرآنيّ الجديد لهذا الجمع، واختصاصه به لفظاً ومعنىً.

١١- ممنون:

رغم احتمال هذا اللفظ لأكثر من معنىً، كما سوف نرى في حديثنا عن المواقع المنفتحة، فإنّ الشعر الجاهليّ يخلو منه تماماً، كما يخلو منه الحديث الشّريف.

١٢- يكذّبك:

خصوصيّة هذا الفعل المضعّف تقتصر على هذه السورة وحدها؛ إذ لا يتكرّر، بهذا الاستعمال، في أيّة سورةٍ أخرى، رغم ورود الفعل ١٧٧ مرّةً في القرآن.

ويمكن أن نتبيّن طبيعة هذه الخصوصيّة لو قارنّا بين معناه هنا ومعناه في الآية التالية:

- ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١]

فالفعل (كَذّبوا) في آية (الفرقان) يعني (أنكروا) أمّا في آية (العلَق) فقد ارتبط بمفعوله (الكاف) ولكنّ هذا المفعول هو بمعنى الفاعل، فالضمير (ك) هو المفعول إعرابيّاً، إلاّ أنّه في المعنى يعود على الذي يكذِّب وليس على الذي يكذَّب، ويكون

المعنى على هذا: (ما يجعلك تكذِّب بالدّين؟)، وهي من أغرب العلاقات النحويّة في لغة القرآن الجديدة.

ولا نجد الفعل في تراثنا بهذه العلاقة النحويّة المتطوّرة وهذا المعنى الإضافيّ الجديد (يجعله يكذِّب) الذي اكتسبه هنا، لا قبل القرآن ولا بعده، ولا في الحديث الشريف.

١٣- بالدّين:

سبق أن تحدّثنا عن هذا اللفظ عند تحليلنا لآية ﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ من سورة (الفاتحة)، وعرفنا المعنى الاصطلاحيّ الجديد الذي يحمله، ولا سيّما إذا فُسِّر بأنّه يوم الحساب، وهو واحدٌ من معانٍ عدّةٍ يمكن توجيه اللّفظ إليها.

١٤- أحكَم:

هذا اسم تفضيلٍ من الفعل الثلاثيّ (حَكَم) بمعنى (عَدَل) أو بمعنى (كان حكيماً) أو بمعنى (أتقن الصنع) أو بمعنى (ساد وتولّى الأمر). ولا نعرف لاسم التفضيل هذا استعمالاً في تراثنا الجاهليّ يحمل أيّاً من هذه المعاني، كما لم نعرف له مثل هذه الاستعمالات بعد ذلك إلى يومنا الحاضر، ولكنّنا نجده مرّتين على الأقلّ في الحديث الشّريف:

- .. وكان أَحكَمَ الرّجُلين[1]

- قال موسى: يا ربِّ أيُّ عِبادِكَ أَحكَمُ؟ قال: الذي يَحْكُمُ للنّاسِ كما يَحكُمُ لنفْسِه[2]

١٥- الحاكمين (لفظٌ جديد):

وهو أيضاً لفظٌ خاصٌّ بالقرآن الكريم، فلم يُستخدم هذا الجمع في الشعر الجاهليّ ولا فيما بعده، وإنّما قالوا: (الحكّام) أو (الحكماء) أو (المحكّمون). ولا نجد اللفظ في الحديث الشّريف.

---

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢٩، ص١٦٥، حديث رقم ١٧٦٢٥.

(٢) البستي، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، مرجع سابق، ج١٤، ص١٠٠، حديث رقم ٦٢١٧.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

١- ٢- والتّين، والزّيتون:

يكثر في القرآن الكريم افتتاح السّوَر بالقسم، وغالباً ما يقع هذا القسم بما لم يعهده البشر من مُقْسَماتٍ بها، كالسماء والأرض والنّهار والليل والشّمس والقمر والنجوم والطارق والفجر والضّحى والعصر والبلد والوالد والولد والنّفس والعاديات واليوم الموعود والشّاهد والمشهود، وغيرها من المُقْسَمات التي كانت تفاجئ العرب من غير شكّ وهم يسمعونها لأوّل مرّة، بما فيها من جدّةٍ وغرابةٍ على أسماعهم، ومن خروجٍ على أعرافهم اللغويّة والثقافيّة، ثمّ ما لبثوا أن فقدوا، مثلما فقدنا نحن اليوم، الإحساس بغرابة هذا النوع من القسم، إذ ما فتئوا، وما فتئنا منذ الطفولة، نكرّر آياته صباح مساء، فقتلت الألفة والزمن كلّ ما كان يمكن أن يثيره لدينا مثلُ هذا القَسَم من شعورٍ محتمَلٍ بالغرابة والجدّة.

ولكنّ القَسَم بثمرةٍ عاديّةٍ جدّاً كثمرة التّين، ثمّ بالزّيتون بعدها مباشرةً، سيكون له موقعه الخاصّ من الغرابة عند العربيّ الأوّل، ولا سيّما حين لم يكن يدري بادئ ذي بدءٍ ما يحمله القسم بهاتين الثمرتين من معانٍ رمزيّةٍ اقترحها لهما المفسّرون فيما بعد، وما يزالون يقترحونها إلى اليوم، كما سبق أن مهّدنا، وكما سنرى بتفصيلٍ أكثر أثناء حديثنا عن المواقع المنفتحة في السّورة.

وقد يتكرّر القسم نفسُه أكثر من مرّةٍ في القرآن، ولكنّ القسم بالتّين والزّيتون اقتصر على هذه السّورة وحدها دون باقي السّوَر.

٣- التّين والزّيتون:

بدهيٌّ ألاّ نجد هذا الثنائيّ المؤلّف من اجتماع هاتين الثمرتين في تعبيرٍ واحدٍ، وفي مثل هذا السياق النحويّ، في تراثنا الجاهليّ أو الإسلاميّ، شعره أو نثره، ولا في الحديث الشريف، وهو لا يتكرّر في القرآن الكريم في غير هذا الموضع.

٤- طُور سِينين:

تعبيرٌ آخر لم يعرفه تراثنا الجاهليّ أو الإسلاميّ حتّى اليوم، واقتصر على سورة (التّين)، فلم يتكرّر في غيرها من السّوَر، ولكنّنا نجده على نمطٍ لغويٍّ مختلفٍ (طُور سَيناء) في سورة (المؤمنون):

- ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾ [٢٠]

ولا وجود لهذا التعبير في الحديث الشّريف.

٥- وهذا البلد:

هذا نمطٌ مختلفٌ من القَسَم أيضاً لا نعهده في تراثنا الشعريّ أو النثريّ حتّى الآن. ولا يتكرّر هذا القسم في غير هذه السّورة، ولا وجود له في الحديث الشّريف.

ومن الواضح أنّ تميّزه يأتي من أن المقْسَم به جاء اسمَ إشارةٍ (هذا) متّصلاً مباشرةً بحرف القسم، أو العطف، وهو (الواو) من غير ظهور فعل القَسم قبله. ولعلّ أقرب أنواع القسَم القرآنيّ إلى هذا التركيب، رغم بعض الاختلافات، هو قوله تعالى في آيةٍ أخرى:

- ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ [البلد: ١]

فقد جاء المُقسَم به هنا اسم إشارةٍ أيضاً (هذا) ولكنّ فعل القسم، خلافاً لآية (التّين)، مذكورٌ في الآية (أُقسم)، وجاء هذا الفعل مسبوقاً بـ (لا)، مع اقتران المُقسَم به (هذا) بحرف الباء (بهذا).

٦- البلد الأمين:

تعبير آخر من التعبيرات الخاصّة بالقرآن الكريم، بل الخاصّة بهذه السّورة وحدها. ولا وجود له في الحديث الشّريف.

٧- لقد خَلقْنا:

لا شكّ أنّ العربيّ قد فوجئ وهو يسمع هذا التعبير لأوّل مرّة، مثلما فوجئ حين سمع مطلع كلٍّ من سوَر (النّاس والفلق والإخلاص) التي ابتدأت بفعل الأمر: (قُلْ). ولا شك أنّ هذه الثقة غير العاديّة التي ينطلق منها الخطاب في الآية: (نحن خلقنا) من شأنها أن تدفع العربيّ الأوّل إلى التفكير والبحث عن الأسس والحقائق والقوّة المتفوّقة التي تشكّل الخلفيّة غير المنظورة لهذه الثقة.

٨- خَلقْنا الإنسان:

تشارك سورةَ (التين) سوَرٌ أخرى في هذا التعبير نفسه، ولكنّه يبقى مع ذلك تعبيراً قرآنيّاً لا نجده، ولا ينبغي أن نجده، في تراثنا الشعريّ أو النثريّ، قبل الإسلام أو بعده، ولا في الحديث النبويّ طبعاً.

٩- أحسن تقويم:

بغضّ النظر عن المعاني المتعدّدة التي يمكن أن يحملها هذا التعبير، يظلّ صيغةً خاصّةً بالقرآن الكريم، فلا نجدها في تراثنا قبل الإسلام أو بعده، شعراً أو نثراً، وإلى اليوم. والتعبير خاصٌّ بهذه السورة فلا يتكرّر في غيرها، ولا وجود له في الحديث الشّريف.

١٠- خلقنا .. ردَدْناه:

لنضعْ أنفسَنا مكان العربيّ الأوّل وهو يسمع هذه السّورة لأوّل مرّة: لقد سمع أوّلاً الفعل (خلقنا) فماذا يمكن أن يتوقّع بعد فعل (الخَلْق) من كلام؟ ربّما الحديث عن (إحكام الخلْق)؟ نعم، ولقد حدث هذا حقّاً: ﴿ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾، ثمّ الحديث، ربّما، عن النِّعَم التي أنعم بها الخالق على هذا المخلوق الجديد، ثمّ الحديث، ربّما، عن جحود هذا المخلوق وإنكاره لنِعَم الخالق، ولكن آخر ما يمكن أن يخطر في باله هو أن يتحدّث الخالق عن إعادة المخلوق إليه، أو إلى المصير الذي ينتظره عنده، والأغرب من كلّ ذلك أن يكون الحديث عن هذه

الإعادة بصيغة الفعل الماضي وليس المضارع، وكأنّ عمليّة الإعادة قد تمّت حقّاً، وإذن فمن حقّ من يسمع الآية الآن أن يتفقّد نفسه ويتحسّس رأسه متسائلاً: أما زلتُ موجوداً على سطح هذه الأرض، أم أنّ هذه الحياة هي مجرّد حلم؟!

إنّ المقابلة بين الخلق والارتداد، والتعبير عن هذا الارتداد بالفعل الماضي، بغضّ النظر عن طبيعة هذا الارتداد، وكأنّه أمرٌ قد حصل وانتهى لكلّ بني البشر، مواجهةٌ مع الحقيقة الحتميّة بعودة كلّ مخلوقٍ إلى خالقه، وهي مواجهةٌ حادّةٌ وخارجةٌ عن التوقّعات البشريّة التقليديّة لاستعمال هذين الفعلين ضمن سياقٍ واحد.

١١- أسفلَ سافِلين:

هذا تعبيرٌ تختصّ به سورة (العلق) وحدها، فلا يتكرّر في أيّ موضعٍ آخر من القرآن، ويخلو التراث الشعريّ الجاهليّ منه تماماً، وإن شاع فيما بعد وغدا جزءاً من لغتنا اليوميّة. ولا يرد في الحديث الشريف إلاّ في معرض الإشارة إلى هذه الآية أو الاتّكاء على صيغتها.

١٢- الّذين آمنوا:

كان الحديث حتّى الآن عن الإنسان، وبصيغة المفرد الغائب (هو): (خلقناه هو، رددناه هو)، وستتوقّع الأذن العربيّة التقليديّة أن تسمع بعد ذلك تتمّة هذا السياق، ضمن مضمون الآية التالية له طبعاً، ولكن في صيغةٍ من هذا النوع:

إلاّ من آمن.. فله أجرٌ، أو:

وأمّا من آمن.. فسوف يؤجر.. إلخ

ولكنّ الخطاب قفز فجأةً ملتفتاً من المفرد الغائب (هو) إلى الجمع الغائب (هم): (آمنوا) وهو التفاتٌ من شأنه أن يُحدث في أُذن العربي الأوّل ما يشبه الصدمة الكهربائيّة لمخالفته الإيقاع اللغويّ التقليديّ الذي اعتادت ثمّ توقّعت هذه الأذن أن تسمعه.

وسيتساءل العربيّ الأوّل، كما يمكن أن نتساءل نحن اليوم: كيف يستثنى الجمع من المفرد؟ قد نستطيع استثناء المفرد من الجمع، فنقول:

جاء النّاس إلاّ مصطفى، أو نقول:

صرفت أنواع العملة إلاّ الدنانير،

ولكنّنا لن نقول:

جاء مصطفى إلاّ النّاس، ولا:

صرفت الدينار إلاّ النقود

صحيحٌ أنّ لفظ (الإنسان) هو مفردٌ في اللفظ وجمعٌ في المعنى، ولكنّنا، في لغتنا البشريّة، نراعي عادةً هذه الحقيقة، فنستثني اللفظ المفرد من اللفظ المفرد، أو اللفظ المفرد من اللفظ الجمع، أو، على الأكثر، اللفظ الجمع من اللفظ الجمع، ولكن ليس اللفظ الجمع من اللفظ المفرد كما وقع في هاتين الآيتين.

١٣- إلاّ الّذين آمنوا:

بعد أن تَفاجأ العربيّ الأوّل بإعلان حتميّة عودة المخلوق إلى خالقه، أو انقلابه إلى أسفل سافلين، وإلى درجةٍ عُدّتْ معها هذه العودة، أو هذا الانقلاب، وكأنّهما قد وقعا حقّاً، يواجِه الآن مفاجأةً لا تقلّ وقعاً عن الأولى: الاستثناء!

لقد كان يتوقّع أن يسمع في سياقٍ كهذا، لو حافظنا ما استطعنا على كلمات الآية كما هي، شيئاً من مثل:

أمّا الّذين آمنوا.. فلهم أجرٌ..

أو: ولكنّ الذين آمنوا.. لهم أجرٌ..

ولكنّه سيدهَش الآن بطبيعة الاستثناء! فهل يوحي هذا الاستثناء، للوهلة

الأولى، بأنّ العودة قد لا تكون حتميّةً على كلّ النّاس؟ إنّ الآية تستثني الذين آمنوا، فهل هو استثناءٌ لهم من الموت يا ترى -هكذا سيتساءل العربيّ الأوّل- ومن ثمّ استثناءٌ من العودة إلى خالقهم؟ أم هو استثناءٌ لهم من درجة ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ التي سيؤول إليها سائر النّاس بعد الموت؟ إنّنا نتوقّع أن يظلّ العربيّ في حيرةٍ أمام هذا الاستثناء إلى أن يتمّ جلاء هذه الفكرة في النصوص النبويّة والقرآنيّة الأخرى.

١٤- عمِلوا الصالحات:

سبق أن عرفنا في سورتي (العصر) و (البيّنة) جدّة هذا التعبير وانفراد القرآن به دون باقي تراثنا الشعريّ والنثريّ، رغم تكراره ٥٥ مرّةً في القرآن الكريم.

١٥- فلهم أجرٌ:

لقد حلّ اللفظ (لهم) في القرآن الكريم محلّ (ينالون) أو (يكافَؤون) أو (يعاقَبون) في لغتنا. نقول في لغتنا البشريّة، ونحن نريد التعبير عن هذا المعنى القرآنيّ نفسه:

الذين يعملون عملهم بإتقانٍ سينالون أجورهم كاملةً، أو:

من يعملْ فسوف يحصل على أجره من دون نقصان، أو:

العامل سيُدفع له أجره من غير تأخير

ولن نقول:

الذي يعمل له أجرٌ غير منقوص، أو:

العاملون لهم أجورهم من غير نقصان.

١٦- غيرُ ممنون:

لقد أظهر لنا المثالان السابقان أيضاً، رغم اختلافهما عن لغتنا في الجزء الأوّل منهما، كيف نعبّر بلغتنا اليوميّة عن معنى ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ وكيف يختلف

تعبيرنا البشريّ مثل (غير منقوص) أو (من غير نقصان) عن التعبير القرآنيّ الذي ما يزال إلى الآن خاصّاً بالكتاب الكريم وحده، فلا نعثر عليه في تراثنا العربي، لا قبل الإسلام ولا بعده، ولا وجود له في الحديث الشريف أيضاً.

١٧- يكذّبُكَ بـ:

عرفنا في سورة (الماعون) كيف اختصّ القرآن بتعدية الفعل (يكذّب) بحرف الباء دون الشعر الجاهليّ، وعرفنا كيف يتعدّى هذا الفعل بنفسه، أي من دون الاستعانة بحرف الباء، إذا كان المفعول شخصاً، وكيف يتعدّى بالباء إذا كان المفعول غير ذلك كما هو هنا (الدّين)، وكما في الآية التي جمعت الحالتين كلتيهما:

- ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًاۚ ﴾ [الفرقان: ١٩]

فتعدّى الفعل (كذّب) هنا بنفسه إلى الضمير (كُم) العائد على **المكذَّبين** من البشر، ولكنّه تعدّى بالباء (بما) إلى الأقوال التي كُذِّب بها.

١٨- فما يكذّبكَ:

لأوّل مرّة في هذه السّورة يتوجّه الخطاب إلى المفرد المخاطب (أنتَ). لقد بدأ مجرّداً من أيّ انتماء في آيات القَسَم الثلاث التي بدأت بها السورة (وإن كان القسم عائداً في النهاية على الله تعالى، رغم أنّه لا يوجد في هذه الآيات الثلاث ما يعود صراحةً على المتكلّم، وهو الذات الإلهيّة، فلم يقل مثلاً: أُقسِم بالتّين، أو: إنّي أُقسِم). ثمّ يظهر الضمير فجأةً ولكن في صيغة المتكلّمين (نحن) في الآيتين الرّابعة والخامسة بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ، ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ ﴾. وهنا تتّجه دقّة الحديث اتّجاها آخر بحيث يتركّز الضوء على هذا المخلوق الذي يبدأ الحديث عنه بلفظ الجمع - المفرد الغائب (الإنسان - هو) في قوله تعالى: ﴿ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ ، ثمّ بالضمير المفرد الغائب (هُ) في قوله: (رددناهُ) وكنّا نتوقّع بعد ذلك أن يستمرّ الحديث عن هذا المخلوق بالصيغة نفسها (المفرد الغائب) ولكنّنا نفاجأ به وقد

تحوّل إلى صيغة (الجمع الغائب) في الفعل (آمنوا)، وقد جاء هذا الغائب الجمع استثناءً من ذلك الغائب المفرد كما رأينا.

١٩- ما يكذّبكَ بعدُ:

هذا التعبير الإنكاريّ الخاصّ، المبتدئ باستفهام والمنتهي بظرفٍ منقطع عن الإضافة (بعدُ)، لم يتكرّر في أيّة سورةٍ أخرى من القرآن، ولم يعرفه الشعر الجاهليّ، ثمّ لا نجده بعد ذلك في أيٍّ من صفحات تراثنا العربيّ، شعره أو نثره، حتّى الآن، ولا وجود له في الحديث الشريف.

٢٠- يكذّبُكَ بالدّين:

لقد ارتبط الفعل (يكذّب) هنا، وهو يحمل المعنى الجديد والخاصّ الذي عرفناه له، باللّفظ (الدّين) مع الفصل بينهما بمفعول الفعل (يكذّب)، وهو الكاف. ولكنّ هذا المفعول الأخير، كما رأينا، ليس هو المفعول العاديّ لهذا الفعل، فالمفعول (الكاف) هو، من الناحية العمليّة، فاعلٌ وليس مفعولاً، والتقدير: ما الذي جعلك تكذّب بالدّين.

هذا كلّه يكوّن أمامنا عبارةً تقوم على علاقاتٍ جديدةٍ لهذا الفعل مع مفعوله الأوّل (الكاف) ومع مفعول الثاني، من حيث المعنى، وهو (الدّين)، وهي علاقةٌ لم يعرفها الفعل في تراثنا العربيّ قبل الإسلام أو بعده، ولا الحديث الشريف أيضاً.

٢١- أليس الله بـ:

هذا التعبير يتكرّر مرّتين أخريين في القرآن الكريم خارج هذه السورة، ولكنّنا لا نجد له أثراً في الشعر الجاهليّ، ولا في الحديث الشّريف.

٢٢- أحكم الحاكمين:

تعبيرٌ قرآنيٌّ خاصّ، ويتكرّر مرّةً أخرى في سورة (هود: ٤٥)، ولكن لا وجود له في الشعر الجاهليّ، ولا في الحديث الشريف.

ثالثاً: السبائك اللغويّة

١ – والتّينِ والزّيتونِ. وطورِ سينين:

هذه سبيكةٌ تقتصر على القرآن وحده، وعلى هذه السّورة دون غيرها من السوَر. وبإمكاننا ملاحظة الفرق بين صيغة القسم هذه، وهي مؤلّفةٌ من أربعة ألفاظ: ثلاثةٌ منها تعاطفت بحرف العطف (الواو) وأضيف الرابع (سينين) إلى آخر هذه المعطوفات، وصيغ القسم الأخرى في القرآن، لنتبيّن خصوصيّتها وتفرّدها في البناء والإيقاع، مثلها مثل كثيرٍ من آيات القسم في القرآن، كما في الصيغ التالية، وقد بدأت بها أربع سوَرٍ متتاليةٍ سبقت سورةَ (التّين):

- ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ [الفجر: ١ – ٣]
- ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ [الشّمس: ١ – ٢]
- ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١ – ٢]
- ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضُّحى: ١ – ٢]

ولو أنعمنا النظر في التركيب النحويّ لهذه الصيغ الأربع الأخيرة، لوجدنا لكلٍّ منها خصوصيّته وبناءه النحويّ، ومن ثمّ إيقاعه المختلف، فلا يشبه بناءُ أيٍّ منها أيّاً من أبنية السبائك الثلاث الأخرى، أو سبيكتنا في سورة (التين).

٢– لقد خلقنا الإنسانَ في أحسنِ تقويم:

نستطيع أن نتبيّن تفرّد هذه السبيكة القرآنيّة لو قارنّاها مع أقرب السبائك البشريّة إليها، كقولنا مثلاً:

لقد جعلنا المصنع في أحسن حال

فاللفظ (حال) في جملتنا، والذي حلّ محلّ (تقويم) في الآية، ليس مصدراً،

أمّا (تقويم) فمصدر، ولهذا المصدر وضعه الخاصّ أيضاً، فهو يتأرجح بين الاسميّة، فيكون بمعنى (قامة) أي: (خلقناه في أحسن قامة)، وبين المصدريّة، فيكون بمعنى (بناءٍ) أو بمعنى (حسابٍ وتقديرٍ وإحكام). أمّا لو أردنا إحلال مصدرٍ محلّ الاسم (حال) في جملتنا، فلا بدّ من تغيير بناء الجملة، لتكون شيئاً من هذا القبيل:

لقد جعلنا المصنع ينتج أحسن إنتاج. ولا نقول:

لقد جعلنا المصنع في أحسن إنتاج.

ولكنّ العنصر الأهمّ في تفرّد هذه السبيكة وتميّزها يتركّز في تعدّي الفعل (خلق) بحرف الجرّ (في) المتعلّق بحالٍ مقدّرةٍ قبله أي (خلقنا الإنسان كائناً في أحسن تقويم). فرغم تكرار هذا الفعل في القرآن الكريم ١٨٤ مرّةً لم يتعدّ بهذا الحرف المتعلّق بحالٍ محذوفةٍ إلاّ في هذه الآية وفي آيةٍ واحدةٍ أخرى غيرها، وذلك قوله تعالى:

- ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤]

وربّما تعدّى بهذا الحرف نفسه في آياتٍ أخرى، ولكنّ الحرف يكون هناك بمعنى الظرفيّة فلا يحتاج إلى تقدير حالٍ قبله، كقوله تعالى:

- ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف: ٥٤، ويونس: ٣]

- ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونُس: ٦]

أمّا في لغتنا البشريّة فلا يحتاج هذا الفعل عادةً إلى الحرف (في) ليتعدّى به، إلاّ أن يكون هذا الحرف ظرفيّاً، فنقول:

خلق الله الناسَ مختلفين، أو نقول:

خلق الله النّاس بطبائع مختلفة

فيتعدّى الفعل بنفسه، أو بالباء، وليس بالحرف (في).

٣- ثمّ رددناه أسفلَ سافلين:

لهذه السبيكة خصوصيّتها التي تميّزها عن أيّة سبيكةٍ في تراثنا الجاهليّ أو الإسلاميّ، كما تختلف عن أيّة سبيكةٍ قرآنيّةٍ أخرى، وذلك بصياغتها النحويّة واللغويّة وبنائها الإيقاعيّ الخاصّ، كما رأينا.

٤- إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ:

هذه السبيكة هي من السبائك التي تتكرّر في القرآن، ميزاناً ولفظاً، مرّاتٍ عديدة، ولكنّها ظلّت مع ذلك حتّى الآن، ببنائها النحوي واللغويّ المميّز، قاصرةً على القرآن وحده، ولم تدخل معجمَنا الأدبيّ أو اليوميّ.

٥- فلهم أجرٌ غيرُ ممنون:

وهذه أيضاً من السبائك التي تتكرّر في القرآن أكثر من مرّة، ميزاناً ولفظاً. وعدا عن افتتاحها بشبه الجملة (فلهم) الخاصّ جدّاً بالقرآن الكريم، كما أثبتنا، فإنّ بناءها النحويّ العامّ بناءٌ قرآنيٌّ لا يشاركه فيه شعرٌ أو نثر.

٦- فما يكذِّبُكَ بعدُ بالدّين:

لا تتحقّق خصوصيّة هذه السبيكة القرآنيّة بطبيعة الاستعمال الجديد والمميّز للفعل (يكذّب) وحدها، فهناك أيضاً الموقع المميَّز للظرف المقطوع عن الإضافة (بعدُ) الذي جاء ليفصل بين جزءَين للجملة (يكذّب) و (الدين) لم نعتد انفصال أحدهما عن الآخر في لغتنا، كما لا يتكرّر هذا الفصل في أيٍّ من الحالات الـ ١٧٦ الأخرى التي يتكرّر هذا الفعل بها في القرآن الكريم.

٧- أليس اللهُ بأحكَمِ الحاكمين:

نستطيع أن نتبيّن خصوصيّة هذه السبيكة، وتميّزها اللغويّ والنحويّ، ليس عن سبائكنا البشريّة فحسب، بل عن بقيّة السبائك المقاربة لها في القرآن كذلك،

لوعرضنا أقرب هذه السبائك إليها بناءً، وأجرينا بنظرنا مقارنةً سريعةً بين البنية اللغويّة والإيقاعيّة لكلٍّ منها، كما في الآيات الكريمة الآتية:

- ﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠]
- ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٨، والزُّمَر: ٣٢]
- ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزُّمَر: ٣٦]
- ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي ٱنتِقَامٍ ﴾ [الزُّمَر: ٣٧]
- ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٤٠]

ولو استخدمنا مقياسنا الذي اعتمدناه في هذه الدراسة لنتبيّن الفرق بين سبيكة سورة (التين) والسبائك الخمس الأخرى، وهو يختلف عن، أو لا يتقيّد، بالمقياس العروضيّ كما سبق أن أوضحنا، لوجدنا ميزان الأولى هكذا:

أليس العامل بأعمل العاملين

على حين نجد موازين الآيات الخمس على الشكل التالي:

أوليس العامل بأعملَ بما في أعمال العاملين.

أليس في عملٍ معملٌ للعاملين.

أليس العامل بعاملٍ عملَه.

أليس العامل بعميلٍ ذي انعمال.

أليس ذلك بعاملٍ على أن يُعمِل العَمْلَى.

وهكذا اختلفت موازين السبائك الخمس الواحدة عن الأخرى، وكذلك اختلفت موازينها كلّها عن ميزان آية سورة (التين)، رغم تقارب السبائك الستّ جميعاً فيما بينها.

رابعاً: اللغة المنفتحة

١ إلى ٣- والتّينِ والزّيتونِ. وطورِ سينين:

عرفنا في مطلع دراستنا لهذه السورة أنّ لهذه الألفاظ معانيها الاحتماليّة العديدة، وأنّها شغلت المفسّرين وهم يحاولون إيجاد روابط فيما بينها، من ناحية، وفيما بينها وبين تاريخ البشريّة وتسلسل النبوّة من ناحيةٍ أخرى، كما فعل الإمام محمّد عبده -رحمه الله- في تفسيره، وكما فعل غيره من المفسّرين الّذين سبقوه، فقالوا:

(التّين) هو الجبل الذي عليه مدينة دمشق (قاسيون) حيث يعود المسيح إلى الأرض، و (الزّيتون) جبل القدس حيث الوحي والأنبياء، وقالوا:

هما جبلان بالشّام، وهما بالسّريانيّة: طور تينا، وطور زيتا، وسُمّيا كذلك، لأنّ فيهما منابت التّين والزّيتون، و (سينين) هو الشجر، أو المبارك والطيّب، وقالوا:

منبِت ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ هو مهاجَر إبراهيم، ومولد عيسى ومنشؤه، و (الطّور) هو المكان الذي نوديَ منه موسى، و ﴿ ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ هو مكان بيت إبراهيم، ومولد الرسول ومبعثه، وقالوا:

(التّين) مسجد دمشق و (الزّيتون) مسجد القدس، وقالوا:

(التّين) مسجد أصحاب الكهف، والزّيتون مسجد إيلْيا (القدس)، وقالوا:

(التّين) مسجد نوح المبنيّ على الجوديّ، وقالوا:

هذه محالٌّ ثلاثةٌ بعث الله في كلّ واحدٍ منها نبيّاً من أصحاب الشّرائع الكبار: فالأوّل (محلّة التّين والزّيتون) وهي بيت المقدس حيث بُعث عيسى، والثّاني (طور سينين، أو: سيناء) حيث كلّم الله موسى، والثّالث (البلد الأمين) أي مكّة، حيث بُعث محمّدٌ ﷺ.

والباب ما يزال مفتوحاً لمزيدٍ من التأويلات المقبلة.

٤- في أحسنِ تقويم:

إنّ لفظ (تقويم) هنا، وقد انفردت به هذه السورة كما رأينا، يتّسع لأكثر من معنىً مقترح:

فذهب بعض المفسّرين إلى أنّه (الاستقامة بشكلٍ عموديّ) لأنّ الله خلق الإنسان مستوياً، وخلق بقيّة الحيوان منكبّاً على وجهه،

وذهب آخرون إلى أنّه (استقامة العقل)؛ لأنّ الله خلق الإنسان مهديّاً بالتميز، مؤدّياً للأوامر، مزيّناً بالعقل،

وقال آخرون: إنّها استقامة الشكل، فقد خلقه الله في أحسن صورةٍ وبناء، ولذلك قال بعض الفلاسفة: إنّ الإنسان هو العالَم الأصغر؛ إذ جُمع فيه كلّ ما في المخلوقات.

ولا يمكن التشبّث بمعنىً واحدٍ وإهمالِ ما دونه، حتّى إن استقصينا أقرب المشتقّات إلى هذا اللفظ في القرآن الكريم لنستنير بمعانيها، فهي متنوّعة الدّلالات إلى حدٍّ كبير، كما يمكن أن نتبيّن من قراءتنا السريعة لهذه الآيات:

- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الرّوم: ٢٥]
- ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرّحمن: ٩]
- ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥، وآل عِمران: ٢]
- ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]
- ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البيّنة: ٥]
- ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧]

وأرى أنّ معاني (حسن الحساب والتقدير، والإتقان، والدقّة، والتوازن، والعدل) كلّها يمكن أن تدخل في معاني اللفظ على ضوء ما نرى من معاني مشتقّاته في هذه الآيات.

٥- ردَدْناه:

يحمل هذا الفعل، مستقلاً بذاته، أكثر من معنىً:

فهو بمعنى (أرجعناه): أي أعدناه في هرمه إلى مثل ما كان عليه من الضعف والعجز وهو صغير، أو ربّما وهو علقة، أو هو بمعنى:

(قَلَبناه): أي حوّلناه من حالٍ إلى حال، فغدا تراباً لا قيمة له، بعد أن كان إنساناً في أحسن صورة.

وسياق الآية يقبل أيّاً من المعنيين، فيختلف معنى الآية باختلاف معنى الفعل.

٦- أسفلَ سافلين:

يتغيّر معنى هذا التركيب، ليس باختلاف معنى الفعل (رددناه) فحسب، بل بإمكان تحرّك الذهن في أكثر من اتّجاه وهو يحاول تفسير هذا (الأسفل)، ولهذا قال بعض المفسّرين:

- إنّه أرذل العمر، حين يدرك الإنسانَ الهرمُ ويبدأ بفقدان قواه الجسميّة والعقليّة، وعلى هذا يكون الاستثناء الذي يليه في (إلاّ) منقطعاً عمّا قبله؛ إذ لا يمكن أن نستثني الذين آمنوا من ظاهرة الهرم والضعف والشيخوخة، فهم وغير المؤمنين فيها سواء،
- وقال آخرون: بل هو العذاب وجهنّم، وعلى ذلك يكون الاستثناء بعده متّصلاً، إذ يمكن استثناء المؤمنين من دخول جهنّم،
- وقال آخرون: هو الضلال، فالاستثناء في هذه الحال متّصل أيضاً.

والغريب أنّ ما لم يقل به أحدٌ من المفسّرين، فيما قرأت على الأقلّ، هو أنّ هذه العودة إلى ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ قد تكون الارتداد إلى التراب حيث ينتهي الإنسان كما بدأ: تراباً حقيراً يدوسه الناس والدوابّ، وقد كان من قبل في أحسن

بناءٍ وأجمل صورة. فأمّا المغضوب عليهم فيتحوّلون من التراب إلى العذاب، وهو عذابٌ مقيمٌ يتمنّى أحدهم معه أن يعود تراباً، إذ لم يكن يتصوّر وجود ما هو أسفل وأصعب من أن يكون تراباً: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ [النبأ: ٤٠]، وأمّا الذين آمنوا فيُردّون إلى جنّة أبيهم آدم، لتكون لهم هناك حياةٌ أبديّةٌ و ﴿ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ كما في ختام السورة.

٧- أجرٌ غير ممنون:

يتّجه المفسّرون في فهم هذا التعبير على الأغلب إلى أنّه الخلود في الجنّة، ولكنّهم اختلفوا، مع ذلك، في شرح اللفظ (ممنون)، اختلافاً قد ينعكس على معنى التعبير بكامله. وهكذا ذهبوا في تفسير التعبير مذاهب شتّى، فقالوا إنّه:

الأجر غير المقطوع في الجنّة،

وقالوا: إنّه الأجر غير المنقوص،

وقالوا: إنّه الأجر الذي لا يُمَنّ به عليهم،

وقالوا: إنّه الأجر بغير حساب.

٨- فما يكذّبكَ بعدُ:

رغم أنّ اسم الاستفهام (ما) يستعمل عادةً لغير العاقل، لأنّ اسم الاستفهام الآخر (مَن) هو المختصّ بالعاقل، فإنّ هذا لم يمنع بعض المفسّرين من القول بأنّه هنا بمعنى (مَن)، أي:

مَن يكذّبك يا محمّد بعد كلّ هذا؟

أمّا إذا كانت (ما) لغير العاقل حقّاً فيكون المعنى:

ما قيمة هؤلاء الذين يكذّبونك يا محمّد؟ أو:

ما الذي يجعلك أيّها الكافر تكذّب بالدين.

ورغم ما ذكرناه من المعنى المتميّز للفعل (يكذّبك)، وانفراده بمعنى (يجعلك تكذّب) دون سائر الأفعال المشابهة في القرآن، فقد ذهب الذين يرون أنّ (ما) للعاقل إلى أنّ الفعل هنا جاء بالمعنى التقليديّ له (ينكر رسالتك، أو: لا يؤمن بك). وذهب الزمخشريّ إلى أن المعنى: ما الذي يجعلك كذّاباً، بسبب الدّين وإنكاره، بعد هذه الأدلّة؟

أمّا الظرف (بعدُ) فيكتسب قوّته الانفتاحيّة من قطعه عن الإضافة. فلو قال:

بعد ما سمعت، أو:

بعد ما رأيت، أو:

بعد الآن،

لانحصر الظرف بواحدةٍ من هذه الحالات، ولكنّه الآن يمكن أن يفسَّر بها جميعاً.

وهكذا نجد التعبير بمجمله مبنيّاً على موادّ انفتاحيّةٍ مختلفة العناصر تجعل منه واحداً من أهم المواقع المنفتحة في السورة.

٩- بالدّين:

عرفنا عند دراستنا للآية ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ في سورة (الفاتحة) المعاني المتعدّدة للفظ (الدّين)، وهذه المعاني، التي تتراوح بين الإسلام والقيامة والحساب والدينونة والجزاء، تضيف إلى الآية بمجملها رصيداً جديداً يغني معانيها الانفتاحيّة المحتملة.

١٠- أحكمِ الحاكمين:

تتعدّد المعاني التي يمكن أن يحملها الجذر (حكم) الذي اشتُقّ منه طرَفا هذا التعبير. فمن هذه المعاني (الحكمة) و (الحُكم) و (الإحكام). وقد تعدّدت تفسيرات التعبير القرآنيّ بعدد هذه المعاني، فقالوا:

إنّه خاتمةٌ للسورة جاءت لتطابق مقدّمتها، فقد ابتدأت بالحديث عن (خلْق الإنسان في أحسن تقويم)، وتنتهي الآن بالحديث عن (الإحكام) ودقّة الصنع

والإتقان المتفوّق،

وقالوا: إنّه أحكم الحاكمين قضاءً بالحقّ وعدلاً بين الخَلق،

وقالوا: إنّه وعيدٌ للكفّار بأنّه تعالى يحكم عليهم بما هم أهله، لتكذيبهم الرسول ﷺ.

ويمكن أن يحمل أيضاً معنى (أحكم الحكماء) الذي يعرف كلّ شيء كما لا يعرفه غيره، ويقوم على أمور الخلق بالحكمة الإلهيّة الكلّية.

خامساً: جوامع الكَلِم

١- البلد الأمين:

لقد غدا هذا الاسم ملازماً للبلد الحرام (مكّة المكرّمة) منذ أن أطلقه القرآن الكريم عليها في هذه السّورة.

٢- لقد خَلقْنا الإنسانَ في أحسنِ تقويم:

هذه جامعةٌ من جوامع الكلِم يمكن أن نطلقها في أي موقفٍ يتطلّب منّا أن نعلّق على قوّة الإنسان الجسميّة أو العقليّة، وكذلك ما خلقه الله عليه من كمالٍ أو جمالٍ أو حكمةٍ أو علم.

٣- ثمّ رددناه أسفلَ سافلين:

على عكس الآية السابقة، تتردّد هذه الآية على لساننا ونحن نشاهد نهاية حياة ذلك الإنسان القويّ أو الطاغية أو الكبير أو العالم أو الحكيم، وهو ينتهي إلى خاتمةٍ مؤسفة، أو حين ينتهي أجله ويلقى نهايته المحتومة، فيوارى في مثواه الأخير حيث التراب والفناء.

٤- فما يكذّبك بعدُ بالدّين:

٥- أليس اللهُ بأحكمِ الحاكمين:

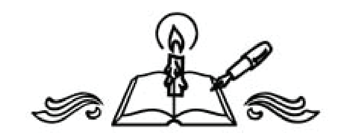
هاتان تسبيحتان قرآنيّتان قد يطلق أحدنا أيّاً منهما حين يسمع بأعجوبةٍ من أعاجيب العلم، وهو يكشف عن معجزات الله في خَلقه، أو يرى حكمَ الله وقضاءه العادل يَنفُذ فيمن ظَلم أو سرق أو اعتدى أو أجرم بحقّ الآخرين.

* * *

وبعد. فإنّني لا أرى ما أختم به هذا البحث، الذي لا أرى لمحيطه الممتدّ شاطئاً، أبلغ من كلمات الزركشيّ في مقدّمته لكتاب (البرهان في علوم القرآن) وهو يصف واقع من يرود آفاق القرآن ويجوب بحاره منقّباً ومكتشفاً:

واعلمْ أنّه ما مِن نوعٍ من هذه الأنواع إلاّ ولو أراد الإنسانُ استقصاءه لاستَفرغ عمرَه ثمّ لم يُحكِم أمرَه، ولكنِ اقتصرنا من كلّ نوعٍ على أصولِه، والرمزِ إلى بعضِ فصولِه، فإنّ الصناعةَ طويلةٌ والعمرَ قصير، وماذا عسى أن يَبلغ لسانُ التقصير.

والحمد لله ربّ العالمين



قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية:

- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد. **المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض: مكتبة الرشد، ط. ١، ١٤٠٩هـ.

- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. **الموضوعات**، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، بيروت: دار الفكر، ط. ١، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م.

- ابن جني، أبو الفتح. **المحتَسَب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.

- ابن خزيمة، محمد بن إسحاق. **صحيح ابن خزيمة**، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.

- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. **الشعر والشعراء**، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٦م.

- ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط.١، (د. ت.).

- ابن هشام الأنصاري، جمال الدين عبد الله بن يوسف. **مغني اللبيب عن كلام الأعاريب**، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٥م.

- الأصبحي، مالك بن أنس. **موطأ الإمام مالك**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ط.)، (د. ت.)

- الأصفهاني، علي بن الحسين. **الأغاني**، تحقيق: سمير جابر، بيروت: دار الفكر، ط. ٢، (د. ت.).

- البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفى ديب البغا،

بيروت: دار ابن كثير واليمامة، ط. ٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

- البستي، محمد بن حبان. **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط. ٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. **إثبات عذاب القبر**، تحقيق: شرف محمود القضاة، عمان: دار الفرقان، ط.٢، ١٤٠٥هـ.

- البيهقي، أحمد بن الحسين. **الأسماء والصفات**، تحقيق: عبد الله الحاشدي، جدة: مكتبة السوادي، ط. ١، ١٤١٣هـ.

- البيهقي، أحمد بن الحسين. **دلائل النبوة**، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، بيروت والقاهرة: دار الكتب العلمية ودار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ، ١٩٩٨م

- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي. **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، (د. ط.)، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

- البيهقي، أحمد بن الحسين. **شعب الإيمان**، تحقيق: محمد بسيوني زغلول، بيروت: دار الكتب العلمية، ط. ١، ١٤١٠هـ.

- الترمذي، محمد بن عيسى. **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، تحقيق: أحمد شاكر، بيروت: دار إحياء التراث، (د. ط)، (د. ت).

- الحسناوي، محمد. **الفاصلة في القرآن**، عمّان: دار عمّار، ٢٠٠٠م.

- حسين، طه. **في الأدب الجاهليّ**، القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠١م.

- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن. **سنن الدارمي**، تحقيق: فواز زمرلي وخالد العلمي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١٠، ١٤٠٧هـ.

- الدرويش، محيي الدّين، **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، دمشق وبيروت: دار اليمامة ودار ابن كثير، ١٩٩٩م.

- الديلمي، شيرويه بن شهردار. **فردوس الأخبار بمأثور الخطاب المخرج على كتاب الشهاب**، تحقيق: فواز أحمد الزمرلي ومحمد المعتصم بالله البغدادي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط.١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

- الرازي، عبد الرحمن بن محمد. **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكة المكرمة: مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، ط. ١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.).

- سبحاني، محمد عناية الله أسد. **البرهان في نظام القرآن**، إسلام آباد: مكتبة الجامعة، ١٩٩٤م.

- السجستاني، سليمان بن الأشعث. **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، (د. ت.).

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد سالم هاشم، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.

- شاهين، عبد الصبور. **تاريخ القرآن**، القاهرة: دار القلم، ١٩٦٦م.

- الشوكاني، محمد بن علي. **فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير**، بيروت: دار الفكر، (د. ت.).

- الشيباني، أحمد بن حنبل. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: دار الرسالة، ط. ٢، ١٩٩٩م.

- الصنعاني، عبد الرزاق بن همام. **المصنف**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: المكتب الإسلامي، ط. ٢، ١٤٠٣هـ.

- الطائي، محمد باسل. **خَلقُ الكون بين العلم والإيمان**، بيروت: دار النفائس، ١٩٩٨م.

- الطبراني، سليمان بن أحمد. **المعجم الأوسط**، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، القاهرة: دار الحرمين، ١٤١٥هـ.

- الطبراني، سليمان بن أحمد. **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، الموصل: مكتبة العلوم والحكم، ط. ٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣.

- الطبري، أحمد بن عبد الله. **ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى**، القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥٦هـ.

- الطبري، محمد بن جرير. **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط. ١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

- عبده، محمد. **تفسير القرآن الكريم "جزء عم"**، القاهرة: مطبعة مصر، ط. ٣، ١٣٤١هـ.

- العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي. **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط. ٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

- العسكريّ، أبو هلال الحسن بن عبد الله. **الفروق اللغويّة**. تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٠م.

- فخر الدين الرازي، محمد بن عمر. **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١٠، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد. **معاني القرآن**، تحقيق: عبد الفتاح اسماعيل شلبي. القاهرة: دار السرور، (د. ت.).

- القرطبي، محمد بن أحمد. **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط. ٢، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

- القرطبي، محمد بن أحمد. **تفسير القرطبي**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ط.)، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

- القزويني، زكريا بن محمد. **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت: دار صادر، (د. ت).

- القزويني، محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دارالفكر، (د. ط)، (د. ت).

- القشيري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ط.)، (د. ت.).

- قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط. ١٠، ١٩٨٢م.

- **الكتاب المقدس**، (د. م.): دار الكتاب المقدس في العالم العربي، ١٩٨١.

- المتقي الهندي، علي بن حسام الدين. **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩م.

- المرادي، الحسن بن قاسم. **الجنى الداني في حروف المعاني**، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٩٢م.

- المروزي، عبد الله بن المبارك. **الزهد**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت.).

- المعافري، عبد الملك بن هشام. **السيرة النبوية**، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت: دار الجيل، ١٤١١هـ.

- النسائي، أحمد بن شعيب. **المجتبى من السنن**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط. ٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

- النيسابوري، محمد بن عبد الله. **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط. ١، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- Asad, Muhammad. *The Message of the Qur`an*. Bristol (England), The Book Foundation. Vol. 5, P: 758

- Islahi, Amin Ahsan. *Pondering over the Qur'an*. translated by M.S.Kayani.London, Alkitab Publications: 2003

- *The Holy Book*. King James Version. Collins' Clear-Type Press. London: 1950

- *Good News for Modern Man* (the New Testament in today's English Version). American Bible Society: 1966

- *The Holy Bible*, Containing The Old and New Testament. Rivised Standerd Version. Division of Christian Education of the National Council of the Churches of Christ in the U.S.A. Great Britain: 1971

- *The Holy Bible*. Trinitarian Bible Society. London: 2000

- Luxenberg, Christoph. *The Syro-Aramaic Reading of the Koran: A Contribution to the Decoding of the Language of the Koran*. English Edition. Germany: 2007

- Murry, Middleton. *The Problem of Style*. Oxford 1960

- *New World Translation of the Holy Scriptures*. Watch Tower Bible and Tract Society of New York. U.S.A. 1981

- *The New Testament of our Lord and Saviour*. Oxford, The University Press: (?)

– *La Sainte Bible* (Traduite sur les textes originaux Hebreu et Grec),Trinitarian Bible Society. London: 1981

– *Die Bibel* (nach der Ubersetzung Martin Luthers). Deutsche Bibelstiftung Stuttgart. Germany: 1982

– *Gute Nachricht Bibel* (Deutsche Bibelgesellschaft). Stuttgart: 2000

محتويات الجزء الأوّل

الكشاف

ص

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ن

هـ

و

ي

